

جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

قسم الفلسفة

فلسفة التاريخ النقدية

عند مونتسكيو

وأثرها في منهج البحث التاريخي

أطروحة قدمها

إلى

مجلس كلية الآداب / جامعة الكوفة

حامد عبد الحمزه محمد علي الجنابي

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة

بأشراف

الأستاذ الدكتور

حسن عبد علي الطائي

أستاذ التاريخ الأوروبي

الحديث

الأستاذ المساعد الدكتور

زيد عباس كريم

أستاذ الفلسفة الأوروبية

الحديثة المساعد

١٤٣٥

٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ].

صدق الله العظيم

(سورة آل عمران الآية ١٤٠)

الإهداء

- إلى من قد ارتاح ضميري في طاعتهما ، وانعم الله علي كثيرا بفضل رضاهما عني ، أبي وأمي رحمهما الله .

- إلى زوجتي وأولادي عرفانا بالجميل .

- إلى الحبيبة الغالية ، التي لم اعرف للحظتي سر حبي الكبير لها . التي طالما اكون ضعيفا امامها ، فكم اغدقتني بعطفها ، فصرت لا احلم بغيرها ، وكم تمنيت ان اضمها وتضمني الى صدرها لأغفو على اذرعها مرنما على اوتارها قصة عاشق مغرم يروم العز والمجد والبهاء لعشيقته ، فأخذ يردد بغداد حبيبتي . الى بغداد اهدي بحثي هذا

- الى العيون التي لم يقصر نظرها ، والعقول التي تطلعت الى الحقيقة فوجدتها .

شكر وعرفان

الحمد لله كثيرا ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد صلواته عليه وعلى اله وأصحابه الغر المنتجبين ، وبعد ...

فانه لمن دلائل العرفان بالجميل ، ان ابتدئ شكري وتقديري بتقديم عظيم امتناني وعرفاني إلى من أحسن الي بعلمه ، وأفادني مما خبره ، وصحح جهدي بما انتقده ، وأرشدني الى غايتي بصبره ، وأجد نفسي عاجزة عن تقييم فضله ، ذلكم هو أستاذي الفاضل الذي اشرف على جهدي المتواضع هذا ، الدكتور زيد عباس كريم ، فجزاه الله خيرا . كما لا يفوتني ان اقدم وبالمشاعر نفسها ، شكري وتقديري الى المشرف الثاني على اطروحتي ،الأستاذ الدكتور حسن عبد علي الطائي ، الذي قدم لي كل ما بحوزته من المعرفة ، ولم يبخل علي في النصح والارشاد .

وأتقدم بشكري وتقديري الى الأستاذ الدكتور نعمة محمد إبراهيم ، الذي كان له الفضل الكبير في اختيار موضوع بحثي . ومن دواعي الإقرار بفضل المعلم الأول ، اقدم شكري وتقديري الى الأستاذ الدكتور عامر عبد زيد الوائلي ، الذي كان معي واسع الصدر في الإجابة عن الإشكاليات التي واجهت مشروعي هذا .

كما أتوجه ، بشكري وتقديري كذلك الى أساتذتي في قسم الفلسفة في كلية الآداب / جامعة الكوفة . وأقدم شكري الفائق ، الى رئاسة قسم الفلسفة في كلية الآداب / جامعة الكوفة ، برئاستيه السابقة والحالية ، لما أبدوه لي من تسهيلات أثناء مسيرتي الدراسية .

ولا يفوتني ان اقدم شكري وتقديري الى الدكتورة زينب مرجان التي مدت لي يد العون ، وغمرتني باحترامها وتقديرها وأسهمت كثيرا فيما أنا به الان .

وكل شكري وتقديري ، الى زملائي في قسم التاريخ ، رئيسا وأعضاء هيأة تدريسية ، في كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة بابل.

كما لا يسعني الا ان اقدم أعلى درجات الامتنان الصادقة والاخوة الدائمة ، الى الناقد والباحث ، فاضل منيف ، الذي فتح لي مكتبته الغنية لأتزود منها بزادي الذي منحني روحية انجاز البحث .

والشكر والتقدير موصول أيضا الى من كان الأول بين زملائي ، في شد ازري وتقوية عزيمتي ، أخي الأستاذ رائد عبيس . وكذلك الأستاذ حسنين جابر الحلو .

وشكري الخالص ، الى زملائي بمرحلة الدكتوراه والماجستير .

وكل الامتنان والتقدير إلى معهد أكد للترجمة الذي قام بترجمة المصادر الأجنبية في أطروحتي .

الباحث هـ

فهرس المحتويات

ت	العنوان	الصفحة
المقدمة		١ - ١٠
الفصل الأول	: مونتسكيو وبواعث الفلسفة النقدية في التاريخ .	١١- ٧٨
المبحث الأول	: حياته وفلسفته	١١-٣١
المطلب الأول	حياته وابرز مؤلفاته	١١ - ٢٠
لمطلب الثاني	فلسفته العامة	٢١ ــ ٣١
المبحث الثاني	عصر العلم وأثره في فلسفة مونتسكيو.................. .	٣٢ - ٥٣
المطلب الأول	نحو رؤية علمية	٣٢ - ٤٣
المطلب الثاني	نحو منهج علمي	٤٣-٥٣
أولا	النزعة الطبيعية وأثرها في البحث التاريخي .	٤٣ - ٤٨
ثانيا	السببية التاريخية.	٤٩ - ٥٣
المبحث الثالث	فلسفة التاريخ في عصر مونتسكيو .	٥٤ ــ ٧٨
المطلب الأول	فلسفة التاريخ في عصري النهضة والتنوير .	٥٤-٦٩
أولا	بواعث فلسفة التاريخ .	٥٤-٦٩
أ	العودة الى الإغريق والرومان ، والشك بالماضي .	٥٤- ٥٦
ب	الحروب الدينية .	٥٦ - ٥٧
ج	رحلات الاستطلاع واكتشاف العوالم الجديدة .	٥٧ - ٥٩
د	الصراع السياسي والاجتماعي .	٥٩ - ٦٠
هــ	أجراس التنوير .	٦٠ - ٦١
ثانيا	فكرة التقدم ودورها الفلسفي في تصورات فلسفة التاريخ .	٦١ - ٦٨
المطلب الثاني	ابرز فلاسفة التاريخ قبل مونتسكيو .	٦٩- ٧٨
أولا	توماس هوبز .	٦٩ - ٧٤
ثانيا	جان بودان .	٧٤ - ٧٨

الفصل الثاني	الروح النقدية في فلسفة مونتسكيو للتاريخ .	١٤٧-٧٩
المبحث الأول	(النظرية البيئية) والتفسير الجغرافي للتاريخ	٧٩ ــ ٩٨
المطلب الأول	أهمية العلاقة الترابطية بين البيئة والتاريخ عند مونتسكيو .	٧٩ ـ ٨٩
المطلب الثاني	عوامل التاريخ البيئية .	٩٠ ـ٩٨
أ-	المناخ .	٩٠ ـ ٩٢
ب -	الأرض .	٩٢ ــ ٩٨
المبحث الثاني	تداعيات النظرية البيئية في فلسفة التاريخ النقدية .	٩٩ ـ ١١٠
أولا	في فوارق الشعوب .	٩٩ ـ ١٠٠
أ	في قوة نسائج أهل الشمال .	١٠٠-١٠١
ب	اختلاف التأثر بالفنون والآداب .	١٠١-١٠٢

ت	اختلاف الحب والعلاقة بين الجنسين .	١٠٣-١٠٤
ث	اختلاف الأخلاق	١٠٤-١٠٦
ج	اختلاف الحاجة إلى التربية الصالحة .	١٠٦-١٠٧
ح	اختلاف العادات والأوضاع في الشرق وتغيرها الدائم في الغرب	١٠٧-١٠٨
خ	اختلاف القوانين ذات الصلة بقناعة الشعوب	١٠٨-١١٠
ثانيا	في الرق المدني .	١١٠ -١١١
ثالثا	في الرق المنزلي .	١١٢-١١٤
رابعا	في العبودية السياسية .	١١٤-١١٦
خامسا	في التجارة .	١١٧-١١٨

سادسا	في السكان .	١١٨ -١١٩
سابعا	في الدين .	١٢٠-١٢٥
المبحث الثالث	التوظيف النقدي في النظرية السياسية .	١٢٦-١٤٨
المطلب الأول	الحرية وتجلياتها في النظرية السياسية .	١٢٦-١٣٧
المطلب الثاني	العقد الاجتماعي .	١٣٨-١٤٨
الفصل الثالث	منهج البحث التاريخي ودلالاته في فلسفة التاريخ النقدية عند مونتسكيو.	١٤٩-٢٢٥
المبحث الأول	منهج البحث التاريخي والياته .	١٤٩-١٧٨
المطلب الأول	إجراءات منهج البحث التاريخي .	١٤٩-١٦٨
أولا	العلوم المساعدة والمعرفة بها .	١٥١-١٥٢
ثانيا	**اختيار موضوع البحث .**	١٥٢-١٥٣
ثالثا	**جمع الأصول والمراجع الموثوق بها .**	١٥٣-١٥٥
رابعا	**نقد الأصول التاريخية واثبات صحتها .**	١٥٥-١٥٧
خامسا	**نقد الأصول وتحري النصوص.**	١٥٧-١٥٨
سادسا	**تحديد مكان وزمان التدوين ومعرفة شخصية المؤلف .**	١٥٩-١٦٠
سابعا	**النقد الباطني الايجابي**	١٦٠-١٦٢
ثامنا	**النقد الباطني السلبي .**	١٦٢-١٦٤
تاسعا	**إثبات الحقائق التاريخية .**	١٦٤-١٦٥
عاشرا	**التركيب التاريخي .**	١٦٥-١٦٨
المطلب الثاني	النظرة الواقعية والعلمية في منهج البحث التاريخي	١٦٩-١٧٩
المبحث الثاني	تطبيقات المنهج التاريخي في عصر مونتسكيو .	١٧٩ - ٢٠٩
المطلب الأول	المنهج التاريخي في عصر مونتسكيو، (كانت) ، موضوعا .	١٧٩-١٩٥

المطلب الثاني	تطبيقات المنهج التاريخي في فلسفة مونتسكيو النقدية للتاريخ .	١٩٥-٢٠٩
المبحث الثالث	النقد التاريخي من خلال نصوصه الثلاثة .	٢١٠-٢١٢
المطلب الأول	رسائل فارسية .	٢١٢-٢١٧
المطلب الثاني	تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط	٢١٧-٢٢٣
المطلب الثالث	روح الشرائع .	٢٢٣ -٢٢٨
الخاتمة		٢٢٩ -٢٣٥
المصادر والمراجع		٢٣٥-٢٤٩

المقدمة

المعروف جدا ان التاريخ يتكون من الوقائع والأحداث والحقائق التاريخية، التي حدثت وظهرت في الماضي مرة واحدة ولن تتكرر أبدا على أساس أن التاريخ يستند إلى عنصر الزمن المتجه دوما إلى الأمام ،دون تكرار أو رجوع إلى الوراء. ولدراسة تلك الوقائع والأحداث أهمية كبرى في فهم ماضي الأفكار والحقائق والظواهر والحركات والمؤسسات والنظم ، وفي محاولة فهم حاضرها والتنبؤ بأحكام وأحوال مستقبلها . نحتاج دائما لفلسفة التاريخ . وترجع اهمية فلسفة التاريخ الى كونها فلسفة تعمد إلى التعليل والتحليل، وتجاوز السرد وحشو الأخبار، وعليه فان مقولات فلسفة التاريخ تختلف اختلافا جوهريا عن مقولات التاريخ، لأنها تتجاوز مقولتي الزمان والمكان إلى ما ورائهما، وهذا ما جعلها عرضة لانتقادات كثير من المؤرخين، ورغم هذه الانتقادات فان فلسفة التاريخ تظل ذات أهمية كبرى في فهم معنى التاريخ ومغزاه ،لذا كان نشوء فلسفة التاريخ تلبية لحاجات فكرية لدى الإنسان، فعهود النكبات والأزمات في التاريخ الإنساني كانت دائما حافزا للتفكير في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل.

وقد تطورت فلسفة التاريخ مع عدة أسماء وعدة نظريات .اذ يأتي في مقدمة المؤرخين الذين اتجهوا إلى تفسير التاريخ لأول مرة المؤرخ الكبير عبد الرحمن ابن خلدون ، الذي تجاوز أخبار الأيام والدول ليستشف حقيقتها ويكشف عن أسبابها والقوانين التي تحكمها ، وقد وصل ابن خلدون ، إلى الاقتناع بفكرة التعاقب الدوري على السلطة. كما وكان اول من منح التاريخ صفة علمية .

وفي أوربا يعتبر هيجل ، أول من تعمق في فلسفة التاريخ ، وتوصل إلى أن المنطق التاريخي يستند في أساسه إلى صراع الأضداد ، وان العقل هوالذي يحكم التاريخ ، وعلى أساس هذه النظرية الجدلية ، بنت الماركسية مذهبها بعد أن ألبست هذا الجدل ثوبا ماديا صرفا فجعلت العامل الاقتصادي هو العامل الأول في تفسير التطور والتغيير لدى المجتمعات وأهملت باقي العوامل الأخرى .

ثم انتشرت في أوروبا نظرية لا تقل أهمية عن النظريتين السابقتين وهي نظرية التقدم التي أكدت أن الصفة الغالبة على سير الحضارة هي التقدم لا التدهور ، وان الحياة تسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من الرقي والازدهار ، وذلك عبر مراحل معينة تختلف خصائصها من عالم لأخر، لكنها تتفق كلها في أن المرحلة اللاحقة فيها تكون أعلى من السابقة وأكثر منها رقيا و تقدما ، والى أن ظهرت أفكار اوزفالد اشبنجلر، التي عبر عنها في كتابه (اضمحلال الغرب) حيث جعل لكل حضارة دورة تبدأ بالنمو فالشباب فالشيخوخة التي يتبعها الفناء ، وأكد أن التاريخ ليس تقدما للإنسانية دائما كما عبر فولتير ، أو تقدما نحو سلام دائم كما توقع(كانت) ، أو حرية للروح كما ظن هيغل ، أو نمو المجتمع بلا طبقات وفق نظرية كارل ماركس.

وقد تنبأ اشبنجلر، في كتابه السابق الذكر إلى أن الحضارة الغربية سائرة نحو السقوط والاضمحلال ، إلا أن توينبي ، رفض هذه الحتمية المتشائمة عن نظرية التعاقب الدوري للحضارات لدى اشبنجلر ، ورأى أن لعجلة التاريخ إيقاعا أساسيا

يتمثل في التحدي والاستجابة والانسجام والعودة ، ويرى أن موت الحضارات السابقة لم يكن قضاءا مقدرا وإنما كان انتحارا.

وما نريد قوله هو أن المواضيع المهتمة بفلسفة التاريخ لم تتوقف لحد الآن ، فهي مازالت متواصلة ، لكنها تختلف من حيث منطلقاتها وأهدافها والأغراض التي أنشأت من اجلها ، وعليه نرى ان اغلب النظريات التي ظهرت كانت بعيدة كل البعد عن المقاييس العلمية الدقيقة ، مطبوعة بالذاتية من جهة ، وبالصبغة الأيديولوجية من جهة أخرى ، مثال ذلك نظرية صدام الحضارات لصمويل هنتغتون ،ونظرية نهاية التاريخ وسقوط الأيديولوجية لفرنسيس فوكوياما ، حيث أكد أن اللبرالية الديمقراطية قد انتصرت بعد سقوط الشيوعية ونهاية الحرب الباردة ، وان هذا الانتصار يشكل نهاية للتاريخ فليس هناك اليوم عند فوكوياما ، أية أيديولوجية يمكنها أن تحل محل التحدي الديمقراطي ، ومن هذا المنطلق يكون قد أغلق باب التاريخ نهائيا ، فلا جديد اليوم وبعد اليوم إلا في حدود بعض الإصلاحات الطفيفة ، وسيستمر تفجر الأحداث ، لكن لن يكون هنا كأي تقدم أو تطور في ما يتعلق بالمبادئ والعقائد والمؤسسات .الا إن الأبحاث في ميدان فلسفة التاريخ لم تتوقف كما نرى ، ولن تتوقف نظرا لارتباطها بحاضر البشرية ومستقبلها ، كما أنها ستظل دائما مثارا للجدل والخلاف ما دامت الحياة مسرح اللأحداث والوقائع ومرتعا للمتغيرات.

لذلك فان باب التاريخ لن يغلق ونافذة الفكر لن تنتهي إلا بزوال الإنسان عن هذه الأرض، أما عن المستقبل فيبقى دائما هناك إمكانية مفتوحة قابلة للتشكل، ولجميع الاحتمالات. فمسارات التاريخ كثيرة، وربما كان هذا ما يسوغ الأعمال والأفكار والأحلام الإنسانية قديما وحاضرا و مستقبلا.

لذلك ظهرت أهمية وحتمية الدراسات التاريخية والبحوث العلمية التاريخية، التي تحاول بواسطة علم التاريخ والمنهج التاريخي أن تستعيد وتركب أحداث ووقائع الماضي بطريقة علمية وفي صورة حقائق علمية تاريخية، لفكرة من الأفكار، أو نظرية من النظريات، أو مدرسة من المدارس، أو مؤسسة من المؤسسات الاجتماعية والإنسانية والسياسية والاقتصادية.

ولدراسة الوقائع والحوادث والظواهر التاريخية، دراسة علمية تعتمد على العقل والمنطق، لا بد من استخدام المنهج العلمي التاريخي . ذلك لانه من الامور البديهية ان تعتبر جميع المناهج أدوات حقيقية لضبط سلوك الأفراد وتحديد الدراسات الاجتماعية ، وسنحاول في هذا البحث التطرق للمنهج التاريخي من خلال احد اهم الشخصيات الفلسفية التي اهتمت بهذين الجانبين . فقد كان مونتسكيو، المفكّر الفرنسي الأول الذي تكلم ، بقدر كبير من الفهم ومن الحس العلمي، على آليات عمل المجتمع الذي عاش فيه، كما و بكثير من الجرأة أيضًا.

ولكي تحقق الدراسة غايتها من الناحية المعرفية والمنهجية ، وجد الباحث ضرورة استخدام المنهج التحليلي النقدي ، بما يتناسب مع طبيعة العنوان ، حيث نذهب الى تحليل النصوص من خلال تفكيكها لمعرفة مكوناتها ومن ثم اعادة بناء هذه النصوص المحللة على وفق مباديء منطق البحث العلمي . ولهذا كانت دراستنا لا تكتفي

بالتحليل او النقد لغرض غير معين ، بل ذهبت الى التحليل والنقد لغرض البناء المعرفي القائم على اعادة بناء النص الابستمولوجي بناءا علميا .

من هنا تاتي اهمية بحثنا هذا ، وذلك عبر معالجة **مشكلته** المتمثلة في النظرية البيئية ، وتداعيتها في التفسير التاريخي عند مونتسكيو ، او كيف تجلت وتجسدت بعقلانية على الواقع الفعلي ؟ فنحاول ان نبين تمظهراتها في فلسفة مونتسكيو، العلمية والواقعية من خلال تأثيراتها في عادات الشعوب وتقاليدها ، ولم يقف الامر على عملية تشريع قوانين وضعية تناسب المجتمع مع بيئته ، بل وذهب الى ان القوانين الطبيعية هي الاخرى قد سنها الله لتناسب بيئة كل مجتمع بأختلاف عاداته وتقاليده . وان ما يلفت انتباهنا في مشكلة البحث ان مونتسكيو ، حمل رؤية علمية جديدة في تفسير التاريخ ، ابتعدت عن كل تفسير غيبي ولاهوتي ، وهذه الرؤية الجديدة ، عندما توافرت كانت تحتاج الى منهج جديد . فعملنا ينصب في ان الرؤية الجديدة التي حملها مونتسكيو ، كيف تجسدت في منهج جديد في البحث التاريخي ؟ وتبقى مشكلة البحث قائمة لدينا ، فبعد ان توفرت الرؤية والمنهج ، كيف كان التطبيق عنده ، فكانت فلسفة التاريخ عند مونتسكيو ، تعني ان يدرس التاريخ على اسس تحليلية نقدية ، يلتزم فيها المؤرخ بنوع من التفكير التاريخي يمكنه من تمييز روايات التاريخ ، بناء على تلك الاسس التحليلية والنقدية ، من اجل تطهيرها من ما يسمى غير المعقول . وهذا ما نسعى لاثباته خلال عملنا في هذه الاطروحة .

ولهذا البحث **اهمية** بالغة ، في انه يوفر للقاريء والمتخصص في الفلسفة والتاريخ ، القراءة العلمية والواقعية عن فلسفة مونتسكيو ، في التاريخ ، وما فلسفة التاريخ النقدية عنده ؟ وكيف مثلها . مع علمنا انه كان من اقطاب التنوير ، ولا سيما وان لهذه الحقبة الزمنية المتداخلة بين النهضة والتنوير ، مكانة مهمة في الفكر في كل ميادينه ، وان مرحلة التنوير التي سوف نتعرف عليها من خلال ابرز روادها ، لوك وروسو وفولتير وديدرو ، وكذلك صاحبنا ، تعد مرحلة تحول في تاريخ البشرية لانها وفرت القراءة الجديدة للتاريخ ، وهذه القراءة اسهمت في تمركز الحضارة الغربية على ذاتها . اذن نحن نحاول تسليط الاضواء على هذه الحقبة الزمنية البالغة الاهمية في تشكيل الحضارة الاوروبية من خلال بحثنا عن دور مونتسكيو ، في تمثيلها ،. كذلك فأننا نسعى الى بيان نمط الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في تلك الحقبة ، والى انواع الحكومات ، والمشاكل التي تعترض طريق تحقيق حرية الانسان ، وابرزها الاستبداد الذي يرافق التسلط في الحكم ، وتكمن اهمية البحث ايضا في ان مونتسكيو ، يقدم لنا صورة متميزة ، عن قراءة واقعية نقدية لشعوب مرت على زهوها وانهيارها قرون طويلة داخل اوروبا وخارجها ، من خلال كتابه (رسائل فارسية) ، وبأستعماله المنهج المقارن في دراسة التاريخ .

وعندما نكون امام مشروع للبحث في اطروحة بذاتها ، كان لا بد وان نلتزم **بحدود** لهذا البحث ، فوجد الباحث ان حدود بحثه هي الثورة العلمية التي سادت عصر النهضة ، وتلك الاكتشافات العلمية التي غيرت من وجه التاريخ ، والتي اجبرت الفلسفة على مواكبتها ، لكي لا تتخلف عن ركب التطور العلمي السريع ، فراح الفلاسفة يسعون بأفكارهم للمشاركة في هذه الثورات العلمية . ونحن ندرس مونتسكيو ، فهذا الامر يشير الى انه عاش

عصر النهضة ، ومن عصر النهضة بزغ عصر التنوير ، وعليه فأن في حدود البحث لا بد من وجود منطقة للعمل وعندما نقول منطقة فهذا يعني انها مساحة يحق لنا التحرك داخل حدودها ، فحدود بحثنا كانت بدأت من عصر النهضة العلمية ، لاننا نريد ان نثبت ان مونتسكيو ، لم يكن الا امتدادا لتأثيرات عصره العلمي ولم يكن بعيدا عن اجواء عصره ، وتنتهي حدود البحث مع نهاية عصر مونتسكيو ، فكان الفيلسوف (كانت ت ١٨٠٤) ، هو نهاية حدود بحثنا ، ونسعى للتحرك بمساحات واسعة ضمن حدود البحث ، لبيان ابرز ارهاصات هذه الحقبة الزمنية ، مع ابرز النظريات او الشخصيات الفلسفية ، التي اهتمت بفلسفة التاريخ والفلسفة العلمية ، وكذلك فأن مساحة العمل اتاحت لنا حرية البحث في النظريات السياسية والاجتماعية ، مثل بحثنا في نظرية العقد الاجتماعي ، ونظرية التفسير الجغرافي للتاريخ والانماط البشرية ، وتناول شخصيات ذات علاقة بموضوع بحثنا مثل ، مكيافللي وهوبز ولوك وروسو وبودان ، وغيرهم من الشخصيات التي ترد ضمن البحث .

لكن ما زال على الباحث ان يجد **فروضا** ، تمثل ثرية العمل في بحثه . وما نسعى لاثباته هو اعتبار التاريخ علم لا يقل شأنا عن العلوم الاخرى ، من خلال انتهاجه لخطوات المنهج الاستقرائي ، ولانه يحوي مادة هائلة فيها الكثير من الاحداث ، واننا نستطيع حصر الظاهرة التاريخية وتجديدها علميا ، وكذلك يمكن صياغة قوانين تساعد على التنبؤ في ضوء التجربة ، وندفع بفرضنا هذا الى الامام مع تبني مونتسكيو ، لهذا المنهج العلمي ، لانه من خلال الواقعية العلمية والنقدية ، قدم لنا دراسة في التاريخ ، اسهمت في ردم الهوة الكبيرة بين الفيلسوف والمؤرخ ، الفيلسوف برؤيته التجريدية ، والمؤرخ في تبنيه المنهج التاريخي ، الذي اعتقد لحقب طويلة انه يغنيه عن قراءة الفلسفة ، وهذا يقودنا الى معرفة ان للفلسفة ، اثرا كبيرا طوال تاريخها في التأثير في المنهج التاريخي ، على مستوى المنهج والرؤية ، وعليه فأن انفصال التاريخ عن الفلسفة لا يعني استغنائه عنها ، وان العلاقة بين المؤرخ والفيلسوف ، تمثل علاقة التكامل ، مما يغني ويحدث اضافة تجعل الرؤية تتطور وتغتني وتجعل المنهج التاريخي اكثر قدرة على نضوج الرؤية ، مما يسهم في عقلنة الخطاب التاريخي ، وجعله اكثر عقلانية ، ومن ثم تظهر لنا صورة حديثة عن التاريخ . ومع ظهور عصر النهضة العلمية ، تناثرت التصورات القديمة عن التاريخ ، ولم يعد مكان للتصورات الاسطورية والغيبية ، وكل التصورات التي كانت تفسر التاريخ على وفق المنهج القديم ، الذي لم يعد يلتقي بالمنهج العلمي الجديد ، بأية حال من الاحوال . الباحث يسعى الى ان يظهر مونتسكيو ، رائدا لفلسفة التاريخ النقدية ، وان يكشف عن صورة ذلك الفيلسوف الذي قرأ التاريخ ، قراءة جديدة ، فيحق لنا ان نعده من كبار مؤرخي العالم ، ذلك بدلالة نصوصه المتعلقة بدراسة التاريخ ، ونذهب الى عده من مؤسسي منهج البحث التاريخي ، لانه ابرز من توافرت لديه الرؤية والمنهج ، لينطلق الى حيز التطبيق ، فيظهر بصورة القاريء والناقد العلمي ، ولم يقف الامر لديه عند هذا الحد ، بل وقدم الحلول لما ينتقده من وقائع تاريخية وعادات وتقاليد ، وهذا ما اصطلح عليه اصحاب المنهج التاريخي (التركيب التاريخي) ، وانه سعى لتطبيق الخطوات الاجرائية في كتابة البحث التاريخي ، فكانت الوثيقة ونقدها داخليا وخارجيا من اوليات منهجه الاجرائي . ولا يفوتنا تقديم مونتسكيو ، بصورة رجل القانون والسياسي ، الذي تأسست استنادا لخطواته العلمية الكثير من القوانين والدساتير

، وربما كان نظام الفصل بين السلطات قد استمده من الدستور الانكليزي ، لكن ما اجراه من تعديل عليه ، كان يحسب له ، وعليه اطلق عليه مؤسس الفكرة في الفصل بين السلطات ، من خلال روح القوانين ، وقد توسعنا في هذا لنسميه الروح النقدية . وهكذا نحاول ، اظهاره بصورته التي وضعناها له ، على وفق بحثنا ، وسوف نتعرف من خلال سير الدراسة في موضوعنا على ما جاء في ثنايا هذا البحث ، وقد تضمن البحث الموسوم (فلسفة التاريخ النقدية عند مونتسكيو واثرها في منهج البحث التاريخي) ثلاثة فصول رئيسة :

الفصل الاول : جاء بعنوان . مونتسكيو وبواعث الفلسفة النقدية في التاريخ . وتضمن ثلاثة مباحث ، كان **المبحث الاول** بعنوان ، حياته وفلسفته ، اذ قمنا من خلال مطلبين بدراسة حياته وابرز مؤلفاته ، ففي حياته تم التوقف عند ابرز المحطات في حياته ابتداء من ولادته في ذلك القصر الحصين بالقرب من لابري الى وفاته في باريس عام ١٧٥٥ ، مع توقفنا عند ابرز المؤثرات في حياته ، مثل جماعة الخطابيين التي كانت تشرف على معهد جويي ، اذ تعلم منهم اصول الخطابة والبلاغة والتاريخ ، ولكي لا نسهب في التقديم هنا لحياته ، فاننا نقول اننا حاولنا تقديم حياته بطريقة جديدة امتزجت فيها حياته الاجتماعية مع حياته الفكرية . وكذلك فاننا في المطلب الثاني قمنا بذكر ابرز مؤلفاته ، ولا يخفى على القاريء ان ابرز مؤلفاته هي نصوصه المشهورة الثلاث وهي (رسائل فارسية ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط ، روح الشرائع) وكذلك بحثنا في ابرز مؤلفاته التي خولتنا بالتصريح انه اهتم بالجوانب العلمية كسائر علماء الطبيعة . اما **المبحث الثاني** ، فقد حمل عنوان ، عصر العلم واثره في مونتسكيو ، وجاء المطلب الاول ، تحت عنوان ، نحو رؤية علمية ، التي سعى مونتسكيو ، من خلالها الى تقديم تفسير علمي للتاريخ من خلال نظريته البيئية ، وفي التطور الملحوظ في مناهج البحث العقلية والتجريبية ، كما درسنا كيف ان وجود مشكلات معينة وتطورها هو من دواعي النظرة العلمية ، لذلك فان ما تفعله المذاهب الفلسفية ، هو التفكير في مرحلة المعرفة العلمية ، ولعل وجود الثغرات الكبيرة في النظام السياسي الفرنسي ، كان من اهم دوافع مونتسكيو، لتتبع اسباب الخلل وتصحيحها ، من خلال اعادة بناء القوانين على وفق مبدأها ، ونلاحظه قد برع في هذا المجال . وركزنا في بحثنا على شخصيات علمية ، منها كوبرنيكوس ، وكبلر ، وغاليلو . وفي المطلب الثاني ، درسنا العنوان الاتي : نحو منهج علمي ، وبينا فيه كيف نستطيع عد منهج البحث التاريخي ، من مناهج البحث العلمي ، وليس بالامكان فصل منهج البحث التاريخي ، عن البحث العلمي ، ومن خلال هذا الترابط تتضح لنا صورة لقاء المنهج بالرؤية ، فالبحث التاريخي يمثل في احد واجهاته ، محاولة الإجابة عن تساؤلات ، هي صناعة الاحداث ، والبحث عن إيجاد قوانين بمختلف أنواعها ، تجعل من قراءة التاريخ عقلانية ومنطقية . فكان المنهج التاريخي بحاجة للبحث العلمي ، وما سوف نقرأه من كتابات مونتسكيو، لجعل المنهج التاريخي ، الذي يعد واحدا من مناهج العلوم الإنسانية ، تابعا لذلك المنهج الذي خضعت له العلوم الطبيعية ، هي خير دليل لكلامنا ، وعليه فان للنزعة الطبيعية اثرا في صياغة المنهج التاريخي ، وكذلك تم البحث في موضوع السببية التاريخية ، لانها من ابرز سمات فلسفة التاريخ . اما **المبحث الثالث** ، الذي حمل عنوان : فلسفة التاريخ في عصر مونتسكيو ، فقد تضمن مطلبين ، الاول كان تحت عنوان : فلسفة

التاريخ في عصري النهضة والتنوير . اما في المطلب الثاني ، فقد تم التعرف على ابرز فلاسفة التاريخ قبل مونتسكيو ، اذ بينا ابرز ارائهم المتعلقة في مجال دراستنا ، ومدى اتفاقها مع فلسفة مونتسكيو، في التاريخ من عدمها .

اما **الفصل الثاني** الموسوم ، الروح النقدية في فلسفة مونتسكيو للتاريخ ، فقد جاء كذلك بثلاثة مباحث رئيسة ، حمل **الاول** ، عنوان النظرية البيئية والتفسير الجغرافي للتاريخ . وفيه مطلبان كان الاول بعنوان : اهمية العلاقة الترابطية بين البيئة والتاريخ عند مونتسكيو . ويعد البحث في هذا المطلب في صميم مشروع بحثنا ، لاننا نحاول بكل ما استطعنا ان نبين نوع تلك العلاقة وما هي تأثيراتها في نمط الحياة داخل المجتمع الواحد . ونركز في دراستنا في هذا المطلب على التساؤل الاتي . هل ان مبدأ الحتمية الجغرافية عند مونتسكيو ، فعلا قد تبلور من خلال نظريته البيئية ، التي اتفقت مع مفهوم النظرية ، وهذا ما نسعى اليه في بحثنا عن الدليل ، إذ حاول الربط بين المناخ والتربة وطبائع البشر. اما المطلب الثاني ، فقد خصص للبحث عن عوامل التاريخ البيئية : وهي المناخ والارض ، وكان مونتسكيو ، يقصد بالنظرية البيئية هذين العاملين ، ونبتغي ان نبين كيف ان مونتسكيو ، كان يرى ان نوع العلاقة بين الفرد والمناخ ، هي التي استند اليها كمسوغا للقول ، بان هذا التاريخ المتمثل أمامنا قد تم تشيده من قبل أناس توفرت لهم مقومات التشييد ، وكان منها المناخ .

اما **المبحث الثاني** ، والذي هو تحت عنوان : تداعيات النظرية البيئية في فلسفة التاريخ النقدية . الا ان هذا المبحث اختلف عن سائر المباحث في الاطروحة ، من ناحية المنهجية حيث تضمن مجموعة نقاط وذلك لتطلب العمل في هذا العنوان مساحات شاسعة ، فقد جاء بسبعة نقاط : وبحثنا فيها تداعيات النظرية البيئية في فلسفة التاريخ النقدية عند مونتسكيو ، أي كيف تجلت وتجسدت في اهم العادات والتقاليد عند الشعوب ، ولا سيما التي كان يسلط الاضواء عليها ، سواء اكان في الغرب ام الشرق .

وفي **المبحث الثالث :** سخرنا الدراسة لموضوع التوظيف النقدي في النظرية السياسية . وتضمن مطلبين ، الاول هو : الحرية وتجلياتها في النظرية السياسية . وبحثنا فيه ، الحرية السياسية عند مونتسكيو، وكيف انها تمثل ألاساس في تكوين الحضارة ، اذ اخذت عنده شرطا لازما ، وهو إن التاريخ يجب أن تحكمه الأسباب العامة . وفي المطلب الثاني ، الذي خصص لموضوع العقد الاجتماعي ، فقد درسنا فيه ، مضمون هذا العقد عند اصحاب التعاقد الاجتماعي ، لوك وروسو وهوبز ، وبينا مدى اتفاق واختلاف مونتسكيو معهم في ارائه عن العقد الاجتماعي ، حيث لم يكن مونتسكيو، يهدف الى وصف الظواهر الاجتماعية والسياسية والقانونية ، وتسجيل عدد كبير من الوقائع الخاصة فحسب ، بل أراد ان يفهم تلك الوقائع والوقوف على أحوالها.

وفي **الفصل الثالث** ، كان لنا وقفة ، من خلال عنوانه وهو : منهج البحث التاريخي ودلالاته في فلسفة التاريخ النقدية . وجاء بثلاثة مباحث رئيسة ، حمل **الاول** عنوان ، منهج البحث التاريخي وواقعيته ، وتكون من مطلبين ، اهتم الاول بأجراءات منهج البحث التاريخي ، وحاولنا من خلال هذا العنوان ان نتتبع الخطوات الواجب اتخاذها من اجل الشروع في كتابة بحث تاريخي ، وهذه الخطوات هي خطوات متفق عليها من قبل اصحاب منهج البحث

التاريخي ، وبطبيعة الحال نحن ندرك جيدا ذلك الاختلاف بين اجراءات البحث كخطوات منهجية ، وبين المنهج التأليفي في الكتابة التاريخية ، وفي الوقت ذاته ، نحاول ان نبين موقف مونتسكيو ، من المنهجين. وفي المطلب الثاني كانت الدراسة في النظرة الواقعية والعلمية في منهج البحث التاريخي . حيث نبتغي بيان ان النظرة الواقعية والعلمية للتاريخ ، تعد التاريخ علما ،حاله حال العلوم الاخرى. واما **المبحث الثاني** فهو بعنوان : تطبيقات المنهج التاريخي في عصر مونتسكيو . وتكون من مطلبين هما ، الاول بعنوان ، تطبيقات المنهج التاريخي في عصر مونتسكيو ، (كانت) ، موضوعا . وفيه تم الوقوف عند اسهامات هذا الفيلسوف الكبير في مجال منهج البحث التاريخي وفلسفة التاريخ ، مع التركيز على اهم المحاور التي اعتمدها في دراسته للتاريخ ، وكان هذا بالمقارنة مع فيلسوفنا ، مونتسكيو ، فذكرنا ما اتفق منها وما اختلف من اراء الفيلسوفين في التاريخ وفلسفته ومنهجه في . وفي المطلب الثاني درسنا ، تطبيقات المنهج التاريخي في فلسفة مونتسكيو النقدية للتاريخ . ونحن بصدد دراسة تطبيقات المنهج التاريخي عنده ، لا بد من الإشارة الى ، إننا سوف نجد تطبيقاته من خلال فلسفته في التاريخ ، لأنه ترجم حالته الوصفية للتاريخ من خلال ما قدمه من أعمال كبرى . وقد استعمل مونتسكيو ، المنهج التاريخي في مؤلفاته جميعها. اما **المبحث الثالث** ، فقد كان بعنوان النقد التاريخي من خلال نصوصه الثلاثة ، وتطرقنا فيه الى الالية التي استعملها مونتسكيو ، في النقد التاريخي ، واستعماله النصوص الثلاثة المعروفة لديه ، ووجدنا اننا ونحن بصدد الخوض في موضوع النقد التاريخي ، لا بد وان نستدعي هذه النصوص المعروفة لديه التي مثلت ثمرة جهد حياة مونتسكيو ، وسوف نتعرف كيف ان مونتسكيو، في منهجه التاريخي ، انطلق من موضوع النقد الفلسفي ، ليشرع في بناء منهج نقد تاريخي وظفه للعمل على إقامة علاقة متينة بين منهج البحث التاريخي والفكر الفلسفي النقدي ، في إطار نظرية حديثة ، تعد اسهاماتها هامة في إطار انطلاقة جديدة في الوصول الى فلسفة تاريخ معبرة بصدق عن حقائق التاريخ وقضاياه . وجاء هذا المبحث في ثلاثة مطالب ، بحثنا موضوع النقد من خلال استعمال النصوص المستقاة من مؤلفاته الثلاثة ، وقد خصصنا لكل مؤلف من مؤلفاته الثلاثة ، مطلبا خاصا به ،كان المطلب الاول ، رسائل فارسية ، والمطلب الثاني ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهوض والانحطاط ، والمطلب الثالث ، روح الشرائع ، وهو العمل الاكثر شهرة والذي كان ملازما لنا في جميع محاور البحث ، وبهذه الخطوة تكتمل فكرة مشروعنا البحثي هذا .

ومن الله التوفيق

الباحث

المبحث الأول : حياته وفلسفته .

المطلب الأول : حياته وابرز مؤلفاته.

تعد حياة مونتسكيو ، حافلة بكثير من المحطات التي استرعت انتباه الدارسيين له ، و "هو شارل دي سوكوندا مونتسكيو ، الذي كان له تأثير كبير ومميز في تطور الدستور الفرنسي" .[١] يعد مفكرا سياسيا واجتماعيا ومؤرخا . وهو ينحدر من أسرة نبيلة عريقة في نبالة السيف ونبالة القضاء. ولد في قصر حصين بالقرب من دي لابريد (LABREDE) بالقرب من بوردو في ١٨ كانون الثاني سنة ١٦٨٩ ، وتوفي في باريس في ١٠ شباط ١٧٥٥ .[٢] " بعد ان عشي بصره كثيراً . لم يتوقف عن التنقل والأسفار" طيلة حياته .[٣] وقد ظل منتميا للطبقة الحاكمة في إقليم موطنه . وقام هناك بجانب أنشطته الأخرى المتعددة – بالأدوار الاجتماعية لمالك الأرض وممثل الطبقة والقاضي .[٤]

عاش عصر التنوير الذي جاء ثمرة لعصر النهضة الأوروبية ، التي شهدت فيها أوروبا تغيرات وأحداثا كثيرة شملت مختلف جوانب الحياة .[٥]

---

١ معلوف ، لويس ، المنجد في الإعلام . مؤسسة انتشارات دار العلم ، ط٢٦، طهران ، (ب،ت) ،ص٥٨٨.

٢ بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج٢ ، سليمانزاده ، ط١ ، قم ، ١٤٢٧ هـ . ، ص٤٨٨ .

٣ طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة ، دار الطلبة للطباعة والنشر ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص٦٥٤.

٤ ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، تر ، عبد الله محمد أبو هشه ، دار الحكمة ،ط١ ، لندن ، ٢٠١٢ ، ص١٣٤ .

٥ ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الجغرافية بين ابن خلدون و مونتسكيو . دار رسلان ، ط١، دمشق ، ٢٠٠٩، ص ١٤٣.

" درس مونتسكيو، من عام ١٧٠٠-١٧٠٥ على الآباء الاوراثوريين في معهد جويي (juilly) ، وكان يشرف على المدرسة جماعة تسمى (جماعة الخطابيين) ، وهي جماعة ذات نزعة متحررة تجديدية ، وتعني اشد العناية بتدريس أصول الخطابة والبلاغة والتاريخ ، ومن هنا نفهم سر ولع مونتسكيو بالتاريخ ."[٦] وتشهد مؤلفاته على ان مثل هذه الأفضلية قد أتت ثمارها .

وفي عام ١٧٠٥ عاد الى بوردو لدراسة القانون ،حيث تخرج محامياً عام ١٧٠٨ ، وأمضى بعد ذلك أربعة أعوام (١٧٠٩ .١٧١٣) في باريس للتدريب في شؤون القانون ، فأتاحت له هذه الإقامة التعرف الى طليعة المفكرين هناك أمثال : فريريت ولاما وبونفليه . [٧]

رجع الى بوردو عام ١٧١٢ ليحضر موت أبيه . وفي ٢٤ شباط ١٧١٤عيِن مستشاراً في محكمة بوردو العليا ، وفي عام ١٧١٥ تزوج من (جان دي لاريدغ) الراسخة الإيمان ، التي أعطته مبلغا قدره مائة ألف ليرة . وفي عام ١٧١٦ دخل أكاديمية بوردو الحديثة التكوين . وقد توفي عمه الذي اخذ عنه منذ عام ١٧٠٨ اسم دي مونتسكيو ، فورث عنه منصبه بوصفه رئيسا للقضاة في المحكمة العليا سنة ١٧١٦ [*] . ولم يكن القاضي الجديد يتجاوز الـ (٢٧) من العمر. وقبل أيام من تَسلم منصبه الجديد ، قرأ في الأكاديمية المحلية رسائل جريئة حول سياسة الرومان في موضوع الدين . [٨]

ولما توفي عمه في سنة ١٧١٦ ، ورث مونتسكيو، ثروةً كبيرة وارضا زراعية ومنصباً في برلمان [**] جويين . وفي أثناء إقامته في بوردو شارك في أعمال أكاديمية بوردو [٩]

" ثم تخلى عن منصبه في سنة ١٧٢٨، وقام بجولة طويلة زار خلالها النمسا والمجر وايطاليا وسويسرا وهولندا وانكلترا " . [١٠] ويبدو " استمرت جولته ثلاث سنوات " . [١١]

وكان لا يزال يترأس برلمان بوردو . كان يشغل أوقات فراغه بالأبحاث العلمية ، وقد دفعه فضوله الى المعرفة ، الى دراسة الفيزياء والفلسفة الأخلاقية والتاريخ ، وقد ابدى خلال رحلاته اهتماماً فائقاً برصد جميع الوقائع التي تميز الحياة الاجتماعية والسياسية في الدول المعاصرة . [١٢]

---

٦ سعفان ، حسن شحاته ، روح الشرائع لمونتسكيو ، مجلة تراث الإنسانية ، المجلد الأول ، مطبعة كوستا توماس وشركاؤه ، القاهرة ، (ب، ت)، ص٦٩٩ .

٧ بدوي، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ،ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٤٨٨ .

* ذلك ان فرنسا خلال العصور الوسطى وحتى قيام ثورتها سنة ١٧٨٩ ، كانت مقسمة الى مقاطعات لكل منها برلمان له اختصاصات تشريعية وقضائية . سعفان ، حسن شحاته ، تراث الانسانية ، المصدر نفسه ، ص ٦٩٩

٨ طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة ، المصدر نفسه ، ص ٦٥٢ .

** كان لفظ البرلمان يُطلق في تلك المرحلة على المحكمة العليا التي مالبثت ان اكتسبت رويداً بعض الحقوق السياسية . للمزيد انظر : برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر، تر، جورج طرابيشي ، دار الطلبة للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٨٣، ص٧٨ .

٩ ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٤٨٨ .

١٠ برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، المصدر نفسه ، ص٧٨ .

١١ فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار ، ترجمة : هنرييت عبودي ، دار الطلبة للطباعة والنشر ، بيروت، ٢٠٠٦ ، ص ٤٧ .

١٢ سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية ، المصدر نفسه ، ص ٧٠١ .

وبعد رجوعه الى فرنسا تَنقل بين قصره في دي لابريد تارة ، وباريس تارةً أخرى . وثابر بدأب على مباحثه العلمية والأدبية من دون ان يهمل أملاكه ويحرم نفسه من متع الحياة الاجتماعية . (١٣)

وفي أثناء تلك الأسفار كان يقابل كل الناس ، ويلاحظ كل الأشياء ويتعلم كل عجيب وغريب ويزور المعامل والورشات والموانئ والمتاحف ، ولم يهمل شيئاً ، لا طقوس البلاطات ولا أنظمة البارونات . وكتب عن طرائق الاستخراج في مناجم ألمانيا . وعن تقشف سكان روما ، وعلى هذا النحو كَون مونتسكيو،لنفسه مخزوناً واسعاً من المعارف العينية كانت تغذيه ، فضلاً عن ذلك ، مطالعاته . وقد صَنف كل المادة الأولية التي جمعها في كتاب حمل عنوان (خواطري). (١٤)

" لقد كان لهذه الأسفار آثار عميقة في بناء طرق تفكيره وتصوراته ، فصار يعد نفسه إنساناً أولا ، ثم فرنسياً بعد ذلك "وقال : " إنني انظر إلى كل شعوب أوروبا بنفس النزاهة التي انظر بها إلى شعب مدغشقر ". (١٥) كان مونتسكيو، على اتصال وثيق بالعلماء والأدباء المعاصرين له سواء في فرنسا ام في الدول الأخرى من أمثال : ريامير وديدرو وفولتير وغيرهم .كما اصبح صديقاً حميماً للفيلسوف المشهور هلفسيوس ١٧١٥ – ١٧٧١ . كما اتصل بهيوم وولاس ونيوتن وغيرهم أثناء زيارته لانكلترا سنة ١٧٢٨، مما ساعده على الإطلاع على مناهجهم العلمية .(١٦)

قضى مونتسكيو ، وقته بين بوردو وباريس ، ولا يبدو انه أولى اهتماماً في ذلك الطور من حياته للتاريخ وللعلوم الإنسانية . بل درس على العكس من ذلك ، العلوم الأخرى كالفيزيائية والطبيعية . وكاشف زملاءه بأفكار حول السُكر والحُمى ، وكتب عنها مقالة بعنوان (مذكرة حول الصدى) في سنة ١٧١٨ ، وحول الأصداف ، وحول نفع الغدد الكلوية ، وعن علة شفافية الأجسام او ثقالتها، وكتب مقالة سنة ١٧١٨ بعنوان (مذكرة حول شفافية الأجسام) ، وأبلغهم نتيجة مشاهداته وتجاربه على الدبق وطحلب السنديان وعلى حشرات شتى ، وعلى الضفادع والسبط . وكان يحلو له العمل بالمحجر. فهذا التنوع العلمي في الميدان المعرفي جعل لديه إحاطة بالعلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء . (١٧)

" واهتم أيضا بدراسته علل البرق والرعد ، وتغيرات الإبرة الممغنطة . كذلك فانه حرر بوجه خاص في تلك المدة ، اعتبارات حول ثروات اسبانيا ، وهذه عبارة عن رسالة مقتضبة تضمنت الأصول البعيدة لمؤلفه الكبير روح القوانين " . (١٨)

---

[١٣] فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار ، المصدر نفسه ، ص٤٨ .

[١٤] ينظر : طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة، المصدر نفسه ، ص ٦٤٣.

[١٥] بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج٢، المصدر نفسه ، ص٤٨٩.

[١٦] سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية ، المصدر نفسه ، ص ٧٠١

[١٧] ينظر : طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة ، المصدر نفسه ، ص٥٦٢ .

[١٨] طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة ، المصدر نفسه ، ص٦٥٣

بيد ان هذه الضروب من حب الاستطلاع لم تّعمر طويلاً ، فالإنسان وخصائصه هي التي أخذت تستأثر باهتمام مونتسكيو، فيما بعد ، اي صار اهتمامه بالعلوم الإنسانية واسعا . إذ اصدر في عام ١٧٢١ كتابه **(رسائل فارسية)** . [19]الذي نال نجاحاً كبيراً . [20] بل كان من " انجح الكتب الأدبية في التاريخ " . [21] ويعد من روائع الأدب الفرنسي ، وفيه كشف عن ذكاء خارق وبراعة في التهكم ونقد الأوضاع الاجتماعية. [22] وجرى طبعه في هولندا التي كانت البلد المناسب لإصدار الكتب البالغة الخطورة بالنسبة للنظام الفرنسي ، لذلك لم تكن ثمة وسيلة إلا تهريبه عبر الحدود إلى فرنسا . [23]

صَور مونتسكيو، في هذا الكتاب ، الذي ظهر أول الأمر من دون اسم . [24] اثنان من أبناء فارس يزوران أوربا ، ولا سيما فرنسا ، ويبعثان بخواطرهما الى أصدقائهما في وطنهما ، وهذه الخواطر عبارة عن نقد المجتمع الفرنسي في أخلاقه وعاداته وحكومته وديانته ، في تهكم تارة وفي جد تارةً أخرى .[25] ولذلك "فالكتاب ُيعد دراسة مقارنة للعادات في المجتمعين الشرقي والغربي" . [26]

ولا شك ان الشعبية الواسعة التي لاقاها ذلك الكتاب تعود الى طرحه لمواضيع جذابة ، كموضوع ثقافة النساء (الحريم) . ولكن تلك الرسائل الباريسية تحتوي ايضاً على نقد جدي للمجتمعات الأوروبية ، وكانت تتضمن كذلك نقداً جريئاً لملوك أوروبا الأحياء منهم والأموات . كما كانت تشتمل على ملاحظات سياسية تدل على اهتمام مونتسكيو، بـ (هوبز و لوك) والعقد الاجتماعي ، ولم تخل من أفكار مناهضة لرجال الدين . والحق إن كتاب (رسائل فارسية) كان بمثابة وميض عصر التنوير الفرنسي ، ذاك العصر الفطين الساحر الجدي النقدي ، والذي كان مونتسكيو، احد قادته الخالدين . [27]

وقد شجع نجاح الكتاب الباهر والفوري ، مونتسكيو، على ان يقيم جُّل وقته في باريس ، حيث عاش حياة مجتمعية من ١٧٢١ إلى ١٧٢٥ ، من دون ان يتوقف عن الاهتمام عن كثب بإدارة أراضيه واستثمارها . ووضع مذكرة حول زهرة الكرمه ، وقام باستقصاء حول الأساليب التقنية التي كان يطبقها جيرانه في كرومهم . واهتم في

---

[19] ينظر : روزنتال ، وآخرون ، الموسوعة الفلسفية ، تر ، سمير كرم ، دار الطلبة للطباعة ، ط٢، بيروت ، ١٩٨٠، ص٥١٢ .

[20] ينظر : هيجل ، مختارات ، ترجمة : الياس مرقص ، ج٢، دار الطلبة للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٧٨، ص١٠٤.

[21] سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . ١٩٠١ . ١٩٧٧ ، تر، احمد الشيباني ، دار العربي ، ط ٣ القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٣ .

[22] بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص ٤٨٨.

[23] ينظر : سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

[24] طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص٦٥٣.

[25] كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة . دار المعارف للطباعة والنشر ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٦٦، ص١٩٤.

[26] صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . دار النهضة العربية ، (ب،ط) ،(ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ٨٥ .

[27] ينظر : سترومبرج ، تاريخ الفكر الاوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص ١٨٣ ـ١٨٤ .

الوقت نفسه بشؤون السياسة والمغامرات الغرامية والأخلاق وعلوم الأعراف والعادات ، وود لو كان في مقدوره أن يتحقق على وجه اليقين أين تختبئ العظمة الحقيقية للإنسان .[٢٨]

وعلى اثر نجاح كتابه (رسائل فارسية) ، نجح مونتسكيو، في الفوز بعضوية الأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٢٨ ، لكنه باع منصبه هذا لحاجته الى المال من ناحية ولأنه كان ، من ناحيةٍ أخرى ، يريد الإقامة في باريس .[٢٩]

وفي عام ١٧٣٢ نشر مونتسكيو، كتابه الآخر: (تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم).[٣٠] وقد صدر بعد أعوام من كتابه الأول (رسائل فارسية) ، واتفق المؤرخون على انه " عمل تاريخي عظيم " . [٣١] وقام فيه بتحليل دقيق للعلية في التاريخ ولطبيعة السياسة . واختار التاريخ الروماني لأنه أكمل تاريخ لمجتمع سياسي عرفه ، وكان في تناول يدِه ، وكان يرمي إلى وضع تجربة تاريخية اوروبية في متناول اليد والاستفادة من دروسها .[٣٢]فقد وضع منهجاً خاصاً لدراسة التاريخ يقوم على استنباط النتائج من مقدماتها ، وهو الذي ستقوم عليه دراساته في كتاب (روح القوانين) .[٣٣]

ولابد من الإشارة الى ان كتابه (تأملات في عظمة الرومان وانحطاطهم) ، يُعد قسماً من كتابه الأكبر (روح القوانين) .[٣٤] الذي سيُشكل ، الى حد ما ، خلاصة أبحاث سنواتٍ عدة ، وحصيلة تأملاته التاريخية والسياسية .[٣٥] والذي يعد " أضخم إسهام له في عصر التنوير " .[٣٦] حتى " كاد يكون الكتاب المقدس لكل مستنير " .

---

٢٨ طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص٦٥٣.

٢٩ ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة .ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٨٨.

٣٠ برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر . المصدر نفسه ، ص ٧٨ . وللمزيد انظر ايضا : بدوي ، ،عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص ٤٨٩ .

٣١ فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه، ص ٤٩.

٣٢ ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

٣٣ ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧٠١ .

٣٤ ينظر : كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص١٩٤.

٣٥ فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٤٩ .

٣٦ سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

كان مونتسكيو "جدا فخور بكتابه الذي كان يمثل ثمرة أبحاثه طيلةَ حياته " . [٣٧] قائلا : " إنني أستطيع القول بأنني استغرقتُ فيه حياتي كلها " . [٣٨].

"يُعد كتابه الأشهر (روح القوانين) أو (روح الشرائع) ، كما يطلق عليه البعض " . [٣٩] من بين ابرز الكتب التي سطَر بها مونتسكيو، أفكاره وفلسفته ، وكان عمره عند كتابته هذا الكتاب ٥٩ عاماً . وكانت تراوده ما به من أفكار منذ صغره ، وقد حذره أصدقاؤه من نشر الكتاب ولكنه أصَر على نشره ، وسرعان ما وضعته السلطات الدينية في القائمة السوداء ، أي قائمة الكتب المحرمة قراءتها. [٤٠] ومع ذلك فقد طبع ٢٢ طبعة في عامين . [٤١] الأمر الذي يدل دلالةً واضحةً على مدى تقبل الناس لما ورد فيه من أفكار على الرغم من عمقها وريادتها.

ونرى ان مونتسكيو ، لم يشرع في كتابه (روح القوانين) إلا بعد ان أعَد له العدة وجمع له مواده . فقد رجع في تأليفه لهذا الكتاب الى مشاهداته ومحاوراته .[٤٢] مع عدد لا يحصى من المفكرين وإلى عدد ضخم من المؤلفات ، نخص منها بالذكر: كتابي الجمهورية والقوانين لأفلاطون والسياسة لأرسطو والأمير لمكيافيللي ، وكُتب توماس مور وهوبز وجان بودان وغيرهم ، الى جانب بعض المؤلفات من الهند والبعثات التبشيرية . فقد درس القوانين والمؤلفين في ايطاليا وسويسرا والنمسا والمجر وهولندا وانكلترا ، وأقام في لندن سنتين ، حتى نشر الكتاب في جنيف سنة ١٧٤٨. [٤٣]

وقد لاقى الكتاب نجاحاً لافتاً ، مما أدى بفردريك الثاني . ملك بروسيا . الى جعله " كتاب وسادته " . ووجدت كاترين الثانية ملكة انكلترا فيه أسبابا لتعزيز اوتوقراطيتها ، واكتشف الانكليز فيه مزايا المؤسسات الليبرالية التي تدير شؤونهم ، ووجد ماراكال فيه المديح في رسالته عام ١٧٨٥، وقرأه جفرسون والقلم بيده . كل شخص وجد غايته في تحليلات غير متحيزة أضاءت له شروط عمل مختلف الأنظمة السياسية ونتائجها .[٤٤] " كما حاولت

---

[٣٧] سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية .المصدر نفسه ، ص ٦٩٨ .

[٣٨] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧٠١ .

[٣٩] برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر . المصدر نفسه ، ص٧٩ .

[٤٠] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية .المصدر نفسه ، ص ٧٠٢ .

[٤١] ينظر : صبحي، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص٩٢.

[٤٢] كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص١٩٤.

[٤٣] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧٠١ .

[٤٤] طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص٦٥٢.

كاترين . إمبراطورة روسيا . تشريع مجموعة من القوانين المستندة إليه .(٤٥) ولا نكاد نجد أديبا او فيلسوفا في فرنسا إلا وعلق على هذا الكتاب ، أما بالنقد الموضوعي او بتحبيذ ما ورد به من اراء او بالحملة عليه ، مما اضطره سنة ١٧٥٥ ، الى إصدار رده على تلك الانتقادات في كتاب عنوانه (دفاع عن روح القوانين) ، كما كان المؤلف في كتابه الأصلي يتنبأ أحيانا بما سيقدم الى أرائه من نقد ، ويرد على هذه النقود التخيلية " . (٤٦)

ومن الآراء التي قيلت عن كتاب مونتسكيو ، الأبرز ، ما قاله ميسار ، وهو وزير سويسري آنذاك ، " إن مونتسكيو، بتأليفه هذا الكتاب كان مواطنا عالمياً ، ذا دراية بجميع الأقطار وجميع الأزمنة وجميع أنواع الحكم " . (٤٧)

والى جانب ذلك نجد كثيرا من العلماء والمفكرين ينتقدون مونتسكيو، فعلى الرغم من ثناء فولتير على (روح القوانين) في عدة رسائل ، الا انه يحمل على نقص استقراء مونتسكيو، في كثير من الرسائل الأخرى ، فيقول في إحدى رسائله : " إذا أردت أن تحقق ما ذكره مونتسكيو، فانك لن تجد منها أربعة نصوص صحيحة " . (٤٨)

لكن مع أهمية الكتاب ، إلا انه كان يفتقر للتنظيم ، ولهذا حاول بعض الباحثين ترتيب مختلف فصول الكتاب ابتغاء إحكام تأليفه . وربما كان مرجع ذلك الخلل في تأليف الكتاب ، وهو مؤلف من ٣١ كتاباً ، فقد استغرق في تأليفه أكثر من عشرين عاماً ، لكن مع ذلك تكمن قيمة الكتاب في أمرين : الأول تصنيفه للنظم السياسية ، والثاني بحثه المقارن والتاريخي في الاجتماع السياسي ، وهذا أتاح لنا عده من مؤسسي منهج البحث التاريخي الحديث ، ورائدا من رواد فلسفة التاريخ النقدية . (٤٩)

و يُّعد كتاب (روح القوانين) مجموعة ضخمة من الحِكم والأقوال المأثورة " .(٥٠) المرهفة والثاقبة للغاية أحياناً ، ، جُمعت في كُتُب مقّسمة الى عدة فصول بعضها بشكل أبحاث صغيرة ، في حين لا يتعدى بعضها الآخر الجملة الواحدة ،

---

[٤٥] ينظر : سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

[٤٦] سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠٢.

[٤٧] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧١٦ – ٧١٧ .

[٤٨] سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧١٧ .

[٤٩] ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٤٨٩.

[٥٠] فولغين ، ف ، فلسفة الانوار . المصدرنفسه ، ص٥٢.

أما الموضوعات فمتنوعة للغاية .[٥١] "وكذلك ، يبدو من عنوان هذا المؤلَف الكبير انه تضمن : روح ، مبادئ ، بواعث ، دوافع ونوازع بموجبها يتوجه المرء" . [٥٢]

ومع انه في الظاهر بحث في القانون ، فانه ، مع ذلك ، يتناول نظرات في كل ميدان متصل بالسلوك الإنساني ، وتبادل العلاقات الإنسانية ، ويتخلله البحث في مسائل تتعلق بمزايا مختلف أنواع الشرائع .[٥٣] وعُد كذلك أول مدخل علمي من العلوم السياسية . ذلك بسبب إدخاله النظرية البيئية وتحكمها في نوع الحكم السياسي ، كما قالوا انه مبحث منهاجي ، يستند تجريبياً الى قوانين جميع الأمم وعاداتها . وبذلك عُد عملاً ريادياً في علم الاجتماع أيضا . [٥٤] " فكان مونتسكيو، بهذا المبشر الأول لظهور علم الاجتماع ، حتى أطلق عليه اسم أرسطو علم الاجتماع " .[٥٥]

وتُعد المؤلفات الثلاثة الأنفة الذكر من أشهر ما كتب مونتسكيو ، فغدت " شائعة جداً " بين زعماء الثورة البورجوازية الفرنسية . [٥٦] لعام ١٧٨٩ (*) وتستند دراستنا لفلسفة مونتسكيو على هذه الكتب الثلاث عامة (*) .

لكن هذا لا يعني انه لم يؤلف غير هذه الكتب الثلاثة ذائعة الصيت . ففي العاصمة باريس التي رحبت به ، اخذ يتردد الى نادي الانترسول ، المشهور ، حيث اشترك في مناقشاته ودراساته ، ويرجح انه تلا على هذا النادي في سنة ١٧٢٢، كتاب (محاورة بين سيلا واوكرات) الذي يبين فيه سلوك (سيلا) السياسي ، واسباب تنازل هذا الطاغية عن سلطانه ، ومن هذا الكتاب ابصر مقدار ما ينتظر منه في ميدان الجد ، فاخذ يفكر في واقعية اكثر تحديات عصره . [٥٧] فنلاحظ ، انه بين تصديره لكتاب رسائل فارسية وبين كتابه تأملات في تاريخ الرومان ... ،

---

[٥١] ينظر : شيفاليه ، جان جاك ، المؤلفات السياسية الكبرى من مكيافللي إلى أيامنا ، تر، الياس مرقص ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص١٠٥

[٥٢] روزنتال ، الموسوعة الفلسفية ، المصدرر نفسه ، ص ٥١٢ .

[٥٣] ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص ٤٨٩ .

[٥٤] ينظر : سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص١٨٨ .

[٥٥] سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧١٨ .

[٥٦] روزنتال ، الموسوعة الفلسفية . المصدر نفسه ، ص٥١٢ .

* الثورة الفرنسية (١٧٨٩ – ١٧٩٩) : تعددتالثورات في تاريخ أوروبا الحديث ، و مع ذلك فان الثورة الفرنسية شغلت مكاناً فريداً بين تلك الثورات ، وذلك لان النتائج العديدة التي نتجت عنها لم تكن مقتصرة على فرنسا وحدها ، بل تعدتها الى بقية الدول الأوروبية ،فضلاً عن ذلك فان الثورة الفرنسية تُعتبر نقطة تحول في تاريخ العالم ، لما حملته من المبادئ والأنظمة الجديدة و التي أقامتها على انقاض العهد القديم . للمزيد انظر : البيرسوبول ، تاريخ الثورة الفرنسية ، تر : جورج كوسي ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٧٠ . و : فشر، هربرت ، تاريخ أوروبا الحديث ، تر ، احمد نجيب هاشم ، وديع الضبع ، دار المعارف ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص٥ – ١٥ .

* من الجدير بالذكر ان مونتسكيو ، فضلا" عن الكتب الرئيسة أعلاه ، ألف عدة قصص ، كما ترك مؤلفا" ضخما" بعنوان (أفكاري) نُشر بعد وفاته . وترك عددا" كبيرا من الرسائل التي نُشرت بعد وفاته سنة ١٧٥٥ . سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧٠١ .

[٥٧] ينظر : العجلان ،احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو .المصدر نفسه ، ص١٥١ .

أصدر كتابه (معبد جنيد) ، المتميز بخفته الفائقة ، ومن ثم اصدر كتاب (رحلة الى بافوس) ، ولم يبتعد كثيرا في اسلوبه في الكتابة في هذين الكتابين عن كتابه (رسائل فارسية) .[٥٨]

وبعد اخراجه لكتابه روح الشرائع ، عاش سبع سنوات ، حاول الرد فيها على الانتقادات التي وجهت لروح الشرائع ، فرد عليهم في كتاب بعنوان ، (الدفاع عن روح الشرائع) ، وكان موجها ضد الحملة التي قادتها الكنيسة ضده .[٥٩]

وترك مؤلفا ضخما بعنوان (افكاري) ، نشر بعد وفاته ، ثم ترك عددا كبيرا من الرسائل نشرت ايضا بعد وفاته . [٦٠] فكان مونتسكيو، حقا من الشخصيات التي تركت اثرا ايجابيا في ميادين المعرفة .

المطلب الثاني : فلسفته العامة .

ان أول ما يجب الإشارة اليه في فلسفة مونتسكيو، هو ان جل دراسته تركزت على القانون ، الذي كان لديه بمثابة العقل البشري المتحكم بكل شعوب الأرض . وعلى القوانين السياسية والمدنية في كل امة ان تكون الحالات الخاصة التي يطبق فيها هذا العقل البشري .[٦١]

ويمكننا ان نجد فلسفته العامة في القسم النظري من كتابه (روح الشرائع) ، الذي عالج فيه موضوعات مجردة ، تبدأ من الكتاب الأول حتى الكتاب الثامن .ويقرر من خلالها ان القوانين ، أياً كان نوعها فهي عبارة عن علاقات بين قوى متفاعلة يؤثر بعضها في بعض . وهذه القوى على نوعين ، فيزيائية ومعنوية ، او أخلاقية ، فالطبيعة ومبادئ الحكومات والتعليم والضرائب والمناخ وعادات الأمة وتقاليدها وعدد السكان والدين السائد – كل تلك قوى تتفاعل والقوانين ليست شيئا آخر إلا العلاقات التي تنتج عن ذلك التفاعل بشكل ضروري . ويحمل مونتسكيو، حملة شعواء على الفلاسفة الذين اخضعوا القوانين والظواهر التي تسود العالم بقدرية عمياء ، اذ كيف يمكن ان نتصور ان تخلق مثل هذه القدرية موجودات مفكرة .[٦٢]

---

٥٨ فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٤٩ .

٥٩ ينظر : العجلان ،احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو .المصدر نفسه ، ص١٥٢ .

٦٠ سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠١ .

٦١ ينظر : كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث . المصدر نفسه ، ص٢٣٩

٦٢ ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠٤.

وقد ربط مونتسكيو ، المعرفة وتحصيلها بارتباط الحقائق علميا ، بعضها مع بعضها الاخر حيث لا مجال للمصادفة ، فيقول " ولا يتضح كثير من الحقائق هنا الا بعد ان ترى السلسة التي تربطها بحقائق اخرى " .[٦٣]

وتأكيده على سلسلة المعرفة هذه يعني رفضه للمصادفة ، ونجد هذا عند مونتسكيو، في قوله " ومن قال ان قدرا أعمى أوجد جميع المعلولات التي نبصرها في العالم ، يكون قد قال محالا عظيما ، فأي محال أعظم من قدر أعمى ، أحدث موجودات مدركة " [٦٤]

وفي فلسفته العامة نجد ما يسمى (نظرية الأنماط) ، فقد وصفت نظريته كما لو كان القصد منها مجرد تعميم تجريبي . وأحد أوضح الاعتراضات عليها عندما تفسر على هذا النحو ، هو ان تصنيفه تقليدي ومصطنع ، وانه غير ملائم كوصف للمعطيات التاريخية . ولكن من المهم ان نلاحظ ان مونتسكيو، يتحدث عن نموذجية للحكومة . فمثلا وراء كل نظم الطغيان يمكن ان نميز نمطا نموذجيا لحكومة الطغيان . ولكن لا يتبع ذلك بأية حال ، ان اي طغيان معين سيجسد هذا النمط النموذجي والخالص سواء في بنيته ام في مبادئه ، فلا يمكننا ان نستنتج منطقيا من نظرية الأنماط انه في اي جمهورية معينة يكون المبدأ الفعال هو الفضيلة السياسية ، أو انه في اي حكومة طغيان معينة يكون المبدأ الفعال في السلوك هو الخوف . وفي الوقت ذاته ، ان اي شكل معين من الحكومة بقدر ما يفشل في تجسيد نمطه النموذجي يقال عنه انه غير كامل . تلك هي مبادئ الحكومات الثلاث مما لا يعني انه في جمهورية معينة يكون الناس فضلاء ، وانما ينبغي عليهم ان يكونوا كذلك . وهذا لا يثبت انه في ملكية معينة يكون لدى الناس إحساس بالخوف وانما يعني انه ينبغي عليهم ان يكون لديهم هذا الإحساس . ومن دون هذه الخصائص تكون الحكومة غير كاملة . ويمكن إذن لمونتسكيو، ان يقول انه في ظل شكل معين من الحكومة ينبغي ان نجد نظاما معينا من القوانين أحرى من ان يقول اننا نجده . والمشرع [*] المستنير سيعني بان تتجاوب القوانين مع نمط المجتمع السياسي ، ولكنها لا تفعل ذلك بالضرورة . [٦٥]

وفي فلسفته يذهب الى عد مصدر القوانين الثابتة والمشتقة من طبيعة الأشياء هو الله . حيث يقول " والله يعمل وفق هذه القواعد لانه يعلمها ، وهو يعلمها لأنه صنعها ، وهو صنعها لعلاقتها بحكمته وقدرته . وبما اننا نرى دوام بقاء العالم الموجد بحركة المادة والخالي من الإدراك وجب ان تكون لحركاته قوانين ثابتة وإلا تلاشى . وهكذا

---

[٦٣] ينظر : مونتسكيو ن روح الشرائع . ج١ ، تر ، عادل زعيتر ، دار العارف ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص٤.

[٦٤] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١١.

[*] والمشرع عند مونتسكيو ، يقصد به شخص استثنائي يلجأ إليه المجتمع من اجل وضع قوانينه الأساسية . لكن مونتسكيو خلط في مهمة هذا المشرع . فهو أحيانا يقر ان على المشرع ان يكيف القوانين التي يسنها مع الروح العامة للمجتمع الذي يشرع له ، ومره أخرى نراه يدعو المشرع إلى سن القوانين ، بل والى الاستعانة بالدين من اجل محاربة الروح العامة للمجتمع .للمزيد انظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٤٩٠ .

[٦٥] ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، الفلسفة الحديثة . تر ، حبيب الشاروني ، محمود سيد احمد ، مراجعة امام عبد الفتاح امام ، المركز القومي للترجمة ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠١٠ ، ص٣٣ .

يفترض التكوين ، الذي يلوح بأنه عمل له قواعد ثابتة ، ثبات قدر الملاحدة ، ومن المحال ان يقال : ان الخالق يمكنه ان يدير العالم بغير هذه القواعد ما دام لا يدوم بغيرها " [٦٦]

وعلى ذلك يظهر ان الجانب الديني كان اساسيا ومهما في فكر مونتسكيو ، بل الى اكثر من ذلك كانت اراؤه في الدين تذهب نحو قصدية اكثر ، وهو الله ، الذي جعله عرضة لاتهامه بالالحاد في مرات كثيرة .

ونزعته التنويرية لم تخوله في التصريح من لقاء الدين بالسياسة ، وجعلها الأساس في تشكيل الحياة المدنية ، وفي الوقت ذاته لم يذهب للتفريق بين مصالحهما بوصفه من التنويريين الربوبيين . فيقول " وأما من حيث الدين القيم فان من قلة الانصاف ان يرى انني لم ازعم قط عدم صنعي ما تترك به مصالح الدين للمصالح السياسية ، بل جمع ما بينهما ، فالواقع ان جمع ما بينهما يستلزم معرفتهما " . [٦٧]

فمن غير المشكوك به ان مونتسكيو ، يستعرض عديدا من المرات في أمثلته الحجج الكاملة لـ (نظرية سوسولوجية حقيقية عن العقائد الدينية والأخلاقية) . هذه الديانة وهذه الأخلاقية ، اللتان يرفض بالضبط ان تحاكما التاريخ ، ليستا سوى عوامل داخلية لمجتمعات معينة ، تتحكمان بشكل هذه المجتمعات وطبيعتها . هذا المبدأ نفسه الذي يفسر مجتمعا معينا ، يفسر معتقداته ايضا . ما الذي يتبقى حينئذ من التميز بين الأنظمة ؟ ان التميز إذا أردنا التمسك به ، ويجب ان نفعل ذلك ، يمر حينئذ عبر النسق الديني والأخلاقي نفسه . سيقال بإمكانية فهم الدين بمعناه ودوره الإنسانيين (اللذان يمكن ان يقعا ضمن حيز علم اجتماع ما) او بمعناه الديني الذي يفلت منه .[٦٨]

فالمجتمع الإنساني بوصفه جزءا من هذا العالم يخضع لهذه القوانين الإلهية ، ومدى ثبوتيتها ، ويقول في هذا : " وقد يكون للموجودات الخاصة المدركة قوانين وضعتها ، ولكن لها أيضا قوانين لم تضعها ، وقد كانت الموجودات المدركة ممكنة قبل ان تكون ، وقد كان لها اذن ، علائق ممكنة ومن ثم كان لها قوانين ممكنة ، وقد كانت توجد علائق عدل ممكنة قبل وجود قوانين موضوعة ، فالقول بعدم وجود عدل او جور ، يعني القول بعدم تساوي جميع أنصاف قطر الدائرة قبل رسمها " . [٦٩]

من هنا نرى ان مونتسكيو ، كان يقصد ان الأمر لا يقتصر على وجود قوانين موضوعية ، بل ان هناك قوانين فطرية ، هي أيضا تحكم المجتمع ، ويجزم بان هذه القوانين الفطرية هي سابقة للقوانين الموضوعية . وعبر عنها بقوله " وستجد كل امة علل قواعدها هنا " أي التي تمثل روح القوانين – أي الأصل الذي تصدر عنه . [٧٠]

---

٦٦ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١١-١٢ .

٦٧ مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٧٥ .

٦٨ ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . . تر ، نادر ذكرى ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠١٠ ، ص١٩ .

٦٩ مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٢ .

٧٠ ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ،ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٤ . .

ومع هذا التمسك من مونتسكيو ، بالقوانين الفطرية ، الا اننا نلاحظ ، انه يعود ليؤكد عدم استمرارية الإنسان في السير على هذه القوانين الإلهية الفطرية ، لان الإنسان على النقيض من باقي الموجودات الأخرى ، اذ ان الخالق لم يرغمه على الخضوع لها ، لانه أعطى للإنسان حرية كاملة ، ولكن محدودية عقل الإنسان جعلت منه عرضة للاهواء ، ومن ثم فهو لا يسير على هذه القوانين .

وبحسب مونتسكيو، فأن على العقل " ان يحسن تدبير العالم المدرك كتدبير العالم الطبيعي ، وذلك لان العالم المدرك وان كانت له قوانينه الثابتة بطبيعتها ، لا يتبعها باستمرار كما يتبع العالم الطبيعي قوانينه ، وذلك لان الموجودات المدركة الخاصة محدودة العقل بطبيعتها ومن ثم تراها عرضة للخطأ " . [٧١]

وعليه يرى مونتسكيو ، ان على الدين ان يكون ذا فائدة اجتماعية ، ذلك عندما يتكلم حول ما يسمى بالدين المفيد ، ويقصد به الدين الذي يلبي رغبات واحتياجات مجتمع ما دون ان يكون هذا الدين عبئا عليهم بسبب اختلاف طبيعة قوانينه مع طبيعة ذلك المجتمع ، فيذكر ما قاله بيل (١٦٤١ -١٧٠٢) " ان عدم تدين الانسان بدين اقل خطرا من تدينه بدين رديء " ويورد مونتسكيو ، عن بيل أيضا القول الاتي " أفضل ان يقال انني غير موجود من ان يقال انني رجل خبيث " . يرى مونتسكيو، ان هذه الآراء " ليست سوى سفسطة قائمة على عدم وجود فائدة للجنس البشري في اعتقاد وجود انسان ما " . يريد فيلسوفنا ان يبين ان مجموعة القوانين التي تجلبها فكرة الدين معها ، يجب ان تكون مفيدة للمجتمع من خلال ملاءمتها الطبيعة ذلك المجتمع . وبهذا يكون مونتسكيو، قد تجاوز شيئا من المألوف في أروقة الكنيسة .[٧٢] ثم يقول " يمكن للدين ان يدعم الدولة السياسية من ناحية اخرى ، وذلك عندما تكون القوانين عاجزة " .[٧٣]

بهذه الطريقة يتراجع مونتسكيو، لعدم رغبته في القفز فوق الحواجز. ومن هنا كان منشأ الاتهام بالإلحاد ، وضعف دفاعه . فإذا كان قد وضع الصلابة في ردوده ولم يكن باستطاعته إضفاء القوة على حججه . وانه لا يمتلك سوى هذا الرد: ليس الملحد هو من يكتب ان هذا العالم الذي يتبع مسيرته وحيدا ويتابع قوانيه قد خلقه (عقل ما) يؤكدون انه يصب في (السبينوزية) [*]، في الديانة الطبيعية ، انه لا يمتلك سوى رد وحيد : الديانة الطبيعية لا تعني الإلحاد ، وبالأصل فانا لا أؤيد الديانة الطبيعية . لم تستطع كل هذه الاستعراضات في التراجع ان تقنع خصومه وأصدقائه . في كل الأحوال فان أفضل دفاع عن الدين هذا المديح الذي يوجهه صراحة في القسم الثاني من (روح الشرائع) ويمكن ان يصدر عن احد

---

[٧١] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٣٣٤ .

[٧٢] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٧٦ .

[٧٣] مونتسكيو ، روح الشرائع ،ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٩١ .

[*] يقول سبينوزا " لا توجد اي صلة بين العقل والايمان ، أو بين الفلسفة والدين ، اي بين العقل والفلسفة من ناحية وبين الإيمان واللاهوت من ناحية أخرى ، اذ يقوم كل علم ، سواء الفلسفة أو اللاهوت ، على مبادئ مختلفة اختلافا جذريا على المبادئ التي يقوم عليها العلم الاخر " .للمزيد انظر : اسبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة . تر ، حسن حنفي ، مراجعة ، فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠٠٨ . و : كريم ، زيد عباس ، اسبينوزا الفلسفة الأخلاقية . دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص١٦ .

الكلبيين [**] تماما مثلما يمكن ان يصدر عن احد المؤمنين [٧٤] ، كان بايل [***] ، يريد من الدين ان يكون على الضد من المجتمع وهذا هو معنى المفارقة حول الملحدين . يعارضه مونتسكيو ، لان الدين عنده هو احد تلك الضرورات التي تنشا منها القوانين ، ولا غنى للمجتمع عن الدين وانه مفيد له . لكن رغم ذلك ، فهو يبقى ضمن مبدأ (بايل) الوظيفة الاجتماعية والسياسية للدين . يتلخص إعجابه كله في إظهار ان هذا الدين المسيحي الذي لا يصبو سوى الى السماء ملائم جدا على الأرض . لكن جميع (السياسيين) قد تحدث بهذه الطريقة و(مكيافللي) كان الأول .[٧٥]

ويبقى الدين عند مونتسكيو، في إطار البيئة ، اذ يرى انه يرتبط بالبيئة الطبيعية فهو نتاج حقيقي لها ، لان البيئة هي ما يتم به ايجاد القانون الطبيعي .[٧٦]

ويتفق الباحث مع مونتسكيو ، في ان البيئة ما يتم به إيجاد القانون الطبيعي ، لكن يختلف معه تماما في مصادرته لأديان الآخرين وتسفيهها بطريقة تعسفية ، من خلال الانقضاض على (الروح العام) ، لديهم . ومن ذلك تهجمه على الدين الإسلامي [*]

** الكلبية ، مذهب انتستانس الذي كان يجمع تلاميذه في مكان اسمه الكلب السريع فأطلق عليهم اسم الكلبيين ، وهو أيضا مذهب ديوجانس الذي كان يحتقر العلم والثروة والجاه ويدعو الناس إلى أتباع الفضيلة ومجانبة الأهواء والشهوات ، والكلبيون جميعا يقولون : ان السعادة في الفضيلة ، وان الفضيلة وحدها هي الخير ، وهم يدعون الى احتقار القوانين الوضعية والتقاليد والعرف والرأي العام والقيم المنتشرة في المجتمع . انظر : صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي . ج٢ ،المصدر نفسه ، ص٢٣٦ .

٧٤ ينظر: الجدال مع (بايل) ، (روح الشرائع) ، الكتاب الرابع والعشرون ، الفصل الثاني والسادس . بواسطة ، التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص١٩.

*** فيلسوف وناقد فرنسي (١٦٤٧-١٧٠٦) ، خلص الى القول بان النتائج المترتبة على الإلحاد قد تكون اقل شؤما وخطورة من النتائج المترتبة على عبادة الأوثان ، واستحق بايل على هذه الافكار حملة استنكار عامة . أصدر أول كتاب بعنوان خواطر حول المذنب ، ثم كتاب نقد تاريخ الكالفينية للاب منبورغ ، ثم كتاب فرنسا الكاثوليكية في عهد لويس الاكبر . انظر : طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص١٥٢ .

٧٥ ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص١٩ .

٧٦ ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية . ، المصدر نفسه ، ص١٨٢.

* لم يكتب التوفيق لمونتسكيو ، حينما قال في الفصول الثالث والرابع والرابع عشر ،من روح الشرائع ، ان الحكومة المستبدة اكثر ملاءمته للاسلام ، وان الاسلام الذي لا يتكلم بغير السيف يؤثر في الناس بروح الهدم التي اقامته ، وان تثاقل النفس ينشا من جبرية الاسلام التي تؤدي الى البقاء في سكون ، فالمؤلف كما يظهر كان جاهلا لتاريخ الاسلام ، وكان متأثرا بأوهام الأوربيين الموروثة ضد الاسلام والمسلمين ، فلم يتخلص أوروبيون كثيرون منها حتى زماننا هذا على الرغم من تقدم الدراسات الإسلامية في أوروبا ، وذلك لأنها أصبحت جزءا من مزاجهم والحقيقة هي ان الدراسات الإسلامية في أوروبا كانت في حكم العدم منذ قرنين ، فكان يحكم في الإسلام بما كان عليه بعض الشعوب الإسلامية من تأخر وبما كان يلقيه المسلمون من رهبة في نفوس الغربيين ، ولعل لمونتسكيو بعض العذر من هذه الناحية ، لا العذر كله ، ما وجب على عالم عبقري مثله ان يشك في الأقوال السائرة المبتسرة بأوروبا عن الاسلام وان يبحث في الاسلام بحثا صحيحا فلا يصدر عنه ذلك ، ولو فعل هذا لرأى الاسلام بعيدا عن الحكومة المستبدة . للمزيد انظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج٢ ، المصدر نفسه ، هامش المترجم ، ص١٧٨ .

وفي فلسفته نجد ان الموجودات العاقلة ، تخضع لنوعين من القوانين . نوع طبيعي . وهي القوانين التي تشتق من طبيعة تكوين تلك الموجودات مباشرة ، وهي تلك القوانين التي كانت تسود الإنسان البدائي قبل تكوين المجتمعات . [٧٧]

ويرى " ان الإنسان موجود طبيعي ، مسير بقوانين ثابتة كالأجرام الأخرى ، والإنسان ، موجودا مدركا ، ينقض بلا انقطاع ما شرع الله من القوانين ، وهو يغير القوانين التي يضعها بنفسه ، وعلى الإنسان ان يدبر نفسه ، ومع ذلك فهو كائن محدود الإدراك ، فهو عرضة للجهل والخطأ كجميع الافهام القاصرة ، وما لديه من معارف ضعيفة يفقده أيضا ، أي يكون موضع ألاف من الأهواء مثل مخلوق حساس ، وأمكن موجودا كهذا ان ينسى خالقه في كل حين ، فدعاه الله إليه بقوانين الدين ، وأمكن موجودا كهذا ان يغفل عن نفسه في كل حين ، فايقظه الفلاسفة بقوانين الأخلاق ، وأمكن الإنسان ، المفطور على العيش في المجتمع ، ان ينسى الآخرين فيه ، فرده المشترعون الى واجباته بالقوانين السياسية والمدنية " .[٧٨]

واعتقاد مونتسكيو ، بهذه الواجبات السياسية والمدنية ، أدت به الى اتخاذ موقف وسط في النقاش الحالي بين(مذهب العالمية) ، الذي هو نظرية وجوب وجود مبادئ أولية للحياة المشتركة ، تسري على كل الناس في كل الثقافات ، و (مذهب النسبية) ، القائم على ان مبادئ الحياة المشتركة تتوقف على الظروف والأحوال الخاصة ، التي يعيش في ظلها شعب ما . فهو يرى وجود مبادئ أساس تسري على الجميع . لكن التشكيل الواقعي لهذه المبادئ يظل أمرا يتعلق بالظروف والأحوال الخاصة . ان الحرية ومراقبة السلطة السياسية من خلال المؤسسات ، التي يراقب بعضها البعض ، هي المبادئ – في رأي مونتسكيو – التي يجب ان تسرى على كل الجماعات السياسية . ويعد فهمنا الحالي للحرية وتقسيم السلطات بالطبع ابعد مدى من فهم مونتسكيو .[٧٩]

أما النوع الثاني الذي تخضع له الموجودات العاقلة فهو (القوانين الوضعية) وهي التي يضعها الإنسان لنفسه بعد تكوين المجتمعات ، " وإذا كانت القوانين الطبيعية مفروضة على الإنسان لأنه ليس مصدرها فان القوانين الوضعية ، لما كانت صادرة عنه فإنها متبعثرة حسب ظروف كل مجتمع ، وهذه القوانين على أنواع ، فمنها قوانين الأمم التي تنظم العلاقة بين المجتمعات . والقانون السياسي الذي ينظم شؤون الحكم ، والقانون المدني الذي ينظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض " .[٨٠]

لقد بحث مونتسكيو، في فلسفة السابقين والمعاصرين فلم يجد حلا يشفي غلته ، فوجد خليطا من المذاهب والآراء ، كما وجد معظم المؤلفين ينظرون للموضوع من زاوية ضيقة بدون إلمام شامل به ، فعلماء القانون

---

[٧٧] سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠٥ . وللمزيد عن علاقة القوانين بالطبيعة واثرها في تشكيل الروح العام انظر : هيبوليت ، جان ، مدخل الى فلسفة التاريخ عند هيجل . تر ، انطون حمصي ، منشورات وزارة الثقافة ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص٢٥ .

[٧٨] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ،المصدر نفسه ، ص١٤.

[٧٩] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٤٤ .

[٨٠] ينظر سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠٤.

الفرنسي، يذهبون الى ان القوانين تصدر عن فكرة او فلسفة خاصة لسلطة عليا متحكمة في المجتمع ومشبعة بتلك الفكرة ، والقانون الوضعي ليس في هذا المعنى الا تعبيرا عن إرادة الله ، ذلك ان القانون قد صدر عن الحاكم الذي يتولى السلطة والذي يعد نظيرا ممثلا لله في المجتمع . فهو قد اختاره لينوب عنه في حكمه وهو اذ يتصرف إنما يعبر عن الإرادة الإلهية ، مستهدفا من ذلك تحقيق اكبر نفع للمجتمع الذي ولى أمره وهو بعد مسؤول أمام الله عن هذا التصرف . وقريب من هذا ما ذهب إليه (سبينوزا) الفيلسوف الهولندي المشهور ، من ان العالم يسير بالقضاء والقدر وان كل ظواهر هذا العالم فيزيقية كانت أم إنسانية إنما تعتمد الإرادة الإلهية .[٨١]

ولم تكن مثل هذه التفسيرات لتروق في رأي مونتسكيو، والذي نجد في فلسفته انه كان مشبعا بالروح (العلمي) والتي تهدف الى إيجاد تفسير علمي لاختلاف القوانين . اي تفسير يقوم على منهج علمي يستند على المشاهدة والتجربة والاستقراء . ونقد كل تفسير يعتمد على اسس دينية ميتافيزيقية غامضة .

والى جانب هذا ، وجد فريق من رجال السياسة والقانون يستندون الى اسس أخلاقية من امثال جروتيوس [*] ، اذ يذهب هؤلاء الى ان فكرة العدل سابقة عل كل قانون وضعي ، فهناك نموذج من العدالة [**]هو نموذج مثالي يرجع إليه كل المشرعين في تشريعاتهم . وهذا النموذج المثالي ليس مصدره الإنسان بل مفروض على الإنسان ، وهو يتكون من الحقوق والالتزامات اللازمة لتنظيم العلاقات بين الأفراد الكائنين في مجتمع واحد ، ولتنظيم العلاقات بين المجتمعات المختلفة ، وهذا النموذج هو ما يسمى بالحق الطبيعي [*]. والإنسان يشعر بهذا الحق الطبيعي بشكل تلقائي ، كأنما ولد الإنسان مزودا بحاسة تجعله يفرق بين العدل والظلم وفقا لهذا القانون .وهذا القانون خالد ابدي أزلي لا يتغير بتغير المكان والزمان . وبناءا على ذلك تصبح مسألة تفسير القوانين مسألة بحث مدى التطابق بين القوانين السائدة في المجتمعات المختلفة والقانون الطبيعي . [٨٢]

وهذا الامر يشير الى ان هناك نمطا من التفكير ، كان سائدا في العصر الفلسفي الذي عاش فيه مونتسكيو ، وقد مثل هذا النمط ما تبقى من أثار الفكر الديني والهيمنة الغيبية على مجريات الحياة .

وقد تأثر مونتسكيو ، بهذه النظرية ردحا من الزمن حتى عام ١٧٣٠ . ولكنه وجدها هي الأخرى نظرية ميتافيزيقية لا يؤيدها الواقع لأنها تتعارض مع فكرة الصيرورة ولا تفسر كيف ان فكرة العدل تختلف من مجتمع

---

[٨١] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه . ٧٠٥.

[*] هوجو جروتيوس ١٥٨٣ ــ ١٦٤٥ ، هولندي ولد في ديلفت من اسرة كبيرة ، اهم كتبه حرية البحار ١٦٠٩ ، و عن قانون الحرب والسلام ، وكان أرسطيا يؤمن بالعقل . انظر : الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . المصدر نفسه ، ص١٥٤ .

[**] إلا أن نموذج العدالة هذا ، هو ما يستوقف مونتسكيو ، فهل من الممكن ان نطبق هذا النموذج في جميع أمم العالم أم انه يخص امة دون أخرى ، ونحن نعتقد ان العدالة في إقليم معين ، من ناحية أوجهها الاجتماعية والسياسية والأخلاقية تختلف عنها في اقليم أخر ، إذن مفهوم العدالة اختلف من ناحية مضموناته وتطبيقاته بين مجتمع وأخر ، ذلك طبقا إلى طبيعة القانون الذي يفرض نوع العدالة ، وعليه فان المبدأ المكون للطبيعة هو من يحتم نوع القانون الذي يحدد مضامين العدالة ، وعليه فان الباحث يختلف مع حسن شحاته سعفان ، في تاييده لوجود نموذج مثالي للعدالة ، وعلى وفق مونتسكيو فان الضروريات هي المحدد الأول لقوانين المجتمع ومن ضمنها قوانين العدالة .

[*] وهو المنسوب الى الطبيعة ، وهو ضد المكتسب والإرادي ، والصناعي ، والمفتعل ، فأذا كان ضد المكتسب دل على ما هو متعلق بطبيعة الموجود ، كالحقيقة الطبيعية ، ويرادفه الخلقي والفطري والوراثي . انظر : صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي . المصدر نفسه ، ص١٦ .

[٨٢] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه . ٧٠٥.

لآخر ومن عصر لأخر . وربما كان رفضه لهذه الفكرة سببا لاتجاهه الى التفسير التعاقدي ، وخاصة (هوبز) . لكنه تركه بعد ذلك لأنه كان ينادي بحكم الطغيان الذي كان مونتسكيو، يقشعر من بشاعته . ولان نظرية (هوبز) كانت كالنظريات السابقة تضع مبادئ فلسفة عامة . مما كان يتنافى مع منهج فيلسوفنا في البحث العلمي على نحو ما سنرى . مما دعا مونتسكيو، الى البحث في فلسفته العامة عن سر ائتلاف القوانين الوضعية قاصرا بحثه على القوانين الوضعية . مقتصرا فيها على القوانين السياسية والمدنية . [٨٣]

إننا نرى ان ما يجمع فيلسوفنا ، بالمنظرين الذين سبقوه وما يميزه عنهم ، انه يشترك معهم في المشروع نفسه (بناء العلم السياسي) الذي يؤسس لفلسفة تاريخ جديدة . لكنه يختلف عنهم في الموضوع لأنه لا يقتصر لإنشاء علم عن المجتمع عموما بل لكل المجتمعات المتجسدة في التاريخ . وبسبب هذه الواقعية فانه لا يتبع المنهج نفسه ، فلم يكن يريد القبض على الماهيات ، بل اكتشاف القوانين . وهذه الوحدة في المشروع وهذا الاختلاف في الموضوع والمنهج يجعلان من مونتسكيو، الرجل الذي أعطى المتطلبات العلمية لسابقيه ، الشكل الأكثر صرامة ودقة والخصم الأكثر تعنتا لـ (تجريدهم) في الوقت نفسه .[٨٤]

ومن ضمن دفعنا باتجاه وجود فعلي لفلسفة التاريخ عند مونتسكيو ، انه كان يتعطش الى أحلام العقل ، مثل ما كان يحلم به باقي التنويريين . لكنه عند صاحبنا العقل المتآخي مع الوعي التاريخي وإدراك الواقع والمهارة العملية . فقد اظهر لنا هذا العقل الجماعة على أنها بيت موروث ، نستطيع ان نمنحه استقرارا ثابتا ومجالات حياة مفتوحة في ان واحد ، دون ان يتحتم علينا ان نيأس من خطط بناء حلم لا يمكن الوفاء باستحقاقاته . [٨٥]

لقد تحدث المنظرون قبل مونتسكيو ، عن المجتمع ، وكانوا مدفوعين بحرص أخلاقي ، وهم يتساءلون ، كيف يجب تنظيم المجتمع كي يسير سيرا حسنا ؟ واستخلصوا من ذلك مبادئ سياسية مثالية . انها مثل حالة أفلاطون في كتابه : الجمهورية ، وأرسطو في كتابه : رسالة في السياسة . والذين يهتمون اليوم بالقانون يفعلون ذلك ، عموما بطريقة أخرى .[٨٦]

وهذه الطريقة قائمة على رفض المعايير المطلقة والاهتمام بالحالات التي تبرز فيها قوانين وأشكال حكم محددة ، والاعتراف بشرعية أشكال الحكم كافة بدالة الطابع المميز لكل امة من الأمم وشروط الحياة فيها ، كل هذه السمات اسهمت في تشكيل نظرية مونتسكيو ، وهذه السمات تمثل امكانية العطاء من المنظور العلمي .[٨٧]

انهم يتحدثون كعلماء اجتماع ، ويريدون فقط ملاحظة الوقائع وتفسيرها . ويبحثون ما كانت عليه المؤسسات البشرية ، وما هي عليه ، فيحددون ظروف نشأتها وتطورها وزوالها . أما الباقي فليس من مهمتهم . وإذا كان علمهم ينطوي على تطبيقات سياسية فأنهم يتركون لغيرهم مسألة العناية بها . وليس من شك ان مونتسكيو، لا يمنع نفسه من الكلام كعالم

---

[٨٣] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه . ٧٠٥.

[٨٤] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص١٥ .

[٨٥] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢، المصدر نفسه ، ص١٤٧.

[٨٦] ينظر : كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث .المصدر نفسه ، ص٢٣٧.

[٨٧] ينظر : فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٥٥ .

اجتماع وأحيانا كأخلاقي ، فيبحث حينئذ عن أسباب نشوء بعض المؤسسات في بلد معين ، او عن أسباب زوالها . ويحكم على تنظيم سياسي معين من وجهة نظر أخلاقية مطلقة . ولكن همه الاعتيادي ليس هذا او ذاك . انه هم ، ان جاز القول ، نسبي . انه يريد ان يحكم على قيمة القوانين الموجودة او تلك التي وجدت لدى مختلف الشعوب . ولكنه لا يقدرها بالنسبة الى المطلق . ان قانونا صالحا في نظام جمهوري ، لا يكون صالحا في نظام ملكي ، وهو صالح في مناخ معين ، وغير صالح في مناخ آخر ، وهو صالح لكثافة معينة من السكان ، وغير صالح لكثافة أخرى . هذا ما يبينه مونتسكيو، في كل مراحل فلسفته العامة .[٨٨]

وفي فلسفته العامة أيضا ، قد تماشى مع أراء منظري الحق الطبيعي ، ان قوانين الطبيعة التي تسير المجتمع ناجمة عن جبلة الكائن البشري ، وهذه الجبلة ، لا تعدو ان تكون في ظاهرها تجسيدا عينيا ، من منظور المجتمع ، بيد ان هذه الأطروحة الجديدة تغير المعايير تغييرا جوهريا من المنظور الميتودولوجي . فقد كان مونتسكيو، أسوة بالعديد من معاصريه ، يرى في الكائن البشري ، لا الإنسان الاجتماعي كما يعرفه التاريخ ، بل الإنسان المجرد ، الانسان خارج التاريخ ، والذي وجد في رأيهم قبل ظهور المجتمع ، وقد استخلصوا من ذلك ان الكشف عن القوانين الاجتماعية يقتضي دراسة الحالة الطبيعية وليس الوقائع التاريخية ، ومن ثم يجري تطبيق المبادئ العامة ، التي تم استخلاصها على هذا النحو .غير ان مونتسكيو، لا يسلك هذا الطريق ، وان كان يسلم بوجوب نهج هذا النهج ، مفضلا تركيز اهتمامه على الوقائع التاريخية .[٨٩]

---

٨٨ ينظر : كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث .المصدر نفسه، ص٢٣٧.

٨٩ ينظر : فولغين ، ف ، فلسفة الانوار . المصدر نفسه ، ص٥٤ .

المبحث الثاني : عصر العلم واثره في فلسفة مونتسكيو .

المطلب الاول : نحو رؤية علمية .

لقد حدث في حقبة النهضة العلمية من عصر النهضة - التي ساد فيها العلم الحديث [*] تقدم ملحوظ في تطور مناهج البحث العقلية والتجريبية . وقد طور الفلاسفة بثقة تامة في هذه المناهج مذاهب ، ثم حددوا مكان مناسب لله والإنسان والطبيعة . [٩٠]

ولعل هذا الأمر أدى بـــ (مونتسكيو) الى ركوب الموجة الجريئة التي امتطاها مفكرو عصر النهضة [**] ، والتي ذهبت الى فتح آفاق جديدة للعلم ، وبمقتضى هذا العلم الحديث والمعرفة العلمية الحديثة ، كان مونتسكيو، يحاول ان يقدم تفسيرا جديدا للتاريخ [***]، بعيدا عن تفسيرات القروسطية الغيبية والتي جعلت من الدين مسارا تاريخيا لها ، وقريبا من التفسير الوضعي الناشئ من المنهج التجريبي الحديث وتداعياته التي عصفت بالمنهج الأرسطي واستدلالاته ، ومن دون التخلي عن الآراء العقلية لفلاسفة هذا العصر .

ومما لاشك فيه ، ان الفلسفة لا تسلك طريقا خاصا بها ، دون ان تتأثر بالعناصر الأخرى للثقافة الإنسانية ، انها ببساطة لا تستطيع ان تعيش بمعزل عن التيارات الثقافية المختلفة ، وهكذا تأثرت الفلسفة أبان عصر النهضة بالعلم سواء في تأكيده على الموضوعية في البحث ام في سعيه وراء تحديد منهج سليم يستطيع الباحث من خلاله التوصل الى نتائج صحيحة. [٩١] ويعتقد الباحث ان هذا التأثير اسهم في التأسيس لمرحلة الحداثة التي تلت التنوير .[٩٢] وهذا المنهج عزز في الوقت نفسه ، أهمية التفسير الفلسفي للاكتشافات العلمية ، باعتباره شيئا جوهريا بالنسبة الى العلم .[٩٣]

والقى عصر النهضة بضلاله على كل أنواع المعارف والعلوم ، وكان من بينها الفلسفة ، وهكذا أصبح للفلسفة تصورات جديدة في الجانب الابستومولوجي تختلف عن المعهود تماما ، فكان لا بد للفلسفة ان تأتي بتصورات جديدة عن التاريخ ، نابعة من منهجها العلمي الجديد ، فكان التاريخ يمثل جانبا معرفيا جديدا يتماشى مع معطيات

---

[*] حيث لم يعد اللاهوت يضع حدودا لتفكير الفيلسوف ، ولا يملي النتائج التي ينبغي عليه ان يصل اليها . ولما كانت الفلسفة توقفت ان تكون خادمة للاهوت ، فقد أصبحت تفسر العلوم التي تتقدم بسرعة . ولم يعد الفيلسوف الحديث يخشى ان يتأمل ، وسعى الى ان ينظم نتائج العلوم الطبيعية المختلفة في صورة للعالم ككل يفسح فيها المجال لقيم الفن والأخلاق والدين ، كما بين اتفاقها مع النتائج المستقرة للبحث العلمي . للمزيد انظر : رايت ، وليم كلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة . تر ، محمود سيد احمد ، تقديم ومراجعة ، امام عبد الفتاح امام ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت، ٢٠١٠ ، ص٢٤ .

[٩٠] ينظر : رايت ، وليم كيلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة .المصدر نفسه ، ٢٠١٠ ، ص١٥٣ .

[**] عصر النهضة : اصطلاح يستعمل في تاريخ الفلسفة للإشارة إلى المذاهب العامة و الاجتماعية و الفلسفية التي ظهرت في أوروبا خلال مدة انهيار الإقطاع و قيام المجتمع البورجوازي الأول (من القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن السابع عشر) .وهو كذلك يمثل حركة فكرية نشأت أولاً في ايطاليا من القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن السادس عشر وازدهرت خلاله الأنشطة الفكرية والفنية . ويعني لفظ (النهضة) إعادة الولادة والتجديد . للمزيد من التفاصيل انظر : مخزوم ، محمد ، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ . و : حاطوم ، نور الدين ، تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، دار الفكر العربي ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص٥٢ . وللمزيد من التفاصيل عن تاريخ عصر النهضة ، انظر : رايت ، وليم كيلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٢٩

[***] على ان الحقبة التاريخية التي نطلق عليها العصر الحديث ، تختلف عن العصر الوسيط ، في انها أدت الى تقلص سلطة الكنيسة ، وازدياد سلطة العلم . انظر : رشوان ، محمد مهران ، مدين ، محمد محمد . الفلسفة الحديثة والمعاصرة . دار المسيرة للنشر والتوزيع ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٢ ، ص١٢ .

[٩١] ينظر : رشوان ، محمد مهران . مدين ، محمد محمد . الفلسفة الحديثة والمعاصرة . المصدر نفسه ، ص٢١.

[٩٢] للمزيد عن مراحل الحداثة وتطورها انظر : لوفيفر ، هنري ، ما الحداثة . دار ابن رشد للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٣، ص١٣-٥٣ .

[٩٣] ينظر : اويزرمان ، ثيودرو ، تطور الفكر الفلسفي . تر ، سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص٦٥ .

العصر العلمي الجديد ، وهكذا جاءت تصورات مونتسكيو، الجديدة عن التاريخ ، فقد أقامه على تصورات علمية واقعية من خلال التجسير الذي أقامه بين البيئة والقانون والسوسولوجيا .

ولقد ظهر في فلسفة عصر النهضة تأثير العلم ، اذ بدأت هذه الفلسفة تهتم بصورة العالم الذي هو محكوم عن طريق العلم ومنجزاته العلمية . فقد بدأ الانتفاض على القديم مع بداية هذا العصر ، حيث ظهر اتجاه حديث يتمثل في نزعة تجريبية ريبية ، هدمت تماما بعض المذاهب الكبيرة التي وضعها لاهوتيو العصور الوسطى ، فأخذ يتلاشى اثر هذا القرن ، القول بالضرورات العقلية ، وبدأ يصبح للملاحظة دور في البحث عن تفسير للظواهر الطبيعية . وهذا البحث أدى الى نضوج الفلسفة الواقعية في انجلترا وفرنسا وقضت على جهود المدرسيين (*) في إقامة فلسفة تتفق مع الدين .[٩٤]

والحق ان وجود مشكلات معينة وتطورها هو من دواعي النظرة العلمية ، لذلك ان ما تفعله المذاهب الفلسفية ، هو التفكير في مرحلة المعرفة العلمية ، ولعل وجود الثغرات الكبيرة في النظام السياسي الفرنسي ، كان من اهم دوافع مونتسكيو، لتتبع اسباب الخلل وتصحيحها ، من خلال اعادة بناء القوانين على وفق مبدأها . [٩٥]

وبالفعل فقد اشتد غرام مونتسكيو ، للعلوم والرياضيات ، خاصة بعد ان انضم لأكاديميي بوردو سنة ١٧١٦ ، اذ حمل على تقييد حرية الفكر والبحث وإبداء الرأي ، وفعلا انشأ مختبرا بالأكاديمية ، وبدأ تجارب على الحيوانات بغية هدم نظرية الحيوانات الآلية التي سادت القرن السابع عشر ، وهي النظرية التي كانت تذهب الى ان الحيوانات لا نفوس لها ، وإنها مجرد آلات متقنة الصنع ، فلا تتألم ولا تشعر كالإنسان . ولقد أفاد مونتسكيو، من دراسة العلوم والتجارب العلمية ، اذ ردت اليه إيمانه بالله بعد ان كان يعتقد ان الدين وهم وخيال في خطاب صدر منه سنة ١٧١٦ ، عن سياسة الرومان إزاء الدين ، فالدراسات التشريحية التي أجراها مونتسكيو، قد كان لها اكبر اثر – فيما يرى النقاد – في تشكيل الفكر الديني ، عند مونتسكيو . [٩٦]

والفكر الديني عند مونتسكيو، ليس هو الفكر الديني في القرون الوسطى ، فالدين الجديد عند صاحبنا ، هو الدين الذي كان وفق الرؤية العلمية الجديدة ضمن مقتضيات التفكير العقلي ، وهذا يشير الى انه كان مثل روسو ، ولوك ، في نظرتهما للدين ، فهما ربوبيان ، على العكس تماما من فولتير وديدرو ، اللذين لم يتركا أي دور للعناية الالهية في مسار التاريخ .

لقد انصرف الفكر في هذا العصر الى الطبيعة وعلومها ، فنظر اليها نظرا غير متحيز ، وقويت الرغبة في التعرف على العالم من جديد ، ذلك بمساندة المنهج العلمي الجديد ، ولم تكن الفلسفة في هذا العصر فلسفة طبيعية فحسب ، بل كانت فردية كذلك ، فقد كان من خواصها لفت عقل الفرد وتحريره من كل ما يمكن ان يقوض تفكيره نحو تحقيق المعرفة العلمية . [٩٧]

---

* الفلسفة المدرسية هي فلسفة العصور الوسطى المسيحية التي نشأت في مدارس schola او تطورت فيها ، او تبناها ودافع عنها خريجوا المدارس ، ولقد كانت كلمة scoolas ticism تطلق على المدرس الذي يقوم بالتدريس ، وعلى خريج المدرسة في وقت واحد . ولقد انتشرت هذه المدارس في عهد شارلمان خصوصا في فرنسا والمانيا . وكانت في معظمها دينية . اما مدارس رهبان ملحقة بالاديرة وأما مدارس اسقفية لتعليم رجال الدين الذين لا يريدون الرهبنة ، وهي تشبه الى حد ما (الكتاتيب) التي كانت ملحقة بالمساجد في بلاد المسلمين آنذاك. انظر : رايت ، وليم كلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ٢٠١٠ ، ص٢٣ .

٩٤ ينظر : احمد ، قيس هادي ، دراسات في الفلسفة العلمية والإنسانية . مكتبة المنصور العلمية ، ط١ ، بغداد ، ١٩٩٩ ، ص٣٤ . وللمزيد عن خصائص الفلسفة الحديثة التي تختلف عن فلسفة القرون الوسطى انظر : تاتاركيفتش ، فواد سواف ، الفلسفة الحديثة من عصر النهضة وحتى التنوير . تر ، محمد عثمان مكي العجيل ، كنوز للنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص١٨ .

٩٥ ينظر : ريشنباخ ، هانز ، نشأة الفلسفة العلمية . تر ، فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ى ط٢ ، ببيروت ، ١٩٧٩ ، ص١١٠.

٩٦ ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠٠ .

٩٧ ينظر : أمين ، احمد . محمود ، زكي نجيب ، قصة الفلسفة الحديثة ، ج١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة ، ص٢٩ ،٤٨.

وهذه المعرفة العلمية ، في عصر النهضة كانت تسير ببطء ، ففي أواخر القرون الوسطى شهدت أوربا الغربية مدرستين علميتين رئيسيتين : مدرسة اوكام [*]، ومراكزها موزعة بين اوكسفورد وباريس ومدرسة ابن رشد [**] الأرسطية ، التي كانت على اتصال وثيق مع المدرسة الطبية في ايطاليا . ويعود عمل المدرسة الأولى الى القرن الرابع عشر والثانية الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . تناولت الأولى علم الحركة والاستمرارية . وتناولت الثانية علم الأصول وتوسعت في علم الحركة . وقد تقدمت المدرستان بالاستناد ، الى نقد ايجابي لفلسفة أرسطو الطبيعية ، وكانت مدرسة بادو بايطاليا (١٤٠٠) تعرف جميع ابتكارات المدرسة الاوكامية وتدرسها . وكان علماء بادو ابتداء من (بولس البندقي ت ١٤٢٩) ، الى (كريمونينين ت ١٦٣١)، واعين تمام الوعي للتباين الواضح بين علم الطبيعة الأرسطي العريق وعلم الطبيعة الرياضي الذي بلغ درجة قصوى من الكمال على يد غاليلو . [٩٨]

ويبدو ان تعدد المدارس ، وتوسع الباحثين وكثرتهم في نهاية القرون الوسطى وبداية عصر النهضة ، تؤكد ان التطورات التي شهدها العلم ، إنما هي ما زالت تدور في فضاءات أرسطو العلمية ، ولم يكن بوسعها الابتعاد عن الإطار الأرسطي ، وذلك من خلال السعي وراء نقد المذهب الأرسطي ، وان كانت مختلفة في طريقة نقدها .

ولا شك في ان ظهور العلم بوصفه عاملا من عوامل القوة قد أدى الى تغير كثير من حياة الناس ، ومثل خطرا على تقاليدهم وأعرافهم ، بل وقلب اسس تفكيرهم رأسا على عقب . فقد ترك العلم آثاره الواضحة في الحياة العامة للإنسان وغير كثير من النظم الاجتماعية الواضحة في الحياة العامة للإنسان ، كما غير كثير من النظم السياسية والاقتصادية والفكرية .وباختصار كان العلم في حقيقته ثورة شملت المجتمع من جميع جوانبه ، وأحدثت تطورا ضخما في مضمون الحياة الإنسانية ومحتواها ، وكانت النظرة الجديدة الى التاريخ هي كذلك مما اثر به ظهور العلم وتطوراته . [٩٩]

ولا بد من القول ، ان هذه الثورة التي شملت المجتمع في جميع جوانبه ، لم تكن حادثة مباغتة جاءت عرضا بغير تمهيد ، إنما هي نتيجة طبيعية لثلاث حركات كبرى شهدتها أوروبا وهي : بعث الآداب القديمة ، والإصلاح الديني [*] ، ونشأة العلوم الطبيعية ، وليست هذه الشعب الثلاث في حقيقة الأمر إلا مظاهر مختلفة لنهضة واحدة شملت أوروبا بأسرها فبعثتها بعثا جديدا .وما يعنينا في دراستنا لهذا الموضوع بشكل خاص هو نشأة العلوم الطبيعية ، وبشكلها العام ، تأثيرها في فلسفة مونتسكيو، في تفسيره للتاريخ والسياسة على أساس علمي يتفق مع نسق عصره . وتذهب العلوم الطبيعية الى دراسة ظواهر الطبيعة بالتجربة العلمية ، وهنا ينبغي الإشارة الى التفسير الجغرافي عند مونتسكيو ، الذي يتوافق مع الرؤية الجديدة للعالم ، والذي كان حينئذ قد امتد افقه واتسع

---

* نسبة الى الفيلسوف واللاهوت الانجليزي اوكام ، Occam ، ولد في اوكام ، في جنوب انكلترا ، بين سنة ١٢٩٥ وسنة ١٣٠٠ ، وتوفي في منشن (ميونخ) ، جنوب المانيا حوالي سنة ١٣٥٠ . درس اللاهوت والفلسفة في جامعة اكسفورد ، حيث حصل منها على اجازة التدريس ، وقام بالتدريس في جامعة اكسفورد ، للمزيد من التفاصيل انظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . ج١ ، سليمانزاده ، ط١ ، قم ، ١٤٢٧ هـ ، ص٢٥٢ . و : رايت ، وليم كيلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٤٠ .

** الرشدية هي مذهب اتباع ابن رشد في أوروبا ، وهو تيار في فلسفة العصور الوسطى يذهب معتنقوه الى ان العالم سرمدي والنفس فانية ، ولقد لقيت الرشدية اضطهادا قاسيا من الكنيسة . وكان للرشدية تأثير بالغ في فرنسا ، في القرن الثالث عشر ، بوصفا تيارا فلسفيا متقدما مضادا للنزعة القطعية التي كانت تسيطر على الكنيسة ، وكانت أيضا ذات تأثير في ايطاليا (مدرسة بادوا)، بدءا من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر .للمزيد انظر : روزنتال ، الموسوعة الفلسفية .المصدر نفسه ، ص٢٢٩

[٩٨] ينظر : احمد ، قيس هادي ، دراسات في الفلسفة العلمية والإنسانية ، المصدر نفسه ، ص٣٦ .

[٩٩] ينظر : رشوان ، محمد مهران .الفلسفة الحديثة والمعاصرة . المصدر نفسه ، ص٢٢ .

* اعتقد أصحاب هذه الحركة ان الدين الصحيح ينبع من خبرة الفرد الشخصية المباشرة في الحياة . ومن هذا المنطلق اخذوا بمحاربة اللاهوت – والكنيسة واستطاعوا ان يحرروا قوى الانسان الداخلية من الشكليات والطقوس المصطنعة ، فعاد لوثر بالمسيحية الى تعاليم القديس بولس وهي الاصل الذي انبثقت منه . ورأى ان الإنسان يستطيع الاستعلاء على الظروف الخارجية عن طريق اتحاده الشخصي الوثيق بالسيد المسيح ، ونادى باستقلال العائلة والدولة عن الكنيسة . ويمكن اعتبار حركة الإصلاح الديني على يد لوثر وزونكلي وكالفن تطبيقا للافكار الجديدة عن الدين . انظر : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي . دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص٢٠ . و : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ج٢ ، تر ، فؤاد زكريا ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص٤٠ . و : سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الاوروبي الحديث .المصدر نفسه ، ص٣٤ .

نطاقه بأكتشاف أمريكا والطرق البحرية الى الهند ، فكان هذا العصر ، هو عصر الاكتشافات الجغرافية الجديدة ، التي انبثقت على أساس المنهج العلمي ، الذي أدى الى اهتمام كثير من مفكري هذا العصر بالقضايا الجغرافية واستكشافاتها ومدى ارتباطها بالعلوم الطبيعية الأخرى ، ومن بين هؤلاء كان مونتسكيو .[١٠٠]

وبإمكاننا ملاحظة اثرهذا التفكير العلمي عند مونتسكيو ، وتمظهره في الأوضاع السياسية في فرنسا ، ومحاولته (نقد) أنظمة الحكم ، التي سعى أولا : الى تحليلها من خلال تفكيكها ومحاولة إظهار مواطن الضعف فيها ، التي أدت الى خلق الاستبداد في الحكم . وثانيا : الى إعادة إنتاج هذه الأنظمة السياسية ، من خلال تقديم البديل عن النظام الاستبدادي ، ووصفه الحكومة المدنية ، بأنها أفضل أنواع الحكومات لأنها قامت على أساس نظام سياسي نابع من مجموعة الضرورات الأساسية في طبيعة الأشياء . فكانت أفكاره تجد صداها في قلوب الفرنسيين ومن ثم الأوربيين ، لأنها كانت تمثل البناء التاريخي لحكومة تقوم على أساس ما سعى إليه مونتسكيو ، واعتبره من أوائل أهدافه وهو (الحرية السياسية) المنبثقة من إرادة شعب يؤمن بأن النظام السياسي الناجح ، هو المنبثق من تلك العلاقات الضرورية التي تحكم المجتمع ، ولا سبيل للوصول للغاية سوى الفصل بين السلطات ، وهذا ما بحثه مونتسكيو، في صفحات التاريخ الذي يعود اليه الفضل في اختراعه على وفق رؤية علمية .

وهذه الرؤية العلمية ساعدت في نشأتها مسائل وضعية ، اسهمت في إذكاء الاهتمام بالطريقة الرياضية في معالجة المشكلات الطبيعية .[١٠١]

وربما كان أروع تقديم للعلم في حلته الجديدة ومن خلال عصر النهضة ، هو الانقلاب الهائل في النظام الفلكي القديم المعروف بنظام بطليموس [*] والذي كان يعد صحيحا حتى ظهور العلم بوصفه سلطة منافسة للدين ، لكن ؟ إفلات العلم من قيود الكنيسة ، أدى به الى تفجير ثورات علمية كبرى انتهت بالتخلص من تصور بطليموس القائم على سكون الأرض على عدها مركز الكون ودوران الشمس وسائر الكواكب حولها .[١٠٢]

وجاء (كوبرنيكوس ، ١٤٧٣-١٥٤٣) ، بنظامه الفلكي الجديد حول مركزية الشمس ، فأرسى بذلك اسس علم الفلك الحديث . وأكد ان الشمس كائنة في مركز الكون وهي مصدر الضوء فيه ، وتدور حولها الكواكب في أفلاك ثابتة ذات مركز واحد وتقوم الارض ما بين الزهرة والمريخ وانها تدور حول نفسها . اما (ليوناردو دافنشي [*] ، ١٤٥٢-١٥١٩) فيعد احد مؤسسي العلم الحديث ، ودرس الطبيعة بروح علمية حديثة ، بحث عن الحقيقة لذاتها ، اظهر شغفا باستطلاع الطبيعة ومعرفة قوانينها ، وبهذا يكون مونتسكيو، قد اقترب كثيرا من دافنشي في تبحره في الطبيعة وعالمها ودراسة قوانينها . كما وان دافينشي يعد واضع علم الميكانيك الحديث بنحو مائة سنة قبل غاليلو ومائه وخمسين سنة قبل ديكارت . وطبق الرياضيات على الميكانيكا تطبيقا شاملا كما طبق النظرية الآلية على الطبيعة كلها . ويرى بأنه لا يمكن ان يرتقي اي بحث الى المستوى العلمي إلا اذا اعتمد على الأدلة الرياضية ومع اهتمامه بالرياضيات والعلوم البحتة ، فقد حرص

---

[١٠٠] ينظر : امين ، احمد . محمود ، زكي نجيب ، قصة الفلسفة الحديثة . ج١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ٣٨ .

[١٠١] ينظر : راندال ، جون هرمان ، تكوين العقل الحديث ، ج١، تر ، جورج طعمه ، مراجعة برهان الدين الدجاني ، تقديم محمد حسنين هيكل ، دار الثقافة ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٥٥، ص٣٦ .

[*] فلكي وجغرافي يوناني نحو (٩٠- ١٦٨) ، نشأ في الإسكندرية ، له المجسطي وجفرافية بطليموس . انظر : معلوف ، لويس ، المنجد في الاعلام . المصدر نفسه ، ص١٣٠ .

[١٠٢] ينظر : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة ، عرض نقدي . المصدر نفسه ، ١٩٧٤، ص٢٢.

[*] فنان عصر النهضة الأعظم ، جمع في فلسفته مقالة في التصوير ١٦٥١ ، بين الفنان والعالم وقال ان الفن كالعلم يصور الطبيعة ، لكن الفن يقدمها للحواس ، والعلم يعبر عنها بالقوانين ، وقال ان العلم يقوم على دعامتين : التجربة والإحصاء الرياضي ، ووصف الحكمة بأنها بنت التجربة وقال ان الحكم المبني على التجربة قد يخطيء ، ولتجنب الخطأ ينبغي اخضاع كل حكم للإحصاء الرياضي ، لان الرياضيات مبني على اساس اليقين . انظر : الحفني ، عبد المنعم ،الموسوعة الفلسفية . دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٢ ، ص١٧٨ .

على ان يجعل نظريته مرتبطة بالواقع التجريبي ، وذلك عندما أعلن بوضوح ان العلم لا يمكن ان يتقدم الا بأستعمال كل من الملاحظة والتجربة والبراهين الرياضية ، وعليه فهو يعد من رواد مؤسسي الفلسفة العلمية [١٠٣]

وهذا " يوهانس كبلر ، ١٥٧١-١٦٢٠ " ، اخذ على عاتقه منهجا رياضيا يهدف الى إثبات الانسجام المزعوم للكون . [١٠٤]

وفي كتابه (سر العالم) حاول اكتشاف العلاقات الرياضية المحددة في العالم ، التي هي من وحي الروح الإلهي ، والكون صورة الثالوث المقدس . فالشمس المركزية هي الأب ، والكرة المحيطة هي الابن والعلاقات الهندسية بينها وبين الكواكب والأفلاك هي الروح المقدس . فقد كان يحاول تفسير الظواهر الطبيعية تفسيرا علميا ، من خلال استعمال الهندسة والرياضيات اللتين اقر ، بأن لا تخلي عنهما بالأبحاث العلمية . [١٠٥] كما توصل الى ان " الكواكب ترسم في حركتها مدارات بيضاوية وليست دائرية وعلى هذا الأساس وضع كبلر قوانين علم الفلك الثلاثة [**] " . [١٠٦]

ويأتي (غاليلي غاليلو، ١٥٦٤- ١٦٤٢) ، الذي يعود له اكبر الفضل في الخطوة العظيمة التي حرر بها العلم من الغموض والأسرار ، فقد مات كوبرنيكوس سريعا ، ولولا مناصرة غاليلو لنظرية كوبرنيكوس لتأخر يومها طويلا ، كما ان استكشافاته المهمة قد زادت كثيرا في اندفاع الحركة كلها الى الأمام ، اذ كشف عن المنظر الأرضي للقمر بجباله ووديانه ، وكشف عن الكلف الشمسية ، وبهذا حطم العقائد التقليدية عن كمال الأجسام السماوية ، وجاء رصده للمشتري وتوابعه مثلا بينا للمجموعة الشمسية كما صورتها نظرية كوبرنيكوس ، وزيادة على ذلك فقد افلح بفكرته عن القصور الذاتي في تذليل كثير من الصعوبات التي كان يبدو انها تعترض الكوبرنيكوسية . [١٠٧]

وتنحصر أهمية غاليلو، من الناحية الفلسفية في نقطتين هما : منهجه العلمي ونظريته الآلية في الطبيعة . فأما منهجه العلمي فيقوم على استعمال طريقة التحليل وطريقة التركيب معا ، ويرى انه لا يمكن اكتشاف الحقيقة الا باستقراء فرضية من تجارب معينة وهذه هي مرحلة التحليل ، ومن ثم محاولة تركيب قياس يبين فيه ان هذه الفرضية تطابق التجارب الأخرى وهذه هي مرحلة التركيب ، وهكذا تتكامل الطريقتان التحليلية والتركيبية في منهج غاليلو الجديد [١٠٨].

ومن خلال منهجه هذا ، عد من أعظم مؤسسي العلم الحديث ، فقد خرج جذريا عن المذهب الأرسطي من ناحيتين : الأولى ، ان السكون ليس حالة مميزة للأجسام ، بل ان الحركة طبيعية شأنها شأن السكون تماما . وثانيا ، قد اثبت ان الحركة الطبيعية بالمعنى الخاص الذي كانت تستعمل به هذه الكلمة ، ليست هي الحركة الدائرية ،

---

١٠٣ ينظر : مهدي ، غادة عبد الستار ، الاستقراء والاستدلال في الفلسفة الحديثة . رسالة ماجستير (مخطوطة) مقدمة الى مجلس كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١، ص٤٧ .

١٠٤ رايشنباخ ، هانز ، نشأة الفلسفة العلمية . المصدر نفسه ، ص٩٦ .

١٠٥ ينظر : راندال ، جون هرمان ، تكوين العقل الحديث ، المصدر نفسه ، ص٣٥٠ .

** القانون الأول : هو ان الكواكب السيارة تقطع في أوقات متساوية أجزاء من مداراتها ما يكفي لحصر مساحات متساوية تتخذ الشمس مركزا لها . والقانون الثاني : هو ان مربعات مدد دورات الكواكب السيارة حول الشمس تتناسب طرديا مع مكعبات الوسط الحسابي لابعادها عن الشمس . والقانون الثالث : فقد عبر كبلر من خلاله عن العلاقة الرياضية الكائنة بين الزمن اللازم لدوران كوكب ما حول الشمس دورة كاملة وبين بعده عنها أي بعد الكواكب عن الشمس . انظر : راندال ، جون هرمان ، تكوين العقل الحديث ، المصدر نفسه ، ص٣٤٤. و : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٥١ .

١٠٦ متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٣٥

١٠٧ ينظر : وولف ، أ ، عرض تاريخي للفلسفة والعلم . تر ، محمد عبد الواحد خلاف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص٧٠.

١٠٨ ينظر : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٣٥-٣٦.

وانما هي الحركة في خط مستقيم ، فاذا لم يحدث تدخل من اي نوع في طريق جسم ما ، فانه يظل يتحرك بسرعة متجانسة في خط مستقيم . (١٠٩)

وهذا يعني ان المنهج العلمي الصحيح عند غاليلو، هو الاستقراء الناقص معززا بالقياس . فالطريقة العلمية في نظره تقوم على تقصي حالات معينة ومن ثم الاستدلال منها على حالات أخرى من خلال طرح فرضية . اما نظريته الآلية في الطبيعة ، فتقوم في اعتقاده بأن قوانين الحركة هي السبيل الوحيد للمعرفة العلمية . ويرى ، انه لم يتمكن من فهم إمكان تحول مادة الى مادة أخرى . ويعتقد ان ظهور كيفيات على شيء كان يعدها من قبل الى تغير في توزيع أجزائه وحسب ، وانه لا كون ولا فساد في هذه الأجزاء . وهذا ينطوي على انه لا يمكن تفسير التغيرات الكيفية في الطبيعة الا حين ترد الى تغيرات كمية اي الى حركات في الفراغ . فأصبح العالم في نظره يتكون من مادة وحركة . (١١٠)

ولا تكون الصورة التي نتحدث بها عن العلم وظهوره في عصر النهضة واضحة من دون الوقوف لزاما على مشعل النهضة في انجلترا ومن ثم أوروبا ، وهو فرانسيس بيكون ، (١٥٦١- ١٦٢٦) ، وان الجانب الجذاب من شخصية بيكون هو تحمسه الشديد للعلم والفلسفة . فقد رأى بصورة أكثر وضوحا من السابقين عليه او معاصريه ، مشهد التقدم البشري اللامحدود الذي تقوده المكتشفات العلمية . واهتم كتاباه الفلسفيان الأكثر أهمية بالمزايا التي تأتي من تقدم العلم ، والمناهج المناسبة للبحث عن طريق منطقه الاستقرائي الجديد (الاورجانون الجديد) عام ١٦٢٠ . ويعترف (ديدرو) Diderot وهو من أهم رواد عصر التنوير (*) ، في نشرة دائرة المعارف الفرنسية المشهورة ، بأن مؤلفيها يدينون لبيكون . ولو قدر لبيكون ان يعود مرة أخرى الى العالم في عصرنا هذا ، فأنه لن يندهش من التطورات التي حدثت في العلم المحض ، ومن التقدم في الاختراعات الآلية ، ومن التغيرات التي أحدثتها الثورة الصناعية . لقد قدر ما لسكان كتابه الخيالي (اطلانطس الجديدة) من مؤسسات للبحث المنظم الذي أدى الى اختراع آلات طائرة ، وسفن تغوص ، وهواتف ، ومكبرات صوت ، ووجبات جديدة صناعية ، وإنتاج صناعي لمعادن جديدة ، ونباتات ، وحيوانات ، مفيدة للإنسان . وسوف يشعر بخيبة أمل من ناحية أخرى ، لأنه لم تتم – على عكس ما كان يتوقع – تطورات مكافئة في العلوم الاجتماعية ، مع تحسن مناظر في الحياة الاجتماعية .(١١١)

---

١٠٩ ينظر : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٥٣ .

١١٠ ينظر : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٣٥-٣٦.

* عصر التنوير ، هو اتجاه ثقافي ساد أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر ، بتأثير طبقة من المثقفين عرفوا باسم المتفلسفين ، وكانوا صحفيين وكتابا ونقادا ورواد صالونات ادبية ، من أمثال فولتير وديدرو وكوندرسيه وهولباخ وبيكاريا ، ولم يكونوا أصحاب فكر بقدر ما كانوا مروجيين ، لأفكار عصرهم ، ولو انه من الظلم ان ندرج معهم فولتير وديدرو فقد كانا فلاسفة من الصف الأول ، ولكن هؤلاء المتفلسفين اخذوا عن الفلاسفة العقليين ديكارت وسبينوزا ولايبنتس ولوك الذين طبعوا القرنين السابع عشر والثامن عشر بطابعهم الثقافي حتى أطلق على هذه الفترة اسم عصر العقل وكان التنوير نتاجه ولو شئنا اختيار شخصية نموذجية تدل على التنوير لكانت هذه الشخصية هي شخصية جيفرسون ، او لكانت مزيجا من جيفرسون وفرانكلين وتوماس بين ، ويمكن بشكل عام تقسيم أفكار التنوير الى ثلاث مجموعات تحمل عناوين العقل والطبيعة والتقدم ، وتكون في مجموعها الفلسفة الطبيعية والأخلاق الطبيعية ، واساسها العلم وكان الإيمان به مطلقا كالإيمان بالعقل . انظر : الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية ، المصدر نفسه ، ص١٤٢ .

١١١ ينظر : رايت ، وليم كيلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٦٥

وان افكاره الفلسفية لم تكن منقطعة الصلة بالتفكير الفلسفي العام ، فانه اعلن في كتابيه (مقدمة لتفسير الطبيعة) و (فكر وانظر) ، انه قد وضع منهجا جديدا للكشف العلمي . [١١٢]

وقد " أراد بيكون ان يضع للعقل الإنساني خطة جديدة يسير عليها ولكنه قبل ان يقوض الاطلال القديمة ليقيم في مكانها بناءه الجديد ، عمد الى تطهير العقول من كل ما يشوبها من تعصب وجمود ، فأن أردنا ان نفكر تفكيرا سليما وان نبحث بحثا منتجا صحيحا فلا بد ان نتخلص من هذه الأخطاء والأوهام الباطلة التي تحول دون سلامة التفكير . ويريد بيكون بادئ بدء ان يسجل عوامل الخطأ وأسباب الزلل قبل ان يمضي في رسم خطته الجديدة ، وهو يحصرها في مجموعات أربع يطلق عليها هذه الأسماء : أوهام الجنس [*]، وأوهام الكهف [**] ، وأوهام السوق [***] ، وأوهام المسرح [****] " . [١١٣]

ويرى ، برتراند رسل ، في كتابه (حكمة الغرب) ، ان (بيكون) ، أكد على الحاجة الى منهج جديد او أداة جديدة للكشف ، يحل محل نظرية القياس التي أصبح افلاسها واضحا للعيان . وقد وجد بيكون هذا المنهج في الصيغة الجديدة التي وضعها للاستقراء . [١١٤]

ويستوقف الباحث تساؤل هو ، هل ان الاستقراء لم يكن قديما ؟ فنلاحظ ان هذه الفكرة لم تكن في ذاتها جديدة فقد استعملها أرسطو قبل بيكون ، بيد ان أسلوب أرسطو في عرض الفكرة كان مختلفا ، اذ كان أرسطو، يستعمل طريقة التعداد البسيط للأمثلة ، واستعمل هذه الطريقة لعدم وجود اكتشافات للعلم والمنهج العلمي في مناخات عصره ، اما بيكون فقد استحدث طريقة جديدة في عرض فكرة الاستقراء ، وهي وضع الظواهر التي تشترك في صفة معينة هي موضوع البحث ، وايضا هناك قوائم بالظواهر التي تفتقر الى هذه الصفة ، وكذلك قوائم بالظواهر التي تمتلك هذه الصفة بدرجات متفاوتة .

" وانطلاقا من منهجه العلمي الجديد ، يشن بيكون ، حملة عنيفة على المنطق القديم ويعده عقيما ، لأنه لا يفيد مطلقا في اكتشاف أسرار الطبيعة في قيام علوم جديدة وانما يؤدي الى ترسيخ الأخطاء التي تستند الى مفاهيم توارثناها ، فيحجب عنا الحقيقة . ولذلك فأضراره أكثر من فوائده " . [١١٥]

---

[١١٢] الجابري ، علي حسين ، فلسفة العلوم . دروس في الأسس النظرية وأفاق التطبيق . دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ، ٢٠١٠ . ص١٢٤ .

[*] وهي الأخطاء التي تقوم في الطبيعة البشرية ولذلك فهي مشتركة بين الأفراد جميعهم وترجع الى اننا لا ندرك الأشياء من حيث علاقتها بالكون وعلى مثاله بل من حيث علاقتها بنا وعلى مثالنا . انظر : بيكون ، فرانسيس ، الاورجانون الجديد . تر ، عادل مصطفى ، رؤية للنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص٢٨ . وانظر ايضا : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي . المصدر نفسه ، ص٤١ .

[**] لأنها ترجع الى ان كل فرد منا يعيش في عالم خاص به يشبه الكهف له طبيعته الخاصة وتربيته ونشأته وصلاته بالاخرين وظروفه العقلية والصحية . انظر : بيكون ، فرانسيس ، الاورجانون الجديد .المصدر نفسه ، ص٢٩ . وانظر ايضا : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي . المصدر نفسه ، ص٤٢ .

[***] وهي الاخطاء التي تنشأ من تبادل الأفكار بين الناس بواسطة اللغة . انظر : بيكون ، فرانسيس ، الاورجانون الجديد . المصدر نفسه ، ص٢٩ . وانظر ايضا : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي . المصدر نفسه ، ص٤٣ .

[****] وهي الأفكار التي تسربت الى عقول الناس من خلال المعتقدات الدينية والفلسفية ومن خلال قوانين البرهان الباطنة . انظر : بيكون ، فرانسيس ،الاورجانون الجديد . المصدر نفسه ، ص٣٠ . و : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي . المصدر نفسه ، ص٤٤ .

[١١٣] أمين ، احمد ، محمود ، زكي نجيب ، قصة الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ،ص٦٢.

[١١٤] ينظر : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٥٩.

[١١٥] متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٣٨.

ولو قرأنا النص الاتي لفرانسيس بيكون ، نجد انه يؤكد عدم جدوى المنطق القديم حيث يقول " مثلما ان العلوم في وضعها الحالي لا تجدي نفعا في اكتشاف نتائج جديدة ، كذلك المنطق الذي بحوزتنا لا جدوى منه في اكتشاف العلوم " . [١١٦]

فكانت الحاجة ماسة الى وضع منهج جديد للبحث يستعاض به عن منهج القياس الذي تمرد عليه رواد الفكر الحديث ، فوضع بيكون (الاورجانون الجديد) ليعارض به (الاورجانون – الأداة الذي وضعه أرسطو قديما). [١١٧]

وهذا " نيوتن (١٦٤٢- ١٧٢٧) ، وكان قد ولد في السنة نفسها التي مات فيها غاليلو . وكان اول من ادرك مغزى قوانين غاليلو الثلاثة [*] في الحركة ، او في ادراك تلك القوانين التي صادفت على مر الزمن قبولا عاما في الصيغ التي صاغها بها نيوتن . وكان الجديد في الفلك الحديث هو محاولة تفسير حركة السيارات تفسيرا ميكانيكيا ، فكل الفلكيين الى عهد كبلر ، قصروا اهتمامهم على هندسة حركات السيارات (اي الشكل الدقيق لمساراتها) . وكان قانون الجاذبية اجمع وأوسع اكتشاف وصل اليه الى ذلك الحين ولبث مستوليا على الأذهان أجيالا . فقد انتظم في صورة عامة كل الظواهر الطبيعية للكون ، وفسر ظواهر شتى متباعدة كسقوط التفاحة " . [١١٨]

وهكذا فقد تميز العصر الحديث عن العصور القديمة ، بأنه قد حقق أعظم الانجازات العلمية ، التي كان التفكير فيها أسيرا لدوافع اللاهوتيين ، لأنه يتعارض مع مصالحهم الذاتية ، ولان التفكير العلمي لا يسمح بالتعظيم من شأنهم . وربما كانت هذه المزايا ، من أهم دوافع مونتسكيو ، لتشكيل الرؤية العلمية ، وتبني الروح النقدية الجديدة التي سادت عصره [١١٩] ولاشك في ان ظهورالفلسفة العلمية [**]، أدى الى نشوء تلك الحقبة التي اكتشف الانسان فيها " ان المفاهيم الأرسطية عن الطبيعة والحياة أصبحت أضيق من ان تستوعب وجهات النظر والخبرات الجديدة التي ظهرت نتيجة الظروف التاريخية والجغرافية آنذاك . وقد تميزت هذه الحقبة بثقة الانسان في الطبيعة ورغبته الملحة في البحث عن قوانين ثابتة يستطيع من ضوئها ان يفسر الظواهر الطبيعية . وهذا أدى الى تكوين مفهوم موحد جديد عن الطبيعة والى اكتشاف طريقة جديدة للبحث " . [١٢٠]

وليس هناك شك في ان هذا الاتجاه الجديد نحو الطبيعة وأسرارها كان عاملا قويا من عوامل النهضة الحديثة . وقد نماه اكتشاف كرستوف كولمبوس [*] لأمريكا ، وما توصل اليه العلماء والصناع من مخترعات حديثة ، فأن هذه المخترعات زادت الناس يقينا بأن الطبيعة مملوءة بالآيات والمعجزات ، الواجب دراستها والبحث عن دخائلها . ولا يخفى انها من جهة أخرى كانت بذاتها أداة صالحة من أدوات النهوض الغربي الحديث . وفي هذا الامر

---

[١١٦] بيكون ، فرانسيس ، الاورجانون الجديد . المصدر نفسه ، ص١٩ .

[١١٧] ينظر : متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ،ص٤٥.

[*] هي ان الهندسة موجودة قبل خلق الكون ، وانها مشاركة في ازلية عقل الله ، وانها الله بالذات . للمزيد من التفاصيل انظر : سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الاوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص٥٦ .

[١١٨] وولف ، عرض تاريخي للفلسفة والعلم . المصدر نفسه ، ص٧٤-٧٨.

[١١٩] ينظر : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب . المصدر نفسه ،ص٥٧.

[**] هي جانب من الفلسفة يتناول مشكلة العمل الإنساني ، كما وينطوي مفهوم الفلسفة العلمية على كل تأمل يتناول العلاقات الاجتماعية (علم الاجتماع) ، والعلاقات بين مختلف (الطبقات) ، والتأمل السياسي والاقتصادي ، وتقابل الفلسفة العلمية الفلسفة النظرية التي تجيب على تساؤل الانسان (ماذا عساني ان اعرف) ؟ ، وتتميز عن فلسفة الدين التي تطرح السؤال التالي : ماذا يحق لي ان ارجوا ان سلكت في حياتي سلوكا يتوافق مع مبادئ الأخلاق . انظر : جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة . نقله الى العربية ، فرنسوا ايوب واخرون ، مكتبة انطوان ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص٣٨٥ .

[١٢٠] متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ،ص١٤ .

[*] كريستوف كولمبوس ، ١٤٥١ - ١٥٠٦ ، بحار رائد ، ولد في جنوب ايطاليا وتوفي في اسبانيا ، مكتشف امريكا ابحر من بالوس في ٣ اب ١٤٩٢ ووجهته بلاد الهند عن طريق الغرب فوصل الى شواطئ سان سلفادور في ١٢ تشرين الاول ١٤٩٢ . انظر : معلوف ، لويس ، المنجد في الاعلام . المصدر نفسه ، ص٤٧٧ .

نلاحظ لدى فلاسفة عصر النهضة ظاهرتين مهمتين : أولاهما روح نقد شبيهة بتلك الروح التي عرف بها العلماء والأدباء ، وثانيتهما بعث للمدارس اليونانية القديمة والتعصب لها ومعارضة بعضها ببعض [١٢١]

ونحن نعتقد ان مونتسكيو ، امتاز بهاتين الظاهرتين ، فنلاحظه قد أقام فلسفته العامة على أساس من النقد [**] ، وكذلك فلسفته في التاريخ ، فلم يكن النقد يفارق أراء هذا الفيلسوف في كل مؤلفاته ، حتى اننا نلاحظه عندما كتب رائعته (روح الشرائع) ، تعرض الى النقد من كل حدب وصوب ، مما اضطره الى ان يكتب كتابه (دفاعا عن روح الشرائع) وقد تضمن التعريف بآليات النقد وكيف يجب ان تكون . أما في النقطة الثانية ، اي العلاقة مع الموروث اليوناني والروماني ، فنراه قد تعامل معه بعلمية عالية جدا ، حيث بين ضرورة الاهتمام ببعضها والاستفادة من تلك الخبرات ، وكذلك نبذ البعض الاخر لتفادي حصول الأخطاء التي ادت الى انهيار تلك الحضارات الشاخصة .

المطلب الثاني : نحو منهج علمي .

أولا :- النزعة الطبيعية وأثرها في البحث التاريخي .

كان من نتائج انتهاج (المنهج التجريبي) هو التقدم في العلوم الطبيعية ، التي تمثلت بكل ما أحرزته من تقدم على العلوم الإنسانية ، فتساءل علماء الإنسانيات عن مدى إمكان تطبيق منهج العلوم الطبيعية على علوم الانسان لتحرز بدورها تقدما مماثلا . واصحاب المنهج العلمي جعلوا من الطبيعة علما نظريا ، يهدف الى استكناه ماهية الوجود ، فوضع الطبيعة في موضعها الصحيح وأصبح علما يبحث في كيفيات المادة او أحوال تغيرها ، لا في ماهيتها ، ولا يتم استكشاف الكيفيات الا بمنهج الاستقراء الذي يقتضي جمع اكبر عدد ممكن من الأحوال المتعلقة بالظاهرة المراد دراستها في الظروف المتغيرة من اجل (الوصول الى قانون) ، وذلك حتى يتسنى للإنسان السيطرة على الطبيعة وتسخيرها له .[١٢٢]

على ان الوصول الى (قانون) ، هو من خطوات المنهج العلمي (*) والذي نحن بصدد تطبيقه في محاولة تفسير الظواهر الطبيعية ، التي سوف تمثل في دراستنا لـ مونتسكيو ، محورا أساسيا ، لان هذه الظاهرة الطبيعية التي اثرت في المجتمع وقوانينه كانت تمثل البناء التاريخي لمجتمع ما . فكانت الخطوات المستعملة في المنهج العلمي ، هي ذاتها التي يستعملها الباحث في التاريخ ، مثل الفرضية ، الملاحظة ، التجربة ، النظرية ، القانون .

---

[١٢١] ينظر : مدكور ، ابرهيم ، كرم ، يوسف ، دروس في تاريخ الفلسفة .دار بيبلون ، (ب،ط) ، باريس ، (ب،ت) ،ص١٩٠.

[**] و يعني النظر إلى الأمور بهدف التمييز والمناقشة من أجل التقويم ،وعلى ذلك فهو أداة لإظهار الحقائق واضحة وجلية. وفي النقد الصحيح تهذيب للأفكار وتنوير العقول، والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب بلا جور ولا محاباة ،وقد يذهب بصاحبه إلى التوفيق بين الآراء المختلفة. والنقد Critique هو أساس التقدم العلمي والتقني والاجتماعي والاقتصادي والتاريخي والسياسي ،إذ إنه يُعد الخطوة الأولى للعقل إزاء رفض شيء ما بهدف تعديله أو إلغائه . الجالي ،،زكريا منشاوي، منهج البحث النقدي عند كارل بوبر،من كتاب فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي ،مركز دراسات الوحدة العربية،أعمال الندوة الفلسفية الخامسة عشر،الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص ١٨٥.

[١٢٢] ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٤. وانظر ايضا : وولش ، مدخل لفلسفة التاريخ . تر ، احمد محمود ، مؤسسة سجل العرب ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

[*] وللمزيد من التفاصيل عن المنهج العلمي القائم على الاستقراء ، انظر : سبتي ، محمد عودة ، آليات التفكير العقلي للفلسفة الغربيةدراسة نقدية للفلسفة الحديثة والمعاصرة . اطروحة دكتوراه (مخطوطة) ، مقدمة الى مجلس كلية الاداب / جامعة الكوفة ، ٢٠٠٤ ، ص٧١ .

" وعندما أفلتت الطبيعة من قبضة الغايات الثابتة المرسومة التي كانت ممسكة بها ، تحررت الملاحظة وانعتق الخيال ، ونشط التجريب الرامي الى خدمة الأهداف العلمية والعملية للانسان . وقد حمل ذلك على ان يصطنع الباحثون في عصر النهضة امرين ليتسنى لهم اكتشاف قوانين الطبيعة ، وهذان الأمران جوهريان للمنهج العلمي وهما : الأول ، ان يراقبوا الظواهر الطبيعية عن طريق المشاهدة والتجريب حتى يدركوا الطريقة التي تكرر بها نفسها ، وبذلك سوف يعثرون على النموذج الذي تكرر بمقتضاه . والثاني ، ان يفكروا: من وراء هذا النموذج العلمي ، ليحللوا ويستدلوا ، ويضعوا يدهم على تنظيمها العقلي البسيط ، وذلك بغية العثور على القوانين التي يمكن إدراكها بالعقل . ومن هذا الربط بين الجانبين التجريبي والعقلي يتكون المنهج العلمي ".[١٢٣]

ويبدو واضحا ان مونتسكيو ، استعمل الامرين معا ، اذ انه من خلال مراقبته الظواهر الطبيعية ، لجأ الى المشاهدة والتجربة ، بدلالة انه أسس مختبرا لاجراء التجارب في أكاديمية بوردو ، وكان يحاول اخضاع الظواهر الطبيعية التي يشاهدها إلى مختبره . وكذلك راح يفكر من وراء هذا المنهج في التحليل والاستدلال ، وتدل عملية تحليله لنصوصه الثلاثة على انتهاجه هذا الامر .

وبكل تأكيد ان المنهج العلمي مقترن بالبحث العلمي – بل ان المنهج العلمي هو أهم أدوات البحث العلمي ، وإذا ما علمنا ان البحث العلمي ، هو محاولة منظمة وموضوعية تستهدف دراسة مشكلة محددة من اجل التوصل الى مبادئ عامة ، ويسترشد الاستقصاء ببيانات علمية جمعت من قبل ، ويرمي الى إضافة جديدة الى هيكل المعرفة القائم حول الموضوع ، كما ان معرفة الإنسان تنمو وتتراكم عن طريق دراسة ما هو معروف بالفعل ، وكما تعتمد على مراجعة المعارف السابقة في ضوء الاكتشافات الجديدة ، ولذلك يمكن النظر الى كل محاولة لدراسة مشكلة ما بطريقة منظمة ، والى كل إضافة جديدة الى معرفة الإنسان بمشكلة معينة بوصفها بحثا . فوجب علينا ، ان نعد البحث العلمي في أي علم من العلوم ، عملية مستمرة وتيارا متدفقا من العمل العلمي المنظم ، ويستند الى قواعد علمية تتسم بالدقة والمرونة والموضوعية ، كما انه نشاط فكري منظم وموثق ومصاغ في مجموعة من الخطوات التي يتبعها الباحث العلمي باستعمال المنهج العلمي للوصول الى معرفة جديدة او مضافة او وضع تصورات لحل المشكلات البحثية والمجتمعية . لذلك فان كل ما توصل اليه مونتسكيو ، من بحوث معرفية تمثل جانب المشكلات المجتمعية ، كانت أساسا له في الخوض في غمار القوانين وروحها .[١٢٤]

وهذا ما سوف يدفعنا الى عد منهج البحث التاريخي ، من مناهج البحث العلمي ، ولم يستطع أحد ألبته فصل منهج البحث التاريخي ، عن البحث العلمي ، ففي هذه الملاقحة تتضح لنا صورة لقاء المنهج بالرؤية ، فالبحث التاريخي يمثل في احد واجهاته ، محاولة الإجابة عن تساؤلات ، هي صناعة التراكمات الزمكانية ، والبحث عن إيجاد قوانين بغض النظر عن أنواعها ، تجعل من قراءة التاريخ متاحة ومنطقية . فكان المنهج التاريخي بأمس الحاجة ، للبحث العلمي ، وما سوف نقرأه من كتابات مونتسكيو، لجعل المنهج التاريخي ، الذي يعد واحدا من مناهج العلوم الإنسانية ، تابعا لذلك المنهج الذي خضعت له العلوم الطبيعية .[١٢٥]

وبناءا على ذلك فأن المعرفة التي تستحصل ، يجب ان تكون - وفق مونتسكيو - معرفة علمية ، وهي أرقى درجات المعرفة وأدقها ، فهي تأتي نتيجة تخطيط علمي منظم ، وتعد هذه المعرفة الأساس في كل تقدم حضاري ، لان الانسان تمكن من خلال قدراته العقلية ومعرفته العلمية ان يصل الى مستوى متقدم من التنظيم الفكري والنضج العقلي واستطاع السيطرة على عناصر بيئته ، كما ان المعرفة العلمية أرقى من المعارف السابقة ، اذ

---

[١٢٣] قنصوة ، صلاح ، فلسفة العلم . دار التنوير للطباعة والنشر ، (ب،ط)، بيروت ، ٢٠٠٨، ص١٢٤.
[١٢٤] ينظر : قنصوة ، صلاح ، فلسفة العلم . المصدر نفسه ، ص١٢٤.
[١٢٥] السماك ، محمد أزهر. سعيد وآخرون ،أصول البحث العلمي . مطبعة جامعة صلاح الدين ، ط٣ ، (ب،م) ، ١٩٨٩ ،ص١٢ .

تقوم على أساس الملاحظة العلمية المنظمة المقصودة للظواهر الطبيعية ، وعلى أساس وضع الفروض المناسبة والتأكد منها بالتجربة وتجميع البيانات وتحليلها ، ولا تحاول المعرفة العلمية ان تقف عند المفردات الجزئية التي يتعرض الانسان لبحثها ، بل يحاول الباحث ان يصل الى القوانين والنظريات العامة التي تربط هذه المفردات بعضها ببعض وتمكنه من التعميم والتنبؤ بما يحدث للظواهر المختلفة تحت ظروف معينة . والمعرفة العلمية هي التي يكتسبها الانسان باستعمال المنهج او الطريقة العلمية التي يمكن تلخيصها بأنها : عملية لاكتساب او تنمية المعرفة بطريقة منظمة ، تعتمد على تحديد المشكلة وصياغة الفروض وتحليل نتائج الدراسة واستخلاص التعميمات .[١٢٦]

وحب المعرفة غريزة أساسية ودافع أصيل في الانسان تجعله يفتش عن الوسائل والأساليب التي تعينه من إشباع هذا الدافع وتحققه ، ولعل من الصعب تحديد تاريخ محدد لبدء المعرفة من قبل الإنسان ولكن يمكن التعميم بأنها بدأت مع بدء الحياة . فالإنسان الأول بدأ يتطلع وينظر ويتحسس عناصر بيئته ويسجل ويرتب احداثها وظواهرها . وعموما يمكن القول بوجود ثلاث مراحل لتطور المعرفة هي : المعرفة المادية (الحسية) والمعرفة الاستنباطية او الفلسفية او التأملية والمعرفة العلمية او التجريبية . وان محاولات(أوجست كونت) Compte Auguste ، ١٧٩٨ – ١٨٥٧[*]، للتقريب بينها ، والذي ينطلق من ان العلوم جميعا تشترك في افتراض ان هناك علاقات منظمة بين الظواهر المختلفة ، تهدف الى الكشف عن هذه العلاقات والتوصل الى قوانين او نظريات تحدد منهجياتها .[١٢٧]

و" القوانين في أوسع معناها ،هي العلاقات الضرورية المشتقة من طبيعة الأشياء ، ولجميع الموجودات قوانينها من هذه الناحية ، فللإلوهية قوانينها وللعالم المادي قوانينه ، وللإفهام التي هي أسمى من الانسان قوانينها ، وللحيوانات قوانينها ، وللإنسان قوانينه ". [١٢٨]

والى اكثر من ذلك يذهب مونتسكيو ، الى وجوب " ان كانت قد استخدمت كواحدة من تلك المفاتيح التي استعملها مفكرو عصر النهضة ، التي أدت الى تطور العلوم ومن ضمنها علم التاريخ ، فكان لهذه النزعة الطبيعية اثر واضح في تبلور منهج البحث التاريخي ، وتطوره نحو المشاركة الفاعلة مع باقي العلوم الأخرى في البناء العلمي الذي ساد عصر النهضة ، وربما كانت من أهم ملامح النزعة الطبيعية أنها واقعية " .[١٢٩]

ويظهر انتاج مونتسكيو، في بحثه الفلسفي في التاريخ ، منهجا علميا في النقاط الاتية :

أولا – منهج العلم : جمع اكبر عدد ممكن من الوقائع التاريخية بطريقة احصائية بهدف الوصول الى احكام كلية على غرار ما هو حاصل في العلوم الطبيعية . كان مونتسكيو ، عندما كتب مثلا ، في تأملات في تاريخ الرومان واسباب انحطاطهم ، فقد كان يسعى الى جمع اكبر عدد ممكن من الوقائع ، من اجل إجراء النقد والتحليل وإصدار الاحكام .

---

[١٢٦] ينظر : الجبوري ، حسين محمد جواد . الجنابي ، قيس حاتم هاني . منهجية البحث التاريخي . مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١، عمان ، ٢٠١٣ ، ص٩١.

[*] فيلسوف فرنسي ، مؤسس الوضعية ، كان سكرتيرا ورفيقا لسان سيمون (١٨١٨ – ١٨٢٤) . وكانت القضية الأساسية في الفلسفة الوضعية عند كونت هي مطلبه ان يقتصر العلم على وصف المظهر الخارجي للظواهر . انظر : لجنة من العلماء والأكاديميين السوفاتيين ، الموسوعة الفلسفية ، المصدر نفسه ، ص٣٩٧ .

[١٢٧] ينظر : السماك ، محمد أزهر سعيد وآخرون ،أصول البحث العلمي .المصدر نفسه ،ص١٢ .

[١٢٨] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١، المصدر نفسه ، ص١١.

[١٢٩] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص١٨.

ثانيا – غاية العلم : وهي غاية برجماتية علمية في الطبيعة . تسخير الطبيعة لصالح الانسان ، اما في التاريخ فالهدف تزويد الانسان بأحكام تمكنه من ان يفهم معنى الأحداث الحاضرة في ضوء خبرته بالماضي ، بل كذلك إلقاء الضوء على المستقبل . وهذا ما حاول مونتسكيو ، ان يقدمه للفرنسيين . اراد ان يزودهم بالخبرات الكافية التي تمكنهم من بناء التاريخ الجديد لفرنسا ، وذلك من خلال عملية استحضار التاريخ الروماني والاستفادة من خبراته لاجل اصدار الاحكام الجديدة .

ثالثا – استقلال العلم عن الدين : لم تصبح غاية العلم خدمة اغراض اللاهوت . وقد تمثل ذلك ايضا في التاريخ ، فاستبعد المؤرخون النظرة الأخروية التي تجعل غاية التاريخ في خارج نطاق العالم وانما في العالم الاخر ، لقد اصبح هدف مسار التاريخ في نطاق العالم الحاضر ، كما اصبح التاريخ ممثلا لأفعال الانسان لا لأية قوة غيبية . فكان مونتسكيو ، عرضة لتهمة الإلحاد بسبب إصراره على تغييب التفسير اللاهوتي الذي يتعارض مع التفسير العلمي للتاريخ ، ذلك لأنه كان مصرا على عدم الرجوع الى ما قبل العلم أي قبل عصر النهضة . [١٣٠]

رابعا – التفسير : وهو من اكثر وظائف العلم أهمية . واذا كان الوصف يجيب على السؤال : (ماذا) هناك ؟ فان التفسير يجيب على السؤال (كيف) يحدث ، او (لماذا) يحدث على هذا النحو؟ ما يوجد هناك ؟ . وهذه التساؤلات هي بذاتها التي حاول فيلسوف التاريخ الإجابة عنها . وهنا نلاحظ مونتسكيو، يفسر في كتابه (روح الشرائع) ، كل الظواهر الاجتماعية ويفسر لنا ارتباطها بالقانون المناسب مع طبيعة البيئة ، وفي كتابه تاملات ..... ، يفسر لنا مثلا ، أسباب انهيار سوريا وخسارتها الحرب مع الرومان ، ويفسرها في الفصل الخامس من هذا الكتاب [*] .

خامسا – التنبؤ : انه الوظيفة او المهمة ، او الهدف الذي لا بد ان يتحقق إذا ما كان المشروع العلمي ناجحا . فليس له أوصاف او شروط محددة عن وظائف العلم الأخرى ، بخلاف ما يجب توافره في التفسير . فالتنبؤ او امكان التنبؤ هو الحصاد الأخير للوصف والتفسير . ولا يكاد المؤرخ المتبع للمنهج العلمي ان يفارق التنبؤ ، لما يوفره من القراءة المستقبلية للتاريخ . وهذا ما كان يؤمن به مونتسكيو ، تماما ، فنراه يشرح لنا علميا كيف ان الرومان استعملوا العلم للإطاحة بأساطيل العرب فيقول " مهندس من سوريا يدعى كلينيكوس ، اكتشف طريقة لصناعة نار تنفخ في انبوب ، لا تنطفيء بالماء كنار عادية ، بل تزيد التهابا ، استعمل الروم هذا السلاح الجديد واستطاعوا طيلة قرون إحراق أساطيل اعدائهم ، سيما العرب " [١٣١] ومونتسكيو ، يقصد ان العلم قاد الى التنبؤ بالنصر ، وهكذا فان التاريخ عنده علم ، والعلم يصنع التاريخ .

سادسا – التحكم : ان ما يميز رجل العلم من غيره ، هو ايثاره للتحكم فهو المعيار الأصيل للعلم ، والتحكم والتنبؤ يستعملان بمعنى واحد عند المؤرخ ، لان التنبؤ بوقوع ظواهر معينة انما هو التحكم في ذلك التكرار في الووع . ومونتسكيو، قدم للطبقة السياسية الحاكمة وصايا ونصائح ، من خلال تقسيمه لأنواع الحكومات ومدى ملاءمتها لطبيعة المبدأ الذي قامت عليه ، وكانت هذه الوصايا والنصائح بمثابة وسائل قانونية للتحكم باحداث التاريخ والسيطرة عليها ، وكذلك التنبؤ بما سوف يقع ولذلك فان رجل التاريخ المتبع للمنهج العلمي كما وصفه مونتسكيو بامكانه ان يتحكم بالتاريخ . [١٣٢]

---

[١٣٠] ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٢.

[*] مثال على ذلك يقول مونتسكيو " ثم ان ملوك سوريا كانوا كثيري الغيرة من الرخاء الذي نعمت به مصر في كل عهد . هاجسهم على الدوام غزو ذلك الإقليم . لهذا الغرض أهملوا شرق المملكة فضاع منهم قسم وتهلهلت طاعة الباقي " . للمزيد من التفاصيل انظر : مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط . تر ، عبد الله العروي ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ٢٠١١ ، ص٥٩ .

[١٣١] مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهوض والانحطاط ، المصدر نفسه ، ص٢١٧ .

[١٣٢] ينظر : قنصوة ، صلاح، فلسفة العلم . المصدر نفسه ، ص١٤٣،١٤٢،١٤١.

ويمكن القول اذن ان دراسات مونتسكيو، التاريخية تاثرت بالنزعة الطبيعية ، اذ اثر منهج العلم الطبيعي على التاريخ فأصبحت خطوات منهج البحث التاريخي عنده على النحو الاتي :

اولا : منهج تجريبي استقرائي غير مباشر اذ لا يخضع التاريخ للتجريب .

ثانيا : حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من الاحداث التاريخية .

ثالثا : حصر الواقعة المراد دراستها زمانا ومكانا حتى يستطيع الباحث ان يستوفيها بالدراسة .

رابعا : الوصول الى احكام كلية تمكن من الاستفادة بها في الحاضر والمستقبل .

فضلا عن تجليات الفلسفة الطبيعية ذهبت في تأثيرها في المنهج التاريخي ، فيما بعد الى ان يقدم (فيكو) أوهاما [*] يقع فيها المؤرخون على غرار ما تحدث عنه (بيكون) من أوهام بالنسبة للفلسفة الطبيعية ، وهذا يعني ان فكرة التحرر من الأوهام قد لقيت صدى عند من أراد ان يقوم بدراسة التاريخ .[١٣٣]

والعلوم لا يمكن ان تنشأ وتتطور مناهجها الا من خلال معالجة مشكلاتها الواقعية وتقديم الحلول لها . ومن هنا يبدو لنا ظهور مونتسكيو، فيلسوفا واقعيا نقديا ، لأنه بحث في الظاهرة الطبيعية كما هي ، ومن ناحية ارتباطها بالمجتمع ، ومن ناحية التأثير على قوانينها الحتمية ، ولذلك ، كان قد شكل رؤية جديدة في فلسفته الواقعية ، التي قامت على المنهج العلمي الجديد ، ولنا ان نسميه (الاورجانوني الجديد)، وناقضت الرؤية الأرسطية القديمة ، وهنا لم يكن فيلسوفنا غريبا عن اجواء عصره ، لكنه كان يحمل جديدا في الرؤية ، اذ كان يرى بمنظاره الجديد ، ان دراسة الظواهر الطبيعية هي جزء من المنهج العلمي الجديد ، وعندما تأسست (الرؤية) لديه ، كان لا بد له من اختيار المنهج ، فكان منهجه علميا نقديا ، فوجد ان منهج الواقعية العلمية النقدية ، هو الذي يؤدي به الى التطبيقات ، التي وجدناها في كتابه (روح الشرائع) ، ومن توفر الرؤية والمنهج لديه ، بزغت فلسفة التاريخ النقدية ، التي هي موضوع الدراسة .

ومن ناحية أخرى فأن التأملات المنهجية والابستمولوجية (المعرفية) الخالصة ، لم تستطع أبدا ان تلعب دورا حيويا في تحقيق مثل هذه النشأة والتطور ، دون المرور بالمنهجية المتكاملة. [١٣٤]

---

* تأثر فيكو ببيكون فيما ذكره في الجزء الأول من كتابه الاورجانون الجديد ، عن أوهام الفكر ، فأعتبر ان المؤرخين عرضة لأوهام مماثلة حصرها في أربعة وانتقد فيها الآراء القديمة عن مبادئ التاريخ البشري ، وهذه الأخطاء وقعت فيها أمم كاملة كما وقع فيها العلماء والباحثون إذ تصوروا البدايات الأولى للبشرية على ضوء حياتهم وثقافتهم وعصرهم المستنير ، وكان من الطبيعي ان يقع كلاهما في الخطأ والوهم وفي هذا المعنى قدم المسلمات التالية في خصائص العقل البشري ، وهي المسلمات التي ترتب عليها وقوع كل من الشعوب والباحثين في الخطأ . وهي . أولا : العقل الإنساني يجعل من نفسه مقياسا للحكم على الأشياء جميعا كلما ظل في الجهل . ثانيا : حكم العقل البشري على الأمور المجهولة والبعيدة على أساس الأمور المألوفة له والقريبة منه . ثالثا : وقعت الأمم في الخطأ عندما تصور كل منها ان تاريخ العالم بدأ مع بداية تاريخ شعبه وأمته ، وانها سبقت جميع الأمم في اكتشاف أسباب الراحة والترف للإنسان . رابعا : وقع الباحثون في نفس الخطأ عندما بالغوا في تصوير الحكمة الفذة لبعض الشعوب القديمة . انظر : ابو السعود ، عطيات محمد ، فلسفة التاريخ عند جامبا تيستا فيكو . التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ ، بيروت ، ٢١٠ ، ص٤٢ .

١٣٣ ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٢.

١٣٤ ينظر : مجموعة من المؤلفين ، تاريخ التفكير الاجتماعي . دار المسيرة ،ط١ ، عمان ،٢٠١١ ،ص١٨٥.

ثانيا : السببية التاريخية.

وتبدو أمام الباحث حقيقة لا غبار عليها ، في ان السببية التي أنتجت مدى الترابط بين القوانين ، لم تكن تتعلق بموضوع دون اخر من موضوعات المنهج العلمي الحديث[*]، الذي اتخذ من الاستقراء وسيلة لتسلق العلم ، وكان المنهج الجديد هو المنهج البديل الذي حل محل المنهج القديم (المنهج الأرسطي) ، وعندما حل هذا المنهج الجديد ، كان عليه ان يكون أسلوبا في البحث العلمي يغطي فيه أنواع العلوم الطبيعية بجملتها ، وينتقل الى العلوم الإنسانية ، ليجد لها آلية جديدة تسمح لها بأن تخضع لمنهج العلوم الطبيعية ذاته ، وهنا نلاحظ ان مونتسكيو، قد سبق (أوجست كونت) في محاولته إخضاع العلوم الإنسانية الى منهج العلوم الطبيعية ، وربما باستعمال الأدوات ذاتها ، اذ أكد مونتسكيو، على دراسة المجتمع ، من خلال دراسة القوانين المنتظمة بين أفراد المجتمع الواحد ، ومن خلال التعمق في طبيعة هذه القوانين ، كذلك الحال عند (كونت) عندما اعتبر ان علم الاجتماع هو أساس كل العلوم ، بل انطلق من دراسته لعلم الاجتماع الى العلوم الأخرى . فكان علم التاريخ من بين العلوم الإنسانية الكبيرة الشأن عند الفلاسفة ، وكذلك فأن السببية العلمية ، هي ذاتها السببية التاريخية ، استنادا الى قاعدة ان التاريخ هو علم ، فما يمكن تطبيقه من القواعد على احد العلوم الطبيعية يمكن تطبيقه على علم التاريخ ، فالحادثة التاريخية ، تخضع الى السببية التي تؤدي الى حتمية بذاتها ، وعلى الرغم من اختلاف مقومات الأسباب التاريخية في زمكانية بعينها ، الا انها ما زالت تخضع لقوانين ، وهذه القوانين كما حددها مونتسكيو، لا بد وان تخضع لعوامل نشأتها الطبيعية ، والظروف التي كونتها ، لأنها تبقى تدور حول فلك تلك الظروف الطبيعية التي مثلت الضرورة فيما بين هذه العلاقات ، وهذه العلاقات ، هي علاقات سببية ، تنطلق من نقطة بعينها وتتطور وفق صيرورة محددة ، لتصل الى النتيجة الثابتة ، وهي الحتمية . فمن نقطة البداية الى الحتمية هناك قوانين تقوم بدورها وفق ما يعرف بالسببية .

فالسببية إذن وليدة تحرك الكون نحو التوسع ، وترابطاتها حتما تدل على سياقات يمكننا ان نعقلها ، فهي عاقلة من جهة او ميكانيكية او نتيجة ميكانيكية من جهة أخرى ، وهكذا أنتجت السببية بآليتها في صلب بنية المنطق الإنساني – بسبب تعاقب الزمن الذي يسمح لنا بان نكون حيوانات عاقلة ، تتجه مع الكون في توسعه ، وعلى هذا التوسع تتطور وتتحول وتتنمو وتموت ، وكذلك هي الأحداث التاريخية في نشأتها وتطورها .[١٣٥]

وتغدو النظرة واضحة للتاريخ من خلال الاهتمام بالتعليل ، فالتاريخ بلا تعليل مجرد تقويم ، فدراسة التاريخ هي دراسة اسباب ، واذا كان جمع المادة التاريخية يمثل الخطوة الأولى فأن التعليل يمثل الخطوة الحاسمة في كتابة التاريخ ، فالمؤرخ الحق هو الذي يقوم بتعليلات أصيلة لم يسبق اليها ، وتكون مقنعة في تفسير احداث التاريخ ، ولقد عرفه المؤرخون منذ القدم فهيرودوت ، الملقب بابي التاريخ قد حدد هدفه في مستهل كتابه ، حفظ أعمال اليونان والبرابرة (غيراليونان) حتى لا تنساها ذاكرة الانسان وعلى الأخص بيان اسباب حروبهم ، وكذلك أشار ابن خلدون ، الى ان التاريخ في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها ، غير ان التعليل – بالنسبة للتاريخ الأوربي القديم والوسيط قد اتخذ طابعا متميزا منذ عصر التنوير كأثر لانتهاج منهج العلم الطبيعي ، لقد حدد مونتسكيو، اسم كتابه في التاريخ : " اعتبارات عن اسباب عظمة الرومان ونهضتهم وتدهورهم " وأشار في مقدمة الكتاب الى ان هناك أسبابا عامة خلقية او طبيعية تعمل في كل مملكة فتؤدي الى نهضتها وحفظها او تدهورها فذلك كله خاضع للتعليل ، واتضحت فكرة التعليل ايضا في كتابه " روح

---

[*] من السهل تحديد السبب في إطار مفهوم تجريبي للتاريخ . فبما ان التاريخ في مثل هذا المفهوم ، تاريخ حدثي ، فالسبب فيه حدث . معنى هذا ان علاقة السببية بين الأحداث هي ، ان وجدت ، علاقة تتابع بينهما ، يتحدد فيها الحدث السابق كسبب واللاحق كأثر ، لمجرد كون الأول سابقا على الثاني في تسلسل التتابع بينهما . انظر ، عامل ، مهدي ، في عملية الفكر الخلدوني ، دار الفارابي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٤ ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ١٩ .

[١٣٥] ينظر ، نصري ، هاني يحيى،منهج البحث العلمي . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت ، ٢٠٠٤، ص١٢٤ .

الشرائع" ذلك انه من السخف في رأيه ان ترد وقائع التاريخ الى الصدفة العمياء ، فسلوك البشر تحكمه مبادئ مشتقة من طبيعة الأشياء .[١٣٦]

وهنا لا بد من التمييز بين مفهومي السببية والعلة ، في التاريخ ، فالسببية هي غالبا ما يحوم حولها المؤرخ حين يبحث او يعالج حادثة او واقعة معينة ، اذ يحاول ان يجد لتلك الواقعة او الحدث التاريخي الذي يدرسه عوامل سببت في حصولها ، فيجهد نفسه للخوض في الأسباب ، ومنذ ان بدأ في إرساء علم التاريخ الحديث في القرن الثامن عشر ، كان الباحثون ينطلقون في بحثهم عن التاريخ من مفهوم فكرة السببية . فمثلا مونتسكيو، اتخذ نقطة انطلاق قائمة في كتابه (أبحاث في اسباب عظمة الرومان وفي صعودهم وانحطاطهم) المبدأ القائل ان هناك أسبابا عامة معنوية او مادية تفعل فعلها في كل مملكة فترفعها.... وان كل ما يحدث انما يخضع لتلك الأسباب . بل ان عنوان الكتاب ذاته هو دلالة واضحة ، الى ان محتويات الكتاب تتضمن دراسة في الأسباب التي أدت الى العظمة وكذلك في الأسباب التي أدت الى الانهيار ، وقد وجدنا السببية كذلك ي مؤلفه المشهور (روح الشرائع) ، ولا يكاد أي تعليق لمونتسكيو ، يخلو من السببية ، وهذا يزيد ايماننا ، انه فيلسوف النقد والواقعية العلمية .[١٣٧]

وللغوص اكثر في أغوار السببية التاريخية ، نتوقف عند مفهوم السببية الكافية [*] أو (العلة الكافية) ، لنأخذ التفسير الاتي ، اذ يمكن القول بأنها علة سطحية تظهر بمجرد النظر الى الحادثة او الواقعة التاريخية ، لكونها تطفو فوق سطح الحادثة لتعد ظاهريا هي المحرك الأساس للواقعة وذلك تمييزا عن العلة العميقة ، وهي التي يصعب التوصل اليها وتفهمها من خلال النظرة المجردة الى الحدث او الواقعة التاريخية ، بل ان ادراك تلك العلة يستدعي بعد نظر وفكر عميق ، لكونها العلة الفاعلة التي تؤدي دورها في التاريخ . واذا كانت العلة السطحية تبدو وكأنها المحرك للحدث التاريخي فان العلة العميقة هي التي تولد الحدث وتسير بداخلها ببطء وروية حتى تبلغ الهدف الذي من اجله وجدت العلة . وقد عدت العلة التي تنفذ من اجل بلوغ غاية معينة يتم تحصيلها بالتاريخ وسيلة للفلاسفة الذين اخذوا في رسم مسارات للتاريخ ذات اتجاهات متباينة بتباين المدارس الفلسفية التي ظهرت في عصر التنوير حين اخذ الفلاسفة في البحث عما يمنحهم القدرة على التصدي للمؤثرات الميتافيزيقية في فهم التاريخ التي كانت قد سادت في حقبة العصور الوسطى ، وهي التي روج لها رجال الدين في الكنيسة التي تعد المحرك الرئيس لحركة التاريخ الى غاية واحدة ، وهي تخليص البشرية من الخطيئة الأولى [١٣٨]

وهذا جان جاك شفاليه ، يصف فكرة مونتسكيو ، عن السببية ، بالغرور الفكري الرائع " لقد وضعت المبادئ ورأيت الحالات الخاصة تنحني لها كما بذاتها ، تواريخ جميع الأمم توابعها فقط ، وكل قانون خاص مرتبطا بقانون آخر او تابعا لآخر اعم " . ما هي هذه المبادئ ؟ هي ذي : كل قانون له عقله – علته ، لان كل قانون نسبي الى عنصر من الواقع الفيزيائي او المعنوي او الاجتماعي ، كل قانون يفترض علاقة . تسلسل علاقات ،

---

١٣٦ ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص٣٠. وللمزيد عن السببية التاريخية عند مونتسكيو انظر : الشكرجي ، جعفر ، السببية التاريخية في الفكر الغربي من اوغسطين الى هيجل ، بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس ، المجلد الثاني ، ط١ ، ٢٠١١ . ص٢٩٨ .

١٣٧ ينظر : كار ، ادوارد ، ماهو التاريخ ،. تر ، ماهر الكيلاني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٣، بيروت ، ١٩٨٦ ص٩٨

* والكافي ، ما يحصل به الاكتفاء والاستغناء ، نقول الشرط الكافي او السبب الكافي ، والسبب والمكتفي عند الحكماء هو ما أعطى ما يتمكن به من تحقيق كمالاته . انظر : صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٢٢٠ .

١٣٨ ينظر : المزوري ، زاهدة محمد الشيخ طه ، اركولوجيا فلسفة التاريخ ،المسار التطوري لفلسفة التاريخ .دار ومكتبة البصائر ،(ب،ط) ، بيروت ،ص٤٠.

تنظيم علاقات (وضعية) ، هذا روح القوانين . لنترك الكلام الى مونتسكيو ، سيقول لنا ان الروح قوامه في (العلاقات المختلفة) التي يمكن ان تكون للقوانين مع أشياء مختلفة مع أشياء (بلا عدد) علاقات (بلا عدد) .[١٣٩]

اما العلة التي تصنف في حقل البعد الفلسفي فتكون في الغالب غير مرئية او ماثلة لعيان المهتمين ، لأنها تتجاوز الخاص والفردي من التطور ، وتسعى الى بلوغ ما هو عام وكلي ، وان كانت في الواقع تأخذ وقتا في الظهور يطول او يقصر لحين ان يطفو على سطح التاريخ هو الهدف الذي كانت العلة تدور حولها لتضرب بأطنابه من اجل بلوغها . على ان الإقرار بوجود مبدأ او قانون العلة في التاريخ ، يعد في الواقع محاولة لتنظيم التجربة البشرية الماضية بواسطة اكتشاف اسباب الأحداث التاريخية والقوانين التي تحكمت بها ، وان الإقرار بوجود قانون العلة كفيل بإخراج التاريخ من مأزقه ، لان العلة التي تخلق الأحداث تنتهي الى غاية تتحقق في المستقبل . فالعلة التي تسير التاريخ انما هي العلة الغائية ، وهي ما رفضها مونتسكيو ، بالكامل لعدم إيمانه بايلاء التاريخ الى غاية غيبية ، قام عليها المنطق الأرسطي واخذ عنها الفلاسفة المحدثون ، وأدخلت الى قوانين العلم والفكر وكذلك التاريخ .[١٤٠]

وتجدر الإشارة الى ان هناك تحولا قد حدث في مفهوم العلية ، بالنسبة لتطور العلم وتوظيفه المنهج الاستقرائي ، مما أدى الى تأثير هذا التحول في التاريخ ، وهذا التحول الحاصل لما طرحته الفلسفة من رؤية جديدة للتاريخ ، تتوافق مع ما قدمه عصر النهضة للعلم في أوروبا ، وهذه الرؤية جلبت معها استبدال فكرة العلية بفكرة القانون ، واتخذ هذا الأمر صيغة رياضية بعيدة كل البعد عن الجدل الفلسفي حول فروع العلل القديمة ، وكان هذا التحول من ضرورات التحول الكلي في أوروبا ، والذي طرح ايضا مفهوم فلسفة التاريخ ، بوصفه مبحثا مستقلا من مباحث الفلسفة ، بل بوصفه تطورا من تطورات البحث في نظرية المعرفة فجاءت فلسفة التاريخ كتجلي من تجليات نظرية المعرفة ، وبهذا فالسببية التاريخية هي الأخرى قد تطورت من مفهوم العلية ، على اعتبار إننا غادرنا مفهوم العلية بتصوراته الغيبية التي تقوم على فكرة البحث عن العلة الأولى وكيفياتها وارتباطها بالمعلولات ، وانتقلنا الى المنهج العلمي الجديد الذي يسلك الاتجاه المعاكس في المعرفة ، فلم يعد للعلية نوافذ ، بعد ان فتحت السببية أبوابها .

والسببية التاريخية أخذت مجالها الذي يتناسب مع انتمائها الجديد للعلم ، وراحت تتحرى فيما وراء الظواهر وعللها ، واخذ هذا التحري التاريخي يزداد اعتناقا للمبادئ العلمية الأصيلة .أي انه افترض ان القوانين والعلاقات التي نلاحظها ونتحقق منها بواسطة الاختبار ، اليوم قد اتبعت في فعلها ذات الطريقة في كل مرحلة من مراحل الماضي ، وان الماضي يجب ان يفسر بالاعتماد المستمر على مثل هذه القوانين دون غيرها . هذا هو المبدأ الكبير في التماثل الطبيعي الذي يؤكد العمل الكلي المتماثل للعلل والقوى التي نلاحظها ، وهذا التماثل قد جسده مونتسكيو في تأكيده على طبيعة القوانين ومدى تطورها وفقا لطبيعة المجتمع الذي تحدده مجموعة من العوامل كان أبرزها العامل المناخي والتربة .[١٤١]

ويعتقد الباحث أن مونتسكيو، لم يترك موضوع السببية التاريخية دون بصمة واضحة ، فقد اتخذ من السببية نقطة انطلاقة ، في كتابه (أبحاث في اسباب عظمة الرومان وفي صعودهم وانحطاطهم) المبادئ القائلة ان " هناك اسباب عامة ، معنوية او مادية ، تفعل فعلها في كل مملكة فترفعها ، وتحفظها ، او تقلبها " وان " كل ما يحدث انما يخضع لتلك الأسباب " وبعد بضع سنوات عمد مونتسكيو، الى تطوير فكرته وتعميقها في كتابه " روح

---

[١٣٩] ينظر : شفاليه ، جان جاك ، المؤلفات السياسية الكبرى من مكيافلي الى أيامنا . تر ، الياس مرقص ، دار الحقيقة ،ط١، بيروت ، ١٩٨٠ ،ص١٠٧.

[١٤٠] ينظر : المزوري ، زاهدة محمد الشيخ طه ، اركولوجيا فلسفة التاريخ ،المسار التطوري لفلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص٣٨-٣٩.

[١٤١] ينظر : راندال ، جون هرمان ، تكوين العقل الحديث ، تر ، جورج طعمه ، المصدر نفسه ، ص١١٨.

القوانين " فمن السخف الاعتقاد ان " القدر الأعمى افرز كل الآثار التي نشاهدها في العالم " والناس " لا يخضعون لأحكام أوهامهم وحدها " ذلك لان سلوكهم يتبع قوانين او مبادئ معينة مستقاة من "طبيعة الأشياء" وأبان ما يقرب من مائتي سنة بعد مونتسكيو، كان المؤرخون وفلاسفة التاريخ منهمكين في محاولة لتنظيم التجربة الماضية للبشرية بواسطة اكتشاف اسباب الأحداث التاريخية والقوانين التي تحكمت بها . وكانت القوانين والأسباب تعد ميكانيكية أحيانا ، وأحيانا بيولوجية ، غيبية ، او اقتصادية ، او نفسية . لكن كان مقبولا من الناحية النظرية ، ان التاريخ يتشكل من ترتيب احداث الماضي في سياق منظم قوامه السبب والنتيجة .[١٤٢]

وقد يكون مونتسكيو ، أول من تحدث عن السببية في التاريخ بهذا القدر من العمق والاتساع ، ليكتشف من خلالها العوامل التي تشكل طبيعة المجتمع وشكل الحكومة وقوانين الدولة ، ليعطي العوامل الطبيعية من المناخ والموقع الجغرافي وطبيعة الارض ، الدور الأكبر في توجيه مسار التاريخ .[١٤٣]

ولا يخفى على القارئ ، ان الباحث حاول ان يجد طريقة للموازنة فيما يخص الاختلافات الواردة حول مدى كون كلمة سببية هي اقرب الى كلمة علة ، بعد ان وجدنا ان هناك من يفرق بين الكلمتين ، فنلاحظ ان (ويد جيري) في كتابه (المذاهب الكبرى في تفسير التاريخ) يذهب الى عدم التمييز بين الكلمتين ، اذ عد ان العلة هي السبب ، وكذلك الحال بالنسبة الى (ادوارد كار) في كتابه ما هو التاريخ ، فنراه يتكلم عن السببية ، عندما يضرب مثلا عن فوران الحليب ، ويقول ان النار هي علة فورانه . ويبدو الاختلاف واضحا في مفهوم الكلمة ، وكان هذا بسبب تغير مفاهيم بعض المصطلحات بعد عصر النهضة ولاسيما عصر التنوير (عصر الاستنارة)، فقد فرض المنهج العلمي الجديد آلياته على الكثير من العلوم ومنها الإنسانية ، فكان المصطلح الجديد الذي يتناسب مع العلم بلباسه الجديد

المبحث الثالث : فلسفة التاريخ في عصر مونتسكيو .

المطلب الاول : فلسفة التاريخ في عصري النهضة والتنوير .

أولا : بواعث فلسفة التاريخ .

أ – العودة الى الإغريق والرومان ، والشك بالماضي .

مثلت الكتابة التاريخية جزءا من عملية انبعاث الآداب القديمة ، وهذه الأخيرة كانت نوعا من الثورة الفكرية ضد فلسفة القرون الوسطى التي سادت في أوروبا . وفي مجال التاريخ ، تمثل ذلك بتوسيع حقل التدوين التاريخي ، خارج المنظومة الدينية ، وحلول الحدث السياسي ومسؤولية الحكام عنه محل المشيئة الإلهية وتدخل القديسين

---

[١٤٢] ينظر : كار، ادوار ، ماهو التاريخ ، المصدر نفسه ،ص٩٨.
[١٤٣] ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص٧٢.

فيه . ولعل أول من مثل رد فعل الامر هو (مكيافللي) الايطالي الذي جعل من القرار السياسي متعلقا بإرادة الحاكم وأساليبه وحروبه بعيدا من أي تدخل غيبي في الحدث . وبذلك تحول التاريخ القديم (ولاسيما اليوناني والروماني) الى دراسة لسياسات الحكام والملوك ، فأضحى جزءا من السياسة المدنية وحقلا يفيد في ممارسة السلطة .[١٤٤]

وتشير كتابة التاريخ في العصور الوسطى[١٤٥]، في جانب من جوانبها ، رجوعا الى الأسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر الأكبر [*] ، وعلى أيام الرومان ، فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية ليستنبطوا منها الحقائق، و لكنهم لم ينتقدوا هذه المصادر و لم يحللوها التحليل العلمي الدقيق ، وإذا كان بعض مؤرخي ذلك العصر قاموا بمحاولة النقد ، فأن هذه المحاولة كانت تستند إلى التقدير الشخصي لكل منهم دون استناد إلى فهم علمي ، فكانوا يصدقون كل ما جاء في مصادرهم .[١٤٧]

" لذلك كان على مؤرخي نهاية العصور الوسطى ، أن يوجهوا كتابة التاريخ ، توجيها جديدا فيخلصوها من الخضوع لنظريات اللاهوت الفلسفية التي سيطرت على مجرى الأحداث التاريخية و رسمت لها مسارها دون أي اعتبار للواقع المادي و لنشاط الإنسان في رسم هذا المسار " .[١٤٨]

فكان النقد خير وسيلة للتخلص من آثار التفسيرات اللاهوتية القديمة ، ومما لاشك فيه ان النقد ، بما هو ممارسة فكرية ، لم يفارق الموقف الفلسفي . ووجدنا هذا الأمر جليا عند مونتسكيو ، اذ لا يمكن فصل النقد ألبتة من فلسفته ، بل ان فلسفته بالكامل قائمة على الروح النقدية التي أصبحت من ابرز سمات فلسفته .[١٤٩]

ولم يقتصر النقد على جانب معين من جوانب المعرفة ، بل كان نقدا كليا للمعرفة ، من خلال استعمال المنهج العلمي ، يقول الجابري ، في كتابه (فلسفة العلوم . دروس في الأسس النظرية وأفاق التطبيق) . " وينظر في تطبيق المنهج العلمي المستعمل في العلوم المختلفة نظرة نقدية فلا فرق بين علم واخر في ممارسة المنهج العلمي . مثل منهج الاستقراء الذي يستعمل في جملة علوم طبيعية وانسانية . وهنا يتناول النقد العلمي طبيعة ذلك المنهج وأصالته وبلوغه النتيجة التي ينتهي اليها من خلال التطبيق " .[١٥٠]

على ان هذا الاسلوب العلمي في التفكير ، خلق اتجاها أخر لدى مفكري عصر النهضة ، قائما على اخضاع الحادثة التاريخية او الواقعة القديمة ، الى اعادة البناء في نصوصها ، من خلال اخضاعها للمنهج الشكي الحديث الذي ساد طريقة البحث العلمي الجديد .

الى اكثر من هذا ، اذ ذهب (مكيافللي) ، الى ان الشرور والكسل ، سببها النقص في المعرفة الحقيقية للتاريخ . ويخلص الى النصح بقراءة التاريخ القديم ، واستخلاص المنفعة السياسية منه ، ويجب ان لا تتوقف قراءة التاريخ عند حدود المتعة ، بل يجب محاكاة الاعمال العظيمة المستوحاة من العودة للتاريخ ، وهكذا فعل تماما مونتسكيو، عندما قرأ ودرس الدستور الانكليزي ، وانبهر به تماما ، وذكر أنه استنبط الحرية السياسية منه . على ان العودة

---

[١٤٤] ينظر : كوثراني ، وجيه ، تاريخ التأريخ . المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، ط١، بيروت ، ٢٠١٢، ص١٤٧.وللمزيد عن الحاجة لاحياء التراث اليوناني انظر : الادهمي ، محمد مظفر ، تاريخ اوروبا الحديث . مطبعة التعليم العالي ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص١٩ .

[١٤٥] للتفاصيل ينظر : فشر ، هربرت ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، تر ، نجيب هاشم ، ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤، ص٧٨ .

[*] الاسكندر الأكبر(٣٥٦-٣٢٣ ق.م) : من أشهر الغزاة الفاتحين ، لقب بذي القرنين .ابن ملك مقدونيا.اجتاح بلاد فارس سنة ٣٣٣ق.م ، واخضع صور بعد حصار دام سبعة أشهر . واحتل مصر وأسس الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق،م مات بالحمى في بابل. انظر : معلوف. لويس ، المنجد في الأعلام ، مؤسسة دار العلم ، ط٢٦ ، قم ،١٣٨٢هـ ، ص٤٥.

[١٤٧] ينظر : حسين ، محمد عواد ، صناعة التاريخ ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، نيسان ، ١٩٧٤ ، ص ١٢٩ .

١٤٨ حسين ، محمد عواد ، صناعة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٢٨

[١٤٩] ينظر :بغورة ، الزواوي ، في النقد الفلسفي . محاولة في تحديد المفهوم . مجلة عالم الفكر ، المجلد ٤١ ، العدد ٤ ، الكويت ، ٢٠١٣ ، ص٤١ .

[١٥٠] ينظر : الجابري ، علي حسين ، فلسفة العلوم . دروس في الأسس النظرية وأفاق التطبيق . المصدر نفسه ، ص٢٢ .

الى الماضي ، ولاسيما الماضي اليوناني والروماني ، الذي دعا (مكيافللي) الى الرجوع اليه كمرجعية تاريخية بهدف استخلاص قواعد لعلم السياسة وممارستها من موقع الملوك والامراء ، وهذه القضية لم تكن تعني ركونا لأخبار الماضي ، ففي سياق هذه العودة الى التاريخ اخضع كثير من اليقينيات السائدة للشك . وهذا الشك بدأ مع (جان بودان) ١٥٣٠ – ١٥٩٦ . ولا سيما فيما يتعلق بمنهج النظر الى التاريخ ، فكتابه في المناهج (١٥٧٦) ، يأخذ موقفا من موقفا اللاهوت ورأي الكنيسة . ويكمل مكيافللي ، عندما يرى ان دراسة التاريخ تنطوي على اهتمام ذهني وعلى قيمة براغماتية للأخلاق والسياسة ، وهو يرى ان حركة التاريخ تظل تنتظم في نظام عام له قوانينه التاريخية المماثلة لقانون الطبيعة ، وهذا يحيلنا الى مونتسكيو ، في تمسكه بتلك العلاقة بين القوانين التاريخية التي سماها بـ (السببية) والقوانين الطبيعة الناجمة من طبيعة الاشياء ، والتي ما زالت تمثل تلك الضرورة القصوى بين الاشياء .[١٥١]

وتبدو القفزة العلمية التي حدثت للتاريخ في أوروبا ، من عده حقلاً خاصاً بالأدباء و رجال اللاهوت ، إلى عده علماً من العلوم ، لم تكن بعيدة القدم في التاريخ ، فهي واحدة من الثمرات الحديثة نسبيا للنتائج الفكرية التي ترتبت على ما اصطلح عليه في أوروبا بـ (عصر النهضة) ، الذي امتد لثلاثة قرون بين عامي (١٤٥٠ – ١٧٥٠) ، وهذه المدة هي حقبة التوسع الأوروبيإلتي شهدت اتصالاً واسعاً بين الحضارات المختلفة ، و كان لها اكبر الأثر في الفكر الأوروبي والأنظمة الأوروبية . وكانت أقوى العوامل الباعثة على تحويل الفكر وتنشيط البحث في كل مجال وعلى مستوى البحث التاريخي ، لذلك فان المؤرخين في هذه المرحلة اندفعوا بحماس للكتابة في تاريخ وآداب الشعوب والبلدان المكتشفة أو المستعمرة . [١٥٢]

ب – الحروب الدينية .

وتعد الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت ، من ابرز العوامل التي أثرت في الكتابة التاريخية في اوروبا ، فقد اصبح التاريخ في سياق هذه الحروب مرجعا للناس ، يستمدون منه اقتل القذائف وافتك المدمرات في السجالات التي ثارت بين لوثر والبابا ، وبين البروتستانت والكاثوليك . وبرغم ان البحث لم يكن نزيها البتة ، فقد تناوله كلا الفريقين لنشر الدعاية المذهبية ، الا ان الأمر لم يخل من الفائدة ، كما يقول هرنشو ، في كتابه علم التاريخ ،" اذ جاءت الحقيقة التاريخية نتيجة غير مباشرة لتصادم الدعايتين المتنافستين الكاثوليكية والبروتستانتية " . [١٥٣]

وتداخلت مع هذه الحقبة الكنيسية ودورها في كتابة التاريخ مع حقبة أخرى اصطلح عليها حقبة الاصلاح الديني [*] ، متمثلة بثورة البروتستانت [**] . ففي خضم الصراع العنيف بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي تأثرت الكتابة التاريخية بهذا المؤثر ، اذ اندفع كل جانب الى استثمار المصادر والوثائق التاريخية من قبل اللاهوتيين البروتستانت ضد الكاثوليك . بمعنى ان الكتابة التاريخية الموضوعية شهدت تحديا وتعرضت لضربة هدفها كبح حرية التفكير التاريخي بتوجيه المصادر والوثائق والكتب وجهة خاصة. تمثلت في اعادة هيكلة الجدار

---

[١٥١] ينظر ، هرنشو ، ج، علم التاريخ ، تعريب ، عبد الحميد العبادي ، دار الحداثة ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٢، ص٣٣.

[١٥٢] ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٥٥ .

[١٥٣] ينظر : هرنشو ، علم التاريخ ، بواسطة ، كوثراني ، وجيه ، تاريخ التأريخ . المصدر نفسه ، ص١٤٩.

* للتفاصيل عن حركة الإصلاح الديني انظر : الهاشمي ، أياد علي ، تاريخ أوربا الحديث ، دار الفكر للطباعة والنشر ، عمان ، ٢٠١٠ ، ص٥٦-٩٠ .

** إن مصطلح (البروتستانت) مشتق الديني بما فيهم الانكليكان وجماعات الجناح اليساري . انظر : غنيمة ، حارث يوسف ، البروتستانت والانجليون في العراق ، مطبعة الناشر المكتبي ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٩٨

الديني مقابل تقعيس العقل وامكاناته ، لكي يرضخ الى فكرة ان العقل يحكمه التاريخ ، وهذا جل التفسير الديني للتاريخ .[١٥٤]

" ولقد أسفرت تعددية الطوائف وتناحرها ، الى ضرورة التفكير بفرض التسامح فرضا على المجتمع ، والحق انه خلال الحروب الدينية ، اشتطت كل طائفة في اضطهاد الطائفة الأخرى . فتنامت الحاجة الى قبول الآخر وفق لغة التعايش والسلم ، ومن ثم كان لا بد من الاتجاه نحو نظام سياسي جديد يضمن حق الفرد في دولة جديدة ، كان لزاما عليها ان تتعايش مع افرازات النهضة الجديدة ، وهذا بدوره ساهم في بناء رؤية عصرية للتاريخ ، تتناسب مع الفلسفة الجديدة للتاريخ ، التي تمنح دورا كبيرا للفرد الذي يبحث عن ذاتيته مقابل انتمائه للمجموع . كما أكدت هذا الجانب حركة الاصلاح الديني بالدعوة الى التحرر من سلطان الكنيسة ، والعودة الى المسيحية البدائية والتأكيد على خبرة الفرد الشخصية " .[١٥٥]

ج – رحلات الاستطلاع واكتشاف العوالم الجديدة .

ومن العوامل التي شجعت على دراسة التاريخ في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، النتائج التي ترتبت على رحلات الاستطلاع والاستعمار الكبرى في العالم الجديد ، وان الاحتكاك بحضارات اخرى متباينة كان حافزا لــ (خيال) المؤرخين وموسعا لنطاق البحث التاريخي ، باتجاه البحث عن العادات والآداب والعقائد والنظم السياسية والاجتماعية ، محل ما شهدته العصور الوسطى الرواكد من حوليات وتواريخ رتيبة متشابهة . ولعل هذا ما دفع مونتسكيو ، إلى دراسة عادات وتقاليد الشعوب ، والبحث عن قوانينها .[١٥٦]

ونحن نرى ،ان هذا كان من دواعي استيقاظ النظرية البيئية من جديد في عصر النهضة ، ونقول استيقاظ لأننا نرى ، ان (جان بودان) و مونتسكيو، لم يكونا من أوائل الذين قالوا بها ، فقد وجدنا جذورها عند العلامة (ابن خلدون) ، ولو ذهبنا الى ابعد من ذلك فسوف نجدها عند (أرسطو) الذي أكد أهمية المناطق الباردة واهم سماتهم ، ودورهم في البناء الحضاري ، وبما هم يختلفون فيه عن سكان المناطق الحارة ، وكذلك كان الحال عند أبي التاريخ (هيرودوت)، كل هذه المسوغات كانت داعيا حقيقيا لان ينفرد فيلسوفنا مونتسكيو، في التبحر والتدقيق في النظرية البيئية ، في بناء التاريخ بعيون النهضة الأوروبية .

وشهد عصر النهضة أهم الاكتشافات الجغرافية للمناطق المجهولة فقد القى الاسباني كولمبس ، مراسيه في العالم الجديد عام ١٤٩٢ م ، والقى البرتغالي فاسكو دي غاما [*] ، مراسيه على ساحل الهند الغربي ١٤٩٨ واستطاع ماجلان [**] ، في السفينة فكتوريا ان يدور لأول مرة حول الارض (١٥١٩ – ١٥٢٢) ، وغير ذلك من الاكتشافات الجفرافية ، التي كانت تدلل على قدرة انسان عصر النهضة على الاكتشاف والبحث ، فكان لهذه المؤهلات اثر في بزوغ الفكر التاريخي عند الفلاسفة حينذاك ، فكانت مبشرا نحو فلسفة جديدة في التاريخ .[١٥٧]

---

١٥٤ ينظر : ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ و النهاية الحتمية للحضارة والدولة ، مؤسسة المعارف للمطبوعات ، بيروت ، (ب،ط) ، ص٥٩

١٥٥ متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة ، عرض نقدي . دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط٢ ، ليبيا ، ٢٠٠٠، ص٢٠ .

١٥٦ ينظر : كوثراني ، وجيه ، تاريخ التأريخ . المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .

* فاسكو دي غاما (١٤٦٩- ١٥٢٤) ، بحار برتغالي اكتشف طريق الهند عن راس الرجاء الصالح ١٤٩٨ ، كان نائبا للملك في المستعمرات البرتغالية بالهند . انظر : معلوف ، لويس ، المنجد في الاعلام ، المصدر نفسه ، ص٤٠٣ .

** ماجلان (فرنا ودي ، ١٤٨٠- ١٥٢١) ، رائد برتغالي اكتشف المضيق المعروف باسمه ١٥٢٠ ، اول من دار حول العالم ، قتل في الفيلبين ، انظر : معلوف ، لويس ، المنجد في الاعلام ، المصدر نفسه ، ص٥٠٩ .

١٥٧ ينظر : المحبشي ، قاسم عبد عوض ، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر ، ارنولد توينبي موضوعا . اطروحة دكتوراه مخطوطة ، مقدمة الى مجلس كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٤، ص٥٢.

فذهب المؤرخون في تعليلاتهم لأحداث التاريخ الجزئية ، وفلاسفة التاريخ في تفسيراتهم لمسار التاريخ العام ، الى ان الظواهر الجغرافية المختلفة ذات اثر بارز في تشكل الأحداث التاريخية وارتسام الملامح التي اتخذها التاريخ البشري او التي سيتخذها في المستقبل ، وذلك لما لتلك الظواهر من تأثير ملموس في الانسان صانع تلك الاحداث وذلك التاريخ . فطبيعة الارض والمناخ والموقع الجغرافي لا تنفك تؤثر في تكوين الانسان وأخلاقه وقدراته العلمية وملكاته العقلية والإبداعية ، ومن ثم تدفع بتاريخه ان يتخذ وجهة معينة . فالجغرافية توجه التاريخ من وجهة نظر هؤلاء القائلين بـــ (حتمية) البيئة الجفرافية في تفسير التاريخ . ولم يكن امام المؤرخين الا ليجعلوا في تصنيفاتهم للعوامل المؤثرة في التاريخ ، العامل الجغرافي كواحد من مجموعة عوامل اثرت في تفسير التاريخ ، فكان للاكتشافات والاستطلاعات الجغرافية صدى مسموع في التأسيس للفهم الجديد للتاريخ .[١٥٨]

وبكل تأكيد ، لم يكن مونتسكيو ، بعيدا عن هذا المحور المهم ، بل اننا نعد اكتشافاته في مجال البيئة والمناخ ، انما تعود في غالبيتها الى المناخات العامة السائدة في عصره ، التي سبقت عصره ، فقد شهد عصر النهضة اهتماما كبيرا وواسعا في موضوعات الارض واستكشافاتها ، وهذا ما عزز المنهج العلمي الجديد ، فكان مونتسكيو ، شديد التأثر بهذا المنهج العلمي الجديد ، فاقام بناءه وتصوراته للتاريخ على وفق معطيات هذه المرحلة .

د : الصراع السياسي والاجتماعي .

يرى الباحث ان هذا الباعث هو من اهم الأسباب التي ادت بالفلاسفة والمؤرخين الى اعتبار مونتسكيو، من فلاسفة التاريخ ، استنادا الى ما تناوله من دراسة (نقدية) ، في مؤلفاته الثلاثة المعروفة : رسائل فارسية ، تأملات في تاريخ الرومان وأسباب النهوض والانحطاط ، روح الشرائع ، اذ تعد هذه المؤلفات عرضا واسعا وشاملا للأوضاع السياسية والاجتماعية في فرنسا خاصة ، وأوروبا عامة . وقد مثل هذا الباعث الخصومات الدستورية والصراعات الاجتماعية التي عصفت ببلدان اوروبا ، ففي فرنسا نذكر الصراع بين الملك والنبلاء ، وفي انكلترا الصراع بين ملوك ستيوارت وبرلماناتهم . وكان كل فريق يلجأ الى التاريخ لتبرير وجهة نظره فتدرس الوثائق العتيقة والقوانين المهملة وتجمع كل سابقة لها صلة بموضوع النزاع .[١٥٩]

" ويرتبط تاريخ المجتمعات والشعوب ارتباطا وثيقا بالأعراف والمعتقدات والتقاليد التي كانت تدين بها الأمم والشعوب ، ومنذ قديم الزمان ، لان التاريخ سواء كان ذا بعد سياسي ام فني ام أدبي ، وليد للمعتقدات ، وتشكل الاعراف او العادات الاجتماعية أول صيغة من صيغ القانون المبني على التقاليد او ما يسمى بالقانون العرفي " [١٦٠]

وصراعات الأوضاع الاجتماعية والسياسية تختلف من بيئة الى اخرى ، وكان لهذه الصراعات اثر واضح في فعالية الانسان على مسرح التاريخ ويربط مونتسكيو، القوانين باختلاف الاقاليم والعروق والمعتقدات فيؤكد ان "

---

[١٥٨] ينظر : النجار ، جميل موسى ، فلسفة التاريخ ،مباحث نظرية . المصدر نفسه ، ص١٧٢.
[١٥٩] ينظر : كوثراني ، وجيه ، تاريخ التأريخ . المصدر نفسه ، ص١٥٠ .
[١٦٠] المزوري ، زاهدة محمد الشيخ طه ، اركولوجيا فلسفة التاريخ ، المسار التطوري لفلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ٦٧.

القانون على العموم هو الموجب البشري المسيطر على أمم الارض ، ولا ينبغي لهذه القوانين في كل امة ان تكون غير الاحوال الخاصة التي يطبق عليها الموجب البشري ". [١٦١]

وعندما نتوقف قليلا عند مونتسكيو، ندرك ان هذا الباعث (الصراعات السياسية والاجتماعية) استحوذ كثيرا على اهتماماته ، فقد ركز كثيرا على المجتمع ودراسته ، وكان يدرك جيدا ضرورة تلك العلاقات الضرورية بين افراد المجتمع الواحد ، وتأثرها في التحولات السياسية الناجمة من الصراع الاجتماعي ، فلا سياسة بلا اجتماع ، ولا نشوء للتاريخ من دون دراسة الاجتماع ، وبهذا يكون قد سبق (ارنولد توينبي) ، ردحا طويلا من الزمن عندما أكد على دراسة المجتمع وقوانينه ، فوجدناه عند الأخير في تأكيده على ضرورة دراسة المجتمعات ، قبل دراسة الحضارات ، فراح الى تقسيم الناس الى مجتمعات [*]، قبل الشروع في دراسته للحضارات وتقسيماته المعروفة . ولم يكن تقسيم مونتسكيو ، الحكومات الى ثلاثة : ملكية واستبدادية وجمهورية ، الا تأكيدا منه على تلك الصراعات السياسية بين الطبقات الحاكمة من جهة وبين الشعب من جهة اخرى . وكانت نتيجة هذه الصراعات الاجتماعية والسياسية ، هي خروجه بمبدأ مركزي في فلسفته للتاريخ وهو (الحرية السياسية) التي عدها الأساس في فهم التاريخ وتكوينه ، على ضوء نظريته في فلسفة التاريخ .

" وهذه الصراعات ، تمثل ربط تحكيمي بمجمل الفعل التاريخي ، ذلك الفعل الذي كان كثيرا ما يبرر انحرافاته ونزعاته النفعية ضمن السياق التاريخي " . [١٦٢]

ولا بد من القول ، ان النظم السياسية في الدول الأوروبية تقدمت تقدماً كبيراً في عصر النهضة ، وأخذت الصراعات السياسية والاجتماعية بين هذه الدول تتشابك وتتعقد ، كما اكتمل فن الدبلوماسية واتضحت أساليبه ، وكذلك أصبحت كل دولة بحاجة الى هيأة منظمة تتولى كتابة تاريخها . الأمر الذي نلاحظه بوضوح تام في كتابة التاريخ في عصر النهضة ، هو ان حكام الدول اخذوا يستعينون بالأدباء لتدوين تاريخ دولهم ، فبرز الأسلوب الأدبي لا سيما في ايطاليا بوصفها الدولة التي سبقت دول أوروبا جميعاً الى عصر النهضة . [١٦٣]

هـ : أجراس التنوير .

لم يكن مفكرو عصر النهضة ممن يبحثون مباشرة في الأهمية الطبيعية التي فطر عليها التاريخ . ومع ذلك فأن اتجاههم يدل ضمنا على ان تلك الأهمية توجد في الأغلب الأعم في أثناء مضيه في سبيله . وكان انشغالهم بالماضي من اجل الحاضر . ولذا فأنهم لم ينتجوا أية نظرية تقدمية حول المستقبل . ونظرا لانشغالهم بمناشطهم الخاصة وأمجاد اليونان القديمة وروما ، لم يعيروا الا قليلا نسبيا من فكرهم الى ما يحتمل من مجرى الأحداث في المستقبل . ومهما تكن الحال ، فمنذ عهد الحركة الإنسانية [*] الايطالية أصبحت فكرة ان التاريخ على الارض ، إنما هو تمهيد لحياة مستقبلية بعدها . – فكرة ثانوية ببلاد الغرب . وكانت الحركة الإنسانية الايطالية ذات أهمية جوهرية بوصفها حركة انتقال نحو الحياة العصرية ، فكانت بمثابة انفلات من ضيق النظرة لدى العدد الجم من

---

[١٦١] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص١٩ .

[*] توصل توينبي في دراسته للتاريخ الى ان هناك واحد وعشرون مجتمعا ، نجح كل واحد منهما في تجاوز مرحلة المجتمعات البدائية وافلح في تكوين حضارة . وقد رأى ان هذه المجتمعات الحضارية لها خصائص معينة ، وتجمعها اطوار حضارية متشابهة مما يجعلها صالحة للدراسة المقارنة على افتراض انها حضارات متعارضة فلسفيا ومتعادلة في القيمة . انظر : الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ . دار الكتب العلمية ، ط١ ، لبنان ، ٢٠٠٧ ، ٣٨٧ .

[١٦٢] الكعبي ، محمد سماري ، المكيافللية وأثرها في الفكر السياسي الغربي . دار الفراهيدي للنشر والتوزيع ، ط١ ، بغداد ، ٢٠١٠، ص٨٥.

٢ ينظر : حسين ، محمد عواد ، صناعة التاريخ ، المصدر السابق ، ص١٢٩ .

[*] الحركة الإنسانية ، يراد بها إحياء الآداب الكلاسيكية والروح الفردية والنقدية ، والتأكيد على الهموم الدنيوية . وهي تعلي من قدر الانسان بعد تحرره من سلطة الدين التي تغض من شأنه وتعتبره وارثا للخطيئة الأصلية ، لقد أصبحت أفعال الانسان موضوع التاريخ بصرف النظر عن التقييم الديني لهذه الأفعال .كما استبعدت أي قوى غيبية في تحديد مسار التاريخ . انظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٧

مفكري العصور الوسطى . ولم يكن بعد هذا الضيق الا الانفتاح على الانسان ، فكانت أجراس التنوير ترن في الأفق ، لتجعل من الانسان مركزا للتفكير ، فما كان على الانسان التنويري الا ان يستنهض هممه ، ليشيد لنفسه الحاضر الذي فقده في العصور السابقة ، ويؤسس لنظرية تقدمية تسهم في نظرة مستقبلية لتاريخه الذي سيطرت عليه النظرة الغيبية طويلا .[١٦٥]

فحين جاء عصر التنوير [*] عاد الناس الى تقييم التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تستند الى أسلوب علمي ، والى كتابته استنادا الى أعمال الانسان ونشاطه في تحديد مساره ، تماما كما كان الحال في العصرين الروماني والإغريقي . وكانت النتيجة لذلك هو البدء لتنظيف المادة التاريخية التي كتبت في العصور الوسطى مما علق بها من خرافات لا أساس لها ، كما كانت مؤشرا للبدء بكتابة التاريخ على اسس نقدية تحليلية .[١٦٦]

كذلك فأن من بشائر التنوير لدراسة التاريخ ، ان عددا من الرهبان أبدوا اهتماما بدراسة التاريخ وتدوين حوادثه على اسس علمية موضوعية تختلف عن تلك التي كانت سائدة من قبل ، وكانت الخطوة الأولى للوصول الى هذا الهدف ، هو ان تنبه بعض هؤلاء الرهبان الى أهمية الوثائق الكثيرة التي كانت تحفظ في الأديرة كونها تحوي مادة تاريخية غزيرة تساعد ، ان أحسن نقدها وتحليلها ، على دراسة التاريخ دراسة موضوعية تكشف عن حقائق الماضي .[١٦٧]

وبظهور عصر النهضة في أوروبا " نهض الإنسان من رقدته وحطم أغلاله التي غُل بها طوال العصور الوسطى ، وأطلق فكره فراح يستطلع أسرار الطبيعة ويستجلي توجه الحياة ، لعله يجد نفسه ويحقق وجوده . وقد انفق قروناً و هو همل ، لا يمسه الوجود ولا يكاد يمس الوجود ، فتعددت نواحي النشاط في الإنسان وتنوعت ألوان تفكيره واخذ يتعقب المعرفة وينشدها ، لا من اجل الكنيسة ورجالها ولكن ليظفر بالمعرفة بذاتها " .[١٦٨]

لقد تميزت الأبحاث التاريخية في عصر النهضة بقدرة واضحة على تحليل الوقائع وتفسيرها . لذلك عُد القرن الثامن عشر هو الذي أوجد التاريخ علماً ودراسةً .[١٦٩]

ثانيا : فكرة التقدم ودورها الفلسفي في تصورات فلسفة التاريخ .

لقد ظهرت فكرة التقدم في اوروبا في القرن الثامن عشر ، في عصر التنوير والايمان بالعقل . ومثل هذا الايمان تصحبه دائما نزعة تفاؤلية ، تتميز باعتقاد بقدرة الانسان على العلو بذاته ، دون ان يحول شيء دون تقدمه ، لذا كان الرأي السائد في اذهان المفكرين والمثقفين عامة – اذا استثنينا مفكرا مثل روسو – هو ان الانسان يغدو بالتدريج اكثر تعقلا ، وانسانية ، وارفع خلقا ، واكرم طباعا ، وان البشرية لم تبلغ قط ما تبلغه في عصرهم ، وان اليوم ارفع في سلم الرقي من الامس ، وغدا سيكون ارفع من اليوم .[١٧٠]

---

[١٦٥] ينظر : ويدجيري ، ألبان ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبي . تر ، عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية للكتاب ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٩٦، ص١٣.

[*] مما ينبغي الاشارة اليه ان التنوير بالمعنى العام هو سيرورة وسياق عام وليس مجرد مذهب او فلسفة ، كما انه ليس مرحلة تاريخية عاشتها الانسانية وانقضت ، للمزيد انظر : اشقرا ، عثمان ، موجز فكر التنوير . دار بترا للنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ، ٢٠٠٨ ، ص٧ . وللمزيد عن التحديات التي واجهت التنوير انظر : بوليتزر ، جورج ، فلسفة الانوار . تر ، جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص٥ .

[١٦٦] حسين ، محمد عواد ، صناعة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٢٩ .

[١٦٧] ينظر : مؤنس ، حسين ، التاريخ والمؤرخون . دار النهضة للطباعة والنشر ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص٧٣ . وللمزيد انظر : هوبزبوم ، أ . ج . دراسات في التاريخ . تر ، عبد الاله النعيمي ، دار المدى للثقافة والنشر ، (ب،ط) ، دمشق ، ٢٠٠٦ ، ص٩٧ .

[١٦٨] أمين ، احمد محمد ، زكي نجيب ، قصة الفلسفة الحديثة ، ج١ ،المصدر نفسه ، ص٣٦ .

[١٦٩] ينظر : سترومبرج ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

[١٧٠] ينظر : زكريا ، فؤاد ، الانسان والحضارة . مكتبة مصر ، (ب،ط) ، القاهرة ، (ب،ت) ، ص٥٢ .

كما ينبغي ان لا نغفل ، عن ان فكرة التقدم تختلف عن أفكار الماضي الثابتة جميعها ، اذ إنها تنطوي على بذور الامتداد غير المحدود ، إضافة الى إنها تفسح المجال لمفهومات اخرى ضمن مدى اندفاعها الواسع . ولكونها فلسفة للتغيير ، فأنها تنهض بأعباء التغيير ، على ان الناس قد يطرحونها من مفرداتهم ، بيد إنها تظل وصفا للواقع . فإذا استطاعت الكنيسة الكاثوليكية ، التي أقامت الحساب على (جاليليو) ، ان توسع افقها بحيث تقبل ما رفضه قبلا ، فمن المؤكد ان مفهوما شاملا مثل فكرة (التقدم) لن يسقط في مسيرة الأحداث ، ذلك ان المفهوم الذي يغطي مجالا واسعا من الحقائق والإمكانيات المعروفة لا يمكن ان يختفي كليا من الفكر الإنساني . وبما ان العودة الى الاعتقاد بالسكونية التامة للمجتمع الإنساني تبدو مستحيلة كاستحالة أي شيء تحت الشمس ، وبما ان الحركية هي النقيض الأبدي للأوضاع القائمة ، فأن القيمة الباقية لفكرة التقدم كطريقة للتفكير قد ثبتت على ما يبدو ثبوتا قاطعا ، الا إذا قطعت السلسلة التاريخية للعصور فجأة تدخلات غريبة تتعدى التجربة الإنسانية السابقة كلها تماما . [١٧١]

ولم تكن فكرة التقدم تعني تفسير التاريخ خارج الجماعة الإنسانية ، اي انها من داخل التاريخ ، لان كونها فكرة خارج التاريخ يعني وجودها العقل البشري ، وان الاعتقاد بغير هذا يعني إمكانية تصور الفكرة خارج الجماعات الإنسانية . [١٧٢]

وقد كانت فلسفة التاريخ [*] عند القدماء اقرب إلى تفسير لنشأة الكون وخلق العالم معتمدةً على الأساطير القديمة في غياب التحليل الفلسفي . وتعتمد كلها على التصور الدائري للتاريخ وتجهل مفهوم " التقدم " . وقد صوّر أفلاطون [**] أيضا تاريخ الناس بأنه بحر خضَم تتنازعه حركتان : المد والجزر ، الفعل ورد الفعل ، وهما في الحقيقة حالتان للسعادة والشقاء طبقاً لمظاهر الطبيعة وما ينتاب العالم من كوارث وما يقع في الحياة الإنسانية من مآسي . ولذلك كان التصور الدائري لمسار التاريخ اقرب للتشاؤم منه الى التفاؤل ، فالتاريخ لا ينهض إلا ليكبو من جديد، ومهما نهض فان مساره بالضرورة الى الانهيار، ويتخيل أفلاطون ان لكل دورة عشرة آلاف سنة شمسية كي تبدأ وتنتهي ثم تبدأ دورة أخرى وتنتهي من قبل، هذه حقبة من الزمان ، ولا تحدث دورات التاريخ من ذاتها بل تتدخل إرادة الله فيها فهو الذي يبدأها ويُعيدها . [١٧٣]

وهذا ما يُعرف بالتفسير الديني للتاريخ ، الذي يعد التاريخ مسرحاً لتحقيق إرادة الله على الأرض ، وهذا يعني ان لله تدخلا فعليا في تسيير حياة الناس ، وان الله لم يخلق العالم سدًى ، بل خلقه لغاية ، ومن ثم فانه حريص على ان يسير العالم في مسيرته التاريخية نحو الغاية التي وضعها الله له ، وهذا يعني في الواقع ان الإنسان مسيَّر في

---

[١٧١] ينظر : بيري ، ج ، ب ، فكرة التقدم ، بحث في نشأتها وتطورها . تر ، عارف حديفة ، منشورات وزارة الثقافة ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٨٨ ، ص٢١ .

[١٧٢] Paul , Edwards ; the encyclopedia of the philosophy . the macmillan and company and yhe Free prees . New York , vol 6 , 1972,p483 .

[*] فلسفة التاريخ : هي التأمل في إحداث التاريخ واستعبارها . وتُعد فلسفة التاريخ جزءاً من مجادلات علوم الإنسان وتصورها المجدد للعالم المتحول . وفلسفة التاريخ منحىً جديد قوامه النظر في التواريخ والتفكير في حوادثها ، ذلك ان (الحدث) هو مادة التاريخ ووثيقته الأساس . خليل،احمد خليل ، معجم المصطلحات الفلسفية ، ج٢، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٥، ص١٤٠.

[**] ابرز نظرياته الفلسفية هي نظريته في المُثل والتي طرقها في محاورة (المأدبة) . ويعرف عنه بأنه صاحب الجدل الصاعد. ومن خلال جدله هذا كرس فكرة التقدم ، من خلال حالتان متصارعتان ، المد والجزر ، السعادة والشقاء ، من صراع الأضداد هذا تظهر فكرة التقدم على انها تطورا طبيعيا . للمزيد انظر : أمين ، احمد، زكي نجيب محمود ، الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف، والترجمة والنشر، ط٥ ، القاهرة ، ١٩٦٤، ص١٤١_ ٢١٢ ؛ متي، د. كريم ، الفلسفة اليونانية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧١، ص١٥٤_١٨٠ .

[١٧٣] ينظر : لسنج ، تربية الجنس البشري، ترجمة وتقديم وتعليق : د. حسن حنفي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط٢ ، بيروت، ٢٠٠٦، ص٤٣ .

تصرفاته الى حدٍ كبير ، وان مجال الاختيار له في مسيرته هذه محدودٌ جداً ، وان الله سيتدخل في هذا الشأن ، وفي شؤون البشر لكي يضمن سير التاريخ باتجاه معين .[١٧٤]

وعلى الرغم من ان مونتسكيو ، لم ينكر دور العناية الإلهية بالكامل ، إلا انه رفض التفسير الديني للتاريخ ، لان ايلاءه الى غاية بذاتها ، يعني إن الإنسان مجرد لاعب لدور من ادوار التاريخ ، وان هذا الدور لم يختره الإنسان وانما كانت هناك ارادة الهية رسمت له دوره في التاريخ ، فرفض مونتسكيو، ان يكون الإنسان بهذه الحالة ، جاء من إيمانه بدور العقل في السيطرة على التاريخ وأحداثه ، مستندا الى موجهات العلم التي سادت عصره .

وقد أفضت التحولات التاريخية التي شهدتها اوروبا منذ بدء عصر النهضة ، الى تبلور مفهوم جديد لمعنى التاريخ وحركته وتطوره ، هو مفهوم التقدم الإنساني ، الذي لا حدود له ، ويرى (تشارلز ريد) نقلا عن(بيري) انه " ليس هناك فكرة اخطر من فكرة التقدم التي مارست تأثيرا كبيرا في الثقافة الحديثة او من المرجح ان تمارس تأثيرا اكبر منها في المستقبل " . [١٧٥]

وفي الواقع لم تنشأ فلسفة التقدم في الفراغ ، بل نشأت في السياق التاريخي الحي لحركة المجتمع وتطوره ، على الصعد الحضارية ، والثقافية والمدنية كافة ، وبهذا المعنى نفهم ، انه ما كان لنظرية التقدم الإنساني ان تتوطد بالحجج المجردة ، بل كان يحكم عليها من خلال الدليل الذي يقدمه التاريخ نفسه . [١٧٦]

ويرى ، علي حسين الجابري ،ان التقدم الحضاري ما هو إلا استجابة للمنجزات البشرية ، فيقول " صدق هيجل حين عد الحضارة استجابة لتجليات المطلق تترجمها المنجزات البشرية في كل مجتمع تنشأ فيه ظروف قيام الحضارة وفلسفتها او يحكمه منطق التطور والتغير ، الضرورة . مع ان المعادلة المتوازنة التي تثمر حضارة هي خلاصة لوضع متوتر بين الضرورة والصيرورة ، او قل بين الحتمية والحرية " . [١٧٧]

ان متطلبات المعرفة الى رؤية فلسفية جديدة كانت تستمد مقوماتها مما كان يجري في العملية التاريخية في الحاضر الأوروبي من متغيرات وأحداث تقدمية وبما كان يبشر بها المستقبل هناك من آفاق ابعد غورا او اكثر تقدما ، وكانت قوى البرجوازية الصاعدة ، ترى في التقدم مسيرتها ، وترسم عليه مستقبلها ، اذ أخذت فكرة التقدم تنتشر وتشيع في نسيج الثقافة الأوروبية وهي ، عقيدة عامة وفلسفة شاملة في ذلك العصر ، ونعتقد ان فكرة التقدم ، لم تكن تشكل تنظيرا بلا معنى او ضربا من ضروب الخيال ، وإنما كانت تمثل أساسا ، ومناخا عاما لمفكري المعرفة بكافة ميادينها . [١٧٨]

هكذا كان ينظر مونتسكيو، إلى التقدم على انه خطوة نحو الأمام وعدم الرجوع إلى الخلف الا بما هو تواصلي لغرض التزود بالخبرات والتجارب ، فعملية استدعاء التاريخ القديم لم تكن عنده تمثل حالة التراجع من المسير ، لكن لغرض استثمار تلك التجارب ، لتكون داعما للتقدم ، ولو لم يكن هذا عنده ، فما داعي انشغاله بكتابة رائعته (تأملات .....) ، لأنه وجد ان التقدم في بناء التاريخ الفرنسي الجديد ، بحاجه الى الاستفادة من التاريخ الروماني ، وهكذا يبدو لنا التقدم عنده هو عملية التوافق بين الطبيعة ومبدأها ، لغرض تشريع القوانين التي ترفد البناء التاريخي لبلد ما .

وما كان لنظرية التقدم الإنساني ان تتعزز بالأدلة الواهية ، او على الأسس غير الوافية والسائدة . يجب ان يحكم على كل حجة واهية في نهاية الأمر من خلال الدليل الذي يقدمه التاريخ ، ولذلك ليست مصادفة ان تحدث ثورة في دراسة

---

[١٧٤] ينظر : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي ، دار الفكر اللبناني ،(ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص ٣٩

[١٧٥] ينظر : بيري ،ج ، ب، فكرة التقدم . المصدر نفسه ، ص ٧. وانظر ايضا : الشمري ، سليم عكيش هادي ، فلسفة التاريخ عند اوزوالد اشينجلر . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص٦٢ .

[١٧٦] ينظر : بيري ، ج،ب، فكرة التقدم . المصدر نفسه ، ص١٤٧ .

[١٧٧] ينظر : الجابري ، علي حسين ، الحضارة المعاصرة من الضرورة الى الصيرورة . دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ، ٢٠١٠ . ص١١ .

[١٧٨] ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه . ص ١٧٩ .

التاريخ متعاصرة مع مجيء هذه الفكرة . فاذا كان للتقدم ان يكون اكثر من حلم للمتفائل وجب تبيان ان مصير الانسان على الارض لم يكن فصلا من المصادفات التي كان يمكن ان تفضي الى أي مكان ، او الى لا مكان ، بل هو خاضع لقوانين يمكن استكشافها حددت اتجاهه العام ، وسوف تضمن وصوله الى المكان المرغوب فيه .وان ضربا من النظام والوحدة كان قد وجدته في التاريخ نظرية الخطة الإلهية والغايات النهائية . بيد ان مبادئ جديدة للنظام والوحدة كانت مطلوبة لتحل محل المبادئ التي أنكرتها العقلانية . ومثلما اعتمد تقدم العلم على افتراض ان الظواهر الطبيعية خاضعة لقوانين ثابتة ، كذلك فان افتراضا مماثلا يتعلق بالظواهر الاجتماعية كان مطلوبا اذا كان لأية استنتاجات ان تستخرج من التاريخ . [١٧٩]

" والتقدم فلسفيا [*] ، زاد انتشاره في عصر التنوير عقب الكشوفات العلمية في القرن السابع عشر ، الأمر الذي دعم ثقة الانسان في المستقبل واستعلائه على الماضي ، فلم تكن نظرية التقدم مجرد آراء يرددها مفكرون ، وإنما كانت مسارا لدى أولئك المفكرين . وقد أسهم فلاسفة عصر التنوير بأفكار جديدة في الدراسات التاريخية ، اذ جعلتهم نزعتهم المتحررة رواد النقد التاريخي في العصر الحديث ، فقد وضعوا كل شيء موضع النقد والفحص الأمر الذي خلص التاريخ من كثير من الأخطاء ، ثم انهم أول من وسع أفق الأوروبي في نظرته الى التاريخ اذ لم يصبح اهتمامه محصورا في تاريخ اليونان والرومان دون سائر الحضارات ، ولم يصبح الشعب العبراني هو وحده الجدير بالاعتبار بين شعوب الشرق القديم ، لقد أصبحت نظرة المؤرخ اكثر تحررا وابعد عن التعصب الديني والقومي . كذلك تجاوزت نظرية التقدم بمؤرخي عصر التنوير علاقات السياسة وأخبار الحروب لان هذه لا تكشف عن شيء من التقدم ، وتجاوزتها الى أوجه النشاط الإنساني ممثلة في العلم والفن والفلسفة والأدب والتكنولوجيا ، فالتاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عن تقدم العقل البشري " .[١٨٠]

وكتاب (رسائل فارسية) لـ (مونتسكيو)، هو خير دليل على ان مفكري أوروبا ولا سيما منهم التنويريين [**] ، اهتموا بدراسة أحوال الحضارات الأخرى ، غير الرومان واليونان ، فان القارئ لهذا الكتاب يشعر وكأن مؤلفه قد عاش دهرا طويلا في فارس ، ذلك لما جسده من عادات وتقاليد وأعراف ، هي من صميم الحياة اليومية لهم ، وعندما مارس فيلسوفنا دوره كمؤرخ ، لم يستغن عن فكرة التقدم ، بل كان قد أسس لها بنظرة النهضة الأوروبية الجديدة .

وإذا كانت فلسفة التقدم قد انطلقت من نقد الماضي ونقد تقديس القدماء وتحطيم الأصنام ، فأنها أرادت تمهيد السبيل لتصور جديد للتاريخ يقوم على أساس من تأكيد الحاضر واستشراف المستقبل[*] ، بل ان نقد الماضي

---

[١٧٩] ينظر : بيري ،ج ،ب، فكرة التقدم . المصدر نفسه ، ص١٤٧ .

[*] التقدم فلسفيا قد ظهر لدى اليونانيين بالمعنى pushing foreward اي الاندفاع للامام ، ويبدو ان هذا المصطلح قد تمت صياغته في العصر الهلينستي ، وذلك لانه لم يعثر عليه في مرحلة الفكر اليوناني ، ولكن هذا لا يعني ان الفكرة العامة التي تدور حول معنى هذا المصطلح لم توجد من قبل ، فاشكالية التقدم قد وجدت بلا شك لدى الشعوب جميعا كهم انساني ، أملا في الوصول الى مرحلة افضل .الا ان هذا المفهوم او هذه الفكرة قد اختلف التعبير عنها من عصر الى اخر تبعا لطريقة التفكير واسلوب تفسير التاريخ الانساني . هذا التنوع من التفسير قد مثل مراحل تقدم العقل البشري نفسه . وقد ظهرت الفكرة احيانا بشكل اخر ذي طابع ميتافيزيقي كامل ورجاء في الحصول على وضع افضل من المراحل السابقة . وقد ظهر مفهوم التقدم بمضمونه الجديد لاول مرة في الموسوعة التي شارك فيها (ديدرو) في القرن الثامن عشر ، التي صدرت مجلداتها بين سنتي (١٧٥١ – ١٧٦٤) ، وقد جاء في الموسوعة ان التقدم هو الحركة الى الامام ، كما نشاهد في الأجسام الطبيعية . للمزيد انظر : الكحلاني ، حسن محمد ، فلسفة التقدم ، دراسات في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ . مكتبة مدبولي ، (ب،ط) ، (ب،م) ، ٢٠٠٣ ، ص١٥ .

[١٨٠] صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٧٩ .

[**] لقد شعر مثقفو عصر التنوير بأنهم جزء من حركة عظيمة تمثل التطلعات العليا والامكانات الرفيعة للجنس البشري ، فهم مصلحون يؤمنون بان قضيتهم يمكن خدمتها على نحو افضل عن طريق التقدم الذي يتخذ من البرهان والنقد والنقاش طريقا له . انظر : سبنسر ، ليود ، كروز ، اندرزيجي ، عصر التنوير . تر ، امام عبد الفتاح امام ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص١٣ .

[*] وتحتفظ الماركسية بهذه الرؤية للتقدم ، حيث ترى المادية الجدلية العلمية ، ان العملية التي يتم بها الانتقال من ظاهرة الى أخرى ، او من مرحلة تاريخية الى مرحلة اعلى منها هي عملية نفي ، اذ ان كل مرحلة تنفي ما قبلها ، فبدون النفي او الهدم او القطيعة ، لا يمكن الحديث عن أي تحول تجاوز . ذلك ان عكس النفي او الإنكار هو الاثبات ، وهذا يعني الاستمرار في مرحلة واحدة ، وفي نظرية واحدة نكررها ونعيد صياغتها باستمرار . ولهذا سنجد ان المسلمة الأساسية لدى الفلسفة الماركسية هي القول بان النفي يعد شرطا ضروريا لكل تقدم . انظر : الكحلاني ، حسن محمد ، فلسفة التقدم ، دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٤٥ .

وتقاليده الذي ساد في عصر التنوير ، كان شرطا ضروريا لتسويغ الحاضر وقيمته المعرفية والحضارية والمدنية ، سعيا وراء قيام تصورات جديدة للتاريخ الحديث .[١٨١]

وقد اصبح للتقدم معان متعددة منها ما يأتي :-

١ – معنى تطوري : بعد ان دعت نظرية التطور الى مفهوم التقدم ، حتى التبست به [**] ، انه وفقا للتطوريين تصبح الطبيعة الإنسانية أنبل حصيلة لعملية التطور ذاتها ومن ثم فان التقدم التاريخي متضمن في قانون الطبيعة . ونحن نعتقد ان مونتسكيو ، اطلع واستفاد من مفهوم التطور لخدمة أفكاره في التقدم ، جاء ذلك من خلال عمله على دحض نظرية الحيوانات الآلية ، لكنه في الوقت ذاته كان يدرك الفصل بين التطور والتقدم . وان لا تاريخ بلا تقدم .

٢ – معنى فلسفي مذهبي : حيث اتخذ مفهوم التقدم طابع نظرية شاملة في فلسفة التاريخ ، فهو تقدم نحو حرية الروح بوعيها لذاتها .[١٨٢] ويقول الجابري " لما كان التاريخ ، ترجمة لفعل الانسان ووعيه ، بعد اقتران الفعل بالحرية والمسؤولية ، قيل عن التاريخ انه تاريخ الفكر ملخصا بالفلسفة ، ولما كان الوعي سمة الإنسان العاقل ، رفض هيجل ، وغيره الحديث عن تاريخ للإنسان خارج ذلك الوعي " .[١٨٣]

وعند مونتسكيو، تأخذ هذه النقطة حيزا كبيرا من تفكيره ، لان كل ما أراد ان يقوله في نهاية المطاف هو حصول الإنسان على حريته ، ولا سيما منها الحرية السياسية ، وما جهوده التي قدمها لدراسة القوانين وأحوالها وطبيعتها ومبدأها ، إلا ليدرك الإنسان ان حريته هي نافذته الوحيدة نحو نظرته الشاملة في بناء حضارته ومجده .

٣ – معنى سياسي : يتمثل في التبرير للمد الاستعماري ووصول الإمبراطوريات الى أوج عظمتها ، وتصبح قضية التقدم مسلما بها لدى المؤرخين ، فالتاريخ يجب ان يكتب على انه تقدم الانسان . فالتقدم الذي احرزه الرومان بحسب مونتسكيو ، لم يأت مصادفة ، بل لإيمانهم بضرورة احرازهم النصر في كل المعارك التي خاضوها مع الإمبراطوريات الأخرى ، وكذلك لسلامة قوانينهم الداخلية وملاءمتها لنمطهم المعيشي ، لذلك تظافرت الأسباب ، فكان التقدم حليفهم لأنهم امنوا جيدا ان فكرة التقدم ، هي مفتاح العظمة التي ينشدونها .

٤ – معنى حضاري : نتيجة لتقدم العلم من جهة وتطور الأنظمة السياسية نحو الديمقراطية من جهة اخرى ، شاعت أفكار السيطرة على قوى الطبيعة وتسخيرها لصالح الانسان وسعادته . وقد ذهب مونتسكيو ، بفكرة التقدم الى فكرة خطيرة ، عندما ذهب الى ضرورة استثمار الإنسان لقوى الطبيعة وتسخيرها لصالحه ، وعندما جوز سيطرة دولة على خيرات وموارد الطبيعة عند دولة أخرى ، بسبب عدم قدرة تلك الدولة استثمار هذه الموارد ، وان ذلك كان لديه من ضمن أساسيات البناء الحضاري ، واخذت هذه النقطة لديه جانبا سياسيا ، أتاح فيه للدول الكبرى استعمار دول أخرى .

---

[١٨١] ينظر : المحبشي ، محمد قاسم عوض ، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر ، ارنولد توينبي موضوعا . المصدر نفسه ،ص٦٣ .

[**] ارتبط مفهوم التقدم بمفاهيم كثيرة اهمها واكثرها التصاقا به هي مفاهيم التطور ، فقد كانت هذه المفاهيم ومازالت تختلط ببعضها البعض لدى معظم المفكرين . واكثر من استخدم هذه المفاهيم بمعاني متقاربة ، هم علماء الاحياء والاجتماع والفلسفة الماركسية بالتحديد ، التي وجدناها تستخدم كلمة التطور اكثر من كلمة التقدم . مع انه يقصد بها التقدم . انظر : الكحلاني ، حسن محمد ، فلسفة التقدم ، دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ . المصدر نفسه ، ص٢٠ .

[١٨٢] ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٨٠ وانظر ايضا : ديمتري ، اديب ، صناعة التاريخ . مجلة الطليعة ، العدد ٩، بغداد، ١٩٧٠، ص١٥٣. و : شاتليه، فرانسو ، هيجل ،.منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط٢، دمشق، ١٩٧٦، ص١٩٦. و : بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخي . دراسة في مناهج العلوم الانسانية . تر، عبد الحميد صبره ، دار المعارف ، (ب،ط) ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ ،ص ٦٠ .

[١٨٣] الجابري ، علي حسين ، الحضارة المعاصرة .من الضرورة الى الصيرورة . المصدر نفسه ، ص١٢١ .

ويلاحظ الباحث الخلط بين التطور والتقدم ، فالتطور تعديل بيولوجي فسيولوجي في الكائنات الحية وفقا لقانون الانتخاب الطبيعي ، بينما التقدم إيجاد أنماط جديدة لأسلوب حياة الانسان تكشف عن أصالته وابتكاره . ويلاحظ ان عملية التطور حتمية وقد أدت بالإنسان ان يصبح على راس الكائنات الحية ، وكان معنى التقدم متضمنا في الطبيعة ذاتها ، فالإنسان بوصفه ابنا للطبيعة خاضع للقانون الطبيعي ومن ثم فان مسار التاريخ لا بد ان ينطوي على تطور نحو ماهو أسمى .[١٨٤]

ويبقى التاريخ البشري هو تاريخ النمو ، وهذا معنى التاريخ ومغزاه ، وهو ما اتفقت عليه أيدلوجيات العصور الحديثة ، فكان البعض يعتقد ان التقدم يجري من خلال المطلق ، دون ان يعي المرء ذلك ، وكان الاخر يقول اننا فقط برفضنا المطلق وادراكنا للقوى البشرية نستطيع ان نتعلم كيف نتقدم .[١٨٥]

ويختلف الباحث مع ج ، بـ ، بيري ، حول ان مونتسكيو، لم يكن من رواد فكرة التقدم ، اذ يذكر في كتابه(فكرة التقدم ، بحث في نشأتها وتطورها) ، " لم يكن مونتسكيو ، من رواد فكرة التقدم . فهي لم تحكم سيطرتها على تفكيره ، ولكنه نشأ في المناخ الفكري ذاته الذي انتج تلك الفكرة " . وعند الرجوع الى مونتسكيو، لا نجده كما ادعى بيري ، فان فيلسوفنا حاول دائما البحث عن التقدم في تشريع القوانين داخل المجتمع الواحد ، وأكد ان القوانين التي تشرع لمجتمع ما قد لا تصلح لمجتمع اخر لا يتشابه معه في طبيعة العلاقات ونوع المؤثرات المناخية والبيئية السائدة ، والقوانين تتقدم نتيجة لتطور يحدث في الظواهر المحيطة بالإنسان ، سواء كانت هذه الظواهر اجتماعية ام بيئية ، وعليه فعلى المشرع السعي لوضع قوانين جديدة تتواءم مع التقدم الحاصل في طبيعة ذلك المجتمع ، وطالما كانت القوانين تمثل عنده طبيعة العلاقات الضرورية الناجمة من طبيعة المجتمع فكان لزاما ان تتقدم هذه العلاقات نتيجة لتبدل الظواهر الحاكمة للمجتمع . وبناءً على هذا سعى الى توسيع نظرية الحقائق الاجتماعية ، فاكد ان الظواهر السياسية والطبيعية خاضعة لقوانين عامة . وهذه الفكرة التي هي من اهم أفكاره وأكثرها لفتا للنظر كان قد أدركها عندما كتب " تأملات في عظمة وانحطاط الرومان " الذي حاول ان يطبقها فيه .[١٨٦]

---

[١٨٤] ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٨٠ .

[١٨٥] سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الاوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص٤٣١ .

[١٨٦] ينظر : بيري ، ج،بـ ، فكرة التقدم . المصدر نفسه ، ص١٤٨ .

المطلب الثاني : ابرز فلاسفة التاريخ قبل مونتسكيو .

أولا : توماس هوبز(١٥٨٨-١٦٧٩) .

عندما نقرأ فكر مونتسكيو ، يطالعنا بين الفينة والفينة اثر(توماس هوبز) في تكوينات فيلسوفنا الفكرية ونظرياته ، ولا سيما ما يتعلق منها بالسياسة . وهوبز، يرى ان كل ما هو موجود هو مادة ، وكل ما يتغير هو حركة ، وان المبدأ الأول والأساس والنهائي لكل شيء هو المادة والحركة ، فان كل نظرية عنده هي نظرية أجسام ، وحتى الفلسفة ، ما هي الا نظرية حركة الأجسام ، بما فيها المواطنون (الأفراد) بوصفهم أجسام المجتمع الفردية . ولكي تدخل السياسة المدنية والأخلاق نطاق هذه الفلسفة ، فهو يعرف نوعا ثانيا من الأجسام ، بعد الأجسام الطبيعية ، وهو الذي تضعه ارادات الناس واتفاقهم ، ويسميه بالدولة ، وهو موضوع الفلسفة المدنية ، والأخلاق ضرورية لهذه الفلسفة لأنها تتناول استعدادات الناس ومسالكهم . ولم تكن هذه الأفكار غريبة عن فكر مونتسكيو، في تصوره للمجتمع وضرورياته ، وعن الدولة وبنائها من خلال تطور المفهوم لدى أجزاء المجتمع الفردية وحاجتها لنظام السلطة ، الذي هو صيرورة طبيعية لتطور قوانين المجتمع .[١٨٧]

وقد تأثر مونتسكيو، كثيرا بالعقد الاجتماعي عند هوبز ، خاصة فيما يتعلق في حقوق السلطة الحاكمة ، وواجباتها نحو المواطنين ، التي اعتبرها واجبات أخلاقية لم تنشأ بسبب العقد او التعهد وإنما هي خضوع الحاكم لقوانين الطبيعة . اذن ما زال الأمر تحت سيطرة (القوانين) وفق صاحبنا ، لذلك شرع الى البحث في روح هذه القوانين ، لأنه يعتقد ان لكل قانون (روحا) ، وله أنواع من الفهم ، وفهمنا يبقى ناقصا ما لم نتعرف على روح هذه القوانين ، لذلك نلاحظ انه لم يدخر جهدا في البحث فيها ولم يتوان في السعي وراء روحها .

لقد زعم في كتابه(عملاق البحر) [*] ، إن الدولة بنية صناعية خاضعة لإرادة وتخطيط الناس . لقد ادخل هوبز، في الفلسفة فكرة ما يسمى (الحالة الطبيعية) وهي الحالة التي يوجد فيها الناس قبل ان يتحدوا بجماعة على أساس عقد اجتماعي . ففي مثل هذه الحالة تسود في رأي هوبز، حرب الكل ضد الكل . وهنا تتجه كثير من حجج مونتسكيو، ضد هوبز، ففي رأيه انه في حالة ما قبل الدولة ، لا توجد حرب الكل ضد الكل بل الأرجح ان البشر مسكونون بالخوف ويميلون الى الانزواء بعيدا عن البشر الآخرين .[١٨٨]

وفي عقده الاجتماعي ، ان لدى الحاكم الزاما داخليا يحاسب عليه امام الله وضميره فحسب . اما المواطن فلديه ضربان من الالزام ، من حيث هو فرد ، لقوانين الطبيعة ، أما الثاني فهو الزام سياسي خارجي . اما تصنيف الحكومات فهو يعتمد على أنواع السيادة ، فإذا انحصرت السيادة في شخص واحد كان ذلك هو النظام الملكي ، أما إذا قام بالسيادة لجنة او جمعية او مجموعة من البشر فهي أما ان تمثل الناس جميعا : فيكون ذلك هو النظام الديمقراطي ، او تكون اللجنة ممثلة لجانب من الشعب وليس الشعب كله ، فذلك هو النظام الارستقراطي ، ولا توجد أشكال اخرى للحكومات او للدول سوى هذه الأنظمة الثلاثة ، وتلك هي نفسها قسمة أرسطو، للحكومات الصالحة : الملكية او حكومة الفرد الفاشل العادل ، ثم الارستقراطية او حكومة الأقلية الفاضلة العادلة ، وأخيرا الديمقراطية وهي حكومة الأغلبية الفقيرة التي تمتاز بنشر الحرية والمساواة . ويذهب هوبز، الى ان أشكال

---

[١٨٧] ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ،ثص٦٦ .

[*] اللفياثان ، انه الكتاب الذي وضعه هوبز سنة ١٦٥١ ، من الكتب المؤسسة لنظرية الفلسفة ، وهو يبتكر اسطورة السلطة المطلقة فيضع ركائز التقليد السياسي الحديث . فقد قرر البشر استنادا الى قدرتهم الخاصة على العزم والتفكير ، ان يزودوا انفسهم بقانون مشترك ومصطنع ، وعندما لم يعد القانون يرتكز على الغيب ، بل على العالم الإنساني . واللفياثان هو كائن بحري خرافي له راس تنين وجسد أفعى ويرد ذكره مرات عدة في الكتاب المقدس ، اما هوبز فيستعمله ليصور سلطة الحاكم او الدولة التي ستبدل بها الناس ضمن عقد اجتماعي جديد سلطة الدين او اللاهوت . انظر : هوبز ، توماس ،اللفياثان . تر ، ديانا حرب وبشرى صعب ، كلمة المترجم في نهاية الكتاب ، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، ط١ ، ٢٠١١ ،(ب،ص) .

[١٨٨] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص١٤٠. وانظر : عبد الحميد ، صائب ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين . الغدير ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠١ ، ص١٠٦ .

الحكومات الأخرى التي ظهرت في التاريخ هي نفسها الحكومات السابقة بعد ان فسدت ، وسوف لن نكون في الضفة الأخرى أبدا عندما نستذكر تقسيم مونتسكيو، للحكومات ، اذ لن نجد أي فارق في التصنيف مما يشير الى مدى تأثر صاحبنا بالفيلسوف هوبز ، ومن قبله أرسطو ، اذ يقسم الحكومات الى ثلاثة أنواع هي .[١٨٩] "الجمهورية ، والملكية ، والمستبدة " .[١٩٠]

يقول هوبز " ان السبب النهائي والغاية وهدف البشر التوافق بطبيعتهم الى الحرية وممارسة السلطة على الاخرين ، من خلال فرض قيد على انفسهم ، والذي يجعلهم يعيشون في اطار الدولة " .[١٩١]

والقانون الطبيعي لايتفق مع الغرائز فـ" هوبز يرى ان القانون الطبيعي عديم الجدوى ، كقاعدة تتحكم بتصرفات الناس وذلك لأنه يتضارب مع الغرائز والعواطف الطبيعية ، لكي يصبح ذا فاعلية علينا ان نجعله ذا أسنان قاضمة ونجعله هكذا عندما نعاقب عن طريق القوى الاجتماعية الفردية " .[١٩٢]

في حين ان مونتسكيو ، لاحظ ان الموجودات تخضع لنوعين من القوانين ، احدها طبيعي والأخر وضعي ، وفي الطبيعي يقول " قوانين الطبيعة ، تدعى بهذا الاسم لاشتقاقها من نظام وجودنا ، ويجب لمعرفتها جيدا ان ينظر الى إنسان قبل قيام المجتمعات " . ويرى ان هذه القوانين تشتق من طبيعة تكوين تلك الموجودات مباشرة ، وهي تلك القوانين التي كانت تسود الانسان البدائي قبل تكوين المجتمعات . لأنه كان يعتقد كأصحاب المذهب التعاقدي ان الانسان قبل تكوين المجتمعات قد مر بمرحلة طبيعية . وهنا ، هو تأثر بهوبز ولوك على وجه الخصوص .[١٩٣]

" ومازال هوبز، ينظر اليه على انه احد اهم أقطاب العقد الاجتماعي ، وبحسبه ، فالعقد الذي ابرم بين الأفراد جميعا ، نقل الحق الطبيعي المطلق الذي كان لكل فرد على كل شيء الى شخص ليس طرفا في العقد ، لذلك فأن إرادة هذا الأخير وحدها تحل محل إرادة الجميع وتمثلهم ، وسيكون سلطانه عليهم مطلقا لا حدود له ، لأنهم قد تنازلوا له عن حقوقهم كاملة من دون ان يلزموه بشيء ، لذلك فأن الملك او الرئيس مهما يفعل فلا يحق للإفراد ان يثوروا عليه او ان يخالفوه ، وإلا عدوا خارجين على الميثاق " .[١٩٤]

ومن هنا نجد مدى اتساع السلطات التي اقرها هوبز، للحاكم وكيف انه لا يقيدها بأي قيد ولا يوازيها أي التزام ، قد أعطاه حق تنظيم شؤون الدولة حسب ما يراه صالحا من دون مشاورة الأفراد فهو يستمتع بحقوق مقدسة.[١٩٥]

لذلك فان " صاحب السلطة المطلقة ، لن يكون ممكنا ان يعدم أبدا ، لان صاحب السلطة المطلقة على حق ، وان يعاقب بأي أسلوب كان ، من أفراد مجتمعه . ويعود ذلك الى ان كل فرد هو صانع لافعال حاكمه المطلق ، لذلك فهو يعاقب غيره على أفعال ارتكبها بنفسه " [١٩٦]

---

[١٨٩] ينظر : إمام ، عبد الفتاح إمام ، توماس هوبز فيلسوف العقلانية . دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت ، ١٩٨٥، ص٣٨٨ .

[١٩٠] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١، المصدر نفسه ، ص٢٠ .

[١٩١] هوبز ، توماس ، اللفياثان .المصدر نفسه ، ١٧٥ . .

[١٩٢] قربان ، ملحم . قضايا الفكر السياسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٢، ص٥١.

[١٩٣] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ١٤.

[١٩٤] Isaac , Karmic ; Essays in the history of political Thought . Oxford University , Press, London , 1964.p148

[١٩٥] ينظر : نصر ، محمد عبد المعز ، في النظريات والنظم السياسية ، دار النهضة العربية ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٧٣، ص٧٥.

[١٩٦] هوبز ، توماس ، اللفياثان . المصدر نفسه ، ص١٨٦ ..

ولا يتفق فيلسوفنا مع هوبز، في هذا الاتجاه ، الأمر الذي دفعه الى كتابة (رسائل فارسية) الذي انتقد فيه السلطة المطلقة ، وكذلك في (روح الشرائع) عندما بين مزايا الحكومات وحالة عدم جواز ان تكون السلطات الثلاث بيد جهة واحدة .

والدولة عند هوبز ، كائن او كيان مصطنع ، فهي لم تكن نموا طبيعيا بل إنها نشأت نشأة مصطنعة عن طريق الأفراد . كما ذكر ذلك في كتابه (الليافيثان) قائلا " ان الانسان عن طريق الفن خلق ذلك الوحش الضخم الليافيثان الذي نسميه الكومنولث او الدولة ولا يعدو ان يكون إنسانا صناعيا وان كان أعظم حجما واشد بأسا من الانسان الطبيعي الذي ابتدعه ليحميه ويؤمنه ". [١٩٧ ١٩٨]

ويستنتج هوبز ، ان الدولة هي نتاج ضروري لقابليات الأفراد الطبيعية ، ومن هنا بالذات يؤسس الواجبات السياسية الجوهرية على الحق الطبيعي . فان الحق الطبيعي عنده ينطبق على كل أفعال الانسان التي تنتج بالضرورة عن طبيعته ، في نطاق تعلقها باعتبارات عقلانية . ان الأمر يتعلق هنا بكل ما توجب علينا فعله او عدم فعله إذن تصرفنا بطريقة عقلانية ، أي ، عندما يكون هدفنا المحافظة على الحياة وعلى الأعضاء أطول وقت ممكن – حسب تعابيره الشخصية ، ان مهمة الدولة من وجهة نظر الحق الطبيعي ، والحال ان الدولة مدينة من حيث أصلها لقانون طبيعي من هذا النوع ، تتحدد في ضمان السلام المدني الداخلي . [١٩٩]

وينبغي ان لا يساء تفسير هوبز، للدولة ، فلم تكن نظريته تؤكد بان الفرد يجب ان يكون خاضعا في كل شيء للدولة ، بل بعكس ذلك كان من شأن الحكومة السياسية ان تمنحه اكبر قسط ممكن من الحرية بالنظر الى ظروف الحياة الاجتماعية ، وهنا أصبحنا على مقربة كبيرة من مونتسكيو، في تفسيره للحرية السياسية . وكان هوبز، يعد الوظيفة الأساسية لأية حكومة هي حماية رعاياها ، حمايتهم من أي تدخل في شؤون الآخرين كما تحميهم من أي هجوم آت من الخارج . وهذا التصور قد لعب دورا كبيرا في مجرى التاريخ التالي الى ان استبدل بفكرة السلطة السياسية المكرسة للاسهام فعليا في التقدم الاجتماعي ، وفي ارتقاء الحضارة العام ، ولهوبز كما لمكيافيللي ، السبق في وضع نظرية دور الدولة السياسية في التاريخ .[٢٠٠]

ان جميع هذه التصورات كان لا بد لها من ان تمثل في موقفه من التاريخ ، فقد كان يهتم بالتاريخ ، وكانت أول أعماله ترجمة توسيدس . وهو مدين بشهرته لكتاب ليفياثان Liviathan سنة ١٦٥١ ، فقد كان هوبز يؤكد بان الناس أنانيون بطبيعتهم وإنهم لا يسعون الا الى حفظ بقائهم والى القوة . وينقل ويدجيري عن هوبز قوله : " إنني أضع في الصف الأول الميل العام عند الانسان في الرغبة الأبدية لاكتساب السلطات فوق السلطات ، والذي لا يكف الا بالموت . وليس سبب ذلك على الدوام ان الانسان يتوق الى سعادة تفوق ما قد شعر به من قبل من سعادة " [٢٠١] والسعادة عند هوبز ، " في ان الدولة مفوضية من غالبية المواطنين لاستخدامهم في تحقيق الصالح العام . فعن هذا الطريق وحده يمكن تحقيق الصالح العام الذي فيه تجد ان الأفراد في اعلى درجة من السعادة الممكنة " . [٢٠٢]

---

١٩٧ Hobbes ; Levlathan . Oxford University Press, London , 1947. P119

١٩٩ ينظر : هوركهايمر ،ماكس ، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية . تر ، محمد علي اليوسفي ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠٠٦، ص٤٥ .

٢٠٠ ينظر : ويدجيري ، ألبان ن ج ، المذاهب الكبرى في التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٨٨ .

٢٠١ ينظر : هوركهايمر ، ماكس ، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية . المصدر نفسه ، ٥٧ .

٢٠٢ اشفيتسر ، البرت ، فلسفة الحضارة . تر ، عبد الرحمن بدوي ، مراجعة زكي نجيب محمود ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة ، ص١٩٢ .

او انه لا يعرف الاكتفاء بسلطة معتدلة ، وإنما سبب ذلك هو انه لا يستطيع ان يثبت سلطانه وان يحلم بالعيش كما يحب دون ان يكتسب مزيدا من السلطان أيضا " . وفي حالة النوع الواحد " حيث يكون الانسان هو عدو الانسان " . كما " لا يوجد مكان للجهد ، اذ ان الثمرة في ذلك غير أكيدة ، ولا توجد بذلك ، زراعة للأرض ، ولا ملاحة ، ولا استعمال للبضائع التي يمكن ان تستورد بالبحر ، ولا أدوات تتيح تحريك او نقل ما يتطلب قوة كبيرة ، ولا أبنية رحبة ، ولا معرفة بسطح الارض ، ولا فنون ولا آداب ولا مجتمع . واسوأ من كل شيء ان هناك الخوف والخطر المستمرين من الموت العنيف ومن حياة الانسان الوحيدة ، التعسة ، العفنة ، الحيوانية والقصيرة " . ان القيم التي أعطاها الناس لانفسهم في التاريخ قد جعلتها ممكنة لإقامة قواعد في السلوك الاجتماعي تدعمها سلطة عليا كان غرضها رفاه الجميع . الا ان التاريخ الفعلي لم يحقق هذا المثل الأعلى سواء في الماضي ام في هذا العصر ، وكل شيء يحمل هذا الافتراض بان هوبز، كان يرى في ذلك هدفا للمستقبل . [٢٠٣]

ان المشكلة الأساسية التي تثيرها فلسفة التاريخ عند هوبز ، هي مشكلة الايدولوجيا ، ولا شك ان هذا المفهوم ، الذي يحتوي في الواقع على مضمون اكثر غنى ، لم يكن موجودا عند هوبز، بوضوح بل كان ضمنيا . ولهذا المفهوم عنده معنى مختصر هو مجمل الأفكار التي تسود مرحلة معينة في مجتمع معين وتفيد في المحافظة على شكل ذلك المجتمع . ويمكن صياغة وجهة نظر هوبز، ومعه وجهة نظر اسبينوزا، وعصر الأنوار عامة على النحو الاتي : لا يمكن فهم مجرى التاريخ الا إذا تم اعتبار توجه الناس بوسائل أيدولوجية ، هو التوجه الذي يمثل احد اهم العوامل في مسار التاريخ . لقد كان النبلاء والكهنة في مجتمع القرون الوسطى في المتاجر هم أول الذين استعملوا الايدولوجيا للحفاظ على تشكيلة اجتماعية ، كان استمرارها هو السبب الجوهري ، وتعارض الايدولوجيا بالفعل . وهذا الأخير وكثيرا ما يدعوه هوبز، العقل الـــ (صائب) – مماثل للعلم وللحق الطبيعي . إذن يتمثل العقل عند هوبز، بالعقلانية ، وفي هذا المجال نسجل اختلافا بين هوبز، وعقلانية القرن الثامن عشر . ويجيز هوبز، سذاجة كون العقل كان معطى تقريبا منذ بدء التاريخ ، وهو وان بقي خفيا فأن ذلك لا يمكن ان يعزى الا الى بعض المكائد ، وخصوصا البلبلة التي نشرتها الكنيسة ، أما في عصر الأنوار (باستثناء روسو) فكان الأمر على العكس ، اذ لا يمكن اكتساب العقل الا على قاعدة التجربة المنظمة اجتماعيا ، ويتضمن هذا الاكتساب أيضا بالنسبة لهم طبعا ، ضرورة تجاوز المصاعب التي يقيمها الحاكمون . وعليه توجد المعرفة في نظر هوبز، منذ البدء ، كما في التاريخ التوراتي ، وإنها لغلطة البشر إذا كانت تلك المعرفة باهتة ونشاطها معرقلا ، في حين يعده مفكرو عصر الأنوار بمثابة قانون طبيعي واقع كون الايدولوجيا توجد في البدء ولا يمكن ان تزاح وتستبدل الا ضمن مجرى السيرورة التاريخية . [٢٠٤]

ثانيا : جان بودان (*).

لم يكن اختيار الباحث في عرضنا السابق لــ (هوبز) من دون سبب ، حيث سعينا الى إيجاد تلك الوشاجة والترابط بينه وبين مونتسكيو ، فقد وجدنا الأخير ، وقد تأثر بنظريتين أثرتا في منظومته الفكرية ، وهما النظرية السياسية ، التي تأثر بها بــ (هوبز) من ناحية التسلسل التاريخي ، إذا ما أردنا الحديث عن جون لوك ، وجان

---

[٢٠٣] ينظر : ويدجيري ، ألبان ، ج ، المذاهب الكبرى في التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٨٦ .

[٢٠٤] ينظر : هوركهايمر ، ماكس ، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية . المصدر نفسه ، ٥٧ .

* من اقدم فلاسفة اوروبا الحديثة الذين منحوا لقب (مؤسس فلسفة التاريخ) ، ومع انه لم يبتعد عن نظرة القرون الأوروبية الوسطى للسياسة ، فالسلطة عنده هي التي تصنع القانون وارادة الملك هي القانون الاسمى . الا ان له في فلسفة التاريخ أراء جديدة وتصورات استحق بها ان يمنح لقب مؤسس لفلسفة التاريخ . انظر : بلوخ ، ارنست ، فلسفة عصر النهضة . تر ، الياس مرقص ، دار الحقيقة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص١٣٠ .

جاك روسو . والنظرية الأخرى والمهمة هي النظرية البيئية ، وهنا كان لا بد من إيضاح اثر بودان ، في فكر فيلسوفنا من الناحية البيئية ، وهنا أيضا لا يحق لنا إنكار أسبقية العلامة الكبير (ابن خلدون) في بيان اثر البيئة في تكوين المجتمعات وصياغة القوانين والبناء الحضاري ، ولكن ، لكي نسير في منطقة عملنا في عصر النهضة والتنوير ، وجدنا ان نبقى ضمن مناخات مونتسكيو ، الفكرية ، فكان جان بودان ، محطتنا التي توقفنا عندها .

لقد مهدت أعمال جان بودان [**] ، (١٥٣٠- ١٦٩٦) ، قبل لايبنتز، بزمن طويل لتفكير علمي وفلسفي في التاريخ . وإذا كان بودان، قد قدم أحيانا بوصفه مؤسسا لفلسفة التاريخ ، فانه كان يهتم بطرق دراسة التاريخ اكثر من اهتمامه بمعناه . وبينما كان يتخذ موقفا مستقلا من الدين التقليدي ومن الكنيسة ، كان ينزلق بعض الشيء الى الريبة في علم اللاهوت التي انتشرت في القرن الذي تلا النهضة . ان دراسة التاريخ تقدم فائدة فكرية وكذلك قيمة نفعية من وجهتي نظر الأخلاق والسياسة . ان الإلهي يجب ان يعد غير قابل للتغير. وكذلك فان العالم المادي يمثل نظاما راسخا . الا ان التاريخ الإنساني يبدو ، لأول وهلة ، انه في تبدل ثابت ، ولكن الدراسة المحكمة وحدها هي التي تتيح استخلاص بعض المبادئ المنظمة . ويقدم الانسان من حيث هو جسد وفكر او (روح) بعض المميزات التي تنظم العالم المادي والعالم الإلهي . وهكذا فان التاريخ يشمل الله والطبيعة معا . وفي هذه الفكرة نترقب مونتسكيو، في عدم فصله القوانين الطبيعية عن الله . لأنه يرى ان للموجودات الخاصة المدركة قوانين وضعتها ، ويرى وجود علائق عدل ممكنة قبل وجود قوانين موضوعة . ويقر بوجود عقل أولي والقوانين هي الصلات بين العقل ومختلف الموجودات وصلات هذه الموجودات مختلفة فيما بينها . ولله صلة بالكون خالقا وحافظا .[٢٠٥]

ويبقى العقل المبدئي عند مونتسكيو، هو الله والقوانين عبارة عن العلاقات التي توجد بينه وبين الموجودات فيما بينها وبين بعض ، فعلاقات الله بالطبيعة تتلخص في انه خلقها وفق قواعد وضعها هو . وهو يحفظه ويصونه وفق نفس القوانين التي خلقها بمقتضاها .

و" يعد بودان ، الملهم ، (لشارل دي مونتسكيو) في تبشيره بـ (نظرية البيئة) وتمسكه بمقولاتها . وفي مؤلفه المسمى (الكتب الست عن الجمهورية) الذي نشره عام ١٥٧٧ ، أوضح بودان ، آراءه في التفسير الجغرافي والمناخي للتاريخ . ولقد تحدث بودان عن وجود أنماط رئيسية للإنسانية ، بحيث ان قوانينها ومؤسساتها تستجيب لثلاثة أقاليم مناخية . ربط خلالها بين طبيعة النشاط البشري لسكانها بطبيعة ونوع الحكم السائد فيها . اذ ان منطقة الشمال البارد والناشف بنظره ينتج نمطا من السكان يمتازون بالبلاهة وضخامة الأجسام . الا انهم يميلون الى الأشكال (الديمقراطية) في الحكم " .[٢٠٦] اما رأيه في اهل الجنوب فقد اختلف .

حيث يرى ان " اهل الجنوب المأهول بالسكان لشدة حرارته فأهله أناس أذكياء . لكنهم يتصفون بالرخاوة والكسل . ومن ثم فهم أعراق تتصف بالسلبية السياسية ويحكمها عادة نوع من الحكم يتصف بــالثيوقراطية [*]

** من أعماله انه ذهب إلى الفصل بين ما هو الهي وما هو طبيعي في الكون ، مع محاولته التوفيق بينهما ، فالتاريخ يشمل الطبيعة بواقعيتها المتاحة للانسان ، وكذلك فكرة والله ، والانسان يمتلك بعض السمات التي تنظم العالم المادي والعالم الالهي . انظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . دار الهادي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٦٥ .

٢٠٥ ينظر : ويدجيري ، ألبان ، ج، المذاهب الكبرى في تفسير التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٩٠.

٢٠٦ الملاح ، هاشم يحيى ، وآخرون ، دراسات في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٠٠.

* **الثيوقراطيه** (من أصل يوناني: θεοκρατία = حكم الآلهه) أو الدوله الدينيه، نظام حكم يستمد شرعيته و سلطاته مباشرة من الإله أو كتاب ديني ، و فيه تتكون الطبقه الحاكمه من الكهنه و رجال الدين الذين يعتبرون انفسهم موجهون من قبل الاله أو ينفذون شرائع و تعاليم دينيه. الحكومه الثيوقراطيه هى الكهنوت الدينى نفسه أو على الاقل يسيطر عليها الفكر الكهنوتى. للمزيد انظر : جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة . نقله الى العربية ، فرانسوا ايوب واخرون ، مكتبة انطوان ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص٦٧٨.

وشكل من أشكال الطغيان . في حين ان الإقليم المركزي أي المعتدل يكون طقسه لطيفا و (الملكية) هي الشكل المفضل للحكم . لا بل عد بودان بلاده – أي فرنسا – هي النموذج الأفضل على ذلك . ومن هنا كانت نظريته تمثل طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية لعصره . ولا يمكن تعميمها على المجتمعات الأخرى . وهذا ما دفع الكاتب (ارنست بلوخ ١٨٨٥ –١٩٧٧) الى وصف هذه النظرية ، بأنها كانت بمثابة النظرة المتشددة على الظروف " . [٢٠٧]

ووجد الباحث ان مونتسكيو ، لا يتفق مع بودان حول كون (الملكية المطلقة) هي النظام الأفضل للحكم ، وحول ان فرنسا تمثل النموذج الأفضل للحكم . لأنه كان يعتقد ان (الملكية المطلقة) قد قوضت أركان دستور فرنسا التقليدي ، حتى أصبحت الحرية مستحيلة المنال . وذهب الى تحليل الاحوال الدستورية التي تتوقف عليها الحرية ، ومن ثم اكتشاف الوسائل لإعادة إنتاج الحرية للشعب الفرنسي .

" ولم يبتعد (بودان) عن مكيافللي وعن نظرة القرون الوسطى للسياسة ، فالسلطة عنده هي التي تصنع القانون ، وإرادة الملك هي القانون الأسمى " . [٢٠٨]

وهو أول من قال بالنظرية البيئية في اوروبا ، فامن بتأثير البيئة على النشاط الإنساني ، وبالتالي على التاريخ كله ، لكنه ليس التأثير الذي تنعدم معه قدرة الانسان على الفعل ، فالتاريخ الإنساني ليس محددا تحديدا تاما بالظروف المادية والعادات الاجتماعية ، ولكنه في بعضه يستند الى حرية الفرد في الاختيار ، ويستطيع الانسان الصمود في حدود هائلة في وجه القوى الخارجية ، ويستطيع ان يحولها لصالحه . واهم من ذلك كله فهو أول من قال بوجود (قانون شامل) في التاريخ ، فنلاحظ ان تطور القانون المدني يكشف وجها من النظام في التاريخ ، لذلك يوجد قانون شامل للتاريخ وراء القوانين الخاصة لدى مختلف الشعوب ، ودراسة وقائع التاريخ تتيح التحقق من وجود هذا القانون الشامل . [٢٠٩]

وفي هذا ظهرت فلسفة التاريخ لديه في مقدمته عن الدراسات التاريخية ، فقد رفض الى حد ما تصور العصر الوسيط للعصر الذهبي ، ثم انهيار ذلك العصر وسقوط الإنسانية ، كما رفض تقسيم تطور الإنسانية الى أربع مراحل . هذا التقسيم الذي قبله اللاهوتيون بناءا على نصوص العهد القديم ونبوة دانيال : البابلي ، والفارسي ، المقدوني ، والروماني الملكي ، الذي يستمر حتى يوم الحساب . ويقترح تقسيما اخر للإنسانية وتطورها الى ثلاث مراحل : الأولى ، مرحلة سيادة شعوب جنوب الشرق (حوالي ألفي سنة) ، والثانية مرحلة سيادة شعوب الوسط (البحر الأبيض المتوسط) لنفس المدة الزمنية ، والثالثة مرحلة سيادة شعوب الشمال التي هزمت روما وأصبحت قائدة المدنية وصانعة الحضارة . ويؤرخ بودان، للإنسانية طبقا للمناطق الجغرافية ، من جنوب الشرق الى الوسط الى الشمال وكأن الحضارة تنتقل من الشرق الى الغرب (من أسيا الى اوروبا) ثم من الجنوب الى الشمال (من جنوب اوروبا الى شمالها) . [٢١٠]

وقد وجدنا حضورالتقسيم المتعلق بانتقال الحضارة من الشرق الى الغرب أي من آسيا الى اوروبا عند (هيجل) فيما بعد ، اذ اعتبر ان الحضارة بدأت من الشرق وتنتهي في حالة متكاملة في اوروبا ، ومن اوروبا لا بد ان تنتهي في حالة (المطلق) عنده ، عند الدولة البروسية . لكننا لم نجد شيئا من هذه التقسيمات عند مونتسكيو ، لأنه لم يقم تصوراته على أسس حقبية في التاريخ ، ولا على أساس من التنبؤ الغيبي ، ولم يربطه بأفكار ومتغيرات

---

[٢٠٧] الملاح ، هاشم يحيى ، وآخرون ، دراسات في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٠٠.
[٢٠٨] بلوخ ، ارنست ، فلسفة عصر النهضة . المصدر نفسه ، ص١٣٠.
[٢٠٩] ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي .المصدر نفسه ، ص٦٥ .
[٢١٠] ينظر : لسنج ، تربية الجنس البشري ، المصدر نفسه ، ص ٤٧.

بعيدة عن العلم والواقعية ، فالتاريخ عنده يخضع لقانون ، وهذا القانون يخضع الى طبيعته ومبدئه ، وهذه الطبيعة انما هي ما تمليه البيئة الطبيعية المتمثلة بالمناخ والتربة على نوع تلك القوانين ، وبذلك فالبيئة هي التي تصنع التاريخ على وفق تصورات مونتسكيو ، وبهذا يكون فيلسوفنا قد اتفق مع بودان ، في التأثير البيئي بنظرة عامة ، لكنه اختلف معه حول آليات التأثير في مفترق طرق ، وهو القانون ، لان مونتسكيو، حاول البحث فيما وراء القانون الا وهي الروحية ، بينما نلاحظ ان بودان، بحث في القانون على اعتبارات طبيعية وسياسية ودينية ، لانه حاول ان يجعل من القانون تلك الجهة التي تمنح السلطة المطلقة للملك ، وهذا ما رفضه مونتسكيو ، وكذلك حاول بودان ،ان يجعل من القانون مشاركا لله في صنع تاريخ البشر ، في حين ان مونتسكيو، جعل تاريخ البشر، هو من تجليات النظرية البيئية حصرا ، ثم الحق بها فيما بعد الروح العام . .فلا مطلق عند مونتسكيو .

لكننا نجد ان العوامل البيئية وتأثيراتها لها صلة الاتفاق بين بودان ومونتسكيو، فهي من ناحية الحرارة والبرودة والاعتدال تؤثر في نوع الحكم السائد في تلك الأقاليم . وكذلك ذهب بودان الى ما وجدناه تحت تسمية العوامل المعنوية عند مونتسكيو ، لكنها عند بودان أخذت تسمية المراحل . [٢١١]

وتمتاز مراحل بودان، الثلاثة بتميز ثلاثة أجناس بشرية مختلفة ، الدين للمرحلة الأولى ، والحكمة العملية للمرحلة الثانية ، وفنون الحرب والمهارة اليدوية الخالقة في المرحلة الثالثة ، وبذلك يكون أول فلاسفة التاريخ الذي يميز بين مراحل ثلاث في تطور البشرية قبل (فيكو) و(ترجو) في القرن الثامن عشر و(هيجل) و(كونت) في القرن التاسع عشر . وهو يرفض نظرية السقوط والانهيار والرجوع الى الوراء ، الا ان التطور لديه ما زال يحكمه قانون مزدوج للنهوض والسقوط . ولكن النهوض اكثر فاعلية من السقوط ، والتقدم اكثر وضوحا من التخلف ، فالتاريخ الماضي حامل التقدم .[٢١٢]

وعنده التاريخ مسيرة عامة باتجاه التقدم ، مع انه تقدم إجمالي تتخلله حقب من الانحطاط والتراجع ، فهو أول القائلين بنظرية التقدم في تاريخ اوروبا الحديث . [٢١٣]

ويبدو لنا " ان التقدم يحدث في المعرفة الإنسانية ، أي على مستوى الذهن والوعي والشعور وليس مجرد تطور مادي او اجتماعي . فالتطور شامل لمظاهر الحياة الإنسانية ويحدث طبقا لخطة إلهية دون ان يقع بالضرورة في نظرة جبرية للتاريخ نظرا لحرصه على تأكيد حرية الانسان في صنع التقدم ومسار التاريخ ، وإذا نحن استبعدنا بعض الجوانب التنجيمية والفيثاغورية في تصوره للتاريخ لبدت لنا فلسفته متفائلة إنسانية وان المستقبل يحتوي بالضرورة على ازدهار وتقدم اكثر مما احتوى الماضي ، وان التاريخ يمثل مصلحة الشعوب جميعا ، وان التطور يحدث في وعي الإنسانية كلها ، وليس في حياة شعب دون أخر " .[٢١٤]

واتفقت أراء بودان، كثيرا مع اراء مونتسكيو ، حول عدم محدودية الأخلاق في الزمان والمكان ، وكان يؤكد زيادة على ذلك بان الاستقصاء التجريبي ، لم يؤيد لا الاعتقاد بعصر ذهني في الماضي ولا ان الناس قد فسدوا على الدوام . وعلى الرغم من الانحطاط فان الرقي والتقدم كانا الصفة العامة على وجه الإجمال . لذلك فان المعالجة الكاملة للتاريخ التي تدخل في اعتبار طبيعة الانسان المزدوجة ، يتوجب عليها ان تتضمن علوم الطبيعة كما تتضمن الدين المقارن على حد سواء . وقد جسد فيلسوفنا فكرة الأخلاق من خلال حديثه عن العدل ، اذ كان مشبعا بالروح العملية ، الذي كان يهدف الى إيجاد تفسير علمي لاختلاف القوانين ، أي تفسير يقوم على منهج

---

[٢١١] ينظر : الدليمي ، حامد حمزه حمد ، فلسفة التاريخ والحضارة .المصدر نفسه ، ص١٤٧ .
[٢١٢] ينظر : لسنج ، تربية الجنس البشري ، المصدر نفسه ، ص ٤٧.
[٢١٣] ينظر : ويدجيري ، ألبان ، ج، المذاهب الكبرى في التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٩٠.
[٢١٤] لسنج ، الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٤٧.

علمي يستند على المشاهدة والتجربة والاستقصاء ، وعمد الإبقاء على التفسيرات التي تعتمد على اسس ميتافيزيقية .

المبحث الاول : النظرية (*) ، البيئية والتفسير الجغرافي للتاريخ .

المطلب الاول : اهمية العلاقة الترابطية بين البيئة والتاريخ عند مونتسكيو .

يعد بعض المؤرخين في تعليلاتهم لإحداث التاريخ الجزئية ، وفلاسفة التاريخ في تفسيراتهم لمسار التاريخ العام ، الظواهر الجغرافية المختلفة ذات اثر بارز في تشكل الأحداث التاريخية (**) ، وارتسام الملامح التي اتخذها

---

* النظرية قضية تثبت ببرهان ، وهي عند الفلاسفة تركيب عقلي ، مؤلف من تصورات منسقة ، تهدف الى ربط النتائج بالمباديء ، وهذا ما سعى اليه مونتسكيو . فاذا اطلقت النظرية على مايقابل الممارسة العملية في مجال الواقع دلت على المعرفة الخالية من الغرض المتجردة من التطبيقات العملية . واذا اطلقت على مايقابل العمل في المجال المعياري دلت على ما يتقوم به معنى الحق المحض او الخير المثالي المتميز عن الالزامات التي يعترف بها جمهور الناس . واذا اطلقت على مايقابل المعرفة العامة دلت على ماهو موضوع تصور منهجي منظم ومتناسق تابع في صورته لبعض المواضعات العلمية التي يجهلها عامة الناس . انظر : صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، ج٢ ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب اللبناني ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ٤٧٧ .

** ان من أقدم الكتابات التي وصلت ألينا في هذا الموضوع رسالة عنوانها : "تأثيرات الجو والماء والموقع" وهي ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد حفظت ضمن مجموعة أعمال مدرسة هيبوقراط الطبية اليونانية . وقد قسمت الرسالة البشر الى ثلاثة أقسام بحسب المناطق الجغرافية التي يعيشون فيها فأوضحت ان أجسام الناس من حيث الضخامة والقوة . ينظر : Shklar Judith . Montesquieu . Oxford University Press, London,1987, p.15 .

التاريخ البشري ، أو التي سيتخذها في المستقبل ، وذلك لما لتلك الظواهر من تأثير ملموس في الإنسان صانع تلك الأحداث وذلك التاريخ . فطبيعة الأرض والمناخ والموقع الجغرافي لا تنفك تؤثر في تكوين الإنسان وأخلاقه وقدراته العملية وملكاته العقلية والإبداعية ، ومن ثم تدفع بتاريخه ان يتخذ وجهة معينة . فالجغرافية توجه التاريخ من وجهة نظر هؤلاء العقليين بـ (حتمية) البيئة الجغرافية في تفسير التاريخ . (٢١٥)

وهذا الامر يتيح لنا القول بتأكيد مبدأ الحتمية الجغرافية عند مونتسكيو ، التي تبلورت في نظريته البيئية ، والتي اتفقت مع مفهوم النظرية ، كما اشرنا اليه في هامشنا ادناه ، إذ حاول الربط بين المناخ والتربة وطبائع البشر ، فعد الإنسان كائنا يقابله المناخ والتربة . وكان يرى ان المناخ لا يشتمل على غير الحرارة ، وان التربة في نظره تقتصر على الخصوبة والجذب ، وعلى هذه الركائز اقام حتميته الجغرافية .(٢١٦)

وللجغرافيا (*) صلة وثيقة بالتاريخ ، حيث إن للظواهر الجغرافية المختلفة والعوامل الطبيعية منزلة رئيسية في التأثير على الإنسان ، ومن ثم في التاريخ . (٢١٧)

وقد ارتبطت أحداث التاريخ ، منذ القدم بالبيئة الطبيعية ، ونتجت تلك الأحداث عن تفاعل الإنسان مع بيئته ، اذ تمثل الأخيرة جغرافية التاريخ ، وهي أرضية الفعل التاريخي للإنسان ، ولكن على الرغم من قسوة الطبيعة وظروفها المناخية والبيئية على الإنسان الأول ، فانه استطاع وبمرور الزمن ان يتكيف معها ، ولم يكن ذلك التكيف كليا ، بل ان كثير من المظاهر الطبيعية كانت تقلقه على الدوام . وان هذا التحدي البيئي للإنسان قد خلق عنده استجابة ، وهي محاولة معرفة اثر هذه المظاهر الطبيعية في تكوينه ومن ثم سعى للاستفادة من سن القوانين الوضعية التي تتناسب مع طبيعة بعينها ، دون أخرى ، وهذه القوانين كانت دائما تعبر عن ضرورات بعينها ، كما وجدناها عند مونتسكيو .(٢١٨)

ان نوع الترابط بين البيئة الطبيعية وقابليات الإنسان وقدراته وسلوكه (**) هو شيء محتم ، فالحضارة والتاريخ ما هما إلا تفاعل بين بيئة الإنسان وقابليته . فنرى مثلا ان المناخ العام ، يؤثر في تكوين الإنسان وفي خلقه

---

٢١٥ ينظر : النجار ، جميل موسى ، دراسات في فلسفة التاريخ ، مباحث نظرية . المصدر نفسه ، ص١٧٢ .

٢١٦ ينظر : وهب ، علي ، الجغرافيا البشرية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص٥ .

* الجغرافيا علم يدرس الإنسان والأرض وخاصة الظواهر الطبيعية والعلاقة المتبادلة بينهما من تأثر وتأثير في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والعمراني والسياسي ، وبهذا تنقسم الجغرافيا بدورها ، إلى قسمين رئيسيين : الجغرافيا الطبيعية ، والجغرافيا الإنسانية – البشرية ، وهذا القسم يبحث بالإنسان وتأثيره وتأثره بالبيئة . انظر : وهب ، علي ، الجغرافيا البشرية . المصدر نفسه ، ص٥ .

٢١٧ Ronald ,b ; The spirit and purpose of Geography,the free press , London , 1960,p16

٢١٨ ينظر : الدليمي ، حامد حمزه حمد ، فلسفة التاريخ والحضارة . المصدر نفسه ، ص١٤٤.

** هذا يعني ان علاقة الإنسان ببيئته عرضة لقوانين السببية التي تقوم عليها العلوم الطبيعية ومنها علم الفيزياء او علم المجتمع وبالتالي فان إعادة ترتيب العلاقة يكون الجسم ثم العالم ثم المكان . للمزيد من التفاصيل انظر : . Shklar, Judith ; Montesquieu . Oxford University Press, London,1987 .p15

ونفسيته وفي حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد أدرك المؤرخون القدماء هذه الحقيقة ، فاهتموا كثيرا بالعوامل الطبيعية ، وخصصوا لكتبهم التاريخية مقدمات جغرافية . [٢١٩]

ولا بد من الإشارة الى ان تفاعل الإنسان مع بيئته ، يقابل مجموعة الضروريات الأساسية للأشياء عند مونتسكيو ، والتي جعل منها الأساس لروح القوانين . ولم تخرج نظرية مونتسكيو البيئية إلا من هذه التصورات للعلاقة بين الإنسان وبيئته . وعليه فان هذه الضروريات هي العوامل المساهمة في بناء التاريخ والحضارة .

وعليه فان العوامل الجغرافية من مناخ وأمطار وموقع وجبال وانهار وتربة معدنية ونباتية وما شاكلها ، هي العوامل الرئيسة في تغيير مجرى التاريخ البشري [*]، ونقل الحضارة الإنسانية من مكان الى مكان . أي تلك العوامل بمجموعها ، مع اختلاف في نسبة اثر بعضها بالنسبة لبعضها الاخر ، هي التي تجهز الإنسان بالمقومات العامة التي تجعله بوضع يستطيع معه ان يغالب الطبيعة والمجتمع ، وهي التي تقرر فيما إذا كان باستطاعته ان يتغلب على العقبات الطبيعية والاجتماعية التي تعترض سبيل تقدمه . [٢٢١]

وعند مونتسكيو ، الطبيعة هي التي تحدد نوع الدولة ، او نوع العلاقات بين الأفراد الذي يحدد بالتالي شكل الدولة ، ولان الدولة لا تقوم إلا بمجموعة القوانين المناسبة ، فيقول مونتسكيو انه " يجب ان تكون هذه القوانين موافقة للطبيعة ولمبدأ الحكومة القائمة أو التي يراد أقامتها " . [٢٢٢]

ويقصد بالطبيعة ، المناخ . ويرى ان نظم الحكم والقوانين تختلف من مجتمع الى مجتمع باختلاف المناخ ، وان اختلاف المناخ هو الذي يتسبب في اختلاف العادات والتقاليد والنظم الاقتصادية والأديان . بل في مفهوم الحرية ايضا . وقال لان سكان الجبال والجزر يحسون بحرياتهم أكثر من سكان السهول والقارات ، لسهولة الدفاع عن الأولى ، وان سكان الجبال يتصفون بالاقتصاد والاستقلالية والنشاط بسبب طبيعة بلادهم . وجعل هذا التفسير الجغرافي للتاريخ ، مونتسكيو، واحدا من مؤسسي الحتمية الجغرافية في البناء التاريخي .[٢٢٣]

---

[٢١٩] ينظر : مؤنس ، حسين ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس . معهد الدراسات الإسلامية ، ط١ ، مدريد ، ١٩٦٧ ، ص٥٤.

[*] وتتدخل الجغرافية تدخلا حاسما في تغير مجرى التاريخ ، فعلى سبيل المثال ، كان للعوامل الجغرافية اثر بارز في عدم نجاح الحملات العربية الإسلامية على أوروبا عبر جبال البرتات (البرنية ، Pyrenees) ، التي تفصل اسبانيا عن فرنسا ، وذلك لان العرب لم يكونوا متعودين على القتال في تلك المناطق الوعرة ، التي تتميز بشدة الأمطار ، والأراضي الموحلة والأجواء القارسة البرد ، فكان نتيجة ذلك ان تغيرت خارطة تاريخهم ولم ينجحوا في مرادهم . انظر : المياح ، علي محمد ، العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا . مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، م٥ ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص١٢٩ . وللمزيد انظر أيضا : طه ، عبد الواحد ذنون ، دراسات أندلسية ، المجموعة الأولى ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، (ب،ط) ،الموصل ، ١٩٨٦ ، ص٦٨ .

[٢٢١] ينظر :جعفر ، نوري ، التاريخ مجاله وفلسفته . دار الشؤون الثقافية ، ط٣ ، بغداد ، ٢٠٠٧ ، ص٦٧ .

[٢٢٢] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١٨ .

[٢٢٣] ينظر : الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، ١٩٩٢ ، ص٤٧٦.

لقد فسر مونتسكيو ، مسار التاريخ على أساس جغرافي ، فعد الإنسان جزءا من الطبيعة ، وحياته تأتي استجابة للظروف الجغرافية ، وأصبحت من خلاله التغيرات التاريخية مظاهر مختلفة لجوهر واحد ، هو الطبيعة الإنسانية ، وعلى هذا يكون مونتسكيو ، قد ربط علم الاجتماع بالبيئة ربطا مباشرا من خلال التأثير الذي تلحقه الأخيرة بالإنسان وبنائه الحياتي ، الذي يعد حجر الأساس في بناء التاريخ والحضارة . [٢٢٤]

ويعتقد الباحث ان تمسك مونتسكيو ، بأحادية التفسير الجغرافي للتاريخ ، كادت ان توقع به . اذ يبدو تحت تسلط الأسباب الفيزيائية ، ان أي القوانين يجب ان تكون نسبية الى فيزيقي البلد ، الى المناخ الجليدي او المحرق او المعتدل ، الى جودة الأرض ، الى موقعها ، الى حجمها . ولكنه يتدارك ، في الكتاب التاسع عشر ، باستدعائه مفهوما أمن من مفهوم المناخات [*]، الفاتن والخطير ، وهو مفهوم الروح العام لكل امة . [٢٢٥] الذي أوصى بإتباعه في قوله " فعلى المشترع ان يتبع روح الأمة إذا لم تناقض مبادئ الحكومة ، وذلك لأننا لا نصنع ما هو اصلح مما نصنع عن رضا متبعين ذكاءنا الطبيعي " .[٢٢٦] وهذا الروح العام هو الذي يسهم في تشكيلة الحكومة - الدين ، التقاليد ، الأخلاق العامة وأساليب التصرف ، كما وان والمناخ على حد سواء ، هكذا يعيد مونتسكيو غلبتها الصحيحة العادلة الى الأسباب المختلفة ، المعنوية .[٢٢٧]

ويجد الباحث ان هناك مجموعة من العوامل تؤثر في الإنسان وتحدد سلوكه ونشاطه ، وتؤثر في الحضارة على لان الإنسان هو العامل الأساس في قيامها ، وبما ان الحضارات حدث تاريخي ، ومجموع الحضارات تؤلف التاريخ ، لذلك يكون تأثير البيئة الجغرافية في حركة التاريخ من خلال تأثيرها في الإنسان ، وما زال الإنسان يتفاعل بفاعلية مع البيئة ، ومن ثم فهو ما زال يتفاعل مع التاريخ ، الذي يكون بكليته الحضارات ، إذن الإنسان المتأثر بالبيئة ، والبيئة المؤثرة فيه ، ما زالا يتبادلان الأدوار في حركة التاريخ وغاياته .

وهنا في وقفة تحليلية نقدية ، يجدها الباحث ضرورية . اذ تبدأ القواعد العامة لفلسفة مونتسكيو، الاجتماعية بقانون الطبيعة ، ففي الجملة الافتتاحية في (روح القوانين) ، يقول : ان القانون يعني " العلاقات الضرورية الناشئة من طبيعة الأشياء" .[٢٢٨]

---

[٢٢٤] ينظر : الدليمي ، حامد حمزه حمد ، فلسفة التاريخ والحضارة . المصدر نفسه ، ص١٤٩.

[*] والى جانب العوامل الجغرافية هناك عوامل معنوية وأخرى اجتماعية تؤثر في تشكيل قوانين الدولة ونظم الحكم ، لكن هذه العوامل نفسها من صنع الطبيعة الجغرافية أيضا . فالدين كأهم العوامل المعنوية ، هو الأخر متأثر بعوامل الطبيعة في الكثير من أحكامه . ومع هذا التركيز على دور العوامل الجغرافية ، فانه يرى ان الإنسان قادر على توجيهها لصالحه ، أما إذا ساد تأثيرها على العوامل المعنوية والاجتماعية فان هذا يعني جمود المجتمع وضعف مقدرته على التطور . انظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص٧٤.

[٢٢٥] ينظر : شفاليه ، جان جاك ، المؤلفات السياسية الكبرى من مكيافللي الى أيامنا . المصدر نفسه ، ١٠٨ .

[٢٢٦] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٣٦ .

[٢٢٧] ينظر : شفاليه ، جان جاك ، المؤلفات السياسية الكبرى من مكيافللي الى أيامنا . المصدر نفسه ، ١٠٨ .

[٢٢٨] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١١ .

وهذه الصيغة الغامضة تخفي عادة التباسا لم يفعل مونتسكيو، شيئا لتوضيحه . ان العلاقات الضرورية في الفيزياء هي اتساق فحسب في سلوك الأجسام . والقانون في المجتمع هو قاعدة او معيار للسلوك البشري ، ينبغي افتراضا مراعاته ، ولكن غالبا ما تنتهك حرمته . وهذه الحقيقة لها عنده تفسيران لا يوضح أي منهما شيئا ، هما : حرية الإرادة ، وذكاء الناس القاصر الذي يمنعهم عن حياة الكمال الظاهرة في باقي أجزاء الطبيعة . ولكنه عبر اسلوب تأكيدي ، في تقديمه الحجج ضد هوبز ، بأن الطبيعة توفر فعلا مستوى من العدالة المطلقة من زمن اسبق على القانون الوضعي ، وإنكار ذلك سخف كالقول : (قبل رسم الدائرة ، كانت كل إنصاف القطر غير متساوية) .[٢٢٩]

أراد مونتسكيو ، مدى الترابط بين مفهوم العدالة ومفهوم الطبيعة من الناحية التطبيقية ، وتجسد ذلك من خلال دراسته للقانون وأنواعه وطبيعته ومبدأه .

لكن جورج سباين ، في كتابه تطور الفكر السياسي . يرى إن مونتسكيو ، لم يدرس أبدا فكرة القانون الطبيعي بأية عناية . فقد تضمن سرده ، عوامل متباينة مثل معرفة الله ، والشهوات الجسمية ، وأحوال المجتمع الأساسية . وكان هذا مجرد طريقة تقليدية للاستهلال . والباحث لا يتفق مع (سباين) ، في محاولته إفراغ نظرية مونتسكيو، من محتواها ، لان طريقته لم تكن تقليدية ولم تكن استهلالية ، بدلالة انه عدها من ضمن مقتضيات النزعة العلمية السائدة في عصره . وان ما أثار اهتمام مونتسكيو ، كان الفكرة التي تذهب الى ان هذا القانون الطبيعي الأساسي في المجتمع ، الذي جعله بالطريقة المعتادة متماثلا مع العقل ، لا بد ان يحدث أثره في بيئات مختلفة . فالمناخ ، والتربة ، والمهنة ، وشكل الحكم ، والتجارة ، والدين ، والعادات ، كلها ظروف مهمة في تحديد ما يقيمه العقل (او القانون) في حالة معينة . وهذه الملاءمة ، او علاقات الظروف الطبيعية والعقلية والتنظيمية ، تشكل (روح القوانين) . والواضح ان ما كان مونتسكيو، يوحي به هو دراسة سوسيولوجية بمنهج مقارن ، للأنظمة ولمدى تأثرها بالأنظمة الأخرى وبالظروف الفيزيقية غير التنظيمية . ان الافتراض بأنها جميعا متغيرات (لطبيعة) واحدة لا يكاد يزيد على كونه خرافة .[٢٣٠]

وفي حتميته الجغرافية ، جعل مونتسكيو، ربطا بين الطبيعة الاجتماعية والحالة السياسية . فمن رأيه ان العبودية السياسية تخضع لطبيعة المناخ ، وكذلك فأن العلاقات الناشئة بين الأفراد ، إنما هي أنماط اجتماعية ، قد أدت إلى تبلور مواقف سياسية ، تساهم في تحديد مسار التاريخ . وقولنا أنماط اجتماعية ، يعني وجود قوانين أدت

---

[٢٢٩] ينظر : سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي . المصدر نفسه ، ص-٧٥١ -٧٥٠.

[٢٣٠] ينظر : سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي . ، الكتاب الأول ، تر ، حسن جلال العروسي ، دار المعارف ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص٧٥٠.

إلى تحديد سلوك بعينه ، اذ كانت البيئة تمثل الأساس في قيامه . وهذه الحالة السياسية اسهمت في دورها في تشكيل الحكومة (*) . (٢٣١)

ان مونتسكيو ، يجعل الحكومة نتاجا للبيئة الطبيعية (*) ، فالبيئة الطبيعية تخلق مختلف نواحي الحياة او طرز المعيشة في المجتمع ، التي تجبر الدولة على اتخاذ الكيفية المناسبة معها في قوانينها الخاصة بها . وبذلك تكون الحكومة تعبيرا واستجابة للبيئة الطبيعية . لكن لا بد من القول ، ان هذه الأمور التي يرى مونتسكيو، إنها استجابة للبيئة الطبيعية (الرق ، العبودية السياسية ، حال النساء ، التجارة ...) ، ليست الحكومة منفعلة فيها فقط – كما يصورها – بل هي فاعلة فيها ، فليس الرق او العبودية السياسية او التجارة او حال النساء في معزل عن التأثير في الحكومة ، بل ان تأثير الحكومة فيها أكثر بكثير من تأثير البيئة الطبيعية . وكان هذا من دواعي استدعائه لفكرة الروح العام في تفسيره للتاريخ ، ليجعلها تشارك السبب الفيزيقي في الصورة التكاملية للتاريخ (٢٣٢).

ولعل مونتسكيو ، لم يكن – تأريخيا - أول من حاول الجمع بين الأسباب ، وفي هذا ، هل اسباب الفيزياء أم الأسباب الخلقية ، أيهما يهيمن ؟ الإنسان – الروح أم الإنسان – الحيوان ، الآلة ، المادة ، أيهما يغلب في السلوك الإنساني؟ نقاش كبير ومهم ، في الجوهر ، سجال الضرورة والحرية . بين الأسباب الفيزية ، المناخ ، منذ أرسطو ، هيبوقراط ، جالينوس ، بوليب ، كان قد لفت انتباه الملاحظين . ولكن بودان ، كان حقا أول من ادخل فكرة المناخ في العلم السياسي . فعلل ذلك بطريقته الغريبة والناقصة ، خالطا الملاحظات التي كانت توحيها إليه قراءته الهائلة عن العالم المعروف (موسكوفيا ، واثيوبيا ضمنا) بنظرات تنجيمية وتناسقية . (٢٣٣)

وفي منطقة العمل . نلاحظ ان مونتسكيو ، جعل من البيئة ، الأساس في كل تفسير وكل بناء معرفي . الى درجة انه ادخلها الى سجية النفس وأهواء القلب . هنا يقول " إذا كان من الصحيح ان سجية النفس وأهواء القلب تختلفان

---

* يرى مونتسكيو ان الغرض الرئيس من الحكومة هو الحفاظ على القانون والنظام والحرية السياسية وحرية الفرد التي تتعارض مع الحكم المطلق ، التي يجب ان تضاد بفصل السلطات لتحقيق التوازن ، الذي يستبعد ان تكون السلطة بيد جهة معينة . انظر : albert,ronald; Hobbes , Locke . Montesquieu . and Rousseeau, Oxford UniversityPress , London ,2004 ,. p23.

[٢٣١] ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، دراسات في فلسفة التاريخ . دار الكتب للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ، ص١٠١ .

* مونتسكيو يشير الى ان الحكومة سياق وظيفي ، يمكن وصف آلياته مثلما توصف عمليات الطبيعة وأحداثها . انه يستخدم مصطلح قانون ، في تطابق تام مع قوانين العلوم الطبيعية . فالقانون ليس لائحة تعسفية ، وإنما هو تعبير عن علاقة ثابتة ، اهتدينا إليها بالعقل بين الإنسان والبيئة . ومن خلال فهمه ان البيئة الاجتماعية والمجتمع ودنيا القانون وعالم السياسة محكومين بالحتمية مثل البيئة الطبيعية ، واكتشافه فيهم مجالا لبحث علمي مستقل ، يصبح احد آباء علم الاجتماع كعلم مستقل .انظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص١٣٩.

[٢٣٢] ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٨٨.

[٢٣٣] ينظر : شفاليه ، جان جاك ، المؤلفات السياسية الكبرى من مكيافللي الى أيامنا . المصدر نفسه ، ١٣٣.

الى الغاية في مختلف الأقاليم فان على القوانين ان تكون تابعة لاختلاف هذه الأهواء واختلاف هذه السجايا " [٢٣٤].

وهنا يجيب الباحث عن تساؤل . هل ربط مونتسكيو ، التقدم المعرفي والتاريخي بتلك النتيجة الحتمية للأسباب الطبيعية ؟ لقد تميز بتتبعه للفوارق بين الأمم المختلفة والثقافات المختلفة ، ولكنه لم يتناول الطابع الجوهري لهذه الفروق ، فقد أقصى العقلية الإنسانية ، ذلك لاعتقاده بان مرد الفوارق بين الأمم الى عوامل مناخية وجغرافية ، أي انه اعتبر الإنسان وإمكاناته جزءا من الطبيعة ، وبذلك فان تفسير الأحداث التاريخية يأتي نتيجة إيمانه بحقائق مادية . وبهذا يكون التاريخ عنده تاريخا طبيعيا . وعليه فأين يكمن دور المكتشفات والمخترعات التي جاءت نتيجة تطور العقل الإنساني في مراحله التاريخية . إذن هو بهذا الوصف جعلها نتيجة حتمية لأسباب طبيعية .

والواقع ان مونتسكيو ، صور الحياة الإنسانية على إنها استجابة للأوضاع الجغرافية والمناخية ، لا تختلف في ذلك عن حياة النباتات ، وهذا يتضمن ، ان التغيرات التاريخية ، ان هي إلا أشكال مختلفة لشيء واحد لا يتغير ، هو الطبيعة الإنسانية في استجابتها لمختلف المؤثرات . ويرى (كولنجود) ، في كتابه فكرة التاريخ . ان هذا التقدير الخاطئ للطبيعة الإنسانية ، والجهد الإنساني ، هو نقطة الضعف في أي نظرية من طراز نظرية مونتسكيو ، تحاول تفسير خواص مدنية من المدنيات بالإشارة الى حقائق جغرافية . وعلى الرغم من انه لا جدال في وجود علاقة وثيقة بين أية ثقافة وبين بيئتها الطبيعية . ولكن الذي يحدد طابعها ليس هو حقائق هذه البيئة بصفتها المجردة ، ولكن لا يستطيع الإنسان ان يجربه عليها ، وهذا يتوقف على نوع هذا الإنسان . ومونتسكيو، بوصفه (مؤرخا) لم يبال بالنقد إطلاقا ، ولكن إصراره على العلاقة بين الإنسان وبيئته ،(رغم فهمه الخاطئ لطبيعة هذه العلاقة) وعلى العوامل الاقتصادية التي اعتقد إنها تشكل الأوضاع السياسية ، كان أمرا مهما لا في حد ذاته فقط ، ولكن لتطور التفكير التاريخي في المستقبل .[٢٣٥]

ويختلف الباحث مع ما ساقه (فولغين) من انتقاد لمونتسكيو ، في ان ما طرحه لم يكن إلا تطويرا لما جاء به (بودان) . وان نظريته تجهل كل شيء عن (الصيرورة) التي تفضي الى حلول أشكال اجتماعية عليا مكان أشكال دنيا ، في حين ان عقليته السياسية هيمنت عليها روح المساواة والتحفظ والمواقف الوسطية . لقد اختلفت نظرية مونتسكيو ، عن بودان في المبادئ والأسس العامة ، لان دراسة فيلسوفنا ، أخذت طابعا اجتماعيا أدى الى تأسيس دراسة اجتماعية جديدة أفضت لاحقا الى التأسيس لعلم الاجتماع ، ووجدناه عند (أوجست كونت) ، لان دراسته كانت لا تهدف الى دراسة القوانين ، بل الى روح القوانين الناشئة من العلاقات الضرورية بين أفراد المجتمع الواحد ، ولكن هذا لا يعني ، إنكارنا اثر (بودان) في تشكيل نظريته ، كما ان إقراره بان هناك مجموعة من العوامل المادية والمعنوية ، هي التي تشكل روح القوانين ، هذا يعني ، عدم أحادية التفسير الجغرافي للتاريخ عنده

---

[٢٣٤] مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٣٢٩ .

[٢٣٥] ينظر : كولنجود ، ر .ج ، فكرة التاريخ . تر ، محمد بكير خليل ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١٢ ،ص١٥٢.

، لكنه ، أعطاها الأولوية ، وعندما تحدث عن العوامل الأخرى ، كان يقصد منها العوامل التي تساند البيئة في تشكيل التاريخ ، على وفق ما طرحه . [٢٣٦]

وقد سبق هيرودوتس (٤٨٤-٤٢٥ ق .م) مونتسكيو ، في التعبير عن هذه الفكرة ، حينما كتب " بان كورش ملك الفرس رفض قيادة شعبه للسيطرة على أراضي خصبة أكثر ، لان لين المناخ سيجعل منهم رجالا ضعافا " . كما كتب أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) ، [*] مبرزا علاقة علم السياسة بالجغرافية في كتابه الموسوم بالسياسة ، حين عد التقدم اليوناني في التفكير والسياسة نتاج عوامل البيئة الناتجة عن الموقع الوسط الذي تحتله بلادهم بين الشرق والغرب (أسيا وأوروبا) الأمر الذي جعلها بنظره معتدلة في مناخها ، ومن ثم جعل أهلها معتدلين كذلك في أخلاقهم وتصرفاتهم . [٢٣٧]

ويرى الباحث ، ان هناك ضرورة قصوى في عد (ابن خلدون)، من ابرز دعاة النظرية البيئية قبل مونتسكيو ، من خلال الإشارة الى رأيه في اثر الجغرافية في التاريخ . فقد تصدى لهذا من خلال البحث في اثر المناخ والعوامل الجغرافية الأخرى ، في أمزجة الأشخاص ، وفي أنماط سلوكهم ومعيشتهم .

فقد ذكر في مقدمته بان " الأقاليم الأربعة منحرفة في مناخها ، وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم ، فالأول والثاني للحر والسواد والسابع للبرد والبياض ، ويسمى سكان الجنوب من الاقليمين الأول والثاني باسم الجثة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد وليست هذه الأسماء من اجل انتسابهم الى ادمي اسود ، لحام او غيره ،وقد نجد في السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل او السابع المنحرف الى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال او الرابع بالجنوب فتسود ألوان إعقابهم وفي ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء " [٢٣٨] ، ويستمر ابن خلدون ، في شرحه لأثر العوامل المناخية في طبائع السكان فيقول في مقدمته " وأما أهل الأقاليم الثلاثة المنبسطة ، أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتماد لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات " .[٢٣٩]

---

[٢٣٦] ينظر : فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ٢٠٠٦ ، ص٥٥ .

[*] ومن اليونانيين انتقلت هذه الأفكار الى الجغرافيين الرومان ، وكان من أبرزهم سترابو (٦٤-١٩) ، الذي كتب لرجال الدولة الرومانية وحاول ان يبين كيف ان عادات ومهارات الناس والأقسام السياسية للدولة قد تحددت بظروف طبيعية ، كما ذكر ان الأرض مؤلفة من خمس مناطق ، منطقة حارة لا تلائم العمل المستمر لشدة حرارتها ، ومنطقتان باردتان لا تلائمان العمل المستمر لشدة برودتها ومنطقتان معتدلتان صالحتان للعيش والتقدم . انظر : الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في فلسفة التاريخ . ابن الأثير للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، جامعة الموصل ، (ب،ت) ،ص٣٣ .

[٢٣٧] ينظر : جعفر ، نوري ، التاريخ مجاله وفلسفته .المصدر نفسه ، ص٥١ .

[٢٣٨] ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج١ ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، (ب ،ط) ، بيروت ، (ب،ت) ، ص٨٤ .

[٢٣٩] ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . المصدر نفسه ، ص٨٥ .

ويبدو ان مونتسكيو ، قد كان متأثرا الى حد كبير بآراء ابن خلدون ، كما تأثر غيره ، فقال بأثر الموقع الجغرافي أرضا وماء ومناخا ، في نمو وتطور الأمم .[٢٤٠]

وعلى هذا ، يعد مونتسكيو ، ابرز من دعا الى (نظرية المناخات) . اذ ربط في أفكاره بين البيئة الجغرافية وطبيعة البشر التشريعية والقانونية . لا سيما من خلال مؤلفه المعروف " روح القوانين" او "روح الشرائع" الذي مثل خلاصة تأملاته التاريخية والسياسية . لقد وجد مونتسكيو، ان تلك الروح مرتبطة من كل ناحية بظروفها المادية . فأوضح ان التربة والمناخ و (الطوبوغرافيا) و(الانثروبولوجيا) ، في الشعوب المختلفة ، هي الظروف الأساسية التي ترعرعت فيها شرائعهم وأنظمتهم . وقد انطلق في نظريته هذه من تحليل (سوسيولوجي) وأكد على نسبية القوانين . وعلى حتمية ان الأشياء لها طبيعة . وكل ما يتحرك في هذا العالم يخضع لقوانين ثابتة لا تتغير . وعلى هذا الأساس . وضع العوامل الطبيعية في مقدمة العوامل المحددة لطابع الأمم وقوانينها . وهذه العوامل هي المناخ والطوبوغرافيا والأرض . ولكنه أولى المناخ أهمية خاصة . وبهذا القول . ان صح ما يقال من ان صفات العقل وأهواء القلب تختلف باختلاف المناخات . تحتم ان تكون القوانين متناسبة مع تباين هذه الأهواء وهذه الصفات . ان المناخ البارد بنظره ينتج أناسا يتميزون بالقوة والشجاعة . وهذا ما أتاح لهم الحفاظ على حريتهم [*]. في حين ان المناخ الحار يولد أناسا ضعافا بالبنية والسلوك . لذا حكم على أقوام هذه المناخات ان تكون مستعبدة .[٢٤١] وعندما ما نتحدث عن النظرية البيئية عند مونتسكيو . فإننا نقصد بها (المناخ والتربة).

---

[٢٤٠] ينظر : الحصري ، ساطع ، دراسات في مقدمة ابن خلدون . المصدر نفسه ، ص٢٢١ .

[*] نلاحظ ان هذه العبارة تعيدنا الى المطلب السابق ، من خلال دراستنا لموضوع الحرية السياسية وتجلياتها في البناء التاريخي ، من ناحية الشروط الواجب توفرها في صياغة الحرية وأسسها وشروطها ، كما استشهد في ذلك بنصوص مونتسكيو في روح الشرائع . إذن البيئة كذلك توفر للفرد قدرته على فهم معنى الحرية وسياقاتها ، فالبيئة الباردة تبدو في نظر مونتسكيو أكثر قدرة على توفير مستلزمات العمل بالحرية

[٢٤١] ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، وآخرون ، دراسات في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٠٠.

المطلب الثاني : عوامل التاريخ البيئية .

أ - المناخ .

للمناخ اثرا كبيرا تحديد تاريخ المجتمعات و " المناخ شديد التأثير في البشر " .[٢٤٢] ولنا ان نستشهد بما قاله مونتسكيو : " الهواء البارد يقبض أطراف نسائج بدننا الخارجية ، ويزيد هذا نابضها ، ويساعد على رجوع دم الأطراف نحو القلب ، وهو ينقص طول هذه النسائج فيزيدها قوة ، وعلى العكس يطلق الهواء الحار أطراف النسائج ويمدها فيقلل قوتها ونابضها ". [٢٤٣] ، فالهواء البارد يشد نهايات ألياف الجسم ، وينشط بالتالي عودة الدم الى القلب ، مما يؤدي الى زيادة القوة ، أما الهواء الحار فيفعل بالعكس . وبالمقابل يهدئ البرد التهيج الجنسي ، أما الحر فينميه . كيف يمكن إذن لنفس القوانين ان تكون ملائمة لشتى المناخات ؟ ويركز مونتسكيو ، خاصة على مفعول المناخ الشديد الحرارة . ان الجسم يكون فيه تماما بلا قوة ومن ثم فان الانحطاط والخمول ينتقلان الى الفكر نفسه . فلا يوجد أي حب إطلاع ، وأي مبادرة نبيلة ، وأي عاطفة كريمة . ان الميول فيه تكون سلبية جميعا . وتتحقق السعادة في التواني والتكاسل . ويكون تحمل معظم العقوبات فيه أسهل من تحمل نشاط النفس . وتكون أغلال العبودية (*) ، اقل وطأة من قوة الفكر اللازمة للتحكم بالذات . وبهذا يتبين لنا نوع العلاقة بين الفرد والمناخ ، التي جعل منها مونتسكيو ، مسوغا للقول ، بان هذا التاريخ الماثل أمامنا قد تم تشييده من قبل أناس توفرت لهم مقومات التشييد ، وكان منها المناخ .[٢٤٤]

ونواصل قولنا ، ان مونتسكيو، لم يتراجع عن إقامة علاقة بين الطبيعة الاجتماعية والحالة السياسية ، فرأى ان العبودية السياسية تخضع لعوامل المناخ ، لان المناخ في كثير من البلدان يحدد شكل النظام السياسي ، كما أكد ان المناخ له اثر في تصور المعتقد الديني لدى الناس ، وربط بين حاجات المجتمع والمناخ ، وعلل اختلاف احتياجات المجتمعات بتباين الظروف المناخية من بلد لأخر ، وهذا الاختلاف في الحاجات ينتج عنه تباين في أنماط الحياة التي ينتج عنها اختلاف القوانين من بلد لأخر ، وربط من جهة أخرى بين الشكل السياسي للدولة والمناخ ، وأكد ان مساحة الدولة تحدد نوع الحكم السائد ، ففي نظره يكون النظام الجمهوري صالحا في الدول ذات المساحات الصغيرة ، فيما يصلح النظام الملكي للدول ذات المساحات المتوسطة ، أما الدول ذات المساحات

---

[٢٤٢] كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي . المصدر نفسه ، ص٢٤٣ .

[٢٤٣] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه . ص٣٢٩ .

* وفي المناخ الحار يكون معظم ألوان العذاب أسهل احتمالا من عمل الروح ، والعبودية أسهل احتمالا من قوة الروح التي هي ضرورية ليسير الإنسان نفسه بنفسه . ولا ينبغي ان يحار إذن من ان جيش شعوب الأقاليم الحارة جعلها عبيدا دائما تقريبا ، وان شجاعة شعوب الأقاليم الباردة أبقتها أحرارا ، فهذه نتيجة تنشأ عن علتها الطبيعة ، وعلى هذه الفوارق سوف تترتب الكثير من الأنظمة الاجتماعية المتفاوتة أيضا ، فهو يرى ان نظما اجتماعية بذاتها هي من طبائع المناطق الحارة ، وأخرى من طبائع المناطق الباردة . انظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص٧٣ .

[٢٤٤] ينظر : كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي . المصدر نفسه ، ص٢٤٣ .

الواسعة فيفضل ان يحكمها نظاما استبدادي (دكتاتوري) ، وهكذا نجد ان مونتسكيو، اخضع كل التحولات المجتمعية الى ضرورات ، وهذه الضرورات إنما تمثل القوانين التي أراد ان يخضعها في كل تفاصيلها الى النظرية البيئية .[٢٤٥]

لكن . لوي التوسير ، في كتابه (مونتسكيو السياسة والتاريخ) ، يرى ان عوامل الامتداد الجغرافي ، لا تؤثر إلا بشكل غير مباشر على طبيعة الحكومة . فالمناخ الجاف لا يصنع المستبد ، هكذا بكل الأحوال ، ولا الملك نتيجة المناخ المعتدل . ولا يؤثر المناخ إلا على (مزاج) الناس عبر تحول فيزيولوجي يؤدي الى تقلص او تمدد الحدود القصوى وبهذا يؤثر على الحساسية العامة للفرد ويسبغ عليه حاجاته وميوله الخاصة وحتى نمط ما من السلوك . ان (البشر المتكونين والمشروطين بهذه الطريقة) هم المؤهلون لمثل هذه القوانين ومثل هذه الحكومات . وان الحاجات في المناخات المختلفة هي التي شكلت مختلف عادات العيش ، ومختلف عادات العيش هي التي شكلت مختلف أنواع القوانين .[٢٤٦]

ونجد ان مونتسكيو ، قد وثق هذه الأفكار من خلال قوله " تلك هي الاحتياجات المختلفة في مختلف الأقاليم التي أوجبت مختلف طرز الحياة ، وهذه الطرز المختلفة للحياة أوجبت مختلف أنواع القوانين " .[٢٤٧]

إذن ، القوانين التي ينتجها المناخ ، هي النتيجة الأخيرة لسلسة أخيرة ، اذ ان النتيجة ما قبل الأخيرة ، نتاج المناخ [*] ، وسبب القوانين ، هذه هي الطريقة في العيش التي تشكل خلفية التقاليد .[٢٤٨]

إذن المناخ كان حاضرا وبقوة في رؤية مونتسكيو، للتاريخ ، وتصوراته التي أقامها على أساسه . فكان المناخ هو خير محدد عنده لنوع القوانين التي تتناسب مع طبيعة المجتمع ، فاعتقد ان الناس القاطنين في الأقاليم ذات المناخ البارد ، تناسبهم قوانين محددة بذاتها ، وهي تنسجم معهم تماما ، وهذه القوانين سواء كانت طبيعية ام

---

[٢٤٥] ينظر : الدليمي ، حامد حمزه حمد ، فلسفة التاريخ والحضارة . المصدر نفسه ، ص١٤٩ . وللمزيد انظر : وهب ، علي ، الجغرافيا البشرية ، المصدر نفسه ، ص١٦ .

[٢٤٦] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص٥٣،٥٤ .

[٢٤٧] مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٣٤٠ .

[*] ان للمناخ أثرا على كل أجزاء الجسم الإنساني وما به من عصارات وافرازات ومن ثم يتشكل مزاج الإنسان وأخلاقه وعاداته وطباعه ، فحيوية الناس في المناطق الباردة غيرها في المناطق الحارة ، وقد ترتب على ذلك كثير من الأنظمة الاجتماعية ذات الطابع الخاص في المناطق الحارة كتعدد الزوجات وتحريم الخمر وحجاب النساء ، كذلك تأثر به نظام الأمة . اذ ان لعبودية المناطق الحارة طابع خاص ، وثم سادها النظام الاستبدادي في الحكم . كذلك يختلف مفهوم الحرية والأنظمة الاقتصادية كالضرائب وأنظمة الحرب في هذه المجتمعات وفقا لشكل الحكم فيها وهذا بدوره قد شكلته العوامل الجغرافية ، ان حالة القحط قد أدت بالتتار الى كثرة الحروب والتعطش للدماء والتدمير بينما تميل القبائل العربية الى الحرية وان عانت من القحط أيضا . انظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص٩٢. وللمزيد انظر أيضا : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص٧٣.

[٢٤٨] التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص٥٤ .

وضعية ، فهي على حد سواء . إنما تسهم في إقامة العلاقات الضرورية داخل المجتمع الواحد . وهذه القوانين ومدى انسجامها ، لا بد من ان تسهم في التطور التاريخي لذلك المجتمع . من هنا قام تصوره هذا النابع من فلسفته في التاريخ ، التي حملت طابعا نقديا .

ب : الأرض .

تعد الارض من عوامل التاريخ البيئية المهمة يقول فيها مونتسكيو : " زراعة الأرض أعظم عمل يقوم به الإنسان ، وكلما حملهم الاقليم على الفرار من هذا العمل وجب على الدين والقوانين ان تحثاهم عليه " .[٢٤٩]

واعتقد ان التربة والمناخ والطوبوغرافيا والانثروبولوجيا هي الظروف الأساسية التي نمت فيها الشرائع والقوانين والأنظمة المختلفة ، ولقد وضع مونتسكيو العوامل الطبيعية في مقدمة العوامل المحددة لطبائع الأمم وقوانينها ، وأكد نسبية القوانين وحتمية ان الأشياء لها طبيعة .[٢٥٠]

كما ان " طبيعة الأرض ذات أهمية . هل هي خصبة ؟ هل هي مجدبة ؟ أيجب انتزاع الغذاء انتزاعا ؟ ان نفوس البشر تتحول تبعا لهذه الأحوال . وان جدب الأراضي يجعل البشر ماهرين ، قنوعين ، جلودين على العمل ، متحلين بالشجاعة ، قادرين على الحرب . اذ لا بد لهم من الحصول على ما تضن به الأرض . أما خصوبة الأراضي فيعطي مع البشر النعومة ونوعا من التمسك بالحياة " .[٢٥١]

لكن ثمة تساؤل هنا هو هل اقتصر تفكير مونتسكيو على المناخ والأرض كمصدرين وحيدين لروح الشرائع ؟ ونعتقد ان تفكيره لم يكن مقتصرا عليهما فقط ، على الرغم من إعطائهما الأولوية في التفسير وفق نظريته الفلسفية . فلا بد من وجود عوامل أخرى ، على تماس مع حياة الفرد والمجتمع ، لها اثر مهم في مسار التاريخ وتحديد غاياته . وهي بالتأكيد ترتبط أيضا بالوضع الجغرافي ، فتقاليد المجتمع وعاداته ، هي أيضا كانت قد قامت على أساس من الضرورة التي نادى بها مونتسكيو . فضمن الاقليم الواحد تتحد العوامل وفي مقدمتها المناخ والأرض لصنع تاريخه . وهنا وجدنا مونتسكيو، يكثر من النظرات الموحية ومن الاعتبارات التاريخية .

والحرية التي تم بحثها في المطلب السابق ، لا تكاد تبتعد في شروط توفرها وحصولها ، عن طبيعة الأرض . فقد أعطى مونتسكيو ، أهمية لهذا الربط من خلال إقامة العلاقة بين شكل البيئة وممارسة الحرية . فقد رأى بان الأرض حينما تكون ملائمة للزراعة تسود (روح الخنوع والتبعية) ، في حين تتمتع الأقوام التي لا تمارس الزراعة بقدر أعظم من الحرية . اذ ان الأراضي الجرداء تجعل سكانها مهرة ويتحلون بالمثابرة والشجاعة والجد

---

[٢٤٩] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١، المصدر نفسه ، ص٣٣٦ .

[٢٥٠] ينظر : الدليمي ، حامد حمزه حمد ، فلسفة التاريخ والحضارة . المصدر نفسه ، ص١٤٨.

[٢٥١] كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي . المصدر نفسه ، ص٢٤٣ . وللمزيد انظر أيضا : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص٧٣ .

في العمل . ويكونون أهلا للحرب . حيث يتوجب عليهم الكفاح بغية تأمين حاجاتهم . وتبعا لذلك . يتعين عليهم ان يكونوا أحرارا . وعلى حد رأيه . هذا ما كان عليه شعوب الشمال . وبالمقابل فأن الطبيعة تعطي شعوب الجنوب كل ما يحتاجون إليه بلا كبد وعناء . لذا لا يسعهم على حد تعبيره الا الاستغناء عن الخيرات وعن ممارسة الحرية [٢٥٢].

ان التفاوت بين ارض الشمال وارض الجنوب ، أعطى لـ (مونتسكيو) حق التصريح بحتمية جودة الأرض ودورها في بناء الحكم ونوعه . اذ يقول " من الطبيعي ان تؤدي جودة الأرض في بلد الى الخضوع ، فأهل الأرياف الذين يؤلف منهم فريق الشعب المهم ليسوا كثيري الغيرة على حريتهم ، وذلك عن كثرة اشتغال وكثرة انهماك في شؤونهم الخاصة ، وذلك لان الأرياف الطافحة أرزاقا تخشى السلب وتخشى الجيش ، قال شيشرون في اتيكوس " ممن يؤلف الفريق الصالح ؟ أرجال التجارة والأرياف الذين إذا لم نتصور معارضتهم للملكية ، نرى تساوي جميع الحكومات عندهم ، ومن ثم هدوءهم " . وهكذا توجد حكومة الفرد في البلدان الخصبة غالبا [*] ، وتوجد حكومة الجماعة في البلدان غير الخصبة ، وهذا ما يكون معارضة أحيانا . وأدت جدوبة ارض الاتيك الى قيام حكومة شعبية فيها ، وأدى خصب ارض إسبارطة الى قيام حكومة ارستقراطية ، وذلك لأنه لم يرد قيام حكومة فرد في بلاد اليونان ذلك الحين ، والواقع ان الحكومة الارستقراطية أكثر صلة بحكومة الفرد ، وقال بلوتارك (٤٦ – ١٢٠ م) : " أطفئت الفتنة السيلونية في أثينا فعادت المدينة الى اختلافاتها القديمة وانقسمت الى أحزاب بمقدار أنواع الأرض في بلاد الاتيك ، وكان أهل الجبل يريدون الحكومة الشعبية بكل وسيلة ، وكان اهل السهل يطلبون حكومة الأعيان ، وكان أهل الساحل يقولون بحكومة مختلطة بين الاثنين " . [٢٥٣]

وهكذا فان تحليل مونتسكيو، للعوامل الطبيعية قاده الى بحث المعضلات المتعلقة بنوعية (الانتاج) وأثره في قوانين وطبائع الشعوب . ومن رأيه ان للقوانين صلة وثيقة بالطريقة التي تؤمن بها مختلف الأقوام ومعيشتها . كما ان طبيعة الأرض لا تؤثر في الحياة الاجتماعية إلا بقدر ما تكون مرتبطة بنوع معين من أنواع العمل الهادف الى إشباع حاجات البشر . ومن هنا تغدو (التبعية) بنظره سمة خاصة بالمجتمعات الزراعية و(الحرية) صفة لازمة للمجتمعات الصناعية . ولكل شعب أخلاقه وعاداته وأعرافه وقوانينه . وله شكل الحكم الخاص به . ويتأثر ذلك بطبيعة وأشكال البيئة والمناخ .[٢٥٤]

---

[٢٥٢] ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، دراسات في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٠٢ .

[*] كانت الأراضي الخصبة صالحة جدا من اجل حكم الفرد الأوحد فذلك لان الفلاح مشغول جدا بها وجهوده مثمرة جدا بحيث لا يرفع انفه عن أرضه وقروشه . انظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ ، ص٥٤ .

[٢٥٣] مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٤٠٢،٤٠١ .

[٢٥٤] ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، دراسات في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٠٢.

ان كل الضرورات عند مونتسكيو ، تبدأ من المناخ والأرض ، المتمثلين في نظريته البيئية ، التي لم يفلت منها أي تفسير لأي ظاهرة ، فالأرض السهلية عنده ليست كالأرض الجبلية ، فلكل منهما ظروفها في المعالجات التاريخية ، والتنبؤات المستقبلية القائمة على المعطيات البيئية ، التي وفرت للمؤرخ إمكانية التنبؤ التاريخي ، على وفق النظرة العلمية للتاريخ ، التي افرزها عصر النهضة وتوجها عصر التنوير .

وفي نوعية الأرض ، والتمظهرات التاريخية التي تنشأ نتيجة هذا التنوع يقول مونتسكيو " وتلك البلاد الخصيبة سهول لا يمكن فيها منازعة الأقوى شيئا ، ولذا يخضع له ، وهو إذا ما خضع له لا تعود روح الحرية الى حيث كانت ، فأموال الأرياف رهن هؤلاء ، غير انه يمكن في البلاد الجبلية ان يحفظ ما يحاز ، ولا يكون ما يحاز فيحفظ غير قليل ، وتكون الحرية ، أي الحكومة التي يتمتع بها ، هي المتاع الوحيد الذي يستحق ان يدافع عنه ، وهي تسود في البلاد الجبلية الصعبة ن إذن ، أكثر ما في البلاد التي يلوح ان الطبيعة أوسع سخاء عليها . ويحافظ الجبليون على حكومة أكثر اعتدالا لأنهم اقل عرضة للفتح ، ويسهل عليهم الدفاع عن أنفسهم ، وتصعب مهاجمتهم ، وتجمع العدد والمير وتوجه ضدهم بنفقات عظيمة ، ولا يجهز البلد بها مطلقا ، ولذا تكون محاربتهم أكثر صعوبة ، ويكون الإقدام عليها أعظم خطرا ، وتكون جميع القوانين التي توضع في سبيل سلامة الشعب اقل لزوما " .[٢٥٥]

ويطرح مونتسكيو، فكرة اشد قوة حينما يقول " لا تزرع البلاد بسبب خصبها ، بل بسبب حريتها ، وإذا ما قسمت الأرض بالفكر فان من دواعي الحيرة ان ترى في معظم الأوقات صحار في أكثر أقسامها خصبا ، وشعوب عظيمة في أقسام ارض تضن بكل شيء كما يلوح . ومن الطبيعي ان يهجر شعب بلدا سيئا للبحث عما هو أحسن منه ، لا ان يهجر بلدا طيبا للبحث عن بلد أسوأ منه ، ويوجه معظم الغزوات ، إذن ، الى البلدان التي صنعتها الطبيعة لتكون سعيدة ، وبما انه لا يوجد ما يقرب من التخريب كالغزو فان أحسن البلدان هي التي تكون خالية من السكان غالبا ، وذلك على حين يكون افضع بلاد الشمال معمورا دائما عن سبب عدم صلاحه للسكنى تقريبا " .[٢٥٦]

وقد أراد مونتسكيو، ان يبين صلاحية الأرض في بناء الحرية ، والتي بدورها تسهم في بناء الإنسان ذي الإدراك العالي ، والذي يساهم في دوره في بناء المجتمع الصالح ، حيث استند على صنع الطبيعة الحرة ، التي وفرت لسكانها أسباب العيش الرغيد ، واستوعبت سكانها ، ومنحتهم روح الانتماء ، وقد تكون هناك ارض مهجورة صنعتها الطبيعة ، لها القابلية على استيعاب سكان جدد . وقد تكون هناك ارض مأهولة بالسكان ، ذات

---

[٢٥٥] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٠٢ .

[٢٥٦] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٠٣

غنى وخصوبة كبيرة ، يرحل عنها سكانها لعدم وجود الحرية ، ويقطنها سكان آخرون ، لا يتعاطون مع ما يمكن ان تنتجه هذه الأرض ، فيعيش الإنسان حالة الاغتراب مع الأرض

اذ أكد مونتسكيو : " بما يقصه المؤرخون علينا من أنباء انتقال شعوب اسكندنافية الى ضفاف الدانوب ، ان هذا لم يكن فتحا قط ، بل ارتحال الى ارض مهجورة فقط . وكانت هذه الأقاليم السعيدة قد خلت من السكان بارتحالات أخرى ، إذن ، ولا نعرف الأمور الفاجعة التي حدثت هناك " .[٢٥٧]

ويستشهد مونتسكيو، بما قاله أرسطو ، قائلا " قال أرسطو ، تدل آثار كثيرة على ان سردينية مستعمرة يونانية ، وقد كانت بالغة الغنى فيما مضى ، وقد انعم عليها بقوانين اريسته الذي أثنى على ولعه بالزراعة كثيرا ، غير إنها انحطت بعد ذلك كثيرا ، وذلك لان القرطاجيين أصبحوا سادتها فقضوا فيها على كل ما يمكن ان يجعلها صالحة لغذاء النساء وحظروا الزراعة معاقبين بالموت كل من يحرث أرضا فيها ، ولم تصلح سردينية منذ زمن أرسطو قط وهي لا تزال غير محددة في الوقت الحاضر ، ولم يمكن إحياء ما خربه أكابر التتر واصاغرهم من أكثر أقسام فارس وتركية وروسية وبولونية اعتدالا " .[٢٥٨]

ويعرض مونتسكيو ، أفكاره في بيان الجدوى من نوعية الأرض في كل الميادين ، وهو في الوقت ذاته يتواصل في عرضه للتاريخ من ناحية فلسفية ، ذات طابع نقدي ، وقد لحظناه في عرضه للمشكلة ، بأنه لا يكتفي بمجرد العرض فقط ، بل يذهب الى تقديم الحل الواقعي ، القائم على فلسفته النقدية للتاريخ ، فلا يقدم مشكلة كموضوع للنقاش والطرح ، ما لم يقم بإيجاد تفسيرا قائم على أساس فلسفته العلمية ، التي مثلت امتدادا متواصلا لروح عصره ، المنبني على تلك النهضة الشاملة بكل ميادين المعرفة ألا وهو عصر النهضة ، وما زاده ثقة بموضوعه ، هو انخراطه ضمن عصر التنوير الذي يعد هو فعلا من رواده البارزين .

وفي تواصله في موضوع الأرض وجدواها يقول " جدوى الارضين تجعل الناس ماهرين زاهدين جلادا على العمل أنجادا صالحين للحرب ، فيجب ان يحصلوا على ما تضن الأرض به عليهم ، وينعم خصب البلد ، مع يسر ، بنعومة وببعض الحب لحفظ الحياة . وشعوب الجزر أكثر من شعوب اليابسة ميلا الى الحرية ، والجزر قليلة الاتساع عادة ، ولا يمكن قسما من الشعب فيها ان يستخدم لاضطهاد القسم الآخر ، والبحر يفصلها عن الإمبراطوريات الكبرى ، ولا يستطيع الطغيان ان يبسط يده هنالك ، ويوقف الفاتحون بالبحر ، ولا يشتمل على أهل الجزر بالفتح ، وهم يحفظون قوانينهم بسهولة " .[٢٥٩]

---

[٢٥٧] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٠٣.

[٢٥٨] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٠٤ .

[٢٥٩] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٠٥،٤٠٤.

ويبدو لنا ان هيجل ، قد تاثر بموضوع التربة وأنواعها ، ومدى اسهامها في خلق الروح العام للمجتمع ، من خلال قراءاته لأفكار مونتسكيو، في هذا الاتجاه ، وعلى الرغم من ان الصبغة الفكرية له كانت مثالية ، الا اننا وجدنا روحيتها هي ما قاله مونتسكيو، في تاثير التربة على طبيعة القوانين . وبالإمكان إيجاد مدى تأثر هيجل بـ (مونتسكيو) ، من خلال قراءة كتاب هيجل (العقل في التاريخ) ، وحصرا في موضوع الأساس الجغرافي لتاريخ العالم .

اما في كيفية تعايش الناس مع الأرض وطريقة استثمار مواردها ، فأن هذا الأمر يحتاج الى تناسب نوعية القوانين التي تنظم حياتهم ، بما يتناسب مع قابليتهم على الانتاج ، التي هي الأخرى ترتبط بما تستطيع ان تقدمه الأرض لسكانها ، فالقوانين التي وضعت لشعب يعيش على ما تنتجه الأرض من محاصيل زراعية ، إنما تختلف عن شعب أخر يعيش على ارض لا تصلح الا لتربية المواشي ، فان طبيعة القانون هنا مختلفة ، وهذا يعيدنا أيضا الى تعريف مونتسكيو للقوانين : بأنها تمثل العلاقات الضرورية بين الأشياء .

ومما يدعم رأينا هذا ما قاله مونتسكيو ، اذ يقول " للقوانين صلة عظيمة جدا بالوجه الذي تنال به الأمم عيشها ، ولا بد من مجموعة قوانين اكثر اتساعا لشعب كلف بالتجارة والبحر مما لشعب يكتفي بزراعة أرضيه ، ولا بد لهذا من قوانين أعظم مما لشعب يعيش من مواشيه ، ولا بد لهذا الأخير من قوانين أعظم مما لشعب يعيش من صيده " . [٢٦٠] وبهذا اعطى مونتسكيو ، الارض اهمية بالغة في التكوين الاساسي لقوانين المجتمع .

المبحث الثاني : تداعيات النظرية البيئية في فلسفة التاريخ النقدية .

ان النظرية البيئية عند مونتسكيو، هي بمثابة القطب من الرحى في فلسفته العامة ، وفي فلسفة التاريخ خاصة ، فالتاريخ عنده لا يمكن تفسيره إلا وفق هذه النظرية ، وان كان قد قال بالأمور المعنوية الأخرى عندما أراد ان يخرج من أحادية التفسير الجغرافي ، كما ان التاريخ عنده لا يمكن ان يكون له مسار او غاية ، من دون الاستناد الى معطيات النظرية البيئية ، فهي التي يدور في فلكها كل ما يتعلق بالتاريخ ، الذي يشكل بكليته مفهوم الحضارة ، وهكذا قدم لنا صورة فلسفية نقدية عن التاريخ من خلال النظرية البيئية التي امتدت تداعياتها الى نوع القوانين التي تحكم المجتمعات وتنظم حياتها ، ونوع الحكومات التي انبثقت من تلك القوانين ، وحتى صفات الملك او

---

[٢٦٠] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٠٧ .

الرئيس ، والى أكثر من ذلك ، بحث من خلال نظريته هذه هل بالإمكان ان تتوافق القوانين مع مجتمع بعينه ، وهل سيحضى بقدر كاف من الحرية ، وهل ستنتصر الديمقراطية عنده ، وأيضا قدم لنا من خلال فلسفته النقدية للتاريخ ، صورة متميزة عن عادات وتقاليد الشعوب في الشرق والغرب من خلال دراسة مقارنة ، كما في (رسائل فارسية) ، وفي هذه العادات والتقاليد والممارسات التي يتمتع بها شعب ما دون غيره ، كان مونتسكيو واقعيا في دراسة هذه الطبائع ، التي لم ينفك في جعلها من مقتضيات الطبيعة ، التي فرضت نوع البيئة ، والتي شكلت نوع القوانين . وعليه كان واجبا علينا وضمن مقتضيات البحث ان ندرس اثر البيئة ، او النظرية البيئية عند مونتسكيو ، في تفاصيل حياة الشعوب ، وكيف تجلت بصورها التاريخية ، واسهمت في تقرير التاريخ عند هذه الشعوب . وللبيئة الطبيعية اثر في المظاهر التي تتعلق بحياة المجتمعات وهي على النحو الاتي .

اولا : في فوارق الشعوب .

يرى الباحث ان مونتسكيو ، كان حاضرا في فكر (هيجل) ، الفلسفي فيما يتعلق بالأثر الطبيعي على الإنسان واسهاماته في خلق الفوارق بين الأمم . فيقول هيجل " ان العلاقة مع الطبيعة ، التي تساعد على إنتاج روح شعب ما ، إذا ما قارنا بينها وبين شمول الكل الأخلاقي ، وبين وحدة تلك الفردية التي هي مبدأها الفعال تبدو عنصرا خارجيا . لكن بمقدار ما ينبغي ان ننظر إليها على إنها الأرض التي تتحرك عليها الروح وتؤدي دورها ، فانها تكون أساسا جوهريا وضروريا . ولقد بدأنا بالقول : انه في تاريخ العالم تظهر فكرة الروح في تجسدها الفعلي على انها سلسلة من الصور الخارجية ، تتكشف كل منها بوصفها شعبا موجودا بالفعل . هذا الوجود يندرج تحت مقولة الزمان ، كما يندرج تحت مقولة المكان ، على طريقة وجود الأشياء الطبيعية " . [٢٦١] وهذا يظهر تماما اهمية مقولتي الزمان والمكان في تاريخ الفلسفة عامة وفلسفة التاريخ خاصة ، وبذلك اصبحت هاتين المقولتين مرتكزا اساسيا لفهم التاريخ على وفق الرؤية الفلسفية . وهذا ما اتاح لهيجل ، التصريح بأن لا استغناء عن الزمان والمكان في فهم الروح العام اذ يقول : " المبدأ الخاص الذي يجسده كل شعب من شعوب التاريخ يكون بمثابة خاصة طبيعية له . وحين تتخذ الروح هذه الصورة من صور الطبيعة تدفع أوجهها الجزئية الى اتخاذ طابع الوجود المنفصل ، لان الاستبعاد المتبادل هو نوع الوجود المميز للطبيعة الخالصة ، وهذه الفروق الطبيعية يلزم ان نعدها في بادئ الأمر إمكانات خاصة تتولد روح الشعب ، ومن هذه الإمكانيات : الأساس الجغرافي ، وليس يعنينا ان نعرف الأرض التي تمثلها امة من الأمم باعتبارها موقعا محليا خارجيا ، ، وإنما مجال اهتمامنا هو معرفة النمط الطبيعي للموقع المحلي من حيث صلته الوثيقة بنمط الشعب التي هي ثمرة لمثل هذه التربة " . [٢٦٢]

---

[٢٦١] هيجل ، العقل في التاريخ ، مج ١ ، محاضرات في فلسفة التاريخ . تر ، امام عبد الفتاح امام ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص١٥٧

[٢٦٢] هيجل ، العقل في التاريخ ، مج ١ ، محاضرات في فلسفة التاريخ المصدر نفسه ، ص١٥٧ .

نحن نعتقد ان المنظار الذي نظر به (هيجل) الى البيئة الطبيعية ، هو متشابه الى حد ما مع مونتسكيو، لكنه ليس متطابقا معه . ويرجع ذلك للمرجعية الفلسفية التي تبناها كل منهما ، ولما كان هيجل مثاليا ، أراد أن يظهر الروح متجسدة في أشكال الطبيعة . وهذا ما لم يرق لـ (مونتسكيو) ، صاحب الفلسفة الواقعية . لكن كلا منهما حدد الهدف من دراسته المجتمع على أساس جغرافي ، فان هيجل أرجعه الى محاولة معرفة النمط الطبيعي ، ومونتسكيو، أرجعها الى محاولة الرجوع الى روح القوانين .

ويرى مونتسكيو، ان اختلاف درجات الحرارة بين الانخفاض والارتفاع يصحبه اختلاف كبير في شتى النواحي للبشر ومنها . [٢٦٣] أولا : الصفات النفسية وقوة الجسم . ويلاحظ الباحث هنا انه ، يحاول ان يمنح سكان الأقاليم المعتدلة وأهل الشمال من الصفات النفسية والجسمانية ما يجعلهم أفضل من سكان المناطق الحارة ، ويأتي ذلك من خلال مايأتي : -

أ - من خلال قوله " تؤدي **قوة نسائج شعوب الشمال** الى استخلاص أغلظ السوائل من الأغذية ، وينشأ عن هذا أمران وهما : ان أجزاء الكيلوس ، او اللنفا ، أصلح لتطبق ، بسطحها الواسع ، على النسائج وعلى تغذيتها ، وإنها اقل صلاحا لتمنح السائل العصبي ، بغلضها ، بعض اللطافة ، ولذلك يكون لدى هذه الشعوب أبدان كبيرة ونشاط قليل . ويسفر كل واحد من الأعصاب التي تنتهي الى نسيج جلدنا من كل جهة عن حزمة من الأعصاب ، وليس جميع العصب هو الذي يهز عادة ، بل جزء منه صغير الى الغاية ، وفي البلدان الحارة ، حيث نسيج الجلد رخو ، تكون أطراف الأعصاب متفتحة معرضة لأقل عمل من اقل الأمور ، وفي البلدان الباردة يكون نسيج الجلد متكمشا والحلم متقبضة واللمم الصغيرة متخملة فلا ينتقل الإحساس الى الدماغ إلا إذا كان قويا جدا وبجميع العصب معا ، ولكن الخيال والذوق والعاطفة والنشاط أمور تتوقف على ما لا يحصى من الإحساسات الصغيرة " [٢٦٤].

إذن مونتسكيو، جعل من القوتين الجسمية والنفسية ، من خواص أهل المناخ البارد والجبلي [*] ، دون المناخ الحار، والأراضي القاحلة . ونحن لو قارنا بين أراء ابن خلدون ، وأراء مونتسكيو ، في هذا الجانب نلحظ انهما يختلفان تماما ، اذ ان ابن خلدون ، رد الشجاعة لأهل البدو والى نمط معيشتهم ، الذي يفرض عليهم التفرد في المساكن ، والاعتماد على أنفسهم في حماية أهليهم وممتلكاتهم ، ويحميهم من معاناة الأحكام السلطانية والتعليمية ، التي تؤثر سلبا في الشجاعة – حسب ابن خلدون – ولهذا ربط الشجاعة بالبدو ، رغم كونهم سكان المناطق الأكثر حرارة في الأقاليم المعتدلة ، وبهذا فان للشجاعة عوامل متعددة ، وليس فقط ارتباطها بعامل برودة الجو ، لان هذا

---

[٢٦٣] ينظر : فولغين ، ف، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٥٦ .

[٢٦٤] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٣١،٣٣٠ .

[*] كان سكان الجبال ذو قوة جسمانية ونفسية عالية ، وهم يناصرون الديمقراطية ، في حين كان سكان السهول يؤيدون طبقة النبلاء . انظر : فولغين ، فلسفة الانوار ، ف ، المصدر نفسه ، ص٥٧

ليس من عواملها ،ومن ثم فان ما جاء به مونتسكيو، من قول بقدرة أهل المناطق الباردة على القيام بالأعمال الصعبة والشاقة ، وكونهم أكثر حرية واقل رغبة في الانتقام ، ويتمتعون بالصحة الجسمية والنفسية ، إنما كان من تأثيرات تحدياته في النظرية البيئية وحتميتها في التاريخ . (٢٦٥)

لكننا نرى ، ان هناك من اختلف مع رأي مونتسكيو ، في اثر البيئة في الإنسان ، فهذا توينبي ، لا يرى ان هناك اية علاقة بين البشر وبيئتهم . ويرى ان العلاقة هي علاقة بين نظرية العنصر ، ونظرية البيئة من ناحية ايدولوجية . اذ يقول توينبي " تحاول نظريتا الجنس والبيئة كلتاهما ، تعليل التباين الملحوظ في التصرف والسلوك النفسي (الفكري والروحي) لاقسام مختلفة من البشر ، وذلك بأفتراض علاقة سببية ثابتة ودائمة – كالعلاقة بين العلة والمعلول " . (٢٦٦)

ب : **اختلاف التأثر بالفنون والآداب** . وفي هذا نستشهد بنص مونتسكيو ، اذ يقول " ويكون في البلاد الباردة إحساس قليل نحو الملاذ ، ويكون هذا الإحساس أعظم من ذلك في البلاد المعتدلة ، وهو يبلغ الغاية في البلاد الحارة ، وكما ان هناك فرق بين الأقاليم بدرجات العرض يفرق بينها بدرجات الإحساس أيضا ، ومن ذلك إنني شاهدت أوبرات انكلترا وايطاليا والروايات هي هي والممثلون هم هم ، غير انه كان للموسيقى الواحدة من اختلاف التأثير في كل من الأمتين ما كنت أرى معه ان احدهما من الهدوء البالغ والأخرى من الخفة البالغة ما لا يتصوره العقل كما يلوح " . (٢٦٧)

ونسجل هنا اختلافا لأحد قراء كتب مونتسكيو ، وهو هردر (*) ، الذي لم يتفق معه حول ان البيئة هي التي تصنع الفنون الآداب ، وهردر، شكل حركة أدبية باسم (حركة العاصفة والاندفاع) ، وهي حركة لا تتسق مع الطابع العلمي ولا مع العلوم الطبيعية ، وقد دعمت هذه الحركة الجانب الذاتي والإبداعي (الرومانسي) ، ومدى اسهامها في صنع التاريخ ، بعيدا عن تأثيرات البيئة . (٢٦٨)

والباحث يرى ، بعدم امكان القول ان الشعوب يختلف إحساسها تبعا لاختلاف درجات العرض ، فلو كان الأمر كذلك لشاهدنا ان لكل إقليم جغرافي نمطا في آدابه وفنونه الخاصة به ، وان النتاجات الفكرية لأهل منطقة ما لا

---

٢٦٥ ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون و مونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٥٨ .

٢٦٦ ينظر : توينبي ، ارنولد ، مختصر دراسة التاريخ . ج١ ، تر ، فؤاد محمد شبل ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦ . ص٩٥ .

٢٦٧ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ٣٣١ . وللمزيد انظر أيضا : الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ ، المصدر نفسه ، ص٢١١.

* أكد هردر (١٧٤٤ – ١٨٠٣) ، في أفكار انه لا يوجد في التاريخ نسق خاص يمكن التأكد منه بالملاحظة والفهم المتعمق كما وصل بين التاريخ وبين علم الحياة والبيئة ، لكنه أنكر تأثير البيئة بشكل مطلق على التاريخ ، مما اختلف فيه مع مونتسكيو الذي اعتبرها أساسا لكل العوامل الأخرى في التاريخ . كما انكب على استبطان التاريخ الألماني وحاول من خلاله إبراز ما يطلق عليه بالروح الجماعية او روح الشعب ، وبهذا أكد على الجوهر الذاتي لكل امة . للمزيد انظر : الملاح ، هاشم يحيى ، دراسات في فلسفة التاريخ ، المصدر نفسه ، ص١٠٩ .

٢٦٨ ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ن ص٢٩ .

تلقى ترحيبا من أهل مناطق أخرى مباينة لها في درجات الحرارة . لكننا نشاهد ان الأمر على النقيض من ذلك فأننا نجد في مختلف أنواع النتاجات الفكرية ، ما يمكن ان نسميه نتاجات فكرية عالمية . تلقى قبولا في كل منطقة تدخل إليها تقريبا . فعلى سبيل المثال عمت الفلسفة اليونانية مختلف أنحاء العالم (الحارة ، الباردة ، المعتدلة) ، ومثلها نجد فنونا عالمية في الموسيقى ، والرسم والنحت ، وغيرها من الفنون السائدة ، والاشتراكية وجدت لها أنصارا في أنحاء العالم كافة ، وهكذا فلا يمكن القول بان لكل منطقة نتاجاتها الفكرية المميزة ، او القول بان درجة التأثر بها مختلفة من منطقة جغرافية لأخرى . (٢٦٩)

وبناءً على ذلك لا يمكن تعميم هذه الفكرة أيضا ، وإننا لا نجد مسوغا لمونتسكيو، للجزم بمرجعية اختلاف الفنون والآداب ومدى تقبلها من شعب لآخر ، إلا استكمالا لنظريته البيئية ، وأجنحتها التي طالت كل تفسير ، لكل ظاهرة طبيعية أو غيرها .

ت : اختلاف الحب والعلاقة بين الجنسين (*) : ان الحب هو الأخر لم يفلت من قبضة التفسير البيئي ، ومحاولة اخضاعه للنظرية البيئية عند مونتسكيو ، اذ يقول " وما في البلاد الحارة من دقة إحساس الأعضاء هذه يجعل النفس هائجة جدا بكل ما له علاقة باتصال الجنسين وكل شيء يؤدي إلى هذا الغرض ، ولا تكاد طبيعة الحب في أقاليم الشمال تكون من القوة ما تصبح معه على شيء كبير من الإحساس ويصبح الحب المصحوب بألفة لاحقة في البلاد المعتدلة لذيذا بأمور تلوح إنها بعينه في البداءة ، ولما تكنه ، ويحب الحب لنفسه في البلاد الأكثر حرارة ، فهو سبب السعادة الوحيد ، وهو الحياة . وفي بلاد الجنوب آلة لطيفة ضعيفة ولكن مع إحساس تسلم نفسها الى حب يولد في سراي ويهدأ بلا انقطاع ، أو الى حب يدع النساء بأعظم حرية فيكون عرضة لألف كدر ، وفي بلاد الشمال آلة سليمة حسنة الجهاز ولكن مع ثقل تجد ملاذها في كل ما يمكن ان يرد النفوس الى الحركة كالصيد والرحلات والحرب والخمر " . (٢٧٠)

ويمكن القول هنا ان الميل الطبيعي بين الجنسين (*) بعضهم الى البعض الاخر ، ظاهرة طبيعية مشتركة لدى كل أفراد الجنس البشري في مختلف الأقاليم ، ولا يمكن القول ان الميل الى الحركة كالصيد والرحلات والحرب والخمر ، أمور تعوض عن هذا الميل لدى شعوب الشمال . ذلك لان الصيد والرحلات والحرب والخمر لا علاقة لها بالميل الطبيعي بين الجنسين . وفي رأي الباحث ان مونتسكيو ، هنا ربما أراد تجسيد فكرة الجنس البشري

---

٢٦٩ ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون و مونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٥٩.

* وتدخل ضمن موضوع العلاقات الاجتماعية ، وقد كان حال مونتسكيو ، كما هو حال باقي فلاسفة التنوير الفرنسي الذين سعوا لفهم حياة الإنسان الاجتماعية . ينظر : كوبسلتون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة. ج٦ ، المصدر نفسه ، ص٣٠ .

٢٧٠ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٣٢، ٣٣٣ .

* ويدخل هذا الموضوع ضمن اشتغالات مونتسكيو بعلم النفس الاجتماعي ، فالميل الطبيعي عنده هو الأخر قد تأثر بقوانين البيئة الطبيعية ، فعلم النفس الاجتماعي يقضي بوجود صلة وثيقة بين الخصائص النفسية وبين وطبيعة المزايا الفزيولوجية المتفاوتة . للمزيد انظر : عبد الحميد ، صائب ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين . المصدر نفسه ، ٢٠٠١ .

وأنواعه ، والذي يرى الغربيون من خلاله انهم أصحاب الحضارة الأم ، بل الحضارة الوليدة لنفسها ، من خلال محاولة إرجاع اصول الفكر الإنساني الى جذور يونانية حصرا ، وقد تجسدت هذه الأفكار في مشروع كبير جدا ، هو مشروع المركزية الغربية الأوروبية (**) الذي ربما انجرت إليه كثير من موضوعات فلسفة التاريخ ونظرياتها .

ث : اختلاف الأخلاق . لقد ورد في روح الشرائع ، قول مونتسكيو " وفي أقاليم الشمال شعوب ذات معايب قليلة وفضائل كافية ، وكثير من الإخلاص والحرية ، واقتربوا من بلاد الجنوب تروا أنكم تبتعدون حتى عن الأخلاق ، فالأهواء الحادة تكثر الجرائم ، وكل يحاول ان يأخذ على الآخرين جميع المنافع ، التي تعين على هذه الأهواء نفسها ، وترون في البلاد المعتدلة شعوبا متقلبة في أوضاعها وفي رذائلها وفضائلها فليس للإقليم صفة معينة بدرجة الكفاية حتى تثبتها نفسها . وقد تكون حرارة الإقليم من الشدة ما يكون الجسم معه بلا قوة مطلقا ، وحينئذ ينتقل انحطاط القوة الى الروح ، فلا يكون حب إطلاع ولا مشروع كريم ولا شعور فياض ، وهنالك تكون الميول سلبية تماما وهنالك يكون الكسل سعادة " . (٢٧١)

والمناخ يساعد في تشكيل أخلاق الناس وأهوائهم فأخلاق الانكليز تختلف عن أخلاق أهل صقلية . وينبغي أن تكون القوانين الأخلاقية مكيفة بطريقة معينة للناس الذين صيغت من اجلهم . (٢٧٢)

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال ؟ هل من السهولة ربط الأخلاق بعامل انخفاض درجات الحرارة ، والتقلبات المناخية ، فالظروف المعيشية لها دورها ، وللتربية دورها في سن دستور أخلاق الشعوب (*) ، وغيرها من عوامل التأثير في الأخلاق ، ولولا هذه العوامل واجتماعها ، وتأثيرها في شخصية الإنسان من الناحية التركيبية ،

** فنجد فكرة المركزية الغربية الأوروبية مثلا عند هيجل من خلال التقسيم الجغرافي الذي يتناسب مع موضوعنا ، لغرض إرساء دعائم هذه المركزية ، حيث يكشف مفهوم هيجل للتاريخ باعتباره مسار العقل الإنساني المطرد وتجلياته عن طبيعة الرؤية العرقية المتمركزة حول ذاتها وبما انه يرى إن مضمون التاريخ ما هو إلا التحقق الفعلي لفكرة الروح الذي يفضي الى الحرية ، وان طفولة ذلك التحقق بدأت تحبو في الشرق ثن بلغت أوج نضوجها في الغرب فانه يقسم الأعراق الى مراتب ودرجات أسهمت بحسب وعيها وقدرتها في صياغة التحقق المذكور الذي اكتمل في الأمة الجرمانية ، وان تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب لان أوروبا هي نهاية التاريخ على نحو مطلق فتاريخ العالم نوع من محاكاة رمزية لحركة الشمس يبدأ من الشرق وينتهي في الغرب . للمزيد انظر : إبراهيم ، عبد الله ، المركزية الغربية . الدار العربية للعلوم ناشرون ،(ب،ط) ، بيروت ، ٢٠١٠ ، ص٢٩٨ .

٢٧١ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٣٢ ، ٣٣٣

٢٧٢ ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦ ، المصدر نفسه ، ص٣٣ .

* إن فيلسوف التاريخ ، لا يستطيع ان يتجنب فلسفة ما او دستورا أخلاقيا ، وعلى ذلك فمن الخير ان يتبنى تلك الفلسفة او ذلك الدستور بصراحة . يجب عليه ان يعرف هل هو مادي او هو مثالي ، هل هو حر أم محافظ ، هل هو متشكك في أمور الدين أم هو مؤمن مخلص ، هل هو مؤمن بتقدم البشرية أم بعجزها عن بلوغ الكمال ، وهل هو مؤمن بالتحليل النفسي ام بالتحليل الجسدي ، وهل هو مؤمن بنظرية التفسير الاقتصادي او التقني ، بالتفسير الجغرافي او المناخي ، بالتفسير القائم على المعرفة أم بالعناية الإلهية ، هل يؤمن بأي مزيج او بشكل أخر من هذه المبادئ الفلسفية والأخلاقية . أضف الى ذلك ان المؤرخ الذي ليست لديه مبادئ فلسفية او أخلاقية ليست لديه أسس يقيس بها التغير او الاستمرار وعلى ذلك فليس بمقدوره ان يحكم على التطور او الظهور او السقوط او النمو او الركود او الانحلال . وعليه فان مونتسكيو جعل للاخلاق دستورا أكد عليه في مؤلفاته الشهيرة الثلاثة ، وجعل من هذا الدستور قانونا له طبيعة ومبدأ كباقي القوانين الأخرى ، وجعل من البيئة هي المصدر الأساس لهذا القانون . ينظر : جوتشلك ، لويس ، كيف نفهم التاريخ . دار الكتاب العربي ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص٢٢ .

لما رأينا تنوعا أخلاقيا في الشعب الذي يسكن منطقة جغرافية واحدة ومن مرحلة الى أخرى ، فهل جميع سكان المناطق الباردة او المعتدلة ، هم على نمط أخلاقي واحد ، او هل هم ذات سلوك معين حددته الظروف البيئية لهم ، وهم يسيرون عليه بفعل تأثير البيئة .

ج : اختلاف الحاجة الى التربية الصالحة . لقد أولى مونتسكيو، موضوع التربية حيزا كبيرا من تفكيره ، واهتم به اهتماما كثيرا في كتابه (روح الشرائع) فقد تناوله في الجزء الأول في الباب الرابع الذي احتوى على ثمانية فصول جميعها تعلقت بموضوع التربية ، وفي هذه الفصول الثمانية المتنوعة لم ينفك صاحبنا ، من إدراج موضوعات التربية ضمن تداعيات النظرية البيئية ، فما زالت التربية منضوية تحت خيمة التفسير الجغرافي

يقول فيلسوفنا في ذلك " وكما ان التربية الصالحة الزم للأولاد مما لذوي الرشاد تحتاج شعوب هذه الأقاليم الى مشترع حكيم أكثر من احتياج شعوب إقليمنا إليه ، وكلما طرق الإنسان بسهولة وقوة وجب وقوع هذا بما يلائم فلا تتقبل الأوهام ويسار العقل . وكانت شعوب شمال أوروبا في زمن الرومان تعيش بلا صناعات وتربية وبلا قوانين تقريبا ، وهي مع ذلك استطاعت بفضل استقامة رشدها ، المدينة به ، للنسائج الغليظة في تلك الأقاليم مع حكمة عجيبة ضد السلطة الرومانية الى ان خرجت من غابها لتقضي عليها " . [٢٧٣]

والباحث يرى ان دليل مونتسكيو ، حول شعوب شمال أوروبا والرومان هو ضعيف نوعا ما ، وذلك لان ، هذه الشعوب كانت تعيش منعزلة ، والنمط المعيشي لها كان الرعي بشكل أساسي ، وبهذا فان النمط المعيشي غير المعقد ، وانعزال هذه الجماعات جعلها قليلة القوانين والمبادئ التربوية ، فالعلاقات بين أفرادها بسيطة والمعارف قليلة ، ولهذا تكون القوانين ومبادئ التربية بسيطة . وكذلك فان الرومان الذين كانوا يعيشون في نفس الإقليم تقريبا وفي نفس المرحلة كان لهم قوانينهم المتطورة .[٢٧٤]

ان مونتسكيو ، ربط الأخلاق بالسياسة ، فينقل لنا جان جاك شوفاليه ، قوله " ان روح الاعتدال يجب ان تكون روح الشرائع ، فالخير السياسي ، مثل الخير الأخلاقي ، يوجد دائما بين حدين " . [٢٧٥]

وفي السياق نفسه يمكن القول ، ان القوانين المتعلقة بالتربية يجب ان تختلف باختلاف طبيعة الحكومات ، فخير القوانين في الديمقراطية هي تلك التي تنمي الفضيلة السياسية (حب القوانين والوطن) وخيرها في الارستقراطية هي تلك التي تنمي الاعتدال لدى الحكام . وخيرها في الملكية تلك التي ترفع التعطش إلى المراتب إلى أقصى حد

---

[٢٧٣] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٥٣ .

[٢٧٤] ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون و مونتسكيو . المصدر نفسه، ص١٩١ .

[٢٧٥] شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافيللي الى أيامنا . المصدر نفسه ، ص١٨٥ .

. وخيرها في الحكومة المطلقة تلك التي تشيع الرهبة في النفوس . ومرد جميع هذه القوانين التربوية في جميع أنواع الحكومات إلى البيئة الطبيعية – المناخ . [٢٧٦]

ويبدو واضحا هنا ان مونتسكيو ، كان يهدف الى مدح شعوب شمال أوروبا ، لأنه بهذا يدافع عن طبقة الأشراف فأصولهم ترجع الى هذه الشعوب ، الى درجة انه اعتبر ان هذه الشعوب هي ما أعطى أوروبا والعالم بأسره الحرية ، وقد مثل هذه الفكرة فلاسفة التنوير ، الذين مثلوا الحداثة [*] افضل تمثيل ، وقد لحق هيجل مونتسكيو بهذا القول .

ح : اختلاف العادات والأوضاع في الشرق وتغيرها الدائم في الغرب . يبدو ان المنهج المقارن ، لم يفارق صاحبنا في خطواته ، وخاصة فيما يتعلق بالتوظيف البيئي في بنائه العلمي ، ومن ثم توظيفها لقراءة التاريخ قراءة واقعية . وهذا ما سوف نتعرف عليه بجلاء خلال دراستنا للفصل المتعلق بالمنهج التاريخي عنده . فكان يبدو دائما في موقف المقارنة ، ولم تفلت منه لا صغيرة ولا كبيرة إلا وضعها في ميزان المقارنة والتعليل . فكانت العادات واختلافها بين الشرق والغرب ، هي الأخرى تعود عنده الى السبب البيئي [**]. يقول " إذا ما أضفتم الى ذلك الضعف الدائم في الأعضاء ، الذي يجعل شعوب الشرق تتقبل أقوى انطباعات العالم ، بعض الكسل في النفس المرتبط في كسل البدن يحكم الطبيعة ، والذي يجعل هذه النفس عاجزة عن أي عمل وجهد وجدال أدركتم ان النفس تعود غير قادرة على تغيير الانطباعات بعد ان تتقبلها وهذا ما يجعل القوانين والعادات والأوضاع حتى التي تلوح خلية كطراز اللباس في الوقت الحاضر كما كانت عليه منذ ألف سنة " . [٢٧٧]

وان ثبات العادات في الشرق وتغيرها في الغرب لا يمكن رده الى الاقليم ، حيث ارتفاع درجات الحرارة تقود الى ضعف الأعضاء وكسل البدن في الشرق وهذا ما لا يكون في الغرب فنحن نشاهد اليوم ان التغيير الاجتماعي يصيب كل المناطق بما فيها الحارة ، رغم عدم حدوث اختلاف في درجات الحرارة ، فالتغيير يتأثر حدوثه بالتواصل مع الشعوب الأخرى وبطبيعة الثقافة الخاصة بالمجتمع . [٢٧٨]

خ : اختلاف القوانين ذات الصلة بقناعة الشعوب. وهنا يقول مونتسكيو " بالعرق يتبدل قسم الدم المائي كثيرا في البلاد الحارة ، فيجب ان يعوض منه بسائب مماثل ، إذن والماء ذو استعمال عجيب هنالك ، والمشروبات

---

[٢٧٦] ينظر : كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي . المصدر نفسه . ص٢٤٢ . وللمزيد ينظر : المزوري ، زاهدة محمد الشيخ ، اركلوجيا فلسفة التاريخ ، المسار التطوري لفلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص٧٤ .

[*] للمزيد من التفاصيل عن مفهوم التنوير وعلاقته بالحداثة انظر : ابو النواعير ، محمد احمد علي ، الفكر الفلسفي السياسي عند ليو شتراوس واثره على المحافظين الجدد في الفكر السياسي الامريكي المعاصر . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠١٢ ، ص٥٠ .

[**] وتنشأ عن المناخ في كل مصر من الأمصار ، حاجات مختلفة . واختلاف هذه الحاجات يتسبب في تبيان أنماط الحياة ، التي تحتم بدورها تبيان القوانين من دولة إلى أخرى . فليس من سلطان اقوى من سلطان المناخ ، كما يعلن مونتسكيو وهو يلح على أهمية المناخ إلحاحا شديدا حتى ليخيل للقارئ انه العامل الحاسم ، الشمولي ، والجوهري في تقديره . ينظر : فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٥٦ .

[٢٧٧] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٣٥ .

[٢٧٨] ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٦٢ .

القوية هنالك تجمد كريات الدم التي تبقى بعد تبدد الأقسام المائية . ويبخر القسم المائي بالعرق قليلا في البلاد الباردة ، وهو يظل وافرا ، ويمكن إذن استعمال المشروبات الروحية من غير تجمد الدم ، والدم هنالك مملوء سوائل ، ويمكن ان تكون المشروبات القوية ، التي تمنح الدم حركة سائغة هنالك . وان شريعة محمد ، التي تحظر شرب الخمر هي قانون جزيرة العرب ، إذن ، ان الماء قبل محمد كان شراب العرب العام ، وكذلك القانون ، الذي كان يحرم على القرطاجيين شرب الخمر هو قانون الإقليم ، والحق ان إقليم ذينك البلدين واحد تقريبا " .[٢٧٩]

ويرى الباحث ان الربط الذي أقامه مونتسكيو، بين الدين والإقليم ، يبدو ضعيفا الى حد كبير، لأنه لم يكن يملك ما يتطابق مع واقع ما اعتقد به ، فحينما قال ان الماء هو ما يناسب إقليم العرب ، فقد كان شرابهم قبل الإسلام ، وان الخمر كانت غير موجودة بسبب مخالفتها لطبيعة الإقليم ، فلم يكن قد أصاب فيه ، فان شرب الخمر كان منتشرا في بلاد العرب حتى تلك التي تعد اشد مناطق العالم حرارة ، أي شبه الجزيرة العربية ، وقد دل على ذلك تحريمها عليهم ، ويعني هذا ان الخمرة كانت منتشرة بين العرب . وهذا يؤكد لنا من جديد ان التاريخ يجب ان يكتبه المؤرخون كما دعا إليه (هيرودوت) ، أي من خلال الوقوف على الأحداث مباشرة ، وتسجيل الوقائع تسجيلا عينيا ، ويبدو ان فيلسوفنا ، الذي لم يخرج خارج أوروبا ، فكان تدوينه للأحداث وتفسيره إياها من خلال المنظار الأوروبي العام المتحيز لجنسه ونوعه وبيئته وقوانينه ، بل الى كل رؤيته الى شعوب غير أوروبا .

فضلا عن ذلك فالباحث يرى في الإقليم الواحد تنوعا دينيا كثيرا ، وان الديانة المسيحية ، التي بدت له الديانة الطبيعية لأوروبا ، نشأت كما نعلم في الشرق (فلسطين) ، ولها أتباعها حتى اليوم في الشرق ولا شك في ان العاطفة الدينية [*] هي ما حمل مونتسكيو ، الى ربط الدين [**] بالإقليم ، وليس هذا الربط من الحقيقة العلمية في شيء ، وكذلك هو الحال في معظم مناطق العالم ، فنشاهد انه لا يوجد إقليم بذاته على ديانة واحدة ، ففي أوروبا نفسها يوجد تعدد الأديان في الإقليم الواحد ، ولا يوجد ما يمنع من تعددها ، وليس ثمة نص ديني يقرر وجود دين معين في إقليم معين . لكن يبدو ان هذه النزعة الأوروبية لا تكاد تفارق أبناءها ، وعلى رأسهم المفكرون من الفلاسفة والأدباء والعلماء ، من اعتبار دينهم وجنسهم ونوعهم ولونهم وحضارتهم وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، هو الأفضل ، ومن ثم فنهاية التاريخ سوف تكون عندهم ، في أوروبا ، لأنهم يمثلون المطلق ، كما

---

[٢٧٩] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٣٩ .

[*] ومما يدلل على اهتمام مونتسكيو بموضوع الدين انه جعل منه السلطة الوسيطة الثانية ، ومما يجب الإشارة إليه ان السلطة الأولى كانت عنده هي طبقة النبلاء ، والتي كان يرى فيها ان لا ملك بدون نبلاء ولا نبلاء بدون ملك . ينظر : فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه . ص٦٤ .

[**] مونتسكيو ينظر الى الدين بوصفه عاملا اجتماعيا ، مفيدا او مضرا أسوة بالسياسة او التجارة ، وينتمي الى في أرجح الظن الى تلك الفئة من الناس التي لا تعتنق الدين السائد الا من قبيل اللامبالاة على حد تعبيره وكل تجديد في المضمار الديني خطير وغير مجد في رأيه ، لكن من الضروري بالمقابل التحلي بأكبر قدر من التسامح إزاء الديانات القائمة في دولة من الدول ، ويعلن مونتسكيو ان تأثير الدين على السلوك والعادات مسألة أكثر أهمية في نظره من معرفة ما اذا كان الدين المعني قويما ام لا . ويتفق الباحث فيما قدمه فولغين في هذا المجال . على اعتبار ان المجتمع هو الساحة التي تفرز عليها افرازات الدين الاجتماعية . ينظر : فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٧٢ .

وصفه هيجل ، بان الحضارة تشبه شروق الشمس ومغيبها ، فهي شرقت من الشرق ، ولا بد من انها سوف تغيب في الغرب ، وبذلك يعد مونتسكيو، من الأوائل الذين مهدوا لهذه الثقافة ، إلا ان مونتسكيو ، جعلها تسير مع فلسفته العامة ، وموقفه العلمي الذي لم يبتعد عن أجواء أوروبا الفكرية العامة ، فقدم فلسفة تاريخ نقدية ، تقوم على تشخيص العيوب والأخطاء الشائعة وإصلاح ما يمكن إصلاحه ، وفي الوقت نفسه مقدما لصورة رائعة لأبناء جنسه ودينه ، يسمو بها عن الأديان والبلدان الاخرى . وقد عبر عن ذلك باستعماله النقد الداخلي ، الذي انتقد فيه الأوضاع في فرنسا ، وانبهاره بزيارته الانكليز ، وانبهاره بروعة القوانين لديهم ، والنقد الخارجي الذي يقدمه من خلال (رسائل فارسية) ، الذي انتقد فيه الأوضاع في الشرق والغرب .

ثانيا : في الرق المدني .

يرى مونتسكيو، ان " الرق ، في معناه الصحيح ، هو وضع حق يبلغ من جعل إنسان ملكا لأخر ما يكون به هذا سيد حياته وأمواله المطلق ، وليس الرق طيبا بطبيعته ، فهو غير مفيد للسيد ولا للعبد ، غير مفيد لهذا لأنه لا يستطيع صنع شيء عن فضيلة ، غير مفيد لذلك لأنه يألف من عبيده جميع أنواع العادات السيئة ، لأنه يتعود من حيث لا يشعر فقدان جميع الفضائل الخلقية ، لأنه يصبح عاتيا متسرعا قاسيا غضوبا شهوانيا جائرا " . [٢٨٠]

ويعزى الى المناخ وجود نظام الرق المدني في بعض المجتمعات . والرق المدني هو النظام الذي يجعل من حق شخص تملك شخص اخر بحيث يصير السيد المطلق لحياته وأمواله . ويميز مونتسكيو ، بين الرق المدني والرق السياسي ، والرق السياسي هو ما يشاهد في الدول التي تتبع النظام الطغياني حيث يصبح الأفراد عبيدا مسترقين للطاغية ، وبعد ان يبين مونتسكيو، مصادر الرق المدني وفق القانون الروماني كأسرى الحروب والمدين الذي لا يوفي دينه وأبناء الأرقاء يبين كيف ان ثمة مصادر أخرى كاحتقار امة لأمة أخرى واسترقاق أهل دين معين لأهل دين أخر ، ويحمل مونتسكيو، على نظام الرق حملة شعواء مبيننا انه نظام لا يفيد من السادة ولا العبيد ، لأنه يعود للسيد على عادات ابعد ما تكون من الفضيلة ، فهو يحول السادة الى أشخاص قساة طغاة ، ولأنه يجعل من الرقيق أشخاصا لا يأتون أي عمل عن نفسية فاضلة لأنهم يقومون بإعمالهم تحت الضغط والإكراه . [٢٨١]

وهكذا يتواصل مونتسكيو، في عرض أسباب الرق ، موجها النقد لكل ما يترتب على مصادره ، وفيما يخص موضوعنا ذات العلاقة ، أي اثر البيئة في الرق ، وعرض مصادره والنقد الموجه له ، يقول فيلسوفنا " واليك مصدرا آخر لحق الرق ، حتى لهذا الرق الجائر الذي يرى بين الناس ، يوجد من البلدان ما توهن الحرارة فيه البدن وتضعف الشجاعة كثيرا ، فلا يقوم الناس بواجب شاق فيه الا عن خوف من العقاب ، ولذلك يطرق الرق

---

[٢٨٠] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ،ص٣٤٩ .

[٢٨١] سعفان ، حسن شحاته ، تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧١١، ٧١٢ .

العقل هناك أكثر مما هنالك ، وبما ان السيد هناك يكون جبانا تجاه أميره جبن عبده نحوه فان الرق المدني هناك يكون قرينا للرق السياسي أيضا . ويريد أرسطو، إثبات وجود عبيد عن طبيعة " . [٢٨٢]

ويبدو ان المصدر الأول للرق عند مونتسكيو ، هو استبداد الحكومة ، الذي يدفع بالناس الى قبول العبودية ، ونلاحظ هنا ان نوع الحكومة قد نشأ عن طبيعة الاقليم . و المصدر الثاني للرق عنده ، هو الحرارة المرتفعة في الاقليم التي توهن الجسد فيهرب الناس من مشاق العمل الى العبودية . ويجب التوقف عند المصدر الثاني لنميز هل يمكن قبوله ؟ ونرى ان لا فرصة لقبوله ، لان العبودية ليست راحة من العمل . فالعبد هو من يكلف بالعمل وليس سيده ، فليس العبيد للجلوس في البيوت ، والاستمتاع بالأحاديث ، بل لتربية الحيوانات ولحراثة الأرض ، وجني المحاصيل ، وغيرها من الأعمال الشاقة . ولنا ان نقول ان المصدرين اللذين يذكرهما للرق وهما الحكومة المستبدة والحرارة المرتفعة ، هما مصدر واحد ، فالحكومة المستبدة كما نلاحظ يربطها مونتسكيو، بالأقاليم الحارة دوما حيث تكون الحرارة المرتفعة وأسباب طبيعية أخرى منتجة لها بشكل مستمر وبالتالي فان العبودية تكون حالة طبيعية في الأقاليم الحارة ذات الحكومات المستبدة . [٢٨٣]

ثالثا : في الرق المنزلي .

كذلك هو الحال في اثر البيئة الطبيعية في الرق المنزلي عند مونتسكيو ، فقد جعلها أيضا من مقتضيات التأثير البيئي ، وعلى وفق نظريته ، ويتعلق الأمر هنا بالنساء ومدى اكتسابهن لحريتهن ، فلم تنج المرأة من نظريته وأنساقها الفلسفية ، بطابعها العلمي النقدي ، فكان للبيئة الطبيعية دور مهم في حرية او عبودية النساء في المجتمع ، فوجد مونتسكيو ، ان في الأقاليم الحارة توجد أسباب طبيعية مرتبطة بارتفاع درجات الحرارة فيها تجعل عبودية النساء المنزلية أمرا لا مفر منه ، في حين ان الأسباب الطبيعية تعمل لصالح حرية النساء في الأقاليم الباردة – أوروبا .

ويعرف مونتسكيو ، الرق المنزلي بأنه " جعل العبيد في سبيل الأسرة أكثر من ان يكونوا في الأسرة ، وهكذا اميز عبوديتهم من عبودية النساء في بعض البلدان فادعوها العبودية المنزلية " . [٢٨٤]

وهكذا قدم لنا صورة واضحة لما يعني به في موضوع عبودية النساء ، وها هو يقدم لنا عرضا بمصادر الرق المنزلي المرتبطة بموضوعنا ذات الصلة – النظرية البيئية ، قائلا " يوجد في بلاد الجنوب تفاوت طبيعي بين الجنسين ، ويكون النساء في الأقاليم الحارة بالغات في الثامنة والتاسعة والعاشرة من سنيهن ، وهكذا تسير الطفولة والزواج معا فيها ، ويشيب النساء في العشرين من عمرهن ، لذا لا يجتمع العقل والجمال فيهن مطلقا ، ومتى

---

[٢٨٢] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ،ص٣٥٦ .

[٢٨٣] ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٦٥ ، ١٦٦ .

[٢٨٤] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٧٣ .

تطلب الجمال ان يكون السلطان له صده العقل عن ذلك ، ومتى أمكن العقل نيل ذلك عاد الجمال غير موجود ، ويجب ان يكون النساء تابعات ، وذلك لبان العقل لا يستطيع ان يجعل لهن سلطانا في مشيبهن لم ينعم الجمال عليهن به في شبابهن ، ولذلك يكون من الأمور البسيطة جدا ان يترك الرجل امرأته ، عند عدم معارضة الدين ، لينال امرأة أخرى ، وان يصار الى تعدد الزوجات . وفي البلاد المعتدلة ، حيث تكون ملاحات النساء أحسن حفظا لنفسها ، وحيث يتأخر بلوغهن ، وحيث يصبحن ذوات أولاد في سن أكثر تقدما ، يتبع مشيب أزواجهن مشيبهن من بعض الوجوه ، وبما إنهن يكن اكبر عقلا وأعظم معرفة حين زواجهن عن تقدم في السن ، فان من الطبيعي ان يقبل نوع من المساواة بين الجنسين ومن ثم قانون الاقتصار على امرأة واحدة . (٢٨٥) بيد ان الباحث يعتقد ان هذا القول لم يخرج من سكته المحددة في اطار المشروع الغربي ، فلو كان الجنس الاوروبي يسكن ارض اهل الشرق لكان هذا التصريح في الاتجاه الاخر .

وهنا نلاحظ كيف ذهب مونتسكيو ، الى ايجاد المبررات لعادات وتقاليد وممارسات اهل اوروبا اذ يقول : " وفي البلاد الباردة يؤدي استعمال المشروبات القوية عن ضرورة تقريبا الى إفراط الرجال ، ولذا تفضلهم النساء عقلا عن اعتدال طبيعي لما يجب عليهن من الاحتراز .ولم تضع الطبيعة التي ميزت الرجال بالقوة والعقل حدا لسلطانهم غير حد هذه القوة وهذا العقل ، وقد أنعمت على النساء بالملاحات وأرادت ان يقف نفوذهن عند هذه الملاحات ، بيد ان هذه الملاحات لا تكون في البلاد الحارة الا في بدء الأمر ، لا في أثناء حياتهن مطلقا . وهكذا يناسب القانون الذي لا يبيح غير الزواج بأمراة واحدة طبيعة إقليم أوروبا أكثر من ان يناسب طبيعة إقليم أسيا ، وهذا من الأسباب التي وجد الإسلام بها سهولة كبيرة في الاستقرار في أسيا وصعوبة عظيمة في الانتشار في أوروبا ، وهذا من الأسباب التي بقيت النصرانية بها في أوروبا وانهارت بها في أسيا ، والتي تقدم المسلمون بها في الصين كثيرا والتي تقدم النصارى بها الى الصين قليلا ، فالعوامل البشرية تتبع ، دائما ، هذا السبب الأعلى الذي يفعل كل ما يريد وينتفع بكل ما يريد " . (٢٨٦)

إذن التفاوت الطبيعي بين الجنسين كان المصدر الأول للرق المنزلي عند مونتسكيو ، أما المصدر الثاني عنده فقد عزاه الى قلة تكاليف المعيشة في المناطق الحارة ، قائلا " ويكون تعدد الزوجات اقل زينة من نهزة الترف الأكبر لدى الأمم القوية ، وتكون الاحتياجات قليلة في الأقاليم الحارة ، وهي اقل تكليفا لإعالة المرأة والأولاد فيها لذا يمكن ان يحاز عدد كبير من النساء فيها " . (٢٨٧)

أما في المصدر الثالث فيطالعنا بفكرة إحصائية ، لم تبتعد هي الأخرى أيضا عن الأثر البيئي الذي أصبح ملازما لنا خلال جميع خطوات الدراسة ، بعدان تبين لنا انه الأساس لكل فكرة تتعلق في التاريخ الحضاري عنده . فيذكر

---

[٢٨٥] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٧٤.
[٢٨٦] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٧٤، ٣٧٥ .
[٢٨٧] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٧٥ .

في المصدر الثالث ارتفاع نسبة الإناث الى الذكور في الأقاليم الحارة عكس الحال في أوروبا . وهذا بدلالة قوله الاتي " تدل الإحصائيات في مختلف أماكن أوروبا انه يولد فيها ذكور أكثر من الإناث وعلى العكس تخبرنا الرحلات الى أسيا وإفريقيا انه يولد فيهما اناث أكثر من الذكور بدرجات ، ولذا يكون للقانون القائل بالاقتصار على زوجة واحدة في أوروبا ، وللقانون الذي يبيح عدة نساء في أسيا وإفريقيا صلة بالإقليم " . [٢٨٨]

ونحن نرى ان ما قدمه مونتسكيو ، من مصادر او أسباب ثلاثة للرق المنزلي ، ليست كما صورها هو بالضبط ، ففي السبب الأول ، فان الفروق بين الأقاليم ليست بهذا الحجم الذي قدمه ، فان ليس من الصحة قوله ان النساء يشبن في العشرين ، فالمسألة ليست مكتسبة لدرجة التعميم ، ولذا لا يمكن اعتمادها ، اما في السبب الثاني ، فقد اختلطت الأوراق عليه ، وكان هذا السبب فيما يتعلق في القانون الذي يتيح تعدد الزوجات ، ومدى ملاءمته في أوروبا او أسيا ، وهنا فات عليه ان يتذكر ان قانون تحريم الزواج بأكثر من واحدة قد انطلق من أسيا ، ولم يكن قانونا بطبيعة أوروبية ، او ببيئة أوروبية ، وكذلك فان تعدد الزوجات أصبح من الممكن ان يقام في أوروبا . أما في السبب الثالث الذي تعلق بإحصائية الذكور والاناث ، فهناك أيضا مناطق في أوروبا يزيد فيها عدد الاناث وأخرى في أسيا يزيد فيها عدد الذكور على الاناث ، او ان الفارق يكون أحيانا بنسبة طفيفة .

رابعا : في العبودية السياسية .

هناك أسباب تجعل الشعب يقبل ويرضخ للعبودية على وفق رؤية مونتسكيو ، وهذه العبودية تحمل اسم جديد ، وهو العبودية السياسية ، وفيها يكون الشعب مضطرا لان يكون عبدا عند الحكومة ، حيث يأتمر بأوامرها ، وينفذ سياساتها ، وعلى هذا النحو يفقد حريته السياسية ، وقبلها الحريات الأخرى ، ومازالت البيئة ، هي السبب الأول لعبودية الشعب ، وكذلك لهيمنة الحكومة على مقدرات الأفراد .

ولنقرأ قول مونتسكيو " ليست العبودية السياسية اقل توقفا عن طبيعة الاقليم من توقف العبودية المدنية والعبودية المنزلية عليه " . [٢٨٩]

ومن أهم أسباب العبودية السياسية عنده حرارة الاقليم ، اذا ان الحرارة تضعف شجاعة الأفراد ، اذ يقول " ان شدة الحرارة كانت توهن قوة الناس وشجاعتهم ، وانه كان يوجد في الاقليم البارد قوة في الجسم والروح تجعل الناس قادرين على القيام بأعمال طويلة شاقة عظيمة جريئة ، ولا يلاحظ هذا بين امة وأمة فقط ، بل يلاحظ أيضا بين قسم وقسم في البلد الواحد ، وتعد شعوب شمال الصين أكثر شجاعة من شعوب جنوبها ، وليست شعوب

---

[٢٨٨] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ٣٧٦ .

[٢٨٩] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٩١. وللمزيد انظر أيضا : شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافللي الى أيامنا . المصدر نفسه ، ص٢٣٠ .

جنوب كورية مثل شعوب شمالها بسالة . ولا ينبغي ان يحار، إذن ، من ان جبن شعوب الأقاليم الحارة جعلها عبيدا دائما تقريبا وان شجاعة شعوب الأقاليم الباردة أبقتها أحرارا ، فهذه نتيجة تنشأ عن علتها الطبيعية " .[٢٩٠]

وهذه العلة الطبيعية نفسها كانت سببا طبيعيا لعبودية أسيا وحرية أوروبا . وما يسند هذا القول النص الذي أورده مونتسكيو، قائلا " رأيت في أسيا إمبراطوريات عظيمة في كل وقت ، ولم تقدر هذه الإمبراطوريات على البقاء في أوروبا ، وذلك عن كون أسيا التي نعرفها تشتمل على أعظم السهول ، وعن كونها مجزأة بالبحار الى أقسام صغيرة ، وبما إنها اقرب الى الجنوب فأن ينابيعها تجف بسهولة وتكون الجبال فيها اقل اكتساء بالثلوج ، فتؤلف أنهارها الأقل زخورا اصغر الحواجز. ويجب ان تكون السلطة مستبدة في أسيا دائما ، وذلك لان العبودية إذا لم تكن متناهية فيها فأن أول ما يقع حدوث قسمة لا يمكن طبيعة البلد ان تحتملها . وتسفر القسمة الطبيعية في أوروبا عن دول متوسطة الاتساع لا يكون سلطان القوانين فيها غير متفق مع حفظ الدولة ، وعلى العكس يكون هذا السلطان من الملاءمة ما تقع معه هذه الدولة من الانحطاط من غير هذه القوانين فتصبح دون جميع الدول الأخرى . وهذا ما أوجب خلق الحرية الذي يجعل كل جزء صعبا قهره وإخضاعه لقوة أجنبية ، وعلى العكس تسود أسيا روح عبودية لم تتركها قط ، فيتعذر ان تجد في جميع تواريخ هذا البلد علامة واحدة دالة على نفس حرة ، ولا تجد فيها غير بطولة العبودية " .[٢٩١]

ويبدو ان مونتسكيو ، أراد ان يعطي للعبودية في أسيا وإفريقيا سببا طبيعيا لا يمكن التغلب عليه ، ويعطي للحرية في أوروبا سببا طبيعيا كذلك ، ولكن – هناك مناطق باردة وهناك مناطق باردة جدا في أسيا ، وربما لا يوجد ما يماثلها إلا في أقصى شمال أوروبا . ومنها سهول منغولية وتركيا وبعض أجزاء من فارس . ويفطن مونتسكيو، الى هذا الأمر ويحاول إخراجها من القاعدة التي وضعها وهي (البرودة التي تؤدي الى الحرية ، والحرارة الشديدة التي تؤدي الى العبودية) وذلك بحجة ان الأقاليم الباردة في أسيا تتماس مع الحارة فيها تماسا مباشرا مما يؤدي لعدم انتفاع سكانها بآثار برودة الإقليم .[٢٩٢]

ونحن نعتقد ان الشجاعة لا يمكن ربطها ربطا حتميا بموضوع الحرارة او البرودة او الاعتدال المناخي ، فهناك عوامل أخرى مثل التربية ، او البيئة الاجتماعية ، وتأثير التراث والعادات والأعراف ، ومن ثم فان النتائج التي تكلم عنها مونتسكيو، بهذا الموضوع تسترعي الانتباه . فالعبودية السياسية والحرية السياسية ، ليستا حبيستين لحرارة او برودة المناخ ، ولا نعلم لماذا تغافل مونتسكيو، عن الأوضاع في فرنسا ، بلده الذي كتب لأجله مؤلفاته الثلاثة ، التي ضمنها نقدا للأوضاع السياسية آنذاك ، ولم يكن للبرودة التي تكلم عنها على انها تخلق الحرية

---

[٢٩٠] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٩٢ .

[٢٩١] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٩٨ ، ٣٩٩ .

[٢٩٢] ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٧١. وللمزيد أيضا : انظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٩٥

السياسية دور في تخليص الشعب الفرنسي من ان يرزخ تحت نير الملكية المطلقة مدة طويلة من الزمن ، ثم تحرر الشعب وأقام الجمهورية ، وحصل على الحرية ، فهل كان هذا التحول بسبب التبدل في المناخ واعتدال درجات الحرارة ، فقد كان لظهور الطبقة البرجوازية وانتشار الأفكار الحرة أثر واضح في التحول السياسي .

خامسا : في التجارة .

ان الباحث ، يتفق مع مونتسكيو ، في اثر البيئة الطبيعية في تحديد حجم التجارة ، فمن غير الممكن ان تقوم منطقة تجارية ، وتأخذ صفة عالمية ، وهي لا تتمتع بعوامل تكوينها البيئية ، فان المناطق الحارة جدا قد لا تصلح في كثير من الأحيان لكي تكون مركزا تجاريا ، وان كانت مكة قد نجحت لكي تكون مركزا تجاريا ، فهذا لأنها مركز تجمع السكان ، ومكان تأدية الشعائر الدينية ، كذلك هو الحال في القول بعدم إمكانية قيام تجارة دولية ناجحة في المناطق القارصة البرد .

إن الأثر الطبيعي للتجارة بين الدول بحسب مونتسكيو، يؤدي إلى السلام الدولي ، لكنه أيضا يقرر إن التجارة على أساس الاعتماد المتبادل يشجع الحرب . ويذكر إن الاعتماد المتبادل يؤدي إلى الغيرة وصراع الأمن ، مثل ما حدث بين قرطاج ومرسيليا . [٢٩٣]

والتجارة هي الأخرى لا بد ان تكون ذات صلة بالقوانين التي تشرعها الحكومة ، وهذه الحكومة لا بد أنها شرعت القوانين على وفق طبيعة الإقليم البيئية ، والتجارة تفسد الأخلاق والفضائل إذا كانت قوانينها مبنية بعيدا عن الفضائل الخالصة ، يقول مونتسكيو " ان قوانين التجارة تكمل الطبائع لذات العلة التي تضيع هذه القوانين بها الطبائع ، فالتجارة تفسد الطبائع الخالصة ، وكان هذا موضع شكوى افلاطون ، وذلك ان التجارة تصقل الطبائع الجافية وتلينها كما نرى ذلك في جميع الأيام " . [٢٩٤]

وللتجارة صلة بالنظام ، ونوع الحكم ، ونوع الحكم كما قلنا ذات صلة بالبيئة الطبيعية من حيث القوانين ، وعليه فان نوع التجارة يمثل نوع الحكم . يقول مونتسكيو " للتجارة صلة بالنظام وتقوم التجارة في حكومة الفرد على الكمالي عادة ، وهي ، وان استندت الى الاحتياجات الحقيقية أيضا ، يكون غرضها الرئيس ان تنال الأمة جميع ما يمكن ان يتعهد زهوها ورفاهها وأهوائها ، وفي حكومة الجماعة تقوم التجارة على الاقتصاد في الغالب ، فبما ان التجار يلقون نظرهم على جميع أمم الأرض فإنهم يحملون الى إحداها ما يأخذونه من الأخرى ، فعلى هذا الوجه قامت بالتجارة جمهوريات ، صور وقرطاجة واثينة ومرسيلية وفلورنسة والبندقية وهولندة " . [٢٩٥]

---

[٢٩٣] ينظر : Howse , Robert ; Montesquiu on Commerce . Oxford University Press, London , 1962. p36

[٢٩٤] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٨ .

[٢٩٥] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١١ .

إذن البيئة تحدد نوع الحكم ونوع الحكم يحدد نوع التجارة ، وهذه الترابطية القائمة في منظور مونتسكيو ، أفرزت ما يمكن ان تضعه التجارة من نتائج تسهم تساهم في البناء التاريخي ، لان التجارة هي احد عوامل بناء الدولة القوية التي تسعى للبناء الحضاري ، وهذه هي فلسفة التاريخ التي يسعى المؤرخ والفيلسوف لبلوغها .

" وهكذا فان العلل الطبيعية تحدد – حسب مونتسكيو – طبيعة التجارة للبلد ، فاحتياجات البلد لسلع يحددها طراز عيشهم والأفكار الدينية التي تكون لسكان هذا البلد ، وبهذا يخلص الى ان طبيعة حياة الشعوب في الشرق ، وما لديهم من أفكار دينية تجعلهم ليسوا بحاجة الى السلع والمواد التي تكثر في بلادهم والتي تحتاج إليها الأمم الأوروبية . وهكذا يرى مونتسكيو، ان ليس هناك من حرج في اخذ الثروات من هذه الأمم التي لا تحتاج إليها الى أمم تحتاجها ، ومن ثم فان مونتسكيو، برر عمليات النهب لثروات الأمم بحجة عدم حاجة هذه الأمم إليها " . [٢٩٦]

سادسا : في السكان .

الزيادة السكانية ، هل هي الأخرى بحاجة الى ان تحدد بقانون ، نعم ان طبيعة الاقليم البيئية هي التي تحدد القانون الذي يحدد بدوره الزيادة السكانية ، وربما كان العكس صحيح أيضا ، لان هناك أقاليم ذات طابع مناخي معين ، يحدد وجوب انخفاض بعدد السكان .

ويرى مونتسكيو ، ان " تتوقف النظم حول عدد الآهلين على كثير من الأحوال ، وتوجد بلاد صنعت الطبيعة فيها كل شيء ، فلا يكون ما يصنعه المشترع فيها إذن ، وما فائدة الحث بالقوانين على التكاثر إذا كان خصب الإقليم يؤدي الى ما يكفي من الآدميين . ويكون الاقليم انفع من الأرض أحيانا ، فالشعب يتكاثر هناك والمجاعات تهلكه ، وهذه هي الحال التي عليها الصين " . [٢٩٧]

ويقول ايضا " بلاد المراعي مأهولة قليلا ، وذلك لان قليلا من الناس من يجدون عملا فيها ، وتشغل حقول البر أناسا أكثر عددا ، وتشغل كروم العنب من هم أكثر مما هنالك بمراحل . ويشتكي في انكلترة ، غالبا ، من كون زيادة المراعي تقلل الآهلين ، ويلاحظ في فرنسة كون زيادة الكروم من العوامل العظيمة في زيادة الناس . وتمتاز بلاد مناجم الفحم ، التي تنتج مواد صالحة للاحتراق ، من غيرها بعدم احتياجها الى الغاب وبامكان زراعة جميع أرضيها ، وتحتاج الأماكن التي تنبت الأرز الى أعمال عظيمة لإدارة المياه ، ويمكن ان يعمل فيها أناس كثيرون إذن ، ثم انه يحتاج فيها الى حقول لتدارك قوت الأسرة اقل مما الى حقول تنتج حبوبا أخرى ، ثم ان الأرض التي

---

[٢٩٦] العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون مونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٨١ .

[٢٩٧] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٤٥ .

تتخذ لإطعام الحيوانات في مكان آخر ينتفع بها ، حالا ، هنالك لقوت الآدميين ، وما تقوم به الحيوانات من عمل في مكان آخر يقوم الناس به هنالك ، فتكون زراعة الارضين مصنعا واسعا للآدميين " . [٢٩٨]

وعندما نسلط الضوء على ما قاله مونتسكيو ، نجد ، ان هناك أقاليم تتيح الزيادة العددية ، فالصحراء لا تتيح الزيادة ، بينما السهول الخصبة تتيح الزيادة ، لكن هذا لا يعني ان قوانين هذه الأقاليم تكون متفقة مع طبيعة البيئة ، فلو لاحظنا ان الدين المسيحي الذي ينتشر في الأقاليم الباردة والمعتدلة ، لا يتيح الزيادة العددية بالسكان ، في حين ان ظروف الزيادة من ناحية البيئة الطبيعية هي متوافرة . وكذلك الدين الإسلامي الذي لا يتفق مع قاعدة مونتسكيو البيئية المتعلقة بزيادة السكان ، فنلاحظ ان أقاليم السكان المسلمين ومناطقهم ، هي على العموم مناطق حارة وحارة جدا ، لكن ؟ ورغم هذا فان قوانين الدين الإسلامي تتيح الزيادة العددية في السكان ، وتشجع لها ، وهكذا يمكننا ان نتصور ان القوانين الخاصة بالسكان ، لم تكن مرهونة بطبيعة الاقليم ، كما ذهب فيلسوفنا الى ذلك .

سابعا : في الدين .

يمثل الدين الموضوع الحساس في حياة الشعوب ، لذلك لم يغفله مونتسكيو ، قد كان في تقديره من ضمن تداعيات البيئة الطبيعية ، وعلى الرغم من تحفظنا على أرائه في الدين ، بما يتعلق في ان للدين قوانين ، وهذه القوانين فرضتها الطبيعة ، إلا إننا نجد ان تعابيره الواردة في (روح الشرائع) كانت تمثل نمطا معيشا واقعيا ، وان كان قد مثل تطرفا من وجهتين ، الأولى في انحيازه الواضح للدين المسيحي [*] ضد الأديان الأخرى ، والاخرى في عده المذهب البروتستانتي ، هو مذهب الحرية . وقد عد ان الدين هو نتاج حقيقي للبيئة الطبيعية .

اذ يقول " يوجد في مختلف الأديان قوانين محلية كثيرة ، ولما أصر مونتيزوما [**] على القول بان ديانة الأسبان كانت صالحة لبلدهم وديانة المكسيك صالحة لبلدهم لم يقل باطلا ، وذلك لان المشترعين لم يستطيعوا بالحقيقة عدم مراعاة ما كانت الطبيعة قد سنته قبلهم . ومذهب التناسخ وضع لإقليم الهند وفرط الحرارة بحرق جميع الأرياف

---

[٢٩٨] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

[*] " الدين النصراني بعيدا عن الاستبداد المحض ، وذلك ان الإنجيل يبلغ من الايصاء بالحلم ما يعارض معه الغضب الاستبدادي الذي ينتقم الأمير به لنفسه ويزاول جوره " . انظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٧٨، ١٧٩ .

[**] **مونتيزوما** (حوالي ١٤٦٦ - يونيو ١٥٢٠) وينطق اسمه أيضًا **موكتيزوما** و**موتيوكزوما** و**موتيكوزوما**، كما يعرف في النصوص القديمة المكتوبة بلغة الناواتل باسم **موتيكوسوما شوكويوتسن**، هو الحاكم التاسع لتينوتشتيتلان (حكم بين عامي ١٥٠٢ و١٥٢٠) وفي عهده حدث أول تلاقٍ بين حضارة الهنود الحمر في أمريكا الوسطى وحضارة الأوروبيين. قتل في بدايات الغزو الإسباني للمكسيك، أثناء قتال الكونكيستدور هرنان كورتيز ورجاله محاولين الفرار من عاصمة الأزتك تينوتشتيتلان. للمزيد من التفاصيل انظر : طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . دار الطليعة ، ط٤ ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص٤٥٧ .

فلا يمكن ان يغذي هنالك غير قليل من الأنعام ، ومن الخطر في كل وقت ان يفتقر إليها للفلاحة ، ولا تتكاثر الثيران هنالك الا قليلا ، والثيران عرضة للإمراض كثيرا ، والقانون الديني الذي يحافظ عليها كثير الملائمة لضابطة البلد إذن . [٢٩٩] بذلك يكون مونتسكيو ، قد اقر بأن الطبيعة هي من اشترع القانون الذي يجعل من الثيران والابقار حيوانات مقدسة ، لان الطبيعة مازالت عنده تشكل الضرورة الواجبة في تشكيل القانون ، لذلك فالطبيعة جعلت من الثيران مقدسة في الهند دون غيرها " .

ويذهب الى تقديم المزيد من الادلة في اسباب تقديس الابقار والثيران اذ يقول " وبينما ترى احتراق المروج ترى الأرز والخضر ينبتان نباتا موفقا بفعل ما يمكن استعماله من المياه هنالك ، فالقانون الديني الذي لا يبيح غير هذا الغذاء يكون عظيم النفع للناس في تلك الأقاليم ، إذن ولا طعم للحم الأنعام هنالك ، وما يأخذون من لبنها وزبدها يؤلف قسما من غذائهم ، فالقانون الذي يحرم أكل البقر وذبحه غير مخالف للصواب في الهند إذن . وكانت أثينا تشتمل على ما لا يحصى من الناس ، وكانت أرضها جديبة ، وكان من المبادئ الدينية ان من يقدمون الى الآلهة بعض الهدايا الصغيرة ، يمجدونهم أكثر ممن يذبحون الثيران " . [٣٠٠]

إذن على وفق مونتسكيو، لكل إقليم دينه المناسب ، الذي يتناسب مع البيئة الطبيعية لهذا الاقليم الى درجة انه لا ينصح بان ينقل دين ما بقوانينه الى إقليم آخر ، لأنه قد لا يتناسب مع البيئة الجديدة التي انتقل إليها . فيقول " وجود كثير من المحاذير غالبا ، في نقل دين بلد الى آخر " . و " يجب ان يكون الخنزير نادرا جدا في جزيرة العرب حيث لا يوجد تقريبا ، وحيث لا يوجد ما هو صالح لتغذية ذلك الحيوان تقريبا ، وذلك فضلا عن كون ملوحة المياه والأغذية يجعل الشعب عرضة لإمراض الجلد كثيرا ، وان القانون المحلي الذي يحرم ذلك لا يكون صالحا لبلدان أخرى حيث يكون الخنزير غذاء يكاد يكون عاما ، ضروريا من بعض الوجوه . وهنا ابدي فكرة ، وذلك ان لحم الخنزير ، الذي يؤكل يعرق قليلا ، وكون هذا الغذاء يحول دون تعريق الأغذية الأخرى ، أي انه وجد ان النقص بمعدل الثلث ، ومما يعرف ان نقص العرق يوجب أمراض الجلد او يهيجها ، ولذا يجب تحريم أكل لحم الخنزير في الأقاليم ، التي هي عرضة لهذه الأمراض كإقليم فلسطين وجزيرة العرب ومصر وليبيا " . [٣٠١]

كان ما تقدم هو عبارة عن شرح قدمه مونتسكيو، حول طبيعة القانون الديني ، الذي يتسق مع طبيعة الاقليم ، وحيثياته بحسب زعمه ، وما هي مبررات اشتراعه ، حيث عاد بها الى صالح الإنسان الذي ان خالف هذا القانون الديني المرتبط بالبيئة الطبيعية ، بكل تأكيد سوف يلحقه الأذى .

---

[٢٩٩] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .

[٣٠٠] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

[٣٠١] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٢٠٠ ، ٢٠١ .

وما زال مونتسكيو ، مصرا على عدم ضرورة نقل دين من إقليم الى آخر ، ويعلل ذلك بالقول " يقول مسيو شاردان انه لا يوجد نهر في فارس صالح للملاحة ، وذلك عدا نهر كور الواقع في أقاصي الإمبراطورية ، ولذلك لم يكن لشريعة الغير ، التي تحرم الملاحة على الأنهار أي محذور في بلادهم ، وهي لو كانت في بلد آخر لقضت على تجارته . والغسل الدائم من عادات الأقاليم الحارة ، وهذا ما جعل الشرع الإسلامي ، والدين الهندي يأمران به ، وتعد عبادة الرب داخل الماء الجاري عملا محتسبا للهند ، ولكن كيف تنفذ هذه الأمور في أقاليم أخرى ؟ والدين القائم على الإقليم إذا ما صدم إقليم بلد آخر لم يستطع ان يستقر به ، وهو إذا ما ادخل إليه طرد منه ، وإذا ما نظر الى الأمر من الناحية الإنسانية لاح ان الاقليم هو الذي عين حدودا للدين النصراني والدين الإسلامي " . [٣٠٢]

توغل مونتسكيو ، بالشرح كثيرا في موضوع الدين وعلاقته بالبيئة الطبيعية ، وذهب به الى تفاصيل دقيقة في حياة الإنسان الاجتماعية أيضا ، فهو يرد تعدد الزوجات او أحادية الزوجة ، الى اثر البيئة أيضا في القانون الديني فيقول " وان هذا الدين يحرم تعدد الزوجات ، فان الامراء يكونون به اقل احتسابا ، واقل انفصالا عن رعاياهم ، ومن ثم اكبر رجولة ، وهم يكونون أكثر استعدادا لإلزام أنفسهم وأعظم قدرة على الشعور بأنهم لا يستطيعون كل شيء . وبينما ترى أمراء المسلمين يواجهون الموت ويتقبلونه بلا انقطاع ، يجعل الدين أمراء النصارى اقل خوفا ، ومن ثم اقل جورا ، ويثق الأمير برعاياه وتثق الرعايا بالأمير ، ومن الرائع ان يوجب الدين النصراني سعادتنا في هذه الدنيا مع انه يهدف الى السعادة في الآخرة فقط كما يلوح . والدين النصراني ، مع اتساع الإمبراطورية وعيب الإقليم ، حال دون استقرار الاستبداد في الحبشة ، ونقل الى أواسط أفريقيا عادات أوروبا وقوانينها . ويتمتع ولي عهد الحبشة بإمارة ، وينعم على الرعايا الآخرين بمثال الحب والطاعة ، ويرى الإسلام بالقرب منه يحبس أبناء ملك سنار (*) فلما مات أرسلهم المجلس الى حيث يخنقون نفعا للأمير الذي يجلس على العرش " [٣٠٣].

لكن ما بال الاقليم الواحد الذي يحوي تنوعا دينيا ، مثال ذلك الهند التي ضربها مونتسكيو، مثلا على اثر البيئة في خلق القانون الديني . بالتأكيد إننا نفهم من هذا ان الدين ليس نتاجا للبيئة الطبيعية . إذن التنوع الديني الذي نعلمه في كثير من بلدان العالم التي لا تكاد تخلو من تنوع ديني او مذهبي ، يدحض مقولة ان الدين نتاج آلي للبيئة الطبيعية .

---

[٣٠٢] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٢٠١ .

* مدينة في السودان على النيل الازرق وعاصمة مملكة الفونج التي وهي نحمل اسم ولايتها وازدهرت في قمتها عام ١٥١٧ . للمزيد انظر : المنجد في الاعلام ، المصدر نفسه ، ص٣٠٩ .

[٣٠٣] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٧٨ ،١٧٩ .

ونحن نعلم ان الديانة المسيحية لها كثير من الأنصار والمؤيدين في الشرق وما زالوا يعيشون في أقاليم هذا الشرق ، فكيف تغافل مونتسكيو، عن هؤلاء الذين يدينون بديانة تختلف تماما عن ديانة هذه الاقاليم الكبرى ، مثلما هو الحال في وجود كثير من المسلمين في أوروبا والهند والصين ، فان لهذه البلدان بيئتها الطبيعية الخاصة بها ، ورغم هذا فقد تعايش معهم المسلمون . [٣٠٤]

وبهذ يمكننا القول ان الدين ليس نتاجا للبيئة الطبيعية ، وإنما مناسب لها ، فان الدين يستجيب لبيئات أخرى ، استجابات مختلفة ، ويبقى كما هو دينا واحدا . ويبدو ان مونتسكيو ، قد نسي ان الدين هو اعتقاد ، وهذا الاعتقاد إنما هو اعتقاد وقناعة ذاتية ، تتولد عند الإنسان ويعتقد بصحتها ويعتنقها ، وعليه فان الدين لا يحدده مكان ولا زمان ، بل هو قناعة الاعتقاد الذاتي . وثمة سؤال يتبادر الى الذهن . يا ترى ما الذي يجعل من مونتسكيو، يشن حملة شعواء على الدين الإسلامي ؟ وفي كل مجالات تفكيره ، فمن الناحية السياسية وحرية الفرد ، قد جعل الإسلام وجزيرة العرب تسلب الحرية ولا تتعامل بها أبدا ، ومن ناحية أنواع الحكومات ، كذلك جعل من حكومة الإسلام هي من الحكومات المستبدة ، وحتى عندما جاء ليصنف الشعوب حسب البيئة الطبيعية ، جعل من البيئة الطبيعية ، تمنح الاستبداد للعرب . وغيرها من مواقفه المتشنجة من الإسلام والعرب . وأن هذا يدل على خطورة المشروع الأوروبي [*] الذي خطط له منذ بدايات عصر النهضة ، المتضمن جعل أوروبا مركز الحضارة ، والذي اعتقدنا ان من اجل هذا المشروع نشأت فلسفة التاريخ ، على يد فولتير ، بإطارها الجديد وبحلتها الجديدة ، فلسفة التاريخ المثالية [**] وفلسفة التاريخ النقدية ، او الموضوعية ، التي كان مونتسكيو، ابرز فلاسفتها ، وقد جعل من البيئة موضوعيتها التأسيسية .

وهكذا فالبيئة الطبيعية عند مونتسكيو هي اصل القوانين ،او ما يكونها ، أي انها روح الشرائع ، وهي التي قصدها في كتابه الموسوم بها (روح الشرائع) . فالبيئة الطبيعية هي مصدر قوانين المجتمع ، وهي سابقة على القوانين الوضعية لأنها – أي القوانين الوضعية – عنها تصدر ، وبذلك نحن نعتقد ، ان القوانين عند مونتسكيو ، ليست نسبية ، لأنها ترتبط بشروط مادية واقتصادية كالإقليم ، وجودة الأرض ، وعدد السكان ، ونوع أعماله ، وتتعلق بشروط روحية وخلقية

---

[٣٠٤] ينظر :العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون مونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٨٥ .

[*] للمزيد عن اشكالية فلسفة التاريخ في ضوء مشروع المركزية الاوروبية الغربية ، انظر : عامر عبد زيد ، اشكالية فلسفة التاريخ ، موقع الحوار المتمدن . ٢٠١٢/٤/٣ www. Drisslagrini . maktoobblog .com

[**] المثالي في نظراته للتاريخ يرى ، انه تتبع وكشف لروح العالم . ويرى ان هناك روحا خفية هي الموجهة للحوادث والانفعالات التي تشكل حوليات امة من الأمم . ذلك لان الفكرة ، هي في الحقيقة قائدة للشعوب وقائدة للعالم ، وان الهدف الأهم تتبع الأحداث التاريخية وتحليلها عقليا . عن طريق المنهج الجدلي الذي حدده المثالي ، كوسيلة لتحقيق غاياته ، ومنهجه الجدلي هذا يسير في حركة تصاعدية لا نهائية من خلال تصارع الأضداد ،(الشيء ونقيضه ثم الركن الذي يتحول بدوره الى شيء ويوجه ضد جديد) ويرى في هذه الحركة كشف لروح العالم عن ذاتها بشكل تدريجي . وذلك من خلال الأحداث التاريخية التي تصدر عن صراع العواطف ، ومنها يتكون المركب الجديد القائم على أعقاب قضيتين متضادتين . انظر : ألسعيدي ، أمبارك عبد الكريم ، مشكلة القوانين التاريخية ، رسالة ماجستير ، مخطوطة ، كلية الآداب والتربية ، جامعة قاريونس ، ١٩٩٦، ص٥٥.

كديانتهم ونصيبهم من الحرية وتقاليدهم العامة ، وتتعلق بالمبادئ النفسية الثلاثة (***)، التي تقوم عليها الحكومات ، اذ تقوم الملكية على حب المجد والشرف ، ويقوم الحكم الجمهوري الديمقراطي على الفضيلة المدنية ، ويقوم الاستبداد على الرعب . إذن البيئة الطبيعية هي مصدر القوانين التي يخضع لها المجتمع . وهي سابقة على القوانين الوضعية ، لان هذه الأخيرة تصدر عنها ، والبيئة الطبيعية – كما نعلم هي من خلق الله فهي وما ينجم عنها من نتائج طبيعية لها (حكومات مستبدة – حكومات جمهورية ، حكومات ملكية) ، هي إرادة الله ومشيئته التي يجب ان تتبع وتطاع . فالله هو الذي جعل الاقليم حارا في أفريقيا واسيا ، وهو الذي جعل الاقليم في أوروبا باردا . وهو الذي جعل القسمة الطبيعية لبلدان أسيا متسعة المساحة ، ولأوروبا متوسطة المساحة ، وبذلك فالحكومات في كل من هذه البلدان هي عبارة عن مشيئة الله التي يجب ان تطاع . وهذا هو اكتشاف مونتسكيو ، الذي أراد ان ينشره ، ان يرجع الناس الى مشيئة الله ، وهو حسب اعتقاده (الحكومة الملكية) ، لكن هذا الذي سبق قوله من مونتسكيو، كان عن تأثير البيئة الطبيعية في خلق طبائع الحكومات . [٣٠٥]

*** وهذه المبادئ النفسية الثلاثة تحيلنا الى موضوع الروح العام عند (مونتسكيو) . وهذا يعني انه لم يكن فقط مؤسسا لعلم الاجتماع ، من خلال ما قدمه من دراسة سوسولوجية للمجتمعات من خلال نصوصه الثلاثة ذائعة الصيت ، بل ذهب أيضا الى ربط القوانين التي تشكل نوع نظام الحكم بدراسة نفسية ، وهكذا تشكلت القوانين عنده من الروح العام ، مع الأولوية للعامل البيئي .

[٣٠٥] ينظر :العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٨٩،١٨٨ . وللمزيد من التفاصيل انظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو ، السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص١٦ .

المبحث الثالث : التوظيف النقدي في النظرية السياسية .

المطلب الاول : الحرية وتجلياتها في النظرية السياسية .

يعد مونتسكيو، أهم فيلسوف من بين كل فلاسفة السياسة الفرنسيين في القرن الثامن عشر (بخلاف روسو) . ولعله من بينهم جميعا ، ملك الفهم الأوضح للتعقيدات المتعلقة بفلسفة اجتماعية ، لقد اخذ على عاتقه ما زعم انها دراسة تجريبية واسعة النطاق للمجتمع والحكم القائم على الواقعية العلمية . [٣٠٦]

وتمكن مونتسكيو، من خلال واقعيته العلمية ، من رسم خارطة للثقافات السياسية ، فتحت العيون على ان النظام الشمولي المستبد المفصل على السلطة المركزية للملك ، السائد في وطنه فرنسا ، ليس هو الامكانية الوحيدة ، ولا المثلى لترتيب واقامة نظام سياسي . [٣٠٧] والحرية عند مونتسكيو ، تقابل الوقوف ضد الاستبداد ، وكان يشهد قوتها المتنامية ، باعتبارها ممارسة واقعية . [٣٠٨]

وقد حاول مونتسكيو " وضع فلسفة سياسية [*] لأجل بناء تاريخي ، وتكون قابلة للتطبيق بعقلانية على أوسع نطاق من الظروف والأحوال ، من خلال منهجه النقدي وواقعيته العلمية التي اخذت بعين الاعتبار الواقع البيئي وتأثيراته . غير ان كل ما كتبه تقريبا قد كتب مع عين مسلطة على حالة الأمور في فرنسا . ومن ثم فانه يقدم في وقت واحد . أفضل التصورات في فلسفة التاريخ ، من خلال تطلعات عصره العلمية مع ما فيها من بلبلات لا يمكن تجنبها . ودون ان يطرح جانبا أداة الفلاسفة العقليين " .[٣٠٩]

وإذا نظرنا في نظرية مونتسكيو ، في المجتمع والحكومة والقانون ، ضمن دراسات فلسفة التاريخ ، وفي ضوء احد أوجهها ، لوجدنا إنها مستمدة من معطيات تاريخية ، فالأنظمة المختلفة للقانون الوضعي في المجتمعات

---

[٣٠٦] ينظر : سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي المصدر نفسه ، ص٧٤٦ .

[٣٠٧] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢، المصدر نفسه ، ص١٣٤ .

[٣٠٨] Macfarlane , Alan ; Montesquieu and the Making of the modern . Oxford University Press , London , 1986. p54.
.

[*] هي فن او علم الشؤون العامة ، والسياسة بالمعنى الواسع هي علم حكم الدول ، كان أرسطو يضع علم السياسة فوق سائر العلوم ، لأنه على راس ما عداه من نشاطات إنسانية . واليوم ، وأكثر من أي وقت مضى ، من الصعوبة بمكان تحديد منهج هذا العلم وغرضه . أما الفلسفة السياسية ، فقد طرحت باستمرار مشكلة قيمة العمل السياسي . انظر : جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة . المصدر نفسه ، ص٢٧٤ ،٢٧٦ .

[٣٠٩] سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي ، الكتاب الأول ، المصدر نفسه ، ص٧٤٦ .

السياسية المختلفة ذات صلة بعوامل متنوعة ، فهي تتصل بخلق الناس ، وبطبيعة ومبادئ أشكال الحكومة ، وبالطقس ، وبالأحوال الاقتصادية ، وما الى ذلك . وجملة هذه العلاقات تشكل (روح القوانين) . وهذه الروح هي ما يأخذ على عاتقه دراستها . فهو يتحدث عن علاقة القوانين بالحكومة ويقسم الحكومة .[٣١٠] الى ثلاثة أنواع : " الجمهورية والملكية والمستبدة ، ويكفي لاكتشاف طبيعة الحكومات ، ما عند اقل الناس ثقافة من فكر عنها ، وافترض ثلاثة تعاريف ، بل ثلاثة أمور ، ومنها ان الحكومة الجمهورية هي التي تكون السلطة ذات السيادة فيها للشعب جملة او لفريق من الشعب فقط ، وان الحكومة الملكية هي التي يحكم فيها واحد ، ولكن وفق قوانين ثابتة مقررة ، وذلك بدلا مما في الحكومة المستبدة من وجود واحد بلا قانون ولا نظام ، فيجر الجميع حسب إرادته وأهوائه " . [٣١١]

ويقدم لنا(فردريك كوبلستون) اقتضابا عن أنواع هذه الحكومات عند مونتسكيو، فيقول : " الجمهورية يمكن ان تكون ديمقراطية عندما يمتلك الشعب برمته سلطة الحكم ، او ارستقراطية عندما يمتلك فريق منهم سلطة الحكم . وفي الملكية يحكم الأمير وفقا لقوانين أساسية معينة ، وتكون هناك بصفة عامة سلطات وسيطة " .[٣١٢]

اذ يعتقد مونتسكيو، بالمنفعة الاجتماعية والاخلاقية المتوسطة ، لا سيما مجالس البرلمانات وطبقة النبلاء .[٣١٣]

ويبدو واضحا ان هذه المنفعة الاجتماعية ، تتحقق من خلال وجود انسجام بين السلطات ، وإدارة مشتركة لسلطة السيادة بين أجهزة ثلاثة ، السيادة معا للقوى السياسية الثلاث وكذلك للقوى الاجتماعية الثلاث : الملك والشعب والارستقراطية ، لكن إذا ساد الطغيان مجتمعا ما ، فتكون حينها دولة الطغيان .[٣١٤]

وفي دولة الطغيان لا توجد مثل هذه القوانين الأساسية ولا يوجد (مستودع للقانون) ، ومن ثم يكون للدين في الغالب تأثير شديد في هذه البلاد ، لأنه يمثل نوعا من المستودع الدائم ، وإذا لم يكن ممكنا ان نقول ذلك عن الدين ، قد يكون ممكنا ان نقوله عن الأعراف التي تحترم بدلا من القوانين . " ان مبدأ الحكومة الجمهورية هو الفضيلة السياسية ، ومبدأ الحكومة الملكية هو الشرف ، ومبدأ الطغيان هو الخوف . ومع افتراض هذه الأشكال من الحكومات ومبادئها ، فان أنماطا معينة من الأنظمة القانونية من المرجح ان تسود هناك هذا الفارق بين طبيعة الحكومة وشكلها ، فطبيعتها هي ما بموجبه تتأسس ومبادئها هي ما بموجبها عليها ان تعمل ، فطبيعة الحكومة

---

[٣١٠] ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦ ،المصدر نفسه، ص٣٢ .

[٣١١] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٢٠ . وللمزيد عن انواع الحكومات عند مونتسكيو انظر : الزيني ، ابراهيم ، تاريخ الفلسفة من سقراط الى مابعد الحداثة . كنوز للنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١١ ، ص٢٩٦ .

[٣١٢] كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦ ، المصدر نفسه ، ص٣٢ .

[٣١٣] توشار ، جان ، تاريخ الأفكار السياسية ، ج٢ ، تر ، ناجي الدراوشة ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، ط١، دمشق ، ٢٠١٠ ، ص٥٣٤ .

[٣١٤] توشار ، جان ، تاريخ الأفكار السياسية ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٥٣٥ .

هي بنيتها الخاصة ومبادئها هي الأهواء البشرية التي تحرمها . والآن ، ان القوانين ينبغي ان تكون ارتباطها بالمبادئ ليس ، بأقل من ارتباطها بطبيعة كل حكومة " . [٣١٥]

وفي طبيعة الحكومات ومبدئها يقول مونتسكيو " يوجد بين طبيعة الحكومة ومبدئها فرق ، قائل بان طبيعتها هي التي تجعلها كما هي وان مبدأها هو الذي يجعلها تسير ، واحد الأمرين هو كيانها الخاص ، والأمر الآخر هو الميول البشرية التي تحرمها . والواقع انه لا ينبغي للقوانين ان تكون اقل خصوصية بمبدأ كل حكومة مما بطبيعتها ، ويجب ان يبحث عن مبادئها إذن " [٣١٦]

ويقول مونتسكيو ايضا " وأفضل من ذلك ان يقال ان أكثر الحكومات ملائمة للطبيعة هي الحكومة التي تكون ذات وضع يوافق أكثر من غيره وضع الشعب الذي قامت من اجله ". [٣١٧]

ويبدو لنا من خلال متابعة النظرية السياسية لدى مونتسكيو ، انه يؤكد على ان لا سياسة من غير حرية .[٣١٨]

اذ يقول مونتسكيو " حقا ان الشعب في الديمقراطيات يصنع ما يريد كما يظهر ، غير ان الحرية السياسية لا تقوم على صنع ما يراد مطلقا ، ولا يمكن للحرية في الدولة ، اي في المجتمع ذي القوانين ، ان تقوم على غير القدرة على صنع ما يجب ان يراد وعلى عدم الإكراه على صنع ما لا يجب ان يراد ". [٣١٩] ولأهمية موضوعها يجوز لنا ان نسميها (مذهب الحرية) عند مونتسكيو ، والذي تقوم عليه عملية الفصل بين السلطات الثلاث .

وفي هذا لم يكن مونتسكيو، تأمليا خالصا يجيل طرفا محايدا في أوليات الدساتير ، فقد كان له مثل أعلى واضح منتهى الوضوح ، تعين نسق القوانين الذي يحقق ، في ظروف تاريخية ومادية بعينها ، حدا أقصى من الحرية . على اعتبار ان الحرية .[٣٢٠] هي " الحق في كل ما تبيحه القوانين" .[٣٢١] وهذه مشكلة تختلف بالنسبة

---

٣١٥ كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦ ، المصدر نفسه ، ص٣٢ .

٣١٦ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٦ . وللمزيد عن طبيعة الحكومات انظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٣٧ .

٣١٧ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١، المصدر نفسه ، ص١٨ .

٣١٨ برهييه، اميل ، تاريخ الفلسفة ، القرن الثامن عشر . تر ، جورج طرابيشي، المصدر نفسه ، ٨٢.

٣١٩ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ،المصدر نفسه ، ص٢٢٥ .

٣٢٠ ينظر : برهييه، اميل ، تاريخ الفلسفة ، القرن الثامن عشر . تر ، جورج طرابيشي، المصدر نفسه ، ٨٢.

٣٢١ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١، المصدر نفسه ، ص١١.٢٣٦

الى كل شعب . لأنه كما يقول مونتسكيو" من المفروض ان تكون القوانين موافقة الى حد أقصى للشعب الذي من اجله سنت . بحيث انه من المصادفات النادرة جدا ان تصلح قوانين امة بعينها لأمة أخرى " .[٣٢٢]

ويظهر تحليل الدستور الانكليزي بصورة تكاد تكون مثالية في كمالها ما الاوالية الدستورية التي يمكن ان ينتج عنها حد أقصى من الحرية . ومبدأ هذا التحليل هو ما يأتي : يكون هناك حد أدنى من الحرية حينما تتصرف السلطات العامة بطريقة اعتسافية تماما وبلا ضابط . [٣٢٣]

وهذا لا يتفق مع نظرية مونتسكيو ، السياسية . التي هي نظرية معادلات "ينبغي على السلطة ان توقف السلطة " . وعملية الفصل هذه تتيح اكبر قدرا من الحرية السياسية . [٣٢٤]

والحرية السياسية ، التي هي أساس تكوين الحضارة ، أخذت عند مونتسكيو، شرطا لازما ، وهو إن التاريخ يجب أن تحكمه الأسباب العامة ، وان ممارسات البشر الفردية تؤدي به إلى روح التسلط . [٣٢٥]

فمن اللازم إذن ان تحد كل سلطة من هذه السلطات وان تراقب من قبل قوة توازنها . وبعيد كل البعد عن تفكير مونتسكيو، الاعتقاد بان هذه الرقابة يمكن ان يمارسها المحكومون أنفسهم ، لان هذا لا يوفر فرصا للحرية . فالشعب ليس أهلا بأي صورة من الصور لمناقشة الشؤون ، والقوة التي تعارض اعتساف سلطة من السلطة العامة يجب ان تكون مجانسة لها . أي لابد ان تكون هي الأخرى سلطة عامة . وعلى هذا فان الحرية السياسية ستتحقق يوم ستقوم السلطات ، المستقلة أتم الاستقلال واحدتها عن الأخرى ، بممانعة بعضها بعضها الاخر . [٣٢٦]

ونحن نرى ان من هذه الممانعة ، يمكن ان تنتج الحرية ، وذلك لصيرورة الديالكتيك الثلاثي القائم نتيجة الفصل بين هذه السلطات الثلاث ، وعملية الرصد وكشف الأخطاء لكل سلطة تجاه الأخرى ، انما هو التقدم في التاريخ .

والسلطات الثلاث التي تتألف منها الدولة هي : السلطة التشريعية ، والسلطة المنفذة للشؤون التي تخص القانون الدولي العام او الحكومة ، والسلطة المنفذة للشؤون التي تخص القانون المدني او السلطة القضائية . وإذا ارتهن أمر هذه السلطات بإرادة واحدة ، سواء كانت هذه الإرادة إرادة فرد واحد ام إرادة هيئة من النبلاء ام إرادة الشعب ، فان كل حرية تتلاشى وتزول في هذه الحال . فلا وجود للحرية اذا جمع الملك بين السلطتين الأوليين ، فترك الثالثة لرعاياه ، وفي ظل ملكية ، كالملكية الفرنسية ، يتبدى استقلال البرلمانات لمونتسكيو، شرطا أساسيا للحرية السياسية .[٣٢٧]

---

[٣٢٢] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١، المصدر نفسه ، ص١٨.

[٣٢٣] ينظر : برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة . المصدر نفسه ، ص٨٣.

[٣٢٤] توشار ، جان ، تاريخ الافكار السياسية ، ج٢ ،المصدر نفسه ، ص٥٣٤ .

[٣٢٥] Macfarlane , Alan ; Montesquieu and the Making of the modern . p67 .

[٣٢٦] ينظر : برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة . المصدر نفسه ، ص٨٣. للمزيد انظر : شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافللي الى ايامنا ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص١٩٠ .

[٣٢٧] ينظر : برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة . المصدر نفسه ، ص٨٣. للمزيد انظر أيضا : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، مج ٦ ، المصدر نفسه ، ٣٧ .

لذلك ، إذا أراد مشرع في إحدى الدول ان يؤمن أعظم حد من الحرية السياسية للمواطنين (*) وجب عليه ان يفصل السلطات ، وان يقيم التوازن فيما بينها . فمن اجل ان لا يتمكن احد من إساءة السلطة ، وجب ان توقف السلطة السلطة ، وذلك بحكم ترتيب الأشياء . ان أفضل حل هو الذي يعهد : – بالسلطة القضائية الى محاكم منبثقة عن الشعب ومكلفة بتطبيق نصوص قانونية واضحة ، و بالسلطة التشريعية أما الى الشعب بمجموعه ، او الى ممثليه الذين يصطفيهم من صفوفه . وبالسلطة التنفيذية الى ملك وراثي . حينئذ ترفض كل سلطة ان تستبعدها سلطة أخرى ، وتسهم بتوازنها جميعا في سير الدولة سيرا حسنا . ان مونتسكيو – دون ان نضطر الى تصديقه – يؤكد مايأتي : لئن يقال هذا الكلام ، فلا يعني ذلك انه يريد انتقاد النظام السائد .وينقل لنا اندريه كريسون انه كتب يقول " لا ازعم من وراء ذلك تبخيس الحكومات الأخرى ، ولا القول ان هذه الحرية السياسية الزائدة لابد لها ان تذل من لا يتمتع إلا بحرية معتدلة . كيف أقول ذلك وأنا اعتقد ان الإفراط في العقل ليس مرغوبا دائما وان خير الأمور أوسطها بالنسبة الى البشر " .[٣٢٨]

إذن الحرية السياسية بحسب مونتسكيو ، اذ سئل ، فأجاب قائلا إنها : " الحق في عمل كل ما تسمح به القوانين " ، ويعد المواطن مالكا لهذه الحرية حينما يملك هذه الطمأنينة الفكرية التي تنشأ عن اعتقاد كل فرد أمنه وسلامته : ماذا يجب ان نفعل لتأمينها له ؟ والجواب هو التوازن بين السلطات الثلاث الذي يوفر القدر الكافي من الحرية لكل شخص ، وبهذا لا تقويض لأركان دستور يعمل على وفق مبادي وطبيعة السلطات الثلاث .[٣٢٩]

وكان ثمة خوف كبير يطارد مونتسكيو ، من ان الملكية المطلقة قوضت أركان دستور فرنسا التقليدي ، حتى أصبح قبل الحرية امرا مشكوكا فيه . وكان مقته للاستبداد واضحا للعيان حتى فيما زعم انه عبارات ايجابية من الحكومات مثل حكومة روسيا وتركيا . وكان هدفه العملي – والى حد كبير أقوى أجزاء كتابه (روح الشرائع) تأثيرا – هو تحليل الأحوال الدستورية الى التي تتوقف عليها الحرية ، ومن ثم اكتشاف الوسائل لإعادة حريات الشعب الفرنسي القديمة .[٣٣٠]

" والهدف الذي يصبو إليه مونتسكيو ، الذي يبين من خلاله تعليقاته على الحكومات ، هو ان تكفل الحكومة الحرية في أوسع مدى ، وعلى خير وجه مستطاع ، فانه يمقت الاستبداد ويؤيد الحرية الشخصية ، ولا تقوم الحرية عنده في ان يعمل المرء ما يريد ، بل في ان يقدر المرء ان يعمل ما ينبغي عليه ان يريد ، وإلا يكون على عمل ما لا ينبغي ان يريد ، وان يعمل المرء كل ما تجيزه القوانين العادلة " .[٣٣١]

ويلاحظ الباحث ، ان وجود تأثير واضح جدا في فلسفة مونتسكيو، على فلسفة (كانت) ، خاصة فيما يتعلق بالمسلمات التي جعلها (كانت) قانونا للحرية ، وان تطبيقها كان يمثل عنده مفهوم الواجب . ويقول (كانت) في هذا : " الواجب هو

---

* على المشرع أن ينطلق من قاعدة مهمة حينما يشرع القوانين . وهي انه لا يمكن الانطلاق من وجود القوانين المهتدى إليها بالعقل بنفس مفهوم الانطلاق من وجود القوانين الطبيعية . فهناك قوانين جيدة وقوانين سيئة ، مثلما توجد دساتير أحسن ودساتير أسوأ ، لان البشر على عكس الطبيعة لديهم قابلية للخطأ . ومع ذلك يتمسك مونتسكيو برأي قد عبر عنه ارسطو ، احد عظماء الفلسفة السياسية في العصور القديمة هو : ان الجماعة الوطنية في دولة هي بالأحرى شكل طبيعي للحياة المشتركة للبشر . انظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٣٩ .

[٣٢٨] كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي . المصدر نفسه ، ص ٢٤٦.

[٣٢٩] ينظر : كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفرنسي . المصدر نفسه ، ص٢٤٥.

[٣٣٠] ينظر : سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي . المصدر نفسه ، ص٧٤٨.

[٣٣١] كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص٢١٥.

ضرورة القيام بفعل عن احترام القانون .حقا إنني أجد لدي ميلا للموضوع ، بوصفه أثرا من أثار الفعل الذي انوي الإقدام عليه " . فعلى الرغم من اختلاف الفيلسوفين في فلسفتهما ، إلا اننا نجد ان من الممكن ان يكون (كانت) ، قد تأثر بمونتسكيو، بهذا الشأن ، فان فيلسوفنا ذهب الى ضرورة احترام القوانين التي يضعها الانسان لنفسه ، وحينها يتجلى معنى الحرية لديه . [٣٣٢]

لقد كان مونتسكيو، متحمسا للحرية وليس مجرد ملاحظ محايد للظواهر التاريخية ، وهكذا شرع في الكتابين الحادي عشر والثاني عشر من (روح القوانين) ، يحلل شروط الحرية السياسية ، وبما انه كان يمقت الطغيان فهذا يتضمن ان الدستور الليبرالي [*] هو الأفضل . وقد يتخذ تحليله صيغة إعطاء معنى لكلمة حرية ، كما تستخدم في محتوى سياسي ، ثم فحص الشروط اللازمة لاماكن صيانتها والدفاع عنها . ومن الواجهة النظرية كان يمكن عمل ذلك من جانب فيلسوف سياسة لم يكن لديه ميل للحرية السياسية او لم يكن ميالا ازائها . [٣٣٣]

ونرى من المناسب القول ان مونتسكيو ، في تحليله كان ينظر من ناحية الى الدستور[*] الانكليزي [**] الذي أعجب به ، ومن ناحية أخرى الى النظام السياسي الفرنسي ، الذي كان لا يحبه ، وهكذا فان مناقشته للحرية السياسية ليست ببساطة مجرد تحليل ، على الأقل من حيث روحها والدافع إليها ، ذلك لأنه كان يبحث كيف يمكن إصلاح النظام الفرنسي ، بحيث يسمح بالحرية ويحتفظ بها ، وأراد مونتسكيو، ايضاح فكرة انه ، لا تكمن الحرية السياسية في التحرر غير المقيد وإنما فقط في القدرة على عمل ما ينبغي علينا ان نريد وإلا نكره على ما ينبغي ان نريد ، فالحرية هي الحق في عمل كل ما تجيزه القوانين التي شرعها لنفسه . [***] ففي المجتمع الحر لا يمنع أي مواطن على ان يسلك أي سلك على نحو يسمح به القانون ولا يجبر اي مواطن من ان يسلك على نحو واحد معين

---

[٣٣٢] كانت ، امانوئيل ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق . ترجمة وقدم له ، عبد الغفار مكاوي ، راجعه ، عبد الرحمن بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص٢٧-٢٨ .

[*] وهو القائم على فكرة الليبرالية ، التي هي عبارة شاملة تشير إلى تنوع التيارات والعقائد التي قامت في الغرب خلال عدة قرون ، وذلك انطلاقا من كلمة أساسية (الحرية) ، ولدت الليبرالية بوصفها عقيدة فلسفية سياسية واقتصادية في القرن الثامن عشر وذلك بفعل المطالبة الأساسية التي أعلنتها البرجوازية الصاعدة : التعبير عن الحريات السياسية والاقتصادية والفكرية التي يتمتع بها الفرد تجاه تحكمية الدولة المطلقة ، وضد العرقلات الاقتصادية (الأنظمة ، الاتحادات) او العقلية (الكنيسة) . لقد أراد المنظرون الليبراليون تأسيس نظام اجتماعي يعطي الفرد حقوق التملك ، والتعبير السياسي ، والوعي . بعد ذلك كان قدر الليبرالية بوصفها حركة فكرية ان تشهد انقسامات متعددة . انظر : دورتيه ، جان فرنسوا ، معجم العلوم الإنسانية . تر ، جورج كتورة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص٩٣١.

[٣٣٣] ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦، المصدر نفسه ، ص٣٦-٣٧ .

[*] يرى الباحث ان مونتسكيو اهتم كثيرا بالدستور وموضوعاته لانه اعتبر ان قوانينه المجتمعة في حزمة واحدة انما تمثل ما ألت اليه طبيعة ذلك الاقليم ، فيعتبر القانون المنضوي تحت دستور ذلك الاقليم انما يمثل لسان حال البيئة وحتميتها في تشكيل المجتمع .

[**] عندما وصل (مونتسكيو) الى انجلترا تاثر بالنظام السياسي والاجتماعي ، وكتب ان هنا في هذا البلد الذي يتكلم الانجليزية كل شيء يتحمس للحرية وشعبها شعب حر ، وقد حقق هذا الشعب التقدم لانه ادرك ثلاثة اشياء مهمة ، التقوى والتجارة والحرية .للمزيد من التفاصيل انظر : Macfarlane , Alan ; Montesquieu and the Making of the modern .p79.

[***] وفي هذا الكلام عودة إلى الفيلسوف (كانت) لغرض إجراء المقارنة ، بينه وبين (مونتسكيو) ، من خلال كتاب تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق .

عندما يسمح له القانون ان يتبع رغبته الخاصة . هذا الوصف للحرية ربما لا يكون تنويريا بدرجة كبيرة ، ولكن صاحبنا يمضي ليلح على ان الحرية السياسية تتضمن فصل السلطات أي ان السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لا ينبغي ان تودع في شخص واحد او مجموعة معينة من الناس . وهذا يدعونا الى تحليل الموقف الفلسفي عنده .

لقد قال بعض الكتاب ، ان مونتسكيو، رأى الدستور الانكليزي بعين منظر سياسي مثل (هارنجتون) ،(لوك) ، وانه عندما تحدث عن فصل السلطات كعلامة مميزة للدستور الانكليزي اخفق في فهم ان ثورة ١٦٨٨ ، أدت في النهاية الى تفوق البرلمان وبعبارة أخرى ، ان يعتمد ببساطة على ملاحظة الدستور الانكليزي ما كان يركز على ما يسمى فصل السلطات على انه السمة الرئيسة لنيل الحرية السياسية ، التي يتساءل عن سبب عدم نيلها .[٣٣٤]

وفي هذا يطرح مونتسكيو ، سؤالا يورده عبد الرحمن بدوي هو " ان الناس يحبون الحرية ويكرهون القهر والعنف ، ومن المحتمل ان يثوروا ضد الطغاة ، فلماذا إذن يعيش معظم الناس في العالم تحت الاستبداد والدكتاتورية ؟ ويجيب قائلا ان هذا يفسر بأمرين : الأول هو ان الإمبراطوريات الواسعة يجب ان تحكم حكما استبداديا ، كما يكون الحكم فيها قوي النفوذ ، والثاني وهو الاهم ، لان الشرط الوحيد لقيام الدكتاتورية هو الشهوات الإنسانية ، وهذه توجد في كل مكان " . لذلك وجد ان الدستور الانكليزي قد عالج كثير من هذه الإشكاليات التي تعاني منها فرنسا ، وتاثره بدستور الانكليز دلالة على انه درسه جيدا وخاض غماره ، وقرأه وهو يملك نظرية سياسية توفر الحرية في النظام السياسي . [٣٣٥]

ولكن حتى إذا كان مونتسكيو، قد رأى الدستور الانكليزي وفسره على ضوء نظرية عنه [*] ، وحتى إذا لم تكن عبارة فصل السلطات وصفا ملائما للموقف ، فانه يبدو واضحا ان العبارة لفتت الانتباه الى سمات حقيقية للموقف . فالقضاة لم يشكلوا بالطبع (سلطة) بالمعنى الذي مارسته السلطة التشريعية ، ولكن في الوقت ذاته لم يكونوا خاضعين في ممارستهم لوظائفهم لتحكم نزوات الملك ووزارته . ويمكننا ان نقول بحق ان ما أعجب به مونتسكيو، في الدستور الانكليزي كان بالأحرى ما تمخضت عنه العملية الطويلة من التطور ، وليس تطبيق نظرية مجردة عن فصل السلطات . [٣٣٦]

---

[٣٣٤] ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦، المصدر نفسه ، ص٣٦-٣٧ .

[٣٣٥] ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٤٩٠ .

[*] أي انه عندما تأثر بالدستور الانكليزي لم يكن من دون خلفية علمية وسياسية ، فقد كان يمتلك نظرية ، وبرأينا أنها لم تكن مكتملة ولكن قراءة الدستور الانكليزي اسهمت في نضوجها . وهذه النظرية كانت تقوم على أساس (علاقات الشرائع بالطبيعة ومبدأ كل حكومة) فبعد ان أقام مبدأ الجمهورية ومبدأ الكلية ، ومبدأ الاستبدادية ، كان يرى الشرائع تجري من كل مبدأ من هذه القوانين وكأنها تجري في منبعها . انظر : شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافيللي إلى أيامنا . المصدر نفسه ، ص١٨١ .

[٣٣٦] ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦، المصدر نفسه ، ص٣٦.

وإطلاع مونتسكيو،على الدستور الانكليزي ، يعني إطلاعه على المجتمع الانكليزي ، الذي درسه من حيث الطبيعة والمبدأ ، وهذا يتيح لنا ان ننظر إليه بمنظار اجتماعي ، فقد تولى تطوير نظرية اجتماعية للحكم والقانون . وقد قام بتفسير العلاقة بين المجتمع ودستوره بين المجتمع الانكليزي والمجتمع الفرنسي . (٣٣٧)

ويبدو ان العبارة التي فسرت الدستور الانكليزي على انه أفضل السلطات لم يكن تأثيرها على مونتسكيو ، الى حد انه طالب بعد ذلك بضرورة محاكاتها في بلده . " وكيف يمكن ان تكون لي مثل هذه الخطة . أنا الذي اعتقد ان استخدام العقل على نحو مبالغ فيه ليس أمر مرغوبا فيه دائما ، وان الناس تقريبا ما يتلاءمون دائما مع ما هو عادي على نحو أفضل من التلاؤم مع ما هو متطرف " لقد رغب مونتسكيو، في إصلاح النظام السياسي الفرنسي ، وكانت ملاحظة الدستور الانكليزي قد أوحت إليه أساليب يمكن بمقتضاها إصلاح هذا النظام دون ثورة متطرفة وعنيفة . (٣٣٨) وقد أحب فكرة إن الانكليز ، لا يدعون لملكهم فرصة لتوطيد سلطته . (٣٣٩)

وان عملية الإعداد لهذه الثورة غير المتطرفة يتطلب إعداد خطة معينة ، أو إقامة مشروع جديد ، وان مشروع مونتسكيو، الجديد يقوم على أساس إنشاء علم للسياسة والتاريخ ، يفترض أولا إن السياسة والتاريخ يمكن إن يكونا موضوعا لعلم يود العلم اكتشافها . (٣٤٠)

وقد كان لأفكاره عن توازن السلطات تأثيرها في كل من أمريكا وفرنسا ، كما في حالة الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان عام ١٧٩١ ، ومع ذلك ففي وقت تال زاد الإلحاح على عمله الرائد في الدراسة التجريبية والمقارنة للمجتمعات السياسية والارتباطات بين أشكال الحكومات والنظم القانونية والعوامل المحددة الأخرى . (٣٤١)

ومثلت النظرية السياسية عند مونتسكيو، نقطة الانطلاقة نحو كتابة الدستور الأمريكي ، ليس ذلك فحسب ، بل في كافة التطورات اللاحقة التي طرأت على الدستور الأمريكي . وكذلك هو الحال في السياسة الأوروبية عامة ، وفرنسا خاصة . (٣٤٢)

" على هذا تنفس دستور الولايات المتحدة الأمريكية الناشئة ، الذي تمت الموافقة عليه عام ١٧٧٦ ، أفكار مونتسكيو ، كما استند زعماء الثورة الفرنسية عليه في المقدمة – بجانب فولتير وروسو – كواحد من كبار نقاد الاستبداد . ومن المضحكات ان فعل ذلك أيضا احد اشد أعداء الثورة الفرنسية وهو البريطاني السياسي ، بريتي ادموند بوركي ، الذي اخذ من مونتسكيو ، نظرية ان المؤسسات السياسية ذات الكفاءة تمثل همزة وصل هامة بين الدولة ومواطنيها . أما دور المؤسسات التي يراقب بعضها بعضا ، وتحد بذلك من سلطة الدولة لصالح حرية المواطن " . (٣٤٣)

---

[٣٣٧] ينظر : سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي . الكتاب الأول ، المصدر نفسه ، ص٧٤٧ .

[٣٣٨] ينظر: كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦، المصدر نفسه ، ص٣٧ .

[٣٣٩] ينظر : فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار ، المصدر نفسه ، ص٥١ .

[٣٤٠] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو ، السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص١٥ .

[٣٤١] ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦، المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

[٣٤٢] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٤٦ .

[٣٤٣] تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٤٦ .

وحرية المواطن عنده من الممكن ان تتحقق في أعلى درجاتها في موضوع اللامركزية ، لأنها خير موازن ومعادل ضد الاستبداد . [٣٤٤]

وقد استلهم هردر [*] من مونتسكيو، (الروح العامة) على انها (روح الشعب) . كما وردت فكرة الروح العامة على أنها (عقل) ، وبالأحرى (عقل موضوعي) تتدرج فيه نظم العلاقات الاجتماعية من قانون وأخلاق وأعراف ، في كتابي هيجل ، (علم وصف ظواهر العقل) و (دائرة معارف العلوم الفلسفية) . [٣٤٥]

ويعتقد الباحث ان لـ (مونتسكيو) تأثيرا واضحا على هيجل ، ليس من الناحية الاجتماعية فحسب بل من الناحية البيئية [*] لان هيجل يتناول اثر البيئة في تكوين العقل الانساني ، وكذلك اثرها في تكوين التاريخ والحضارة ، وذلك في كتابه . (محاضرات في فلسفة التاريخ ، العقل في التاريخ) [**] وان كان هيجل يختلف في فلسفته عن مونتسكيو ، باطارها العام ، لكننا وجدنا اشتراكا وتطابقا في النتائج .

وقد صار مونتسكيو ، واحدا من طليعة مفكري دولة القانون الحديثة ، ومن بين المفكرين السياسيين ، الاخذ فيها مشروع تقسيم السلطات دائما أهمية متنامية وشاملة . فقد أصبحت نظرية التوازن والمراقبة للمصالح والمؤسسات أساس عمل الديمقراطيات الغربية . كما يظل مونتسكيو ، عند واحدة من أهم مفكرات السياسة في القرن العشرين ، هي (هنا اريت) ، فريدا بين منظري الحداثة السياسية [***] في معرفة ان كلا من الحرية والبنية السياسية للحكم تتوقف على الأخرى . [٣٤٦]

ولاحظ الباحث ان مونتسكيو، كان له تأثير واضح في ماركس ، فهو يرى ان الدولة يجب عليها ان توفر لجميع المواطنين احتياجاتهم ، ونلاحظ قوله عن المستشفيات في روح القوانين في الكتاب الثالث والعشرين والفصل التاسع والعشرين ، اذ

---

[٣٤٤] ينظر : توشار ، جان ، تاريخ الأفكار السياسية . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٥٣٦ .

[*] فيلسوف ولاهوتي الماني (١٨٠٣ - ١٧٤٤) كان رائدا لكبار المفكرين والفلاسفة الذين توالوا في المانيا طوال القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، كان ملهما لهيجل في فلسفة التاريخ وفي الفهم التاريخي كان رائدا لدلتاي . للمزيد انظر ، بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص٣٥٨ .

[٣٤٥] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٤٦ .

[*] لم يهمل هيجل اثر البيئة والموقع الجغرافي على التاريخ ، ولكن دون مبالغة في هذه الاهمية ويؤكد على ان المسرح الحقيقي في المنطقة المعتدلة . للمزيد من التفاصيل انظر : العلوي ، نهاوند علي ، فلسفة التاريخ من منظور فكر غربي معاصر دراسة لـ كارل بوبر وفوكوياما وهنتنغتون ، العولمة وتأثيرها في العالم العربي . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص٩ .

[**] وهي النتيجة التي توصل اليها في فلسفته في التاريخ ، حيث ان السائد ولقرون طويلة ان التاريخ هو الذي يحكم العقل ، لكن هيجل جسد فكرته في ان العقل هو الذي يحكم التاريخ ، من خلال الوعي بالحرية ، الذي ينتج الارادة الانسانية الحرة التي تشكل التاريخ والحضارة . انظر : النقشبندي ، منى محمد عمر العزي ، القومية والدين عند هيجل وموقف الفكر العربي منها . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١ ، ص٥٢ .

[***] لا شك ان الحداثة السياسية انما مرتبطة بالفلسفة السياسية والتي اتخذت من الفلسفة العقلانية اسس لظهور تحولات فلسفية كبرى لها مسلماتها وقواعدها ومفاهيمها . للمزيد انظر : بوجنال ، محمد ، الفلسفة السياسية للحداثة ومابعد الحداثة . دار التنوير للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠١٠ ، ٤٥ .

[٣٤٦] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٤٦ . وللمزيد من التفاصيل انظر : شوفاليه جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافللي الى ايامنا . المصدر نفسه ، ص٢٠١ . وينظر ، سعفان ، حسن شحاته ، مجلة التراث ، المصدر نفسه ، ص٧٠١ .

يعتبر مونتسكيو ، ان على الدولة ذاتها ان تقوم بمعاش المرضى والشيوخ والأيتام ويجب عليها ان تكافح البؤس ، ونعتقد ان في اهتمامات مونتسكيو، الشعبية هذه بواكير اشتراكية الدولة .[٣٤٧]

المطلب الثاني : العقد الاجتماعي .

يبدو للباحث ان لا جدوى في الاستمرار بالحديث عن الحرية السياسية دون ان نوضح ما المقصود من (العقد الاجتماعي) عند مونتسكيو ، وبماذا اختلف في تفسيره عن مماثليه .

يوضح (فوغان) ، في كتابه حول النظرية السياسية ، ان جميع المنظرين السياسيين للقرنين السابع عشر والثامن عشر هم(باستثناء فيكو ومونتسكيو) منظرو العقد الاجتماعي . ماذا يعني هذا الاستثناء ؟ ان ما يوحد فلاسفة الحق الطبيعي هو طرحهم لنفس المسألة : ما هو اصل المجتمع ؟ وحلها بنفس الوسائل : (حالة الطبيعة والعقد الاجتماعي) . قد يبدو اليوم فريدا جدا طرح مثل هذه المسألة حول الأصل ، والتساؤل كيف استطاع الرجال الذين يفترض وجودهم الفيزيقي بالذات حدا أدنى من الوجود الاجتماعي دائما ان ينتقلوا من حالة (العدم) الاجتماعي الى علاقات اجتماعية منظمة ، وكيف اجتازوا هذه العتبة الاصلية والجذرية . مع ذلك فهي المسألة المهيمنة في التأمل السياسي في هذا الزمن ، وان يكن شكلها غريبا فان منطقها عميق جدا . لإظهار الأصلي للمجتمع (نفكر بـ (ليبنتز) الذي أراد اختراق اصل الأشياء الجذري) . يجب ان نأخذ البشر قبل المجتمع : في الحالة الوليدة . خارجين من الأرض كالقرع كما يقول هوبز . كأنهم عراة . يقول روسو . ليسوا محرومين من كل وسائل الفن فحسب بل بالاخص من كل الروابط الإنسانية . والإمساك بها في حالة هي (انعدام المجتمع) ،

حالة الولادة هذه هي (حالة الطبيعة) (*) ، ويرى هوبز (**) وسبينوزا فيها هيمنة حالة الحرب والقوي يأكل الضعيف (***) ، أما لوك (*) ، فيرى الناس فيها يحيون بسلام . أما روسو، ففي حالة من العزلة المطلقة .(**)

---

[٣٤٧] ينظر : توشار ، جان ، تاريخ الأفكار السياسية . ج٢ ، المصدر نفسه ، ٥٣٧ .

* ولقد كانت حالة الطبيعة حال طمع وأنانية وحرب ، وكان الإنسان منبع كل الشرور والآثام ، وكانت عيونه لا تفارق مراقبة الآخرين ، وكان قلبه مفعما بالخوف والشك والريبة . عبد المعطي ، علي ، الفكر السياسي الغربي . دار الجامعات المصرية ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص٢٢٨ . وللمزيد عن تعريف العقد الاجتماعي . انظر : العزاوي ، مهند علي نعمة ، الفلسفة السياسية عند جون لوك . رسالة ماجستير (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠٠٥ ، ص٦٥ . وكامل ، فؤاد ، واخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة . دار العلم ، (ب،ط) ، بيروت ، (ب،ت) ، ص٢٠٠ .

** ان العلاقات في حالة الطبيعة بين كل إنسان وإنسان أخر ، قائمة على أساس المنافسة او الريبة او حب المجد . وان هذا يؤدي حتما إلى حالة حرب الجميع ضد الجميع ، مادام كل إنسان عدو إنسان أخر ، لا يبغي الا مصلحته الخاصة ومنفعته الشخصية وحسب . ولقد امتازت حياة الإنسان أيضا في تلك الحالة الطبيعية بأنها كانت منعزلة ، وفقيرة ، ووحشية . انظر : العزاوي ، مهند علي نعمة ، الفلسفة السياسية عند جون لوك . المصدر نفسه ، ص٦٥.

*** ويرى هوبز ان الناس سئموا حال القتال الطبيعي وأدركوا ان الحرب أسوأ الشرور، فاجتمعوا واتفقوا على التنازل عن حقوقهم كافة ، وتعاقدوا على ان يجعلوا السلطان الاجتماعي كله بيد رجل واحد يملك كل الحقوق ، ولا يترتب عليه إلا واجب واحد وهو صيانة الامن ، بذلك غدت الحياة في المجتمع خيرا . انظر : عبد المعطي ، علي ، الفكر السياسي الغربي . . دار الجامعات المصرية ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص٢٣١ .

* ان الأفراد قبل قيام العقد كانوا يعيشون حالة طبيعية متمتعين بكل حقوقهم ، وذلك في ظل مبادئ القانون الطبيعي ، ولكن بالنظر لتعدد المصالح وتعارضها وغموض أحكام القانون الطبيعي وعدم وجود القاضي المنصف الذي يفصل في المنازعات التي تقوم بين الأفراد مما أدى الى ان يقرر الأفراد الانتقال الى حياة تقوم على أساس التعاون بينهم وذلك من خلال تعاقدهم واتفاقهم على اختيار شخص من بينهم يتولى مهمة ضمان حياة أفضل لهم من الأولى . ومن ثم فان للعقد طرفين هما الأفراد والحاكم وبناءا على هذا فان الأفراد لم يتنازلوا عن كل حقوقهم وإنما تنازلوا عن جزء منها حسب ، ومن ثم لا يجوز للحاكم ان يمس الجزء المتبقي الذي لم يتنازل عنه الأفراد ، فضلا عن ذلك ان الحاكم طرف في العقد ، وهذا يعني ان للإفراد عزله إذا ما اخل بشروط العقد واختيار شخص آخر يتولى مهمة الحكم او العودة الى حالتهم الطبيعية قبل قيام العقد ، وهذا يشيرنا الى ان لوك لم يكن من أصحاب الحكم المطلق . خالد ، حميد حنون ، مبادئ القانون الدستوري وتطور النظام السياسي في العراق . مكتبة السنهوري ، ط١ ، منقحة ومزيدة ، بغداد ، ٢٠١٢ ، ٣٠ .

ان مختلف ملامح حالة الطبيعة ترسم تارة الأسباب التي ستكون لدى البشر للخروج منها ، وتارة أخرى ترسم دوافع الحالة الاجتماعية القادمة ونموذج العلاقات الإنسانية . وبشكل متناقض فان هذه الحالة التي لا تعرف مجتمعا فتحتوي وتصور مسبقا نموذج المجتمع المطلوب إنشاؤه . ان نهاية التاريخ قد سجلت في الأصل . كذلك أيضا (حرية) الفرد لدى هوبز وسبينوزا ولوك، وكذلك مساواة واستقلال الإنسان لدى روسو . لكن جميع هؤلاء يشتركون بنفس المفهوم ونفس المسألة : ان حالة الطبيعة ليست سوى اصل مجتمع يريدون وصف نشوئه . [٣٤٨]

وهكذا فان حالة الطبيعة وفقا لمنظريها ، يتم التأسيس للقضائية بطبيعتها ، وكذلك التأسيس للحكومة لغرض ضمان حقوق الأفراد ، فيكون العقد من اجل تحقيق الاستقرار وفقا للقانون الطبيعي .[٣٤٩]

والعقد الاجتماعي ، الذي نحن بصدده محاولين تبيان الفرق بين منظريه ، من خلال عقد مقارنة مختصرة بين هؤلاء المنظرين او الفلاسفة فيه الذين يتفقون على ان أفراد المجتمع كانوا يعيشون في حالة الفطرة (حالة الطبيعة) ، وهي المرحلة التي تسبق نشأة الدولة ، ثم انتقلوا الى المجتمع السياسي عن طريق العقد الاجتماعي ، إلا انهم مختلفون فيما بينهم حول طبيعة الأفراد في (حالة الطبيعة) ، وكذلك أطراف العقد ، ومضمون العقد وأثاره . [٣٥٠]

وهنا نلاحظ أن مونتسكيو، كثيرا ما يؤكد على موضوع الحالة الطبيعية ، وخاصة فيما يتعلق بالقوانين وطبيعتها ، وكلامه عن ضرورة ملاءمة القوانين لطبيعتها ، يعني ملاءمتها لنشأتها الأولى . فيقول في هذا " القوانين في أوسع معناها ، هي العلاقات الضرورية المشتقة من طبيعة الأشياء " . [٣٥١]

ويصور هوبز، حالة الطبيعة بأنها كانت حياة من الصراع والامتثال بين الأفراد ، [*] وتسودها أسباب الوحدة والفقر والوحشية [**] أما جون لوك ، فيرى ان حالة الطبيعة ، كان يسود المجتمع فيها ، الحرية والمساواة بين

** يرسم لنا روسو في (العقد الاجتماعي) الطريق الى إقامة حكومة تستند إلى عقد اجتماعي مشروع ، بدلا من العقد الاجتماعي الحالي الذي اشترعته حفنة من الأثرياء المتآمرين ، وأقامت عليه نظاما استبداديا لحماية مصالحها وتأمين سلطانها .فيرى انه ينبغي اشتراع عقد جديد كل الجدة . ويجب ألا يكون هذا العقد للتعاقد بين الحكام والمحكومين ، بل بين الجميع والجميع . سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، المصدر نفسه ، ص٢٠٥. والإنسان لا يمكن ان يكون إنسانا إلا في الحرية ، ونزع الحرية عن الإنسان هو إلغاء مسؤوليته عن أفعاله ، ولنتجنب اللامساواة والظلم ينبغي ان يدخل الجميع في عقد يلتزمون بطاعته ويمارسون حرياتهم في ظلهم ، ولا تكون الطاعة بمقتضاه للحاكم ، لكنها للإرادة العامة .التي تعلو كل إرادات الأفراد ، وليست الإرادات العامة سلطة خارجية ، لكنها التجسيد الموضوعي للطبيعة الأخلاقية للإنسان ، لأنه اذ يطيع القانون يجسد انتماءه الأخلاقي للمجموع ويحقق لنفسه حريتها بإطاعة القانون الذي ارتضاه لنفسه ، ومن خلال القانون يتحرر كمخلوق عاقل من أسار الشهوات ويسير على درب العقل ومنهج الضمير ، ولكي يعطي روسو لهذا الولاء للعقد الاجتماعي معنى مقدسا قال بما اسماه الدين المدني ، ومبادئه بسيطة هي الإيمان بالله وبالآخرة وبالحساب وطرح التعصب وهو يؤكد على الإيمان بالله لكنه لا يؤمن بوجود وساطة بابوية او كنسية بين الإنسان والله . وكل من ينكر لهذه المبادئ خائن يهدد الدولة بالفوضى والانحلال . الجفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . المصدر نفسه ، ٢١٧ .

[٣٤٨] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص٢٥ ـ ٢٠

[٣٤٩] Robertson .g.neil ; Constitutional,Rights, foundation Bill of Rights in Action, Oxford University Press, London ,1969 .p88

[٣٥٠] ينظر : الكعبي ، محمد سماري ، مفهوم السيادة في فلسفة السياسة الغربية الحديثة . مؤتمر الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية ، بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس ، مج٢ ، (ب،ط) ، كلية الآداب ،الجامعة المستنصرية ، ص٣٧١.

[٣٥١] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١١ .

* وهكذا نجد إن في طبيعة الإنسان ثلاثة أسباب للصدام . الأول هو المنافسة ، والثاني عدم الثقة ، والثالث المجد . انظر : هوبز ، توماس ، اللفياثان . المصدر نفسه ، ص١٣٤ .

الأفراد ، في حين أعلن روسو، ان الإنسان في هذه المرحلة كان حرا ومستقلا ، إلا ان المصالح الفردية قد تعارضت . أما ما يتعلق بأطراف العقد ، فان هوبز يرى (***) ان الناس الطبيعيين يقيمون من أنفسهم مجتمعا مدنيا او سياسيا ، فيخضعون للعاهل او السيد ، بفعل واحد كونهم لا يتعاقدون مع هذا السيد ، بل يتعاقدون فيما بينهم ويتنازلون له عن كل حق وكل حرية من اجل ان لا يلحق بالسلام أي ضرر . أما عند لوك، فتحدث بين الأفراد من جهة والحاكم من جهة أخرى [٣٥٢] ، دلالة ذلك انه كتب ، رسالة بعنوان الملك الأب .[٣٥٣] لكن هذه الصلاحية للملك لا تمنحه حق انتهاك حقوق الآخرين ، وأهمها الأمن ، فبعد حصولهم على الأمن ، يشكلون عن طريق عقود إرادية جماعات سياسية ، ثم تنشئ الجماعات بعد ذلك الحكومات .[٣٥٤]

وهذه هي اراؤه في الحكومة ، فهو يعتقد مثل هوبز، تماما ، ان نشوء الحكومة ينبني على نظرية العقد الاجتماعي .[٣٥٥] أما إبرام العقد الاجتماعي لدى روسو، فيتم بين الأفراد فقط على اعتبار انهم يتمتعون بصفتين ، بصفتهم أفرادا طبيعين ، ثم كأعضاء في الجماعة السياسية . ومن هنا يتضح ان اعتقاد هوبز، بان الافراد يتنازلون عن جميع حقوقهم بمقتضى العقد للحاكم الذي اختاروه مقابل قيامه بحمايتهم والدفاع عنهم ، إلا ان لوك يرى ان هذا التنازل جزئي عن جانب من حقوقهم بالقدر اللازم لإقامة السلطة والمحافظة على حقوق الجميع ، لذلك فان السلطة في نظرية هوبز، مطلقة ، أما عند لوك فهي مقيدة ، وروسو يختلف عن هوبز، في جعل هذا التنازل لصالح الأفراد من جانب ، وانهم يحصلون على حقوق جديدة جزاء عما تنازلوا عنه من حقوق طبيعية بمقتضى العقد الاجتماعي من جانب آخر .[٣٥٦]

ويتفق الباحث مع جان جاك شوفاليه ، في ان روسو ، في كتابه العقد الاجتماعي ، كان أدنى مستوى من مونتسكيو، في كتابه روح الشرائع ، من حيث سعة الأفق الفكرية ، ومن حيث حرية الفكر ، والحكمة السياسية . وهو متفوق عليه من حيث ترابط التفكير ، ووحدة البناء . وهو نظيره في متانة الأسلوب . لكن هذا لا يمنع احترامنا للعقد الاجتماعي عند روسو ، الذي يتفق فيه مع فكر مونتسكيو، من الناحية السوسولوجية . [٣٥٧]

** في بداية كل شيء كانت الحركة . والإنسان هو ميكانيكية . فمن الحركة يولد الإحساس . والشهوة والرغبة ، والنفور أو الحقد ، وزوال اللذة هو الإحساس بالشر . والشر الأعظم هو الموت . هي ذي طبيعة الإنسان ، وقد كشف عنها الغطاء بالاستبطان ، فيقول هوبز ، اقرأ في نفسك . انظر : شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافيللي إلى أيامنا . المصدر نفسه ، ص١٠٠ .

*** يرى هوبز بضرورة عدم تدخل الكنيسة بالحكومة . لان هذا يمكن ان يؤدي الى نشوب حرب اهلية . الا انه كذلك يرى بان تكون الكنيسة قسما من الحكومة المطلقة ، وبذلك يمكن السيطرة على الشؤون الدينية . انظر : albert,ronald; Hobbes , Locke . Montesquieu . and Rousseeau, Oxford UniversityPress , London ,2004 . p80.

.

[٣٥٢] ينظر : الكعبي ، محمد سماري ، مفهوم السيادة في فلسفة السياسة الغربية الحديثة .المصدر نفسه ، ص٣٧١.

[٣٥٣] ينظر : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ج٢ . تر ، فؤاد زكريا ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، (ب،ط) ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص١١٤ .

[٣٥٤] ينظر : رايت ، وليم كلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه ، ص١٧٧ .

[٣٥٥] ينظر : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، المصدر نفسه ، ص١١٥ . وللمزيد انظر أيضا : عبيدان ، يوسف محمد ، مبادئ العلوم السياسية . مطبعة جامعة قطر ، ط٢ ، قطر ، ١٩٩٦ ، ص٦٩ .

[٣٥٦] ينظر : الكعبي ، محمد سماري ، مفهوم السيادة في فلسفة السياسة الغربية الحديثة .المصدر نفسه ، ص٣٧١.

[٣٥٧] ينظر : شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافللي إلى أيامنا . المصدر نفسه ، ص٢٥١ .

وبناءً على ذلك فان العقد الاجتماعي هوالذي يؤمن العبور من انعدام المجتمع الى المجتمع الحالي . هنا أيضا يمكن ان يبدو تمثل كيان مجتمع ما بتأثير اتفاق عام غريبا ، كما لو ان أي اتفاق لا يفترض أصلا مجتمعا قائما ، لكن لا بد من قبول هذه الإشكالية بما إنها قد اعتبرت ضرورية ، والتساؤل فقط (عما يعنيه هذا العقد) الذي لا يمكن عده مجرد وضع قانوني مصطنع ، بل التعبير عن أسباب عميقة جدا . فالقول بان المجتمع البشري ناتج عن عقد يعني التصريح بالفعل بان كل مؤسسة اجتماعية لها اصل (إنساني ومصطنع) بحت . انه يعني القول بان المجتمع ليس ناتجا بتأثير مؤسسة (إلهية) ولا بتأثير نظام (طبيعي) انه يعني قبل كل شيء رفض فكرة قديمة عن نشوء النظام الاجتماعي واقتراح فكرة جديدة عنه . [٣٥٨]

وقد صاغ روسو، المشكلة الأولى التي يهتم بها في كتابه العقد الاجتماعي ، بهذه الكلمات " ولد الإنسان حرا ، إلا انه مكبل في كل مكان بالأغلال . على ذلك النحو يتصور نفسه سيد الآخرين الذي لا يعدو ان يكون أكثر عبودية منهم . فكيف جرى هذا التغيير ؟ لا اعرف . وما الذي يمكن ان يجعله شرعيا " ، وهنا سلم روسو، بحالة الطبيعة الأصلية التي يكون الناس فيها أحرارا . [٣٥٩]

إننا نلمح أي خصوم يختبئون خلف نظرية العقد . ليس فقط منظرو الأصل الإلهي لكل مجتمع ، الذين يستطيعون خدمة كثير من القضايا رغم خدمتهم في ذلك الوقت قضية الوضع القائم ، لكن بالأخص أنصار الطابع (الطبيعي) ، لا (الاصطناعي) للمجتمع : أولئك الذين يفكرون بان الروابط الإنسانية مرسومة مسبقا في (طبيعة) ما ليست سوى إسقاط للنظام الاجتماعي القائم ، في طبيعة ، حيث الناس مسجلون مسبقا (في أنظمة ودول) ، كي نقول بكلمة واحدة ما هو موضع شك فان نظرية العقد الاجتماعي ، تقلب عموما (القناعات) الخاصة بالنظام الإقطاعي والإيمان بانعدام المساواة (الطبيعة) للبشر وبضرورة الأنظمة والدول . ان تستبدل العقد بين اناس متساويين ، هذا العمل الناتج عن الفن الإنساني ، ما كان منظرو الإقطاع يعزونه لـ (الطبيعة) ولـ (نزعة الألفة الطبيعية) لدى الإنسان . ان المعيار الناضج في هذه اللحظة للتفريق بين الميول هو اعتبار ان (نسق الألفة الطبيعية او غريزة الاجتماع) تحدد نظرية ذات الهام إقطاعي وفلسفة العقد الاجتماعي ، نظرية ذات وحي بورجوازي . [٣٦٠]

ووجهت انتقادات عديدة لهذه النظرية منها أنها قائمة على الخيال وبعيدة عن الواقع اذ من الصعوبة بمكان تحقق اتفاق جميع الأفراد على إبرام العقد ، والمعروف ان رضا الأفراد ركن أساسي في العقد اذ لا يبرم بدونه . والحقيقة ان النقد الذي وجه لنظرية العقد الاجتماعي يفقد قيمته بعد الرجوع الى رأي روسو، وهو من أهم المنظرين لها ، حيث ذكر بان هذه النظرية هي مجرد افتراض يمكن بواسطته تحقيق أهداف نبيلة ، ولكن مع ما تقدم لابد من القول ان لهذه النظرية ، ولا سيما رؤية كل من لوك وروسو، مساهمة كبيرة في نشر الوعي ضد النظم الاستبدادية ، وتسليط الضوء على الدور المهم الذي يجب ان تقوم به الشعوب في إقامة السلطة ومراقبة أعمالها . وكذلك لا يمكن

---

[٣٥٨] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٥ - ٢٠

[٣٥٩] ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦ . المصدر نفسه ، ص١٢٣ . وللمزيد عن العقد الاجتماعي عند روسو انظر : لوبيز ، فردريك ، الدروس الاولى في الفلسفة . تر ، علي بو ملحم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص٣٧ .

[٣٦٠] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٥ - ٢٠

إغفال تأثير طروحات (روسو) على رجال الثورة الفرنسية ، وفيها وضعوا بعد ذلك قواعد دستورية ولعل من أهمها نظريته عن مبدأ سيادة الأمة .[٣٦١]

وحينما تكون النظرية ، في خدمة الحكم المطلق [*] مثلا لدى هوبز . بالفعل فان فكرة كون البشر هم صانعي مجتمعهم في حلف اصلي يمكن ان يزدوج أحيانا الى حلف مشترك (مدني) وحلف سيطرة (سياسي) هي حينئذ فكرة ثورية مرددة ضمن النظرية البحتة ، للنزعات الاجتماعية والسياسية لعالم في طور الولادة . ان هذه الفكرة هي في ان مع احتجاج ضد النظام القديم ، وبرنامج من اجل نظام جديد . إنها تحظر على النظام الاجتماعي القائم وجميع المسائل السياسية المطروحة في ذلك الحين اللجوء الى (الطبيعة) ، (على الأقل لهذه الطبيعة) ، غير العادلة ، وتفضح فيها الدجل وتقيم المؤسسات التي يدافع عنها مؤلفوها بما فيها الحاكم المطلق في صراع ضد الإقطاعيين على أساس (الاتفاق الإنساني) ، إنها تعطي البشر بهذه الطريقة القدرة على رفض المؤسسات القديمة وإقامة الجديدة وعند الحاجة ، إبطالها او إصلاحها باتفاق جديد . في هذه النظرية حول حالة الطبيعة والعقد الاجتماعي [*] ، التي تبدو مجرد تأمل ، نشهد نظاما اجتماعيا وسياسيا ، يسقط اناسا يشيدون النظام الجديد الذي يريدون الدفاع عنه او بناءه على اسس ومبادئ مبتكرة .[٣٦٢]

لكن هذه ليست مبتكرة الى الحد الذي يتعلق بالعقد الاجتماعي ، لان فكرة العقد الاجتماعي برمتها ، ليست من تصورات عصر النهضة كما نتصورها ، بل اننا نجد جذورها ترجع الى زمن اليونان ، اذ نجد جذور هذه النظرية عن السفسطائيين الذين يرون ان الانسان يصنع القيم بإرادته ، وكان ابيقور أول من سار في هذا الاتجاه فقد ذهب الى ان الدولة ليست من عند الله لخدمة عقائد الانسان ، إنما هي مجرد تنظيم وضعي صنعه الانسان بنفسه ويهدف من ورائه ترتيب حياته على أساس يوفق بين مطالبه ومطالب غيره ، وبين حقوقه وحقوق غيره وواجباتهم ايضا . وقد اكد ارسطو على التوافق من قبل الجمهور في تكوين الدولة العادلة .[٣٦٣]

---

[٣٦١] خالد ، حميد حنون ، مبادئ القانون الدستوري وتطور النظام السياسي في العراق ، المصدر نفسه ، ص٣٢.

[*] وفي الحكم المطلق لأصحاب العقد الاجتماعي ، فان لوك يعتبر إقامة الحكومة حادثا اقل أهمية بكثير من العهد الفطري الأول الذي يصطنع المجتمع المدني ، ولوك ، وان اعتقد في تفوق السلطة التشريعية على السلطتين الاخرتين ، إلا انه يرى ان الشعب يملك السلطة العليا من خلال السلطة التشريعية ، وهكذا يحتفظ لوك بحقوق الثورة ، ويذهب الى ان الحكومة موجودة من اجل خدمة الشعب ، فإذا تعرضت مصالح الشعب للتهديد فان من حق الشعب تغيرها . أما هوبز فيرى ان الأفراد قد تنازلوا للحاكم عن كل حقوقهم ، أما روسو ، فكان يرى ان السيادة للشعب . انظر : عبد المعطي ، علي ، الفكر السياسي الغربي . المصدر نفسه ، ص٢٦٩ . وللمزيد انظر أيضا : بدوي ، ثروت ، أصول الفكر السياسي والنظريات والمذاهب الكبرى . دار النهضة العربية ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص١٥٥ .

[*] يرى روسو ، ان الناس في الحالة الطبيعية ليسوا لا صالحين ولا طالحين . إذ لا تجمع بينهم ادي علاقة أخلاقية او واجبات مشتركة . لكنه يضيف انه لا يوافق هوبز على إن الإنسان البدائي هو بطبيعة الحال شرير ، لانه لا يملك أي فكرة عن الخير وانه فاسد وفاجر لانه لا يعرف الفضيلة . انظر : فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٢١٣ .

[٣٦٢] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٥ - ٢٠

[٣٦٣] ينظر : الطعان ، عبد الرضا ، تاريخ الفكر السياسي ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٩٢ ، ص١١٩ .

بيد أن الطابع الجدلي لنظرية الحق الطبيعي هو ما يفسر بالضبط نزعتها التجريدية والمثالية . ويبدو ان هؤلاء المنظرين قد توقفوا عن نموذج الفيزيقا الديكارتية التي لا تعرف سوى (الماهيات المثالية) . وفي الحقيقة ليست الفيزيقا وحدها هي المطروحة للنقاش . وان أولئك الذين يريدون الحكم على مونتسكيو ، بان ينسبوه الى ديكارت ، كما جرى ذلك فعلا ، على نيوتن ، يجعلون منه محض مظهر مباشر ، لكن مجرد . ان هذا النموذج الفيزيقي ليس هنا سوى نموذج علمي : ان أسبابه الحقيقة تكمن في خروجا عنه جزئيا . وان كان المنظرون لم يتناولوا موضوع مونتسكيو ، الا وهو فهم التعدد المتناهي للمؤسسات الإنسانية في جميع الأزمنة وفي كل الأماكن ، فليس ذلك يسبب ظلال منهج مستوحى من النموذج الديكارتي في العلم فحسب ، بل كذلك بسبب دوافع ذات مدى مختلف آخر . لم يكونوا ينون تفسير مؤسسات جميع شعوب العالم بل محاربة نظام مازال قائما او تبرير نظام وليد او على وشك الولادة . لم يكونوا يريدون (فهم كل الوقائع) ، بل تأسيس ، أي اقتراح وتبرير نظام جديد . لهذا السبب من الخطأ ان نبحث لدى هوبز وسبينوزا، عن تاريخ حقيقي لسقوط روما او لظهور القوانين الإقطاعية . لم يكونوا يتعاملون مع (الوقائع) ، سيقول روسو، بشكل أوضح انه يجب البدء بـ (إزاحة كل الوقائع) . [٣٦٤]

كذلك فان المقصود هو الإقلاع عن حالة الطبيعة لأنها لم تعد تستطيع تلبية تعارض المصالح بين أفراد المجتمع الواحد ، وهنا يقول روسو : " أنني افترض بان الناس وقد وصلوا الى ذلك الحد الذي تغلبت فيه العقبات التي تضر ببقائهم في حالة الطبيعة ، بمقاومتها ، على القوى التي يستطيع كل فرد استعمالها من اجل استمراره في تلك الحالة . عندئذ لم يعد في امكان تلك الحالة البدائية ، ان تدوم وكان الجنس البشري سيهلك لو لم يغير طريقة وجوده ".[٣٦٥]

ومع ضرورة الإقلاع عن الوقائع ، بل إزاحتها عند السابقين لـ (مونتسكيو) ، فانه لم يكن يهدف الى وصف الظواهر الاجتماعية والسياسية والقانونية ، وتسجيل عدد كبير من الوقائع الخاصة فحسب ، بل أراد ان يفهم تلك الوقائع والوقوف على أحوالها .[٣٦٦]

ولم يكن أولئك السابقون لـ (مونتسكيو) يتعاملون إلا مع (الحقوق) أي مع ما (يجب ان يكون) . لم تكن الوقائع بالنسبة إليهم إلا مادة لممارسة هذا الحق ، وكأنها مجرد مناسبة له وصورة لوجوده . لكن بسبب هذا الموقف كانوا يقفون عند ما يجب ان ندعوه موقفا جدليا وايدولوجيا (*) كانوا يجعلون من موقفهم سببا للتاريخ بالذات، ومبادئهم التي كانوا يطلقون عليها صفة العلم ، لم تكن سوى قيم ملتزمة بمعارك زمانهم – والتي كانوا اختاروها . [٣٦٧]

---

[٣٦٤] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٥ - ٢٠

[٣٦٥] روسو ، جان جاك ، في العقد الاجتماعي . تر ، ذوقان قرقوط ، مكتبة النهضة ، ط١ ، بغداد ، ١٩٨٣، ص٤٨.

[٣٦٦] ينظر : كوبلستون ،فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج٦، المصدر نفسه ، ص٣١ .

* وتعددت آراؤهم حول العقد الاجتماعي ، كل منهم يفسره على الوجه الذي يلائم نظريته في السياسة ، فمنهم من عده حقيقة تاريخية ثابتة تشرح نشأة المجتمع ، بينما اعتبره آخرون عقدا حكوميا نشأ بين الحاكمين والمحكومين . للمزيد انظر : عبد المعطي ، علي ، الفكر السياسي الغربي . المصدر نفسه ، ص٢٢٩.

[٣٦٧] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٥ - ٢٠

ويتفق الباحث مع لوي التوسير ، في انه لم يكن كل شيء عبثيا في هذا المشروع العملاق فيمكننا تبيان نتائجه العظيمة . لكننا ندرك كم يبعد حديث مونتسكيو عن هذه التوجهات ، ومن هذه المسافة نميز حججه بشكل أفضل . إنها مزدوجة سياسية ومنهجية ، متداخلتين بشكل حميم . فلنتأمل إذا في هذا الغياب لكل عقد اجتماعي لدى مونتسكيو .

انه تماما (حالة الطبيعة) ، حيث اتفق أصحاب المذهب التعاقدي ، على ان نشأة الدولة انما تمت بموجب اتفاق حصل بين رجال ليس لهم تنظيم حكومي أصلا ، وان تاريخ العالم حسب رأيهم منقسم الى مرحلتين : الأولى سبقت الدولة والثانية أعقبت قيامها ، ففي المرحلة الأولى أطلقوا عليها اصطلاح (حالة الطبيعة ، اذ لم تكن هناك حكومة ولم يكن هناك قانون يمكن تنفيذه بواسطة سلطة تنفيذية ، فعاش الناس في ظل حالة الطبيعة ، تحت تنظيم فرضته طبيعة الأشياء ، وبعد مضي بعض الوقت قرر الناس تكوين حكومة وقرروا ان يتنازلوا لبعضهم عن بعض حرياتهم الطبيعية لإطاعة القوانين التي تصدرها الحكومة . [٣٦٨]

وحالة الطبيعة ، " كانت حالة خالية من التنظيم والسلطة العامة ، فكل فرد يفسر على وفق هواه الخاص " . [٣٦٩]

كذلك فان حياة الطبيعة الأولى ، قد أصابها الفوضى والشقاء ، وأدت بالإنسان الى ان تكون له ارادة التنظيم ، عن طريق التعاون ، وكذلك فان الحرية التامة في تلك المرحلة أدت الى تنامي مصالح متعارضة ، اضطرت الانسان الى تركها وإقامة نظام اجتماعي جديد ، يحكمه القانون . [٣٧٠]

وحالة الطبيعة التي يعطينا الكتاب الأول من (روح الشرائع) لمحة سريعة جدا عنها ، أما العقد الاجتماعي ، فالبتة .فينقل لنا التوسير عن مونتسكيو، قوله في الرسالة الرابعة والأربعين الفارسية " لم اسمع أبدا أحدا يتحدث عن الحق العام الا وبدأ البحث بعناية عن اصل المجتمعات " مما يبدو . ان لم يكن البشر يشكلون اي مجتمع . ان كانوا يبتعدون ويهربون من بعضهم بعضا ، فيجب ان نتساءل عن السبب وان نبحث لماذا يبقون منفصلين . لكنهم يولدون جميعا مرتبطين بعضهم ببعض ، فالابن قد ولد بقرب أبيه ويبقى بقربه . هذا هو المجتمع وهذه هي مسببات المجتمع . كل شيء موجود هنا . إدانة مسألة الأصل ، عبثية . فالمجتمع يسبق نفسه دائما . والمسألة الوحيدة ، ان كان لا بد من وجود مسألة ، والتي لا نصادفها أبدا هي عدم امتلاك بعض الرجال لمجتمع ما . لأي عقد . للتعبير عن المجتمع يكفي وجود رجل وابنه . وليس من المدهش أبدا عندها اكتشاف بنظرة سريعة لحالة الطبيعة في الكتاب الأول ، ان ثمة قانونا رابعا يحل محل هذا العقد الغائب : (غريزة الألفة والاجتماع) [*] ، هذه إشارة أولى تضعنا على طريق الحكم على مونتسكيو، خصم نظرية الحق الطبيعي

---

[٣٦٨] ينظر : التميمي ، حميد فاضل حسن ، الدولة اليهودية في الفكر الإسرائيلي .. أطروحة دكتوراه ، مخطوطة ، جامعة بغداد ، كلية العلوم السياسية ، ٢٠٠٤ ، ص٤٤ .

[٣٦٩] العزاوي ، رحاب عبد الرحمن ، الدولة بين هيجل وماركس ، دراسة تحليلية مقارنة . مخطوطة ، جامعة بغداد ن كلية الآداب ، ٢٠٠٦ ، ص٣٧ .

[٣٧٠] عبد الجبار ، عبد مصطفى ، الفكر السياسي الوسيط والحديث . دار الكتب للطباعة والنشر ، ط١ ، جامعة الموصل ، ١٩٨٢ ، ص٦٣ .

[*] مونتسكيو أهمل العقد ، وأوحى بنسبة اجتماعية متعارضة تماما مع قوانين أخلاقية بديهية وقدم خطة لدراسة الحكم بالنسبة لكلتا البيئتين ، الطبيعية والاجتماعية تتطلب مقارنة الأنظمة على نطاق واسع . انظر : سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي ، المصدر نفسه ، ص٧٤٧.

لأسباب عائدة لموقف مسبق من النظام الإقطاعي . ان النظرية السياسية لـ (روح الشرائع) كلها تقرب هذا الاقتناع . لكن هذا الرفض الواعي لمسألة ومفاهيم نظرية الحق الطبيعي تقود الى إشارة ثانية ، لا في السياسة بل في المنهج . إننا نكتشف هنا دون أدنى شك تجديد مونتسكيو، الجذري (**) ، انه برفضه نظرية الحق الطبيعي والعقد يرفض في الوقت نفسه النتائج الفلسفية لاشكاليته ، وقبل كل شيء مثالية خطوته . انه على النقيض ، على الأقل في وعيه الهادف ، في الحكم على الواقع بالحق واقتراح (غاية) للمجتمعات الإنسانية تحت غطاء تكوين نموذجي . انه لا يعرف سوى الوقائع . ان كان يمتنع عن الحكم (على ما هو كائن بما يجب ان يكون) لذلك فانه لا يستنتج مبادئه أبدا من (أرائه المسبقة) بل من(طبيعة الأشياء) ، أما الآراء المسبقة فهي فكرة إمكانية محاكمة الدين والأخلاق للتاريخ . كان هذا الرأي المسبق يمثل اتفاقا مبدئيا مع بعض فلاسفة الحق الطبيعي . لكن هنا رأيا مسبقا أخر هو فكرة ان تجريد نموذج سياسي ، وان اكتسب مبادئ العلم ، يمكن ان يحل محل التاريخ . بذلك كان مونتسكيو، ينقطع قطيعة كاملة مع منظري الحق الطبيعي (*) ، ولم يخطئ روسو نفسه : مازال الحق السياسي بانتظار الولادة ، ان المحدث الوحيد المؤهل لحق هذا العلم العظيم والعديم الفائدة كان مونتسكيو، الذائع الصيت . لكنه لم يأبه لمعالجة مبادئ الحق السياسي (**) ، وقد اكتفى بمعالجة الحق الوضعي للحكومات القائمة ، لا شيء في العلم أكثر تبيانا من هاتين الدراستين . مع ذلك فان الذي يريد تقييم الحكومات تقيما سليما بمثل ما هي عليه ، مجبر على الجمع بينهما : لا بد من معرفة ما يجب ان يكون للحكم جيدا على ما هو كائن . ان مونتسكيو، هذا الذي يرفض بالضبط تقييم ما هو موجود بما يجب ان يكون ، والذي يريد فقط ان يقدم للضرورة الواقعية للتاريخ شكل قانونها مستنتجا هذا القانون مع تعدد الوقائع وتنوعها ، هذا الرجل هو وحيد تماما أمام مهمته .[٣٧١]

** كان مونتسكيو جامعا عظيما للحقائق والوقائع . لا يشهد بذلك فقط الحجم المقارب لألف صفحة ، الذي يواجهه قارئ كتابه (روح الشرائع) لقد سجل أيضا بالتفصيل ، كيف تساعد العوامل التاريخية والجغرافية المختلفة على وضع دساتير متغايرة وبناء مؤسسات سياسية مختلفة . لكن لم يكتف مونتسكيو بسرد وعد الاختلافات والعوامل الحاكمة للثقافة السياسية . لقد أضاف الى خريطته مرشدا ، ينبغي ان يقود الى دستور ينجح أمام مطالب العقل . وعلى هذا نشأ في تاريخ الفلسفة مزيج فريد من العرض التاريخي والنظرية السياسية ، فهو كتاب علم التاريخ مثلما أشار أيضا الى المستقبل . تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . ج٢ ، المصدر نفسه ، ص١٢٣.

* ومع ذلك فان هذا التفسير قد يكون مضللا عل أساس انه اعترف بقوانين عدالة ثابتة . ان الله الخالق للعالم وحافظه ، قد وضع قوانين وقواعد من شأنها ان تحكم العالم الطبيعي . والإنسان كموجود طبيعي محكوم ، مثل الأجسام الأخرى ، بقوانين غير قابلة للتغير ، ومع ذلك فباعتباره موجودا عاقلا أو مفكرا فهو يخضع لقوانين يمكنه ان يخالفها ، بعض هذه القوانين هو الذي وضعها ، ولكن بعضها الأخر لا يعتمد عليه ، علينا إذن ان نعترف بعلاقات عدالة سابقة على القانون الوضعي الذي بموجبه تترسخ . ومع التسليم بفكرة حالة طبيعية يلاحظ مونتسكيو انه يوجد قبل كل القوانين الوضعية تلك الخاصة بالطبيعة ، والمسماة هكذا ، لأنها تستمد قوتها بالكامل من جسمنا ووجودنا ، ومن اجل معرفة هذه القوانين يلزم النظر في الإنسان كما كان قبل تأسيس المجتمع ، فالقوانين المعترف بها في مثل هذه الحالة تكون قوانين الطبيعة . وتلاؤم هذه الفكرة بصورة جيدة مع المظاهر الأخرى لنظرية (مونتسكيو) أمر قابل للمناقشة ، ولكن ليس ثمة شك انه أكد وجود قانون أخلاقي سابق على كل القوانين الوضعية التي يقررها المجتمع السياسي . ويمكننا القول إذا شئنا ، ان بحثه في القانون يتطلع الى معالجة تجريبية واستقرائية بكل معنى الكلمة للمؤسسات السياسية والقانونية . للمزيد ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . ج٦ ، المصدر نفسه ، ص٣٥ .

** تشير استنتاجات مونتسكيو الى حالة الطبيعة الى ما بعد حد ذاته ويعطيها شرعيتها ، ولا تعطى الى شكل بعينه بل الى عدة أشكال او مجموعة . انظر : Robertson .g.neil ; Constitutional,Rights, foundation Bill of Rights in Action, Oxford University Press, London ,1969 ,p102.

[٣٧١] ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ،ص٢٥ - ٢٠ .

المبحث الأول : منهج البحث التاريخي والياته .

المطلب الأول : إجراءات منهج البحث التاريخي .

يرى الباحث ان هناك خلطا في تصور مفهوم (منهج البحث التاريخي) ، وهذا الخلط يعبر عن عدم التمييز بين المنهج التاريخي ، بوصفه خطوات إجرائية ، او تأليفية ، وبين تصور المنهج التاريخي ، بوصفه خطوات للتحليل والتأمل والنقد ، والبحث عن العوامل التي دفعت المؤرخ لان يقدم تفسيرا يتبناه ويدافع عنه ، ذلك لأنه مدفوع بعوامل معينة أدت به الى تقديم التاريخ على وفق مرجعياته الفكرية او الدينية او المذهبية ، إذن منهج البحث التاريخي ، المتضمن لمجموعة الإجراءات الواجب توافرها من اجل كتابة موضوع بعينه ، يختلف عن منهج البحث التاريخي ، المتضمن البحث عن القوانين التاريخية والعلاقات السببية التي أدت إلى وقائع تاريخية بعينها .

وقد تناول عبد الرحمن بدوي ، هذا الموضوع في كتابه (مناهج البحث العلمي) ، حيث يقول في هذا الإطار" فثمة إذن نوعان من المنهج : احدهما للكشف عن الحقيقة ، ويسمى التحليل ، ويمكن ان يدعى أيضا منهج الاختراع ، والأخر هو الخاص بتعليمها للآخرين ، ويسمى منهج التأليف " .[٣٧٢]

كذلك فان لكل علم من العلوم الطبيعية او الإنسانية ، منهجا خاصا به ، لكن على رغم اختلافها ، فإنها ترد الى منهجين هما الاستدلال والتجريب ، يضاف إليهما موضوع بحثنا ، وهو منهج الاسترداد ، وهو المنهج الذي يبحث بالعلوم الأخلاقية او التاريخية .

ولذلك فاننا جعلنا من هذا العنوان (إجراءات منهج البحث التاريخي) ، مدخلا لهذا الفصل ، لكي نطلع من خلاله على الخطوات الواجب توافرها في كتابة البحث التاريخي (والتي سميناها بالإجراءات) ، مع مراعاتنا ارتباطها بمونتسكيو ، وهل طبقها واستفاد منها أثناء تناوله لتاريخ الشعوب ، من خلال مؤلفاته ، ام ان هذه الإجراءات جاءت بعد مونتسكيو ، حصرا ، فنحن نسعى لمحاولة إيجاد ما انطبق منها او اختلف مع فلسفة مونتسكيو، في التاريخ .

" والمنهج التاريخي ، هو الطريقة العلمية التي تتبع في جمع المادة التاريخية وترتيبها والاستفادة منها " .[٣٧٣] ويتحقق ذلك من خلال دلائل الأشياء ، والمنهج لا يتوقف على حال ، بل يتطور باستمرار بحسب تعدد وتجدد المسالك المؤدية الى استنطاق الأشياء .[٣٧٤]

---

٣٧٢ بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . وكالة المطبوعات ، ط٣ ، الكويت ، ١٩٧٧ ، ص٤ .

٣٧٣ مؤنس ، حسين ، التاريخ والمؤرخون . دار المعارف ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٤٩ . وانظر ايضا : صابر ، فاطمة عوض ، خفاجة ، ميرفت علي ، اسس ومباديء البحث العلمي . مكتب ومطبعة الاشعاع الفنية ، ط١ ، الاسكندرية ، ٢٠٠٢ ، ص٤٤ .

وليس هناك أي شك ، ان مونتسكيو، كان من أصحاب الطريقة العلمية في البحث التاريخي ، وخطوات المنهج التي استعملها ، تتوافق تماما مع تعريف المنهج على انه الطريقة العلمية ، في جمع المادة التاريخية ، كذلك إننا نجد إنه من دعاة تغيير المنهج التاريخي بحسب المستجدات والتطورات التي تطرأ على مجتمع ما ، وجاء ذلك من خلال قوله ، بان القوانين يجب ان تتناسب مع طبيعة المجتمع ، ويجب ان تتغير بحسب حاجة المجتمع الى ذلك التغيير ، وبذلك فإننا نجد انه اتفق مع هذا التعريف .

ولم يكن مونتسكيو ، من الذين يعدون التاريخ مجرد تدوين لأحداث الماضي ، بل انه يؤمن بان التاريخ يجب ان يفهم ويكتب على اسس علمية سليمة ، فنحصل على تاريخ صادق بالقدر الممكن ، عن طريق سجلات الماضي ، وإجراء التحليل لتفاصيلها ، وإعادة تدوينها بطريقة علمية ، ووجدنا هذا عنده ، خاصة ، عندما قام بدراسة تاريخ الرومان ، وكتب مؤلفه المعروف (تأملات في تاريخ الرومان وأسباب انحطاطهم) ، فقد قام بدراسة أحوال الماضي على اسس علمية ، وقدم له النقد والتحليل .[٣٧٥]

ولا يفوت الباحث ان يذكر ان الدراسة ، موضوع البحث ، في احد جوانبها ، هي محاولة لتقليص المسافة بين المؤرخ والفيلسوف . المؤرخ ، وهو صاحب المنهج التاريخي ، والفيلسوف ، وهو صاحب الرؤية الفلسفية ، وان عملية إيجاد مفاتيح لمغاليق هذه الإشكالية إنما هي تسهم في بناء المنهج التاريخي ، والرؤية الفلسفية للتاريخ ، المتوحدة في منهج يقدم لنا صورة رائعة عن كيفية كتابة وقراءة التاريخ ، كما ينبغي ان يكتب او يقرأ ، لذلك لم يكن الفيلسوف بعيدا ، عن إجراءات منهج البحث التاريخي المنبني على اسس علمية ، بل كان من مؤسسيه ، لأنه اسهم في تقديم العون والمساعدة للمؤرخ ، من خلال رؤيته العلمية ، ومجموعة الإجراءات التي يستعملها المؤرخ ، ويؤيدها الفيلسوف هي .

أولا : العلوم المساعدة والمعرفة بها .

هذا العنوان يتيح لنا القول ، بان ثقافة المؤرخ يجب ان تتجاوز ثقافة الآخرين ، ويجب ان يكون ذا دراية واسعة بالعلوم الأخرى ، لكي تكون عاملا مساعدا له في كتابة التاريخ ، وفي هذه النقطة الأولى نجد مونتسكيو، قد بلغ فيها شوطا كبيرا ، فقد كان عارفا بمجموعة من العلوم الطبيعية والإنسانية التي مكنته من كتابة التاريخ على وجهة العلم ، فلو لم يكن ذا دراية بعلوم الجغرافيا لما استطاع ان يطلق نظريته البيئية ، ولو لم يكن عارفا بعلوم السياسة ، لم يستطع ان يطلق نظريته السياسية ، كذلك هو الحال في جوانب العلوم الأخرى . ومن العلوم

---

[٣٧٤] ينظر : العروي ، عبد الله ، مفهوم التاريخ . المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط٤ ، المغرب ، ٢٠٠٥ ، ص٢٢٠ . وانظر ايضا : فياض ، عبد الله ، التاريخ فكرة ومنهجا ، دراسة في التاريخ واصول بحثه . مطبعة اسد ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص١٥ . و : بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . المصدر نفسه ، ص١٨٣ . و : نصر الله ، سعدون ، المدخل الى علم التاريخ . دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ٥٩ .

[٣٧٥] ينظر : الدليمي ، حامد حمزة ، فلسفة التاريخ والحضارة . المصدر نفسه ، ص٨٩ .

المساعدة ، اللغات ، الفيولوجيا ، الخطوط ، الوثائق ، الأختام ، النميات ، الجغرافيا (*) ، الاقتصاد ، الأدب ، فنون التصوير والنحت والرسم والعمارة ، الفنون الموسيقية ، التاريخ ، الارتحال والسفر ، وطائفة من العلوم الأخرى . ان هذه العلوم ، قد استعمل مونتسكيو ، بعضها ، ولم يتعلق الآخر بجوانب عمله ، لكنه أكد على دورها بوصفها علوما مساعدة في المعرفة التاريخية ، ونجد هذا عندما تكلم عن الروح العامة وأثرها في فهم القوانين وعملية اشتراعها . والمقبل على دراسة التاريخ وكتابته ينبغي ان يعلم من أول الأمر انه مقبل على عمل شاق يتطلب الجهد والتضحية والصبر الطويل (*) ، وانه تلزمه دراسة عميقة وتحصيل جدي متنوع ، وشأن التاريخ في ذلك هو شأن سائر أنواع العلوم والمعارف . وأنواع المعرفة الإنسانية متداخلة متشابكة فيما بينها ، ولا يمكن ان يدرس علم معين مستقلا بذاته تمام الاستقلال عن سائر العلوم او المعارف . والتاريخ واحد من هذه العلوم التي لا يمكن فصلها عن العلوم الأخرى ، فهو يرتبط معها ارتباطا مباشرا ، ويمكن ان نسميها العلوم اللازمة للمؤرخ ، ونلاحظ ان العلوم المساعدة للتاريخ ، تختلف وتتفاوت بحسب اختلاف العصر او الناحية التي يرغب في دراستها والكتابة عنها . [٣٧٦]

ثانيا : اختيار موضوع البحث .

لم يكن اختيار مونتسكيو، لموضوعاته عبثا ، او من دون اسس علمية يستند عليها في اختياره لموضوعات مثلت مشكلات عصره ، ففي تقديرنا انه كان دقيقا في اختيار موضوع البحث ، وما أنتجه من مؤلفات كان خير دليل على حسن اختياره ، فان كتاب (روح الشرائع) هو الأول من كتب القرن الثامن عشر ، إضافة الى عدم استغناء

---

* " والجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ . والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا . فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ ، وهي ذات اثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنساني . فهي التي أطعمت الإنسان ، وأنشأته وعينت واجباته ، وأوجدت المصاعب والعقبات الطبيعية التي تشحذ قريحته للتغلب عليها وللتأثير بدوره في البيئة التي يعيش فيها والعمل على استغلالها . وللظواهر الجغرافية المختلفة اثر كبير – مع غيرها من المؤثرات – في الإنسان وبالتالي في التاريخ ، وذلك تبعا لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها . كما وأثرت الجغرافيا كذلك في بناء معتقدات الإنسان ، فيعتقد بعض السكان في المناطق الباردة – مثلا – ان الجحيم عبارة عن عالم يسوده البرد القارس ، ويعتقد بعض سكان المناطق الدافئة ان الجحيم عالم يسوده الحرارة والنيران المتأججة المستعرة أبدا " . عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . دار المعارف ، ط٩ ، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص٣٢ ، ٣٣ .

* نجد مونتسكيو ، هنا قد صبر طويلا في كتابة مؤلفاته ، وخاصة روح الشرائع ، الذي استغرق منه ٢٠ عاما ، لكنه في النهاية قال (حان الوقت لكي أستريح) وهذا دلالة جهده الكبير في كتابة هذا المؤلف الشهير . حيث يقول " وما أكثر ما بدأت هذا الكتاب وتركته ، وقد تركت للرياح ألف مرة ما كنت اكتب من الأوراق ، وكنت اشعر بهبوط الأيدي الأبوية في كل يوم ، وكنت أسير وراء هدفي من غير وضع مشروع ، وكنت لا اعرف القواعد ولا الشواذ ، وكنت لا أجد الحقيقة إلا لأفقدها ، ولكنني عندما اكتشف مبادئي أتاني كل ما بحثت عنه ، فأبصرت في غضون عشرين عاما بدء كتابي ونموه وتقدمه وتمامه " . مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٥ . وكذلك قال بهذا الشأن " واطلب لطفا أخشى ان لا أجاب إليه ، وذلك إلا يقدر جهد عشرين عاما بمطالعة ساعة فيرضى عن الكتاب بأسره او ينكر كله " انظر : مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣١ .

[٣٧٦] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص٢٥ . وانظر ايضا : بنمليح ، عبد الاله ، استيتو ، محمد ، مناهج البحث في الانسانيات والعلوم المساعدة البحث التاريخي انموذجا . رؤية للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص٢٦ . و : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . دار الفكر اللبناني ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص٥١ .

دارسي التاريخ والقانون والعلوم السياسية عنه ، ناهيك عن كونه الأساس في كتابة كثير من الدساتير العالمية ، ومنها الدستور الأمريكي ، وعليه نقول بان اختيار موضوع البحث ، كان له حضور في المنهج التاريخي عند مونتسكيو ، فهو إذن كان متبع كإجراء من إجراءات منهج البحث التاريخي عند مونتسكيو .

ويعد اختيار موضوع البحث ، من الإجراءات التي يجب ان يضطلع بها الباحث عند قيامه بعملية البحث التاريخي . [٣٧٧]

كذلك فان اختيار الموضوع في غاية الأهمية ، بل ضرورة ملحة ، سواء من حيث الموضوع ام الزمان ام المكان . وهنا يجب التنبيه الى ما يأتي : **أولا** . عدم التعسف في تحديد موضوع البحث ، أي الاهتمام بما يمس الموضوع مباشرة وإهمال الباقي ، ذلك ان من شأن المرونة ان تمنح فرصا أكثر للتحرك بحرية . وروح القوانين عند مونتسكيو ، هي الشاهد المميز لهذه الحالة ، فنراه ، قد حدد الموضوع في اختياره للقوانين باعتبارها الحاكم الأول في حياة المجتمعات ، ومدى فاعليتها في تحديد النمط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وكذلك فهو لم يستغن عن العوامل الأخرى ، فترك لها فسحة كافية في نصوصه .**ثانيا :** عدم التعسف في تحديد فترة البحث ، اي حصر الموضوع بين تاريخين اثنين ، لان ذلك قد يؤدي الى إهمال بعض الأسباب الفاعلة وبعض النتائج . وهذا تماما الذي راعاه مونتسكيو ، في مؤلفه (روح الشرائع) عندما كان يكتب كثير من الأوراق الخاصة في بحثه ، ثم يجعلها في مهب الريح ، لعدم قناعته بنتائجها ، ولتوصله الى نتائج أدق من سابقتها ، مما استغرق من الوقت عشرين عاما . **ثالثا :** الإطلاع على الدراسات السابقة ، التي لها علاقة بالموضوع ، لأنه يساعد على تحديد أدق . وذهاب مونتسكيو ، الى التاريخ اليوناني في كتاباته ، هو دلالة ضلوعه في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لليونان وكذلك الرومان ، ولو لم يكن كذلك لما استطاع ان يوفر قاعدة لكتابة مؤلفة المعروف (تأملات في تاريخ الرومان وأسباب انحطاطهم) . [٣٧٨]

" وفي اختيار موضوع البحث ، يجب ان يلاحظ الباحث عند التفكير في اختيار موضوع بحثه ميله – بغير تحيز – او استعداده الخاص ، سواء أكان ذلك في الناحية السياسية ام الاقتصادية ام الدينية ام العسكرية أم الحضارية ،

---

[٣٧٧] ينظر : طه ، عبد الواحد ذنون ، اصول البحث التاريخي . المدار الإسلامي ، ط١ ، بيروت ، (ب،ت) ، ص١١٣ . وانظر ايضا : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص٧٩ . و : بنمليح ، عبد الاله ، استيتو ، محمد ، مناهج البحث في الانسانيات والعلوم المساعدة البحث التاريخي انموذجا ، المصدر نفسه ، ص٥١

[٣٧٨] ينظر : بنمليح ، عبد الإله ، استيتو ، محمد ، مناهج البحث في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، البحث التاريخي انموذجا . رؤية للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص٤٦ ،٤٧ .

وليس هناك ما يدعو الباحث الى ان يقسر نفسه على ولوج ميدان لا يشعر في نفسه بالميل إليه . وعلى العكس فان طرق المجال الذي يميل إليه الباحث يجعله اقدر على العمل وأقوى على كشف الحقائق التاريخية ". [٣٧٩]

ثالثا : جمع الأصول والمراجع الموثوق بها .

ان الحصول على المادة العلمية هي أولى الأعمال التي يقوم بها الباحث لحل المشكلة التي يقوم بدراستها وبحثها ، وعليه في هذا الصدد ان يختار المصادر التي يجمع منها البيانات المرتبطة بالموضوع سواء كانت جيدة ام لا ، حتى يستطيع ان يدرس مراحل تطور الظاهرة او الحدث موضوع البحث ، ولو لم يكن هذا المحور من أساسيات مونتسكيو، لما استطاع ان يستعمل المنهج المقارن في كتابه المعروف (رسائل فارسية) الذي قدم فيه دراسة مقارنة بين أحوال الشرق وأحوال الغرب ، فكيف يقدم هذه الدراسة وهو من غير دراية وافية بالمصادر والوثائق المتعلقة بأحوال الشرق والغرب . ولقد قسمت مصادر الحصول على البيانات الى قسمين : **أولا . مصادر أولية** – تقارير وسجلات شاهدي العيان او ممن سمعوا الحوادث بآذانهم وقت حدوثها ، وبقايا الأشياء الفعلية التي استعملت في الماضي التي يمكن فحصها واختبارها بطريق مباشر . وهنا ربما يكون مونتسكيو ، قد عمل بالأولى دون الثانية ، لأنه لا بد وان يكون قد سمع أقوال الآخرين الذين رأوا وشاهدوا أعمال (اللويسات) في فرنسا ، إضافة الى ما عاصره هو ، من أعمال هؤلاء (اللويسات) ، لكنه في النقطة الثانية ، التي لم يهملها ، والتي لم يعمل بها بحسب اعتقادنا ، لا سيما وإنها تتعلق بأعمال الاثاريين . **ثانيا : المصادر الثانوية .** – وهي المعارف والمعلومات التي قد يجدها الباحث في السجلات او الصحف والدوريات العلمية ، وجميعها قد ترجع مصادرها الى ثالث او رابع ، او قد يكون خامس مصدر لنقل المعرفة ، وهذه المصادر لا يمكن عدها في البحث التاريخي موثوقا بها ، مثل المصدر الأول ، ولكن هذه المصادر قد تحقق العديد من الإغراض التي تسهم في نجاح الدراسة ، ونذكر قول مونتسكيو، في هذا الصدد اذ يقول : " لا مناص لي من ان اذكر هنا ما رواه القدامى عن تأهيل الجندي الروماني " [٣٨٠] ، وتستعمل المصادر الثانوية عادة في حالة عدم توافر المصادر الأولية ، وتتمثل المصادر الثانوية في الكتب او المراجع المكتوبة او المطبوعة او بعض البيانات الإحصائية ، وعلى الرغم من ان المصادر الثانوية عادة ما تكون محدودة القيمة بالنسبة للمصادر الأولية ، حيث احتمال الأخطاء فيها اكبر نتيجة

---

[٣٧٩] عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي ، المصدر نفسه ، ص٥٨ . وانظر ايضا : طباجة ، عبد الامير ، منهجية البحث تقنيات ومناهج . دار الهادي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٩٠ .

[٣٨٠] مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان ، أسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٣٢ .

انتقال البيانات من شخص الى آخر ، إلا ان المصدر الثانوي له وظيفة في تزويد الباحث عن الظروف والآراء التي قيلت حول المصدر الأول .[٣٨١]

وعلى الباحث ان يطلع بنفسه على الوثائق التي يجدها في دور الأرشيف ، حتى يكتسب شيئا من التجربة الذاتية ، فيفهم أشياء من خصائصها ، ويطلع أيضا على الروحية التي كتبت بها هذه الوثائق ، وتجربة مونتسكيو، أثناء سفره الى انكلترا وإطلاعه على الدستور الانكليزي وحيثياته ، كان لها اكبر الأثر في كتاب (روح القوانين) ، ونجده يصف نفسه بـ (الدهشة) عندما قرأ الدستور الانكليزي .[٣٨٢]

رابعا : نقد الأصول التاريخية واثبات وصحتها .

والنقد مرتكز اساسي من ضرورات البناء التاريخي " فالنقد بمعناه العقلي ، هو البحث عن حقيقة الشيء من حيث كونه أصيلا ام زائفا ، وهناك نوعان من النقد : النقد الخارجي ، مثل إثبات صحة الأصل التاريخي ، ونوع الخط والورق وتعيين شخصية المؤلف وزمان التدوين ومكانه . والنوع الثاني ، النقد الداخلي ، الذي يبحث في الحالات العقلية التي مر خلالها كاتب النص التاريخي ، ويحاول ان يتبين قصد الكاتب بما كتب ، وهل كان يعتقد صحة ما كتبه ، وهل توافرت المسوغات التي جعلته يعتقد صحة ذلك ؟ وأساس النقد ، الحذر والشك في معلومات الأصل التاريخي ، ثم دراسته وفهمه واستخلاص الحقائق من طياته " .[٣٨٣]

ولنا ان نقول ان اسم مونتسكيو، ارتبط بموضوع النقد ، فكانت فلسفته في التاريخ ، هي فلسفة نقدية ، وهذا ما قام عليه مشروعنا ، موضوع البحث ، فلم يفارق النقد فيلسوفنا في اي مؤلف من مؤلفاته ، ولا في أي موقف من مواقفه الفلسفية ، وفي ارتباطه بالنقد التاريخي ، فلم يغفل النقد الخارجي ، ولكنه أولى اهتماما كبيرا بالنقد الداخلي ، حيث تمثل في رؤيته العقلية للنصوص التاريخية ، وتحليلها تحليلا عقليا واقعيا ، نابع من فلسفته العلمية الواقعية ، وقد مارس النقد الداخلي ، ليس بصفته محققا تاريخيا ، بل بوصفه مؤرخا شموليا ، يسعى وراء الحقيقة المعرفية .

ويصل الباحث في التاريخ ، عن طريق نقده للأصول التاريخية ، الى مجموعة من المعلومات والآراء عن حوادث الزمان الماضي ، وقد تطابق الواقع او لا تطابقه ، كلها او بعضها على الأقل . فظروف الكذب والانتحال

---

[٣٨١] ينظر : صابر ، فاطمة عوض ، خفاجة ، ميرفت علي ، اسس ومبادئ البحث العلمي . مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية ، ط١ ، الإسكندرية ، ٢٠٠٢ ، ص٤٧ ، ٤٨ . النبراوي ، فتحية عبد الفتاح ، علم التاريخ دراسة في مناهج البحث . دار الافاق العربية ، (ب،ط) ، القاهرة ، (ب،ت) ، ص٢٤٣ . و : السماك ، محمد سعيد ازهر ، اصول البحث العلمي . مطبعة جامعة صلاح الدين ، ط٣ ، (ب،م) ، ١٩٨٩ ، ص٤١ .

[٣٨٢] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص٧٩ .

[٣٨٣] الجنابي ، حامد عبد الحمزه ، فلسفة التاريخ عند هيجل وإثرها في منهج البحث التاريخي . رسالة ماجستير (مخطوطة) مقدمة الى مجلس كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠١١ ، ص١٣٧ . وانظر ايضا : بدوي ، عبد الرحمن ، النقد التاريخي . وكالة المطبوعات ، ط٤ ، الكويت ، ١٩٨١ ، ص٦٥ . و : جابر ، فاضل ، محاضرات في منهج البحث التاريخي . (ب،ن) ، (ب،ط) ، واسط ، ٢٠٠٦ ، ص٩٥ .

والخطأ متنوعة ، ولا يكفي النقد وحده للوصول الى الحقيقة التاريخية . ويقوم النقد التاريخي بإثبات صحة الأصول التاريخية ، وبتحليلها الى عناصرها الأولية ، ويزن كل تفصيلاتها واحدة بعد الأخرى ، ويصل في أحوال كثيرة الى التمييز بين الروايات المكذوبة وبين الروايات المشكوك في صحتها ، وبين الروايات التي يحتمل الصدق فيها ، والروايات التي لا يمكن تحديد قيمتها ، لعدم إمكان الباحث الوصول في شأنها الى رأي حاسم . وعلى الرغم من ذلك فان النقد التاريخي ، لا يثبت الحقيقة التاريخية ، بل يساعد على بلوغها ، ويؤدي الى احتمال الصدق فيها ، وصحيح انه ينبذ جانبا الأخبار التي يثبت كذبها او الخطأ فيها ، ولكنه لا يضع مكانها بديلا . وبذلك تكون النتائج الثابتة المؤكدة للنقد التاريخي هي نتائج سلبية ، وكل النتائج الايجابية تكون موضع الشك ، ويوجد الاحتمال في صدقها . وكان واضحا كسطوع الشمس ، النقد الذي استعمله مونتسكيو ، في انه نقدا ايجابي، لأنه لم يترك اي موضوع من الموضوعات التي طرحها دون ان يعالجها معالجة علمية ومنطقية ، فكان عندما يكتشف أي مشكلة من مشكلات التاريخ ، ويقوم بنقدها وتحليلها ، يسارع الى وضع بديل علمي يقوم عليه بناؤه الجديد ، فعندما طرح مشكلة الحرية السياسية ، بوصفها من مشكلات التاريخ ، او مشكلة الاستبداد ، حيث قام بتحليل المشكلة ، وأرجعها الى كبر الإمبراطوريات ، من حيث مساحاتها الشاسعة ، ولا سيما في أسيا ، نجده يقدم الحل بعد نقده ، فقد تكلم في الجانب الأخر عن التمتع بالحرية السياسية في أقاليم أوروبا ، وذلك لتوسط حجم مساحاتها ، وكثرة الجبال فيها التي تعيق عملية الهيمنة وبناء الدكتاتوريات . [٣٨٤]

خامسا : نقد الأصول وتحري النصوص.

ليس بوسعنا الوصول الى الحادثة التاريخية دون الاعتماد على النص " وليس في وسعنا ان ننشد حجة قول ما لدى إنسان ، لم تكن له صلة بالحادث او الواقعة التاريخية ، ولا يمكن ان نتلقى الأخبار اعتباطا له صلة بالحادث او الواقعة التاريخية ، ولا يمكن ان نتلقى الأخبار اعتباطا من حيث انها أخبار دون ان نشير الى المصدر الذي صدرت عنه ، ولهذا فلا يكفي ان تكون لدينا الوثائق صحيحة وكما كتبها واضعها ، وإنما يجب ان يضاف الى هذا ان نعرف أولا : ما مصدر الوثيقة ؟ ثانيا : من مؤلفها ؟ ثالثا : ما تاريخها ؟ ذلك ان الوثائق تختلف في قيمتها اختلافا شاسعا من حيث صحة نسبتها الى واضعها الأصيل او الى من ذكر اسمه كواضع لها ، فنحن نجد كثيرا من الوثائق او المؤلفات تذكر لنا بصراحة وبكل توكيد وقطع ان مؤلف هذه الوثيقة او تلك هو فلان او فلان من الناس . ولكن يجب ان لا نثق مطلقا في أي توكيد مهما كان من قوته ، فكثير من الوثائق قد زيف لعدة اعتبارات ، منها مثلا ، ان يكون الأثر ضئيل القيمة فيمهر بختم فلان من الناس المشهورين لكي ترتفع قيمته ، او قد يكون الأثر عظيم القيمة فيضاف الى إنسان من اجل تمجيد هذا الإنسان مع ان الأثر لا ينتسب إليه " . [٣٨٥]

---

[٣٨٤] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٤٦ . وانظر ايضا : الجبوري ، حسين محمد جواد ، منهجية البحث العلمي ، مدخل لبناء المهارات البحثية . مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٣ ، ص٢٠٧ .

[٣٨٥] بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . المصدر نفسه ، ص١٩٤ . وانظر ايضا ، يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي ، المصدر نفسه ، ص٨٩ ، و : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٢٤ .

ونقد الأصول التاريخية يعني إثبات صحتها ، لأنه إذا كان الأصل او المصدر كله او بعضه مزيفا ومنتحلا فلا يمكن الاعتماد عليه على وجه العموم . وصحح ان تزيف الأصول والوثائق صار اليوم أصعب منه في الماضي ، ولكن دوافع التزيف والدس لا تزال قائمة ، كالأهواء والمطامع وحسب الكسب والشهرة . والتزييف والانتحال يوجدان في كل أنواع الأصول والمصادر التاريخية . فقد تزيف الآثار المادية من اجل الكسب في أحوال كثيرة ، وكذلك الكتابات التي تتعرض للانتحال ، لذلك أصبح نقد الأصول من الضرورات الواجب توفرها في إجراءات المنهج التاريخي ، من اجل الخروج بالنص التاريخي الموضوعي . [٣٨٦]

ومن ابرز القواعد التي يسير عليها الباحث التاريخي لأجل نقد الأصول ما يأتي : أولا . يجب ان يقوم بما يسمى بالتحليل الباطن . معناه النظر في الوثيقة من حيث الخط الذي كتبت به . فالخطوط تختلف فيما بين العصور بعضها وبعض . ثانيا : علينا ان ننظر في اللغة التي كتبت بها ، فبعض الصور اللغوية وألوان من الخصائص النحوية ، وأنواع من العبارات والمجازات لا توجد في عصر دون عصر آخر . ومن هنا يتبين ان نقد المصدر خطوة تمهيدية ، لا بد من القيام بها حتى نستطيع الوصول ، أولا : الى النص الحقيقي ، أي الذي وضعه مؤلفه . وثانيا : لكي يتبين المصدر الذي صدرت عنه الوثيقة . فبهاتين الخطوتين نستطيع ان نصل الى تحديد الوثيقة من حيث الصحة ومن حيث النسبة . [٣٨٧]

ويبدو للباحث ان مونتسكيو ، لم يهتم بهذا الجانب من جوانب البحث التاريخي ، على اعتبار انه اهتم بمنهج البحث التاريخي التحليلي ، او الواقعي النقدي ، على الرغم من التزامه وتمسكه بخطوات منهج البحث التاريخي التأليفي ، أي كإجراءات للبحث في سياق ما يقوم به المؤرخون من خطوات . فلم نجد إشارة في مؤلفاته لهذا النوع في البحث ، بيد ان التحليل يواكبنا في كل صفحات مؤلفاته ، وهذا ما اشترك به مع المؤرخين في كتابة التاريخ ، وان دراسته لأحوال الرومان واليونان تدل على انه اطلع على نصوص تاريخية ووثائق موثوقة تناولت التاريخ القديم ، فنراه كثيرا ما يستعرض الوثائق التي يوظفها في بناء نصوصه التاريخية وكثيرا ما يستشهد بها .

سادسا : تحديد مكان وزمان التدوين ومعرفة شخصية المؤلف .

لقد ارتبط تفحص النص التاريخي بمكان وزمان وشخصية المؤرخ " فحينما يثبت للباحث في التاريخ ان الأصل او المصدر التاريخي صحيح وغير مزيف ، فليس معنى ذلك ان المعلومات الواردة به ذات قيمة تاريخية كبيرة . ولا بد من نقد الأصل التاريخي من نواحي أخرى . وتحمل بعض الأصول اسم مؤلفها ، وزمان تدوينها ومكانه . وبعض الأصول التي تكون متسمة بطابع الصحة وعدم التزييف ، تغفل أحيانا ناحية او أكثر من هذه النواحي ،

---

[٣٨٦] ينظر : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . دار الفكر اللبناني ، ط١ بيروت ، ١٩٩٠ ، ص٩٩ .

[٣٨٧] ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . المصدر نفسه ، ص٢٠٠ . وانظر ايضا : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٠٥ . و : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص٩٥ .

فينقص ذلك من قيمتها التاريخية . فكيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخي وهو يجهل اسم مؤلفه وشخصيته وعلاقته بالحوادث التي كتب عنها ؟ فهل شهدها بنفسه ام سمعها ونقلها عن الغير ؟ ومتى دونها ؟ هل دونها في أثناء وقوع الحوادث ام بعدها بزمن قصير ام طويل ؟ وفي أي مكان تم ذلك التدوين ؟ أفي مكان وقوع الحوادث ام في مكان بعيد عنه ؟ من الضروري معرفة كل او اغلب هذه النواحي ، بقدر المستطاع " . (٣٨٨)

ان معرفة كاتب الأصل التاريخي وشخصيته مسألة مهمة ، لان قيمة المعلومات التي يوردها ، ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ومدى فهمه للحوادث ، وبكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم . فالمعلومات التي يدونها شخص ما تختلف من حيث خلفيته الفكرية ، وهي متفاوتة بحسب قيمة كل منهم ، ومهما كان كاتب الأصل التاريخي يجب ان يتصف بصفات المؤرخ الموضوعي(*) .(٣٨٩)

لذلك يجب ان نبحث في صحة مشاهدة مؤلف الوثيقة للحادث ، وهل أصاب في وصفه له ، وهل لم يخطئ في بعض الجزئيات ، وهل لم يكن مخدوعا عن بعض ما شاهده ، وهل لم تكن تحدوه دوافع أجنبية من شأنها ان تشوه تصويره للحادث . إذن الى أي حد نثق برواية صاحب الوثيقة ؟ فالنزاهة تتعلق بأمانة المؤلف في رواية الحادث او نقله . (٣٩٠)

لذلك " فان النص التاريخي الذي قدمه لنا المؤلف ، لا يدل إلا على كيفية تصوره له " . (٣٩١) وعلى الرغم من ان مونتسكيو ، لم يكن يتعامل مع التاريخ على انه تأريخ فقط ، اي مجرد سجل لإحداث الماضي ، بل كان يتعامل معه على انه تاريخ ، أي دراسة التاريخ لذاته ، أي روحية الأحداث التاريخية ، فقد كان يتعامل مع نصوص أفلاطون وأرسطو، على أنها اصول تاريخية ، مثلت عقول أصحابها ، فلم يكن هناك أدنى شك يساور مونتسكيو ،

---

[٣٨٨] عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص٨٩ . وانظر ايضا : الجبوري ، حسين محمد جواد ، الجنابي ، قيس حاتم هاني ، منهجية البحث التاريخي ، الاسس والمفاهيم والاساليب العلمية . مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٣ ، ص١٤٥ . و : الجمل ، شوقي ، علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الاخرى ومناهج البحث فيه . مكتبة الانجلو المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص١٣٧ .

* من ذلك نقول ان للمؤرخ أثرا كبيرا ، يجب عليه القيام به وهو توخي الموضوعية القائمة على العلمية في البحث التاريخي ، الذي يؤدي الى التدوين القائم على اليقين ، والذي يسهم في إنتاج تاريخ خال من الأساطير البعيدة عن المنطق العقلي . فكان المؤرخ ذلك الوحي المتجدد دائما والذي يبعث الروح في الحدث التاريخي ، ويحرك الماضي بلغة الحاضر ، ويجب ان يكون هدف المؤرخ من التدوين التاريخي ، هو الحقيقة التاريخية قدر المستطاع ولا شيء سوى ذلك . فلا بد من ان تتوافر في المؤرخ الصفات الضرورية وان تتحقق له الظروف التي تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته فمن الصفات الواجب توافرها في المؤرخ . ان يكون محبا للدرس جلدا صبورا ، فلا تمنعه وعرة البحث ولا المصاعب والعقبات من مواصلة عمله ، ولا توقفه ندرة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها . وينبغي عليه ان يقضي الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد لأخر ، وينبغي عليه أن لا يتسرع أو يقتضب تعجيلا لنيل منفعة لان هذا سيكون على حساب العلم والحقيقة التاريخية . انظر : الجنابي ، حامد عبد الحمزه ، فلسفة التاريخ عند هيجل وأثرها في منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ٣٩ .

[٣٨٩] ينظر : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . دار الفكر اللبناني ، ط١ بيروت ، ١٩٩٠ ، ص١٠٠ . وانظر ايضا : : الجمل ، شوقي ، علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الاخرى ومناهج البحث فيه . المصدر نفسه ، ص١٤٩ .

[٣٩٠] ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . المصدر نفسه ، ص٢١٢ . وينظر أيضا : السعيدي ، مبارك عبد الكريم ، مشكلة القوانين التاريخية . المصدر نفسه ، ص١٣ . و : بدر ، احمد ، اصول البحث العلمي ومناهجه . وكالة المطبوعات ، ط٤ ، ١٩٧٨ ، ص٢٤٧.

[٣٩١] اوسينوبوس ، لانجلو ، النقد التاريخي ، تر ، عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، ط٤ ، الكويت ، ص١٢١ .

في تعامله مع النصوص ، ذلك بسبب ثقته العالية بشخوصها العلمية . وهكذا فان شخصية المؤلف بالمعنى النقدي والتحليلي حاضرة ، ومؤثرة في بناءُ الفلسفي ، وفي طريقة تعاطيه مع النصوص ، فوجدنا مثلا انه عندما قسم الحكومات ، كان متأثرا الى حد كبير بأرسطو ، ولو لم يكن قد اطلع وبدقة على كتاب (السياسة) لأرسطو ، وتبحر في نصوصه الموثوقة من ثقته بمؤلفها ، لما توصل الى نتيجة مقاربة في تقسيمه للحكومات .

سابعا : النقد الباطني الايجابي .

وترجع عملية تحليل النص الى هذا النوع من النقد " فالنقد الباطني للوثيقة ، من وظائف المنهج التاريخي ، الذي يقوم بتحليل الوقائع ويفسرها ، والربط بين ظواهرها المختلفة ، ثم استخراج النتائج منها ، ولا ريب في ان ذلك سوف يوصلنا في النهاية الى القوانين التاريخية التي توضح العلاقة بين الظواهر المختلفة " . [٣٩٢]

على ذلك ، نجد مونتسكيو ، حاضرا في عملية النقد الباطني الايجابي ، لان القوانين وروحها ، والربط بينها وبين الظواهر المختلفة كانت من أساسيات العمل عنده ، فلم تكن هناك أية ظاهرة في الوجود ، إلا وكان لها قانونها الخاص بها ، وعملية الربط بين هذه القوانين المختلفة ، ذات المرجعية المختلفة ، مثلت روح القوانين .

وبناءا على ذلك فالبحث بين الظواهر المختلفة ، يأتي من خلال تركيز الباحث على بيان ما قصده مؤلف الوثيقة من كلامه ، ثم معرفة صدقه في الرواية ، سواء كان شاهد عيان أم ناقلا عن غيره ، فالنقد الايجابي يفسر النص ويظهر معناه ، وإظهار معنى النص يعني التوغل في فلسفته ومحاولة إيجاد قوانينه التاريخية ، وكذلك محاولة استنتاج جديدة تضيف رصانة الى المعنى العلمي في النص التاريخي . [٣٩٣]

" والنقد الباطني الايجابي ، عبارة عن تحليل الأصل التاريخي بقصد تفسيره وإدراك معناه . ويمر ذلك بدورين : أولا. إدراك المعنى الحقيقي للنص ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه . وثانيا : تفسير ظاهر النص وتحديد المعنى الحرفي له . وإذا اتبعت هاتين القاعدتين بدقة فان الوقوع في خطأ فهم النص التاريخي سيكون اقل ما يمكن " . [٣٩٤]

ومن اجل تحديد المعنى الحرفي للنص التاريخي ، يجب معرفة التغييرات الحاصلة على المفردات اللغوية عبر الزمن ، وتحديد معاني الكلمات في مواطنها لأنها تختلف أحيانا من حيث المعنى من مكان لآخر ، كما يجب

---

[٣٩٢] عناني ، محمد زكريا ، رمضان ، سعيده محمد ، في مناهج البحث وتحقيق النصوص . دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص١٦ .

[٣٩٣] ينظر : رستم ، أسد ، مصطلح التاريخ . منشورات المكتبة العصرية ، ط٣ ، بيروت ، (ب،ت) ، ص٤٩ . وانظر ايضا : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص ١١١ .

[٣٩٤] عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١١٩ . وانظر ايضا : طه ، عبد الواحد ذنون ، اصول البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٤٣ .

الإلمام بأسلوب مؤلف المصدر من خلال قراءة مؤلفاته الأخرى ، وبهذا تتاح للباحث المقدرة في النقد الباطني الايجابي . [٣٩٥]

وعلى وفق ذلك فمن الضروري ان تحلل الوثيقة او النص التاريخي ، لمعرفة العمليات التي لم تراع فيها الدقة اللازمة –قدر الإمكان – حتى لا يأخذ الباحث بما ورد به من المعلومات قبل التثبيت من صحتها . فالتحليل ضروري في نقد الأصول التاريخية . وما من نقد يمكن ان يجري دون ان يبدأ بالتحليل . ومن أهم واجبات التحليل استرجاع اغلب العمليات التي قام بها المؤلف ، منذ الوقت الذي بدأ فيه بمشاهدة الحادث – ان كان قد فعل ذلك – حتى تحركت يده لتسطير الأصل التاريخي الماثل بين يدي الباحث في التاريخ . او على العكس من ذلك ، ينبغي ان يسير الباحث ابتداء من الحادث المسجل في الأصل التاريخي ، حتى يصل الى الوقت الذي شهد فيه المؤلف ذلك الحادث – ان كان قد فعل ذلك . ولا يمكن لهذه الخطوات ان تتم ما لم يتحل الباحث بروحية الباحث الموضوعي ، وصفات المؤرخ الحقيقي ، الذي يبتغي تحصيل المعرفة التاريخية . [٣٩٦]

ثامنا : النقد الباطني السلبي .

ان الإحاطة بالنقد الباطني الايجابي لا تمنح صفة الاكتمال في تحليل الأصل التاريخي ، لذلك يجب المرور بالنقد الباطني السلبي . لان تعارض المعلومات الواردة في الأصول التاريخية عن موضوع معين ، يجعل من الواجب على الباحث في التاريخ ان يمحص هذه المعلومات لكي يحاول الوصول الى الحقيقة التاريخية او الى ما يقرب منها . ويلزم الباحث الشك فيما لديه من الأقوال المتعارضة ، ودراستها ، والاعتراف بإمكان وجود الكذب والخطأ فيها ، بصورة او أخرى . فالنقد الباطني السلبي عملية ضرورية لتصفية الحقائق واستبعاد الزائف منها ، بقدر المستطاع . [٣٩٧]

وبذلك " فعلينا ان نبحث في صحة مشاهدة مؤلف الوثيقة للحادث ، وهل أصاب في وصفه للحادث ، وهل لم يكن مخدوعا في بعض ما شاهده ، فالنقد الباطني السلبي يهتم بما تحويه الوثيقة ، بما تقوله ، بمعناها ، بدقتها ، وبالثقة العامة في المعلومات الموجودة فيها ، أي انه عندما تثبت أصالة الوثيقة ، فان الباحث يجب ان يسأل نفسه عن دلالاتها لمصدر المعلومات " . [٣٩٨]

---

[٣٩٥] ينظر ، جابر ، فاضل ، محاضرات في منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه، ص٩٩ .

[٣٩٦] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١١٧ . وانظر ايضا : النبراوي ، فتحية عبد الفتاح ، علم التاريخ ، دراسة في مناهج البحث ، المصدر نفسه ، ص٣٦ . و : الجمل ، شوقي ، علم التاريخ . المصدر نفسه ، ٩٧ .

[٣٩٧] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ،ص١٢٤ . وانظر ايضا ، يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١١٧ . و : عبد الحميد ، صائب ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين . الغدير ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠١ ، ص٥٣ .

[٣٩٨] ينظر ، بدر ، احمد ، اصول البحث العلمي ومناهجه . المصدر نفسه ، ص٢٤٧ . وانظر ايضا : شيا ، محمد ، مناهج التفكير وقواعد البحث في العلوم الانسانية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص١٢٠ .

" والنقد الباطني السلبي يهدف الى نبذ الأقوال الواضحة ، الكذب ، او الخطأ ، والارتياب في كل أقوال مؤلف النص التاريخي . ذلك لان النقد الباطني الايجابي ، لا يوصل الباحث في نهاية المطاف في بحثه ، بل يطلعه على الآراء التي كونها مؤلف الوثيقة ، ومن ثم فان هذا الموقف أوجب الشك واحتمال الخطأ " . [٣٩٩]

ويمكننا إذن ان نستخلص مما سبق ان النقد الباطني السلبي يؤدي الى قاعدتين : **أولا .** الإثبات العلمي لأية حقيقة تاريخية ، لا يمكن ان يتم عن طريق شهود العيان فقط ، بل ينبغي ان تتوافر لدى الباحث في التاريخ الأدلة التي تثبت صحة تلك الحقيقة . وفي بعض الأحيان تعد أقوال مؤلف بعينه أقوالا صحيحة ، ولكن لا يمكن ان يتخذ ذلك كقاعدة عامة . **والقاعدة الاخرى .** لا يجوز ان ينقد الأصل التاريخي في هذه المرحلة كوحدة عامة ، بل ينبغي ان تنقد جزئياته وتفصيلاته وحوادثه المفردة واحدة بعد أخرى ، فنجد مثلا ان عبارة واحدة قد تحتوي على عدة حوادث مرتبطة بعضها ببعض . لذلك يأتي دور الباحث في المنهج التاريخي مستندا الى النقد الباطني السلبي ليقدم نصا متماسكا ، يحوي حكما على مؤلف الأصل التاريخي ، مع مراعاة الظروف المحيطة بتدوين ذلك الأصل التاريخي .[٤٠٠]

تم ملاحظة هذه التفاصيل من النقد الباطني السلبي لدى مونتسكيو، فقد حاول ان يرجع أصول التاريخ وفلسفته من خلال استعماله لفلسفة التاريخ النقدية الى أصول علمية واقعية ، وشاهدناه خاصة في نظريته البيئية ، التي جاءت نسقا من أنساق عصر النهضة ، الذي كان من ابرز صفاته (العلمية) ، حتى في شرحه كيفية سريان الدم في الأنسجة والأطراف كان يستعمل منهجا علميا ، والقصد هنا ان يرجع التاريخ الى اصل علمي ، من خلال استعمال التحليل العلمي الذي مثل النقد لديه ، فانه لم ينظر الى التاريخ على اعتباره وحدة واحدة ، بل نظر إليه على انه مجموعة الأشياء والضروريات التي تكون العلاقات ، وهذه العلاقات بدورها تكون القوانين العامة ، التي تسهم في بناء المجتمعات ، لذلك فقد اقر بان قانون إقليم ما ، ربما لا يكون فاعلا في إقليم آخر ، كذلك لا يجوز نقل قوانين من مجتمع لآخر .

وهذا النوع من النقد لا يتم جملة . بل القاعدة ينبغي ان تكون : تحليلها الى عناصرها لاستخلاص كل الأقوال المستقلة التي تتألف منها وفحص كل منها على حدة . وفي كثير من الأحوال نشاهد ان الجملة الواحدة تحتوي على عدة أقوال ، لهذا ينبغي فصل بعضها عن بعض لنقد كل منها على حدة . [٤٠١]

تاسعا : إثبات الحقائق التاريخية .

---

[٣٩٩] طه ، عبد الواحد ذنون ، أصول البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٤٧ . وانظر ايضا : بدوي ، عبد الرحمن ، النقد التاريخي . المصدر نفسه ، ص٧٥ .

[٤٠٠] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٢٥ ، ١٢٦ . للمزيد ينظر أيضا : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١١٧ .

[٤٠١] ينظر : اوسينوبوس ، لانجلو ، النقد التاريخي ، تر ، عبد الرحمن بدوي . المصدر نفسه ، ص١٢٥.

لا يكفي النقد وحده للوصول الى الحقيقة التاريخية . ويقوم النقد التاريخي بإثبات صحة الأصول التاريخية ، وبتحليلها الى عناصرها الأولية ، ويصل في أحوال كثيرة الى التمييز بين الروايات المكذوبة وبين الروايات المشكوك في صحتها ، وبين الروايات التي يحتمل الصدق فيها ، والى الروايات التي لا يمكن تحديد قيمتها ، لعدم إمكان الباحث الوصول في شأنها الى رأي حاسم . لكننا نسجل ، ان النقد التاريخي في كثير من الأحوال لا يبلغ الحقيقة التاريخية ، لكنه يساعد كثيرا على الوصول إليها . فهو يرجح كفة الصدق فيها . [٤٠٢]

" والمؤلف الذي لا يستطيع ان يتلقى معلومات عن الواقعة التي يؤكدها – قول لا قيمة له أبدا ، وينبغي رفضه ، والنقد لا يفعل هاهنا أكثر من انه يقضي على المعلومات الوهمية ، دون ان يقدم معلومات يقينية " . [٤٠٣]

وينبغي علينا ان نلاحظ انه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول الى الحقيقة المطلقة ، اذ ان هذا أمر غير مستطاع لعوامل مختلفة ، مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار ، ومن ذا الذي يمكنه ان يعرف الحقيقة المطلقة في الماضي والحاضر ؟ وهل يمكن للإنسان ان يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة ؟ فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة نسبيا ، وكلما زادت نسبية الصدق فيها اقترب التاريخ من ان يصبح تاريخا بالمعنى الصحيح ، في حدود إمكاناته ، وحينما يعكف المؤرخ على دراسة التاريخ ، لن يجد الوقائع او الحوادث ماثلة أمامه ، وعليه عندئذ ان يتجه الى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وأثاره ، من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت . وأثار الإنسان كلها ، تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ . وهل تظل أبدا صامتة لا تبوح بإسرارها ، الى ان يتمكن المؤرخ بالدراسة الطويلة وبالتأمل العميق من ان يحملها على النطق ، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها ، وينبغي ان تدرس بروح النقد . وهكذا ، فان على عاتق المؤرخ مسؤولية إثبات صحة الحقائق التاريخية ، ولا يمكن له تحقيق ذلك من غير ان يستعير من الفيلسوف أدواته ، وأولها النقد والتحليل ، وبالتالي تكتمل الرؤية المنطقية لتحقيق المعرفة التاريخية من خلال إثبات صحة حقائقها . [٤٠٤]

وفي موضوع نسبية الحقائق التاريخية ، نلاحظ ان مونتسكيو، وعلى الرغم من تفسيره الجغرافي للتاريخ ، وإطلاقه النظرية البيئية ، وعدها العامل الأساس في تفسير التاريخ ، وعملية بنائه ، بوصفها اساسا لقيام الحضارات ، لكنه عاد ليقول ان هناك عوامل معنوية أخرى تسهم مع النظرية البيئية في البناء التاريخي ، وبهذا عادت النظرية البيئية لتمثل عاملا نسبيا في مفهوم التاريخ عنده ، اذ لا وجود للمطلق في تفسيره ، لأنه قد يضعه في غاية الإحراج أمام تساؤلات أخرى ، منها المعتقد والدين والأعراف ، بالإضافة الى القابليات الفردية للأشخاص ودورهم في بناء مجتمعاتهم .

---

[٤٠٢] ينظر: عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٤٦ . واانظر ايضا : طه ، عبد الواحد ذنون ، اصول البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص٤٥ .

[٤٠٣] اوسينيوبوس ، لانجلو ، النقد التاريخي ، المصدر نفسه ، ص١٥٣ .

[٤٠٤] ينظر : نصر الله ، سعدون ، المدخل الى علم التاريخ . دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٧٧ .

عاشرا : التركيب التاريخي .

التركيب ، يعني ان هناك أشياء مفككة تجري محاولة تركيبها لكي تخرج بصورة علمية رصينة ، هكذا هو فيلسوف التاريخ ، لان النقد لا يكاد يفارقه ، والنقد يعني التفكيك ، ومن ثم إعادة البناء وفق الأسس العلمية والمنهجية ، كذلك الحال ، يتم تحليل ونقد الواقعة التاريخية ، والخروج بالنتائج الجديدة منها ، وهذا هو التركيب التاريخي الجديد . وعلى هذا درس مونتسكيو، أحوال الشعوب ، من عادات وتقاليد ، وطبيعة المناخ والتضاريس ، من اجل تحليلها ونقدها ، والخروج بنتائج علمية واقعية ، فان الزواج من أكثر من واحدة ومدى شرعيته ، لم تكن معرفته متاحة لدى مونتسكيو، لولا انه قام بدراسة تاريخ العرب والمسلمين ، ودرس القانون السماوي لهم ، ومن ثم قام بتحليله ، وبعدها أجرى عليه التركيب التاريخي .

وعملية التأكيد واليقين من صحة الحقائق التاريخية ، يتطلب من الباحث في التاريخ ان يقوم بسلسلة من عمليات التركيب او البناء . ودراسة هذه العمليات من أهم المراحل في الإلمام بمنهج البحث في علم التاريخ ، وهي مرتبطة بنوع المادة التاريخية التي يتوصل الى جمعها الباحث في التاريخ . [٤٠٥]

ان التركيب التاريخي يتطلب القيام بتنظيم الحقائق التاريخية ، لكي يتسنى السير بالمنهج بخطواته الصحيحة ، حيث يصل الباحث في التاريخ الى مرحلة تنظيم وترتيب الحقائق التاريخية ، التي تجمعت لديه . ومن غير شك ، ينبغي عليه ، ان يفاضل بينها ، وان يتمسك ببعضها ، وان يدع جانبا بعضها الأخر . وفي الواقع ان كل الحقائق التاريخية لها قيمة في حد ذاتها ، ولكن الباحث مضطر الى اختيار جزء منها لتوظيفه في كتابة التاريخ ، وينبغي على الباحث ان يشرع في تنظيم الحقائق التاريخية وتنسيقها في مجموعات وأقسام ، تبعا لظروفها الظاهرة ولسائر خصائصها . وأسهل طريقة للتقسيم هي القائمة على ظروف الحقائق الخارجية ، اذ ان كل حقيقة تاريخية ترتبط بزمان ومكان محددين ، وتتعلق برجل او جماعة او مسألة معينة . وبذلك يجد الباحث أمامه مجموعة من الحقائق المتنوعة . [٤٠٦]

فقام مونتسكيو، بدراسة كل ما يتعلق بالبيئة الطبيعية ، او الحرية السياسية ، لاحوال الصين ، وكذلك ، جزيرة العرب ، الهند ، وأوروبا ، وبلاد فارس ، فكان ازاء مجموعة كبيرة ومتنوعة من الحقائق التاريخية ، وكان عليه ان يقوم بتنظيمها ، فأجاد وأحسن في ذلك ، فالقارئ له ، تستوقفه تلك التفاصيل الهائلة في حياة هذه الشعوب ، وما دونه عنها ، دليل وعيه التاريخي وإحاطته بالمعرفة التاريخية لتلك الأمم ، على الرغم من تحفظنا على بعض نتائج بحثه ، كما مر سابقا ، لكن هذا الامر لا يمنع من القول بإمكانيته المعرفية الواسعة ذات الطابع الشمولي .

---

[٤٠٥] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٥٨ . وانظر ايضا : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٤٥ .

[٤٠٦] ينظر : يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٤٩ .

وتنوع الحقائق التاريخية هذه ، في كثير من الأحيان يحتاج الى (الاجتهاد) ، ويلاحظ ان الحقائق التي تقدمها الأصول التاريخية ، لا تكفي أحيانا لتغطية كل ما يتطلبه موضوع بحثه . وقد تكثر الحقائق من ناحية وتنقص من ناحية أخرى ، وبذلك توجد فجوات في سلسلة التاريخ ، فعليه إذن ان يحاول ملء هذه الفجوات عن طريق العقل و (الاجتهاد) – كما يذهب الى ذلك علماء الدين في طلب العلم بأحكام الشريعة . ولا شك ان الباحث في التاريخ سيعمد الى دراسة ما توصل إليه من الأصول وما استخرجه منها من الحقائق ، ومن المحتمل ان يتمكن في ضوئها من الوصول الى تغطية الفجوات الماثلة أمامه . إذن الاجتهاد لدى المؤرخ والفيلسوف ، هو عملية استنطاق النصوص التاريخية التي بحاجة الى من يستنطقها .[٤٠٧]

وترتبط خطوة الاجتهاد بموضوع (التعليل والإيضاح) . ونحن نرى ان هذه النقطة هي الأكثر ارتباطا بين الفيلسوف والمؤرخ ، ومثلت جل أعمال مونتسكيو ، فهو يستعرض في فصول طويلة ، ليعلل ، ثم يوضح ، موضوعا بذاته ، في كل مؤلفاته ، مثلا : لاحظنا شرحه الطويل لموضوع (الرق) وعلاقته بنواحى مختلفة ، لعل أبرزها البيئة المؤثرة في طبيعة الإقليم ، ونراه يقسمه الى أنواع : الرق المدني ، والرق المنزلي ، والرق السياسي ، ومن ثم يقوم بالتعليل وبيان الأسباب والمؤثرات في أنواع الرق ، وبعدها يوضح لنا دوافع هذا التقسيم ، وأسباب اختلافه من إقليم لأخر .

وعلى الرغم من اختلاف أنواع التعليل ، فقد يكون هناك تعليل ميتافيزيقي ، وتعليل فيزيقي ، او تعليل معنوي ، إلا ان دور المؤرخ في هذا الجانب يجب ان يكون دورا عقليا ، يعبر عن وعي وإدراك معرفي . لكن عندما يواجه الباحث في التاريخ ، تعليلا يرد فيه الحوادث التاريخية الى العناية الإلهية التي تسيطر على العالم وتقود الوجود الى غاية لا يعلمها الا الله . وهذا تفسير علوي ، وعليه لا ينتظر من الباحث في التاريخ ان يبحث العلة الأولى للوجود . لكنه يستطيع ان يبحث أثار هذه العلة على البشر ، ويقوم بإيضاحها .[٤٠٨]

وبذلك فالمنهج التاريخي ، ليس فقط تحديد وسيلة الأداء ، وتدقيق كيفية العرض ، بل هو التعمق في طريقة التحليل ، والتحليل قد يصل بالباحث الى التفكير بالميتافيزيقا . وبذلك اشترك مع الفيلسوف في عملية التأمل واستخدام الأساليب المنطقية .[٤٠٩]

---

[٤٠٧] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١٧٤ .

[٤٠٨] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي ، المصدر نفسه ، ص١٨٥

[٤٠٩] ينظر : فسوم ، عبد الرزاق ، منهجية كتابة التاريخ . مجلة المعهد ، السنة الأولى ، العدد الأول ، معهد الدراسات العربية والإسلامية ، لندن ، ١٩٩٩ ، ص٢٩ .

المطلب الثاني : النظرة الواقعية والعلمية في منهج البحث التاريخي .

يشترك مونتسكيو، مع أصحاب هذه النظرة (الواقعية والعلمية) ، بل هو من أهم روادها ، على هذا ، هو من أصحاب الاتجاه الواقعي والنقدي والعلمي في فلسفة التاريخ ، وهو بالاتجاه الآخر تماما من فلسفة التاريخ المثالية – التي أخذت من الفكرة وتأملها سبيلا لها في فلسفتها للتاريخ ، في حين نرى ان مونتسكيو ، جعل تفسير التاريخ ، خاضعا للواقع العلمي ، واعتبره جزءا من متطلبات النهضة العلمية .

والنظرة الواقعية والعلمية للتاريخ ، تعد التاريخ علما ، كأي علم دقيق أخر . وهي تنظر الى جميع النظرات السابقة وكأنها صحيحة الى حد ما ، تنطبق في حالة ، ولا تنطبق في أخرى ، وتأخذ بالوقائع بتمامها ، تداخلت فيها أحداث مختلفة من حضارية وطبيعية ومادية ومدنية . وعليه ، لا يوجد ما يزيح اعتبارنا في ان ننظر الى التاريخ بتلك النظرة التي ينظر بها الباحث في العلوم الطبيعية الأخرى . [٤١٠]

ان المنهج التاريخي ، لا يمكن فصله عن مناهج العلوم الأخرى ، لان المنهج الذي يعتمد عليه المؤرخ في الكتابة التاريخية ، هو من صلب عمل فلسفة التاريخ . لذلك فإن فيلسوف التاريخ يتصدى بدراسة المناهج المختلفة [*] ، ورصد تأثير التطور في مناهج العلوم على مناهج المؤرخين ، وثمة سؤال يطرحه فيلسوف التاريخ . عن المنهج المتبع من قبل المؤرخين ، أهو منهج العلوم الطبيعية (أي المنهج التجريبي) أم هو منهج خاص بتجارب وطبيعية المعرفة التاريخية ؟ إن الإجابة عن هذين السؤالين تقتضي تقديم بعض المؤشرات التي تكشف عن التأثيرات التي تركها تطور مناهج العلوم على منهج التاريخ . ويعود الفضل في تطور العلوم الطبيعية إلى جهود الفلاسفة والعلماء ، فقد عمل الفلاسفة على تطور المنهج . أما العلماء فقد عالجوا موضوع هذه العلوم .[٤١١]

---

[٤١٠] ينظر : نصر الله ، سعدون ، المدخل الى علم التاريخ . المصدر نفسه ، ص٥٩ . وانظر ايضا : النجار ، جميل موسى ، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية .دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص١٥.

[*] وقد تمت الإشارة في المطلب الأول من هذا الفصل ، كيف ان (مونتسكيو) لم يستغني عن العلوم المساعدة في كتابة التاريخ ، وان دراسة العلوم المساعدة الأخرى ، هذا يعني معرفة مناهجها والإحاطة بها ، خاصة ما سعى إليه (مونتسكيو) ، من خلال دراسته للعلوم الطبيعية ، وبالتحديد البيئة ودورها في اشتراع القوانين .

[٤١١] ينظر : فرحان ، محمد جلوب ، الفيلسوف والتاريخ . . مطابع جامعة الموصل ، (ب،ط) ، ١٩٨٧ . المصدر نفسه ، ص٢١. وللمزيد عن علاقة التاريخ بالعلم انظر : الشكرجي ، جعفر ، المذهب التاريخي عند مانهايم . مجلة كلية الاداب والتربية ، جامعة قاريونس ، العدد الثاني عشر ، ١٩٨٣ ، ص١٤٧ .

والمنهج التاريخي هو الطريق الذي يسلكه المؤرخ ليصل في مهمة كتابة وتدوين أحداث التاريخ على أسس علمية سليمة إلى تاريخ صادق بالقدر الممكن عن طريق فحص سجلات الماضي وتحليلها وإعادة تدوينها بطريقة معقولة. [٤١٢]

" ولقد دل مونتسكيو ، على انه اسبق وأعظم من حاولوا الاضطلاع بتلك المهمة . وطبق ذلك في مؤلفاته (رسائل فارسية) و(عظمة الرومان واضمحلالهم) و(روح القوانين) ، وما قدمه من عرض واسع المدى لوقائع التاريخ والسياسة . لقد درس في المؤلفات المذكورة ، مع التجرد الهادئ الذي يوصف به العالم الطبيعي ، تطور الشعبين الانكليزي والفرنسي الدستوري وأحوالهما القائمة لعهده ، ووازن بينهما ، ثم قابل بينهما جميعا وبين نظائرهما عند الرومان وعند كل امة أخرى قديمة ذات تاريخ مسطور . ولقد أسدى الى ما لعله يكون علما للاجتماع فائدة باقية على الزمان بتوطيده ما بين الأجواء والنظم والآراء من وجوه الاتصال " .[٤١٣]

ولا بد من القول ان معرفة الماضي ، كما هو ، أي بواقعيته ، وبصورة علمية ، هدف أساسي للمؤرخين . ورغبة في تحقيق مقصدهم ، فذهب المؤرخ الى تطبيق طريقة البحث التاريخي في بحوثه التاريخية ، وكان الالماني أرنست برنهام Ernst Bernheim ، (١٨٥٠ –١٩٤٢) من الرواد الذين بسطوا قواعد طريقة البحث التاريخي وحدد برنهام طريقة البحث التاريخي ، بأنها الوسيلة التي تمكننا من الوصول الى الحقائق التاريخية. [٤١٤]

وهناك مسألة أثارها (بيوري) Bury ، حينما أعلن عام ١٩١٣ ، ان التاريخ علم لا أكثر ولا اقل . ويبدو لنا ان هذه الجملة وان لم يقلها مونتسكيو، بحرفيتها ، لكنه عمل بها بتمامها ، وكيف لا ، وهو من دعاة النهضة العلمية ، وتأثره من جانب أخر بالاستكشافات الجغرافية التي عمت العالم انذاك ، وكيف أثرت هذه الاستكشافات في بناء مستوطنات جديدة ، اسهمت في تغيير مسار التاريخ ، وفي الوقت ذاته فان مونتسكيو من مؤسسي عصر التنوير الذي لا يستبعد العلم عن أي جانب من جوانب المعرفة . [٤١٥]

وبسبب الاثر الكبير للمنهج التاريخي في البحث العلمي ، نلاحظ . أن هناك تلازماً بين البحث العلمي ومنهج البحث التاريخي ، فالمنهج التاريخي في البحث يقوم أساساً على جمع الحقائق التاريخية ، وهذه النوعية من البحوث تهدف إلى معرفة الأحداث التي جرت في الماضي ، حيث كانت معرفة الماضي تستثير الإنسان على الدوام . ويعد البحث التاريخي بحث ناقد إذ يهتم الباحثون في المنهج التاريخي بجمع الحقائق ويفحصونها وينتقون منها ويحققونها ويرتبونها وفقاً لقواعد معينة . وقد تتعلق مشكلة البحث التاريخي بتاريخ أمة أو تطور الدراسة الجامعية أو تاريخ منظمة تربوية أو تاريخ أحد من العظماء في مجال السياسة أو العلوم أو الأدب ، وكذلك يستعمل المنهج

---

٤١٢ ينظر : قسوم ، عبد الرزاق ، منهجية كتابة التاريخ . مجلة المعهد ، المصدر نفسه، ص٢٩ .

٤١٣ هرنشو ، ج ، علم التاريخ . المصدر نفسه ، ص٨٧-٨٨ .

٤١٤ ينظر : فياض ، عبد الله ن التاريخ فكرة ومنهجا . ساعدت جامعة بغداد على نشره ، مطبعة اسعد ، ط٢ ، منقحة ومزيدة ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص٣٣ .

٤١٥ ينظر : النبراوي ، فتحية عبد الفتاح ، علم التاريخ ،دراسة في مناهج البحث . دار الأفاق العربية ،ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص٢٩

التاريخي في البحث على مختلف مجالاتها مثل البحوث الخاصة بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاقتصادية والتربوية [٤١٦].

مع علمنا بوجود اختلاف في الرأي حول نشاطات الباحث التاريخي، أتعد جهوده علمية أم لا ؟ لكن هذا الاختلاف لا يمنع وجود نشاط علمي أسمه البحث التاريخي .[٤١٧]

وأصحاب الجهود العلمية في البحث التاريخي ، يذهبون الى القول : إننا نحصل على الأدلة التي تؤكد المبادئ بالاحتكام الى مواد تجريبية ، أي الى ما هو وقائع ، ونختار المواد التجريبية ، ونحللها ونعللها ، على أساس المبادئ .[٤١٨]

" وإن المؤرخ إذا ما أبتعد عن العلمية في الكتابة التاريخية يكون إمام مشكلة المشاكل في كتابة التاريخ ، هي أنه لا يكون على مستوى عالٍ من الوعي الشامل بمنطق العلاقات بين الوقائع المدروسة ، وأزمانها ، وأماكنها ، وطبيعة حدوثها ، ونتائج فاعليتها في ما يلحق من تفسير ومفاهيم تتقاسمها معادلة عقلية مدهشة على وفق منهج معتمد . هذا المنهج لا يخلقه المؤرخ ، بل هو من صناعة الفيلسوف ، لأن المؤرخ جّماع للوقائع والأحداث كما تصله من روايات زمن مضى ، والفيلسوف هو الذي يعني بدراسة معمقة للتاريخ ، يحلل الوقائع والأحداث على وفق ثلاثة معايير هي : الزمان والحقيقة والمنطق التاريخي . هذه القراءة تقوم على منهج عقلي يعتمد مقولات التاريخ وأسلوبيته ، ويستعمل القياس في قراءة التاريخ وبرهانه على قوانينه على وفق منطق تحدده أنشطة عقلية في الاستقرار والاستنباط والاستنتاج والاستدلال ، وكلها أدوات الفيلسوف " .[٤١٩]

ويذهب كولنجود ، في كتابه (فكرة التاريخ) الى " نقول إذن ان التاريخ علم من نوع خاص ، هو علم ينصرف الى دراسة الأحداث التي لا سبيل لنا الى مشاهدتها ألان ، دراسة تستند الى الاستدلال ، نستطرد فيه استنادا الى شيء اخر نستطيع مشاهدته – ذلك هو الشيء الذي يسميه المؤرخ (المادة التاريخية) لدراسة الأحداث التي يهتم بها " . [٤٢٠]

وإذا ما ذهبنا ، الى إن المنهج التاريخي له بعض صفات البحث العلمي فيعتمدون على إن ، عالم التاريخ ، يحدد مشكلة معينة للبحث ، ويضع الفروض أو الأسئلة التي تتطلب إجابة عليها ، وهو يجمع ويحلل البيانات والمعلومات الأولية وهو يختبر الفرض حتى يثبت اتفاقه وعدم اتفاقه مع الدليل وهو يضع آخر التعميمات والنتائج . وعلى الرغم من إن عالم التاريخ قد لا يكون قد شهد حادثاً معيناً ، كما العديد من الشهود الذين حضروا الحدث

---

[٤١٦] ينظر : فاطمة ، عوض صابر . ميرفت ، علي خفاجة ، اسس ومبادئ البحث العلمي . مكتبة ومطبعة الإشعاع العلمية ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص٤٣ .

[٤١٧] ينظر : بدر ، احمد ، أصول البحث العلمي ومناهجه . المصدر نفسه ، ص٢٣٧ .

[٤١٨] ينظر : كار ، ادوار ، ما هو التاريخ . المصدر نفسه ، ٦٤ .

[٤١٩] الجابري ، علي حسين ، العرب بين منطقي الحوار والصراع . دار الشؤون الثقافية العامة ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٩٦ ، ص٨ .

[٤٢٠] كولنجود ، ر.ج ، فكرة التاريخ . المصدر نفسه ، ص٤٣٥ .

ورأوه في مختلف جوانبه . فمن الممكن أن تزودنا الأحداث التاريخية بكثير من الجوانب المعرفية التي قد يغفلها المشاهد الآني .

والمنهج التاريخي يلجأ إلى عمليات مركبة نسبياً ويعتمد بشكل أساس على العنصر التاريخي ، اذ يفسر حادثة تاريخية أو ظاهرة اجتماعية حدثت في الماضي على ضوء التقلبات التاريخية لذا يمكن إطلاق صفة التاريخي على هذا المنهج الذي هو مقربة تاريخية أولى لبعض الظواهر التي حدثت في الماضي . والمنهج التاريخي يضع الأطر اللازمة التي تقوم على قواعد علمية يستعملهاا الباحثون من التاريخ لرؤية الظواهر والأحداث التاريخية بمنظار علمي من أجل تفكيكها وتحليلها وتفسيرها ، وترتبط هذه القواعد بالاتجاهات الفكرية ارتباطاً وثيقاً ، وعلى سبيل المثال ، فالاتجاه التطوري يرتبط بالمنهج التاريخي ارتباطاً وثيقاً ومنه يستمد قواعده لذلك فإننا نفسر التاريخ على وفق المنهج التاريخي على أنه سجل لماضي الإنسان ، حافل بمختلف نشاطاته وفعالياته وأفكاره ومعتقداته وقيمه ، فهو يسعى إلى تقديم وصف دقيق ، وإقامة تتابع لأحداث ووقائع حدثت في الماضي ، وبمعنى آخر ، يبحث في الفعل الاجتماعي في الماضي الذي صدر عن دافع واتخذ موقف وسعى إلى ، تحقيق غايات معينة ، فهو إذن محاولة لإعادة تركيب الأحداث تركيباً زمنياً ، أي أحداث معينة وثابتة ، أو تركيباً تزامنياً ، أي أحداث مختلفة الأزمان ينظمها على مراحل ، مثلما هو محاولة لتوصيف الأحداث بدقة وترتيبها وتصنيفها عبر الزمن ، ويسجل بيانات تتصف بالعلمية الدقيقة .[٤٢١]

والتاريخ علم ، ما في ذلك من ريب ، لأننا نستطيع ان نطلق كلمة علم على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث عن نوع واحد معين من الوقائع ، فهو علم الوقائع التي تتصل بالإخبار عن الناس في مجتمع خلال توالي الأزمنة في الماضي ، فهو على وفق هذا علم من أنواع العلوم .[٤٢٢]

ويرى عبد الرحمن بدوي ، أن مهمة التاريخ هي محاولته أن يستعيد في الذهن بطريقة عقلية صرفة، ما جرت عليه أحداث التاريخ في مجرى الزمان ، محاولاً أن يتصور مجرى هذه الأحداث وكأنه يجري في أطراد موجه . ومن حيث إن هذا لا يمكن أن يتم إلا بنوع من التجربة الحية التي يحاول المرء فيها أن يعاني في نفسه ما قد كان حسبما كان ، فإن التاريخ الحق هو ذلك الذي يستطيع أن يحيا تجارب الماضي ، كما حدثت ، في نوع من التخيل ، ولكن هذا التخيل ليس تخيلاً مبتدعاً ، بل يجب أن يقوم على أساس ما خلفته الأحداث الماضية من آثار .[٤٢٣]

---

[٤٢١] ينظر : الحيدري ، إبراهيم ، منهج ومنهجية الكتابة التاريخية . مجلة المعهد ، معهد الدراسات العربية والإسلامية ، لندن ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ١٩٩٩ ، ص١٨ .

[٤٢٢] ينظر : النبراوي ، فتحية عبد الفتاح ، علم التاريخ ، دراسة في مناهج البحث . المصدر نفسه ، ص٣٠ .

[٤٢٣] ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . المصدر نفسه ، ص١٨٣ .

ويبدو إن ما أشار إليه بدوي في هذا المجال هو دعوة من قبل فلاسفة التاريخ إلى انتهاج منهج العلوم الطبيعية ، ونقصد إيجاد منهج استقراء تاريخي يقوم على جمع أكبر عدد ممكن من الوقائع التاريخية ، بهدف الوصول إلى أحكام كلية على غرار ما هو حاصل في العلوم الطبيعية .[٤٢٤]

" والتاريخ من حيث هو علم يختلف أصلا عن العلوم الفيزيقية ، اذ انه ليس علم معاينة او تجربة ، لكنه علم نقد وتحقيق ، وكما يقول المؤرخ الألماني درويسن droyson (١٨٩٤ – ١٩٥٣) ، ان التاريخ لا يبحث فقط في الأشياء التي مضت وانقطع وجودها ، ولكن في الأشياء التي لا تزال موجودة ، سواء أكانت روايات عما وقع ام بقايا أشياء وجدت أم نتائج أحداث حدثت " . [٤٢٥]

ومما ينبغي الإشارة إليه ، ان عالم التاريخ يخضع دليله بشدة للتحليل النقدي ، وذلك للتعرف الى علميته ، وأصالته وصدقه ودقته . وحينما يقرأ عالم التاريخ نتائجه فإنه يستعمل قواعد الاحتمالات المتشابهة لتلك التي يستعملها علماء العلوم الطبيعية . وعلى الرغم من إن عالم التاريخ لن يستطيع التحكم في المتغيرات بصفة مباشرة ، فإن هذا العيب ليس قاصراً على المنهج التاريخي ، بل هو يميز البحوث السلوكية كلها خصوصاً تلك التي لا تستعمل فيها البحوث العلمية . وذلك مثل الاجتماع والسياسة وعلم النفس الاجتماعي والاقتصادي .[٤٢٦]

اما كل من لا يعد التاريخ علما ، او لا يعده من العلوم التجريبية ، فليس بإمكاننا ان ننفي عنه صفة العلم ، لأنه مهما ابتعدنا عن اعتباره علما ، فلا نستطيع إنكار انه نقد وتحليل ، وهذا يمنحه صفة العلم .

وعلى وفق ذلك صار المؤرخ المحقق ، لا يقبل الخبر إلا بعد نقده وتمحيصه وغربلته ومقارنته بين مختلف الروايات . متوخياً في ذلك الوصول إلى حقيقة تاريخية مجردة من كل طابع شخصي . ومنذ أن أخذ المؤرخون تطبيق أساليب التفكير العلمي والاستقرائي الحديث على بحوثهم التاريخية ، أخذت الهوة التي تفصل بين علم التاريخ والعلوم التجريبية تضيق بالتدريج ، وبدأ المؤرخون بجمع الوثائق وتحليلها ووضع بعض الفروض التي يمكن التأكد من صحتها ، وإذا كانت الوثائق التاريخية ناقصة ، تصبح الحاجة ضرورية إلى المقارنة ، لكن يستطيع الباحث من أن يتثبت من صدق توقعاته ، كما عليه أن يتوسع في مفهوم العلم الذي لا يدرس العام أو الكلي ولا يرمي إلا إلى الكشف عن العلاقات السببية التي تربط بين الأشياء .[٤٢٧]

واننا نرى ان التاريخ علم في حدود ما تتيحه الدراسة المنهجية وطرائق البحث العلمي ، لموضوع من موضوعاته وإتباع الأسلوب العلمي المتقن في دراسته .

---

[٤٢٤] ينظر : جلوب ، محمد فرحان ، الفيلسوف والتاريخ . المصدر نفسه . ص٢٢ .
[٤٢٥] النبراوي ، فتحية عبد الفتاح ، علم التاريخ ، دراسة في مناهج البحث . المصدر نفسه ، ص٣٠ .
[٤٢٦] ينظر : بدر ، احمد ، أصول البحث العلمي ومناهجه . المصدر نفسه ، ص٢٣٨ .
[٤٢٧] ينظر : الجوهري ، محمد ، دراسة في علم الاجتماع . دار المعارف ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص٧١ .

وأصحاب التاريخ العلمي يرون بأن التاريخ تحرر فعلاً من كونه فنا ، كما كان في العصور القديمة ، وأقترب بعض الشيء من العلوم الاستقرائية ، وأخذ المؤرخون المعاصرون لا يكتفون بوصف الحوادث وبيان تتابعها ، بل تفسيرها والكشف عن العناصر الجوهرية التي تنظمها . النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ليقفوا على أسباب تلك الحوادث التاريخية ، و أنهم لم يعودوا يتأثرون بالعوامل الفردية ولا يفسحون المجال للمصادفة أو الاحتمال .

والابتعاد عن المصادفة والاحتمال ، يعني اللجوء الى التجريبية ، التي تعني أن تتوقف المعرفة عند الموضوع المدرك بحيث يصبح للذات المدركة أثر ضئيل ، وإذا كانت المعرفة التاريخية تقوم على علاقة بين طرفين (المادة التاريخية وعقل المؤرخ)، فإن أثر الفلسفة التجريبية ومبدأ الشك عند كل من ديكارت ، وجون لوك ، وديفيد هيوم ،على الشارع يعني أن المعرفة التاريخية تقوم على المادة التاريخية وليس على عقل المؤرخ ، مما رسخ مفهوم الحيادية والموضوعية في عرض المادة التاريخية شأنها شأن موضوع علم الطبيعة ، وإن إنكار هؤلاء التجريبيين (لوك ، وهيوم) للأفكار الفطرية لدى الإنسان جعلها أقرب إلى التاريخ ، لأن المادة التاريخية واقعية تجريبية ، لا مجال فيها للقول بنظرية الأفكار ، وهذا يجعل التاريخ أقرب إلى العلم الطبيعي . وإن ظهور الاتجاه العقلي متمثلاً بالمنهج التجريبي في دراسة التاريخ بدلاً من الاتجاه الغيبي في تفسير الأحداث التاريخية ، كان له أكبر الأثر في ابتعاد المؤرخين عن الخوارق والأساطير والمعجزات في تفسير الحوادث ، مما أدى إلى انحسار التوجه الديني في تسجيل سير القديسين والمناسبات الدينية الخاصة بالكنيسة والنظر الى أحداث التاريخ ، إنما هي نظرة واقعية نابعة من التجربة المستوحاة من المادة التاريخية وليست من ذهنية المؤرخ ، وهذا الاستنتاج العلمي ، اسهم في تشكيل أروع صورة للمعرفة التاريخية .[٤٢٨]

لذلك فإن استحداث المناهج واستعمالها في مجال التاريخ ، هدفه بلوغ أقصى حالات الصدق في عملية التدوين العلمي التاريخي ، لذلك فالمنهج التاريخي والتدوين التاريخي حالتان متلازمتان من أجل هدف محدد ، فلا يمكن للمؤرخ في عملية التدوين الاستغناء عن المنهج الذي يعتمد عليه المؤرخ في الكتابة التاريخية ، وهو من صلب عمله .

وإن التدوين التاريخي هو إعادة بناء التصور لأحداث الماضي ، من وجهة نظر المؤرخ وفقاً لما توفر لديه من أدلة ووثائق – مادة تاريخية ، باستعمال المنهج المناسب في بلوغ الحقيقة التاريخية لتلك الأحداث ، وقد مرت عملية التدوين بمراحل متعددة (*) وكانت لا تستغني عن المنهج في كل مرحلة من مراحلها .[٤٢٩]

---

[٤٢٨] ينظر : الدليمي ، حامد حمزه ، فلسفة التاريخ والحضارة . المصدر نفسه ، ص٩٧ .

* وهذه المراحل بدأت منذ العصور القديمة وحتى وقتنا الحاضر فضلا عن التطور السريع الذي رافقها في ميادين المعرفة وات اول مرحلة هي اختراع الكتابة ومن ثم في المرحلة الثانية تم تسجيل التشريعات والقوانين ثم دونت النصوص الادبية والشرائع الالهية والمواثيق والمعاهدات بين الامم وفي المرحلة الثالثة والتي مثلت العصور الرومانية بدأ تدوين الاحداث على وفق اسلوب الحوليات اعتمادا على السجلات الرسميه للمؤسسة الدينية ، وفي المرحلة الرابعة والتي مثلت العصور الحديثة بدأ تدوين التاريخ على وفق المنهج العلمي الحديث وعلى اساس ما احرزته العلوم الانسانية من تطور . للمزيد ينظر سارتون ، جورج ، تاريخ العلم . ج١ ، تر ، مجموعة من المفكرين العرب ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص٧٤ ، ١٥٢ . وانظر ايضا : ديوارنت ، ول ، قصة الحضارة . ج٢ ، الشرق الادنى ، تر ، محمد بدران ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص٨٩ .

[٤٢٩] ينظر : الدليمي ، حامد حمزه ، فلسفة التاريخ والحضارة . المصدر نفسه ، ص٩١ .

" والتاريخ علم نقد وتحقيق ، وإن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته ، لكي يستخلص ما يمكن استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء . ولكن المؤرخ يزيد عن الجيولوجي بأنه يدرس ويفسر العامل البشري الإرادي والانفعالي ، ومن ثم يقترب بقدر ما يمكن من الحقائق البشرية " .[٤٣٠]

" وفي علم طبقات الأرض ، نجد ان منهج التثبت من الفترات الجيولوجية المتعاقبة الى حد بعيد ، هو منهج التثبت من الوثائق التاريخية ، هذا فيما عدا ان الوثائق هنا هي صخور وحجارة . إذن دراسة التاريخ تنطوي على عنصر من عناصر العلوم الطبيعية . ومعنى هذا ان هناك بعض قطاعات التاريخ ، لا يناسبها إلا المنهج العلمي ، ذلك ان دراسة البيئة الطبيعية والجغرافية ، وتأثيرها على قصة الإنسان ، وأيضا في تحليل القوى الاقتصادية والاجتماعية ، وتأثيرهما على تكوين الناس وسلوكهم في المجتمع " . [٤٣١]

وبذلك " وتكمن أهمية استخدام المنهج التاريخي في أنه يمكن من خلال دراسة الأحداث الراهنة والاتجاهات المستقبلية في ضوء ما حدث في الماضي حتى يمكن بذلك تقويم ديناميكية التغيير أو التقدم أو تحقيق المزيد من الفهم للمشكلات المعاصرة وإمكانية التنبؤ بالمشكلات التي قد تنجم مستقبلاً وبذلك يحقق البحث التاريخي مزية مزدوجة من حيث الاستفادة من الماضي للتنبؤ بالمستقبل والاستفادة من الحاضر لتفسير الماضي . وعلى الرغم من أن طبيعة البحث التاريخي قد لا تؤدي إلى التوصل إلى قوانين علمية ثابتة ، ولا تؤدي إلى التوصل إلى نظريات محددة . فإن ذلك لا يقلل من قيمة وأهمية البحث التاريخي ، فقد يكفي إسناد صفة العلم إلى موضوع ما، أن يقوم الباحث بدراسته مسترشداً بالأسلوب العلمي لمحاولة الوصول إلى الحقيقة " .[٤٣٢]

" والمنهج التاريخي يتصل بنوع مادة الحقل وخصوصيتها من جهة ، ويتصل بالشروط العامة لعلم المناهج من جهة ثانية ، وبخاصة من حيث البحث عن الأدوات المناسبة ، وأدوات التدقيق في الوثيقة أو المادة ، والتحقق من الخلاصات والنتائج ، والعلم برمته يتصل كذلك بالفلسفة من جهة القاعدة النظرية والأغراض والمعنى ، وفلسفة التاريخ زاخرة بأسماء كبرى من هيرودت إلى هيجل إلى فوكوياما (*) الذي حاول اختزال الفلسفات السابقة للتاريخ في فلسفته التي تعد الليبرالية الديمقراطية هي النظام الذي تتلاشى امامه الانظمة والفلسفات الاخرى ، إلى هنتنجتون (*) .[٤٣٣] كما لا بد من القول ، إن المنهج

---

[٤٣٠] هرنشو ، ج ، علم التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٢-١٣ .

[٤٣١] راوس ، أ . ل ، التاريخ أثره وفائدته . مؤسسة سجل العرب ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص١٠٢ - ١٠٣ .

[٤٣٢] فاطمة ، عوض صابر . ميرفت ، علي خفاجة ، اسس ومبادئ البحث العلمي . المصدر نفسه ، ص٤٤ .

* فرانسيس فوكوياما : ولد عام ١٩٥٢ ، احد الفلاسفة المعاصرين ياباني الأصل ، أمريكي الجنسية . هو دبلوماسي وأكاديمي أمريكي ، منظرا في فلسفة التاريخ ومنطق الحضارة . اعتبر كتابه نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، من أهم ما ظهر في مؤلفات العقد الماضي في تقديم هذا الإطار الفكري وترجع فكرة هذا الكتاب الى مقال حمل نفس العنوان (نهاية التاريخ) كتبه في صيف عام ١٩٨٩ ، بين فيه أهمية النظام الليبرالي الذي بدا يزحف على بقية أجزاء العالم مؤكدا ذلك بانتصاراته المتتالية على الأيدلوجيات الأخرى كالملكية والفاشية وأخيرا الشيوعية ، حيث يشكل النظام الرأسمالي ربما المرحلة النهائية في التطور العقائدي للجنس البشري ويعتبر الوصول إليه هو نهاية التاريخ . انظر : العلوي ، نهاوند علي ، فلسفة التاريخ من منظور فكر غربي معاصر دراسة لـ كارل بوبر وفوكوياما وهنتنغتون ، العولمة وتأثيرها في العالم العربي . المصدر نفسه ، ص٦٨ .

* صموئيل هنتنغتون : ولد عام ١٩٢٧ وتوفي عام ٢٠٠٨ ، أمريكي من اصل يهودي متخصص في الإدارة العامة . دار معهد جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد ، كرس حياته المهنية لموضوع الإستراتيجية العسكرية ، بحثا وتدريسا ، اهتم بالدراسة المقارنة في مجال علم السياسة

التاريخي يعد أول المناهج النقدية ظهوراً في العصر الحديث ، فقد ارتبط بالفكر الإنساني وبالتطور الأساس له ، وبهذا كلما تطور الفكر الإنساني ، كلما تطورت مناهج تفكيره ، فكان المنهج التاريخي يتطور مع تطور الإنسان وملاءمته لمناخات عصره ، فمن غير المنطقي ان تكون هناك نهضة شاملة في أوروبا ، وفي شتى ميادين المعرفة ، ويبقى المنهج التاريخي بعيدا عن هذه النهضة .

" وإن المثل الأعلى لكتابة التاريخ كتابة علمية ، يقف عند القرن السابع عشر وذلك لأن أحوال أوروبا والعالم كانت قد بلغت حينئذ حداً في البناء والتشكل والاستقرار بحيث تصلح عصوره مادة للدراسة العلمية الرصينة . وعندهم أن القرن الثامن عشر قد شهد أحداثاً وتطورات جديدة شملت مختلف مرافق الحياة من اختراع وصناعة وأتساع سياسي من نوع جديد ، ومن أفكار ثورية سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة ، ومن أساليب مبتكرة في الفنون والآداب والعلوم مما لا تزال تؤثر في مصير العالم حتى الوقت الحاضر ،على نحو كفيل بأن يؤثر في الباحث ، بحيث يتعرض لتيارات جارفة من شأنها أن تقلل من مقدرته على دراسة التاريخ دراسة علمية موضوعية خالصة من التمييز والهوس بقدر المستطاع ، وبإسناد المهمة إلى منهج تاريخي صحيح قائم على أساس الموضوعية والواقعية المتوخاة من قبل المؤرخ فيخلص المؤرخ بكتابة تاريخية ذات معنى وحقيقة " . [٤٣٤] وعليه لا يمكن أن يطالعنا التاريخ ، إلا من خلال منهج البحث التاريخي ، الذي يتحدد بناءً على ثقافة الباحث ، وإلمامه بطريقة البحث التاريخي ، واستعداده الشخصي وملكاته ، وكثيراً من كتب التاريخ تعد من أنضج ثمرات العقول لنضج عقلية المؤرخ ، وثقافته الواسعة ، وعلميته ، وخبرته الوطيدة ، وتبصره ، ونجاحه في إعطاء وحدة واضحة جامعة ، وبناء حقيقة تاريخية شاخصة . [٤٣٥] وبناءا على هذه المعطيات ، فان المنهج التاريخي ، علمي في حدود ، أي نتائجه تخضع للتحقيق والاتفاق بين الخبراء وعدم الاتفاق بينهم عن فهم وإدراك . [٤٣٦]

المبحث الثاني : تطبيقات المنهج التاريخي في عصر مونتسكيو .

المطلب الأول: تطبيقات المنهج التاريخي في عصر مونتسكيو ،(كانت) موضوعا.

لم يكن اختيار الباحث للفيلسوف (كانت) موضوعا ، للبحث في تطبيقات المنهج التاريخي ، ومن خلال فلسفة التاريخ في عصر مونتسكيو، بالأمر العشوائي ، بل قام على أساس ان الفيلسوفين ، كلا منهما مثل اتجاها فلسفيا ، يمثل المدرسة الفلسفية التي ينتمي إليها ، فلم يعد خافيا ، ومن خلال سير بحثنا في فلسفة التاريخ عند مونتسكيو، انه مثل الاتجاه النقدي ، الواقعي العلمي ، الوضعي . في المقابل فان (كانت) مثل المدرسة المثالية

الأمريكية وسياسة دول العالم الثالث وقد أسندت إليه مابين العامين ١٩٧٧ و ١٩٧٨ مسؤولية قسم التحليل والاستشراق بمجلس الأمن القومي الأمريكي . انظر ، الجابري ، محمد عابد ، قضايا في الفكر المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ص٩٣

[٤٣٣] شيا ، محمد ، مناهج التفكير وقواعد البحث ، المصدر نفسه ، ص١١٩ .

[٤٣٤] يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص١١٩ .

[٤٣٥] ينظر : عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . المصدر نفسه ، ص٢٣ .

[٤٣٦] ينظر : جوتشلك ، لويس ، كيف نفهم التاريخ . المصدر نفسه ، ص٢٠ .

الألمانية [*] التي حملت أراء في فلسفة التاريخ ، تختلف تماما عن أراء مدرسة مونتسكيو، الوضعية في التاريخ ، فكان سعينا دؤوبا ، لمحاولة إيجاد مواطن الاختلاف والاتفاق بين الفيلسوفين ، وهل كان (كانت) الفيلسوف الألماني ، والذي مثل الفلسفة في ألمانيا وخارجها ، قد تماشى مع فيلسوفنا ، في موضوع منهج أعظم فلاسفة العصر الحديث قاطبةً " [٤٣٧] ، ويعد أيضاً من أهم الفلاسفة المحدثين [٤٣٨] ، بل انه من " أعظم الفلاسفة في العصور " . [٤٣٩]لا سيما وان فلسفته كانت جسراً بين عصر التنوير الذي يؤمن بالعلم كثيراً ويصلح لمعرفة كل معضلة إنسانية ومعالجتها ، وبين عصر الرومانسية الذي يبحث في الدين والفلسفة في البحث التاريخي ، ام لا .

ويعد (كانت) من " أسس للأخلاق مختلفة كلياً· وتغلغل عقله الجبار في آفاق تقع ما وراء حدود حركة التنوير . فأحدث ما اسماه " بالثورة الكوبرنيكية " ـ نسبة لكوبرنيكوس ـ في الفلسفة [٤٤٠]. لذلك كان (كانت) ، بدوره " بمثابة المنعطف التاريخي البالغ الأهمية " .[٤٤١] لا سيما وان كانت يعد مؤسس الفلسفة المثالية (النقدية) [٤٤٢] أو (المتعالية) [*].

لقد كان عصر (كانت) ، عصراً مزدهرا ، ازدهرت فيه المعارف والآداب ، وعاش فيه رجال مرموقون نابهون أمثال هردر وجاكوبي وجوته [٤٤٤]، وقد أحاط (كانت) بمجمل الثقافة الألمانية في عصره ، وواصل تأملاته بصحبة ثلاثة من المفكرين من غير الألمان هم : نيوتن وهيوم وروسو، وجميعهم اثروا فيه ابلغ التأثير . اذ تلقى عن نيوتن فكرته عن علم الطبيعة الرياضي ، الذي يعني الفحص عن القوانين التي يمكن التعبير عنها

---

* المذهب المثالي التصوري او الذاتي . يفسر دعاة هذا المذهب ، العالم المادي تفسيرا عقليا روحيا فيقولون ان الوجود هو الإدراك ، اي ان وجود الأشياء معناه إننا ندركها ، وللمدرك معنى وغير المدرك لا وجود له ، والمادة لا تدرك في ذاتها باعتراف القائلين بالمادة ، إنها معنى مجرد لا يمكن تصوره بعيدا عن كيفياته ، وهذه اللامادية ، لا تنكر وجود المحسوسات بدليل إننا ندركها ، فهي لا تحول الأشياء الى معان ، بل انها تحول المعاني الى أشياء- فيما ذهب باركلي ولكنه فطن الا ان الادراكات الحسية مستقلة عن العقل الذي يدركها ، ولهذا حاول تفسيره على إنها موجودة في العقل الإلهي . اما وجود عالم خارجي فليس في وسعنا ان نقيم عليه دليلا ، بل ان مرد افتراض وجوده الى الخطأ في تفسير الظواهر العقلية ، وكل الأشياء التي ندركها هي الظواهر المتضمنة في تتابع أفكارنا وتعاقب خواطرنا . للمزيد انظر :
A.C, Ewing ; Idealism . A.C ritical Survey . London , Methuem and Co . Ltd . Barns and Noble Books , New York , 1974 ,P2.

٤٣٧ سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص ٢٩٢.

٤٣٨ رسل، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث ، تر : محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،(ب،ط) ، القاهرة، ١٩٧٧، ص٧٥.

٤٣٩ الشكرجي ، جعفر ، الفن والأخلاق في فلسفة الجمال ، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ،٢٠٠٢ ،ص ٧٨ .

٤٤٠ سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، المصدر نفسه ، ص ٢٩٢. وللمزيد انظر : رسول ، محمد رسول ، النقدية الكانتية . افاق عربية ، بغداد ، العدد ٤ ، ١٩٩٧ . ص٦٥- ٦٨ .

٤٤١ سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، المصدر نفسه ،ص٢٥٥ .

٤٤٢ سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، المصدر نفسه ،ص٢٥٥ .

* المثالية المتعالية أو النقدية : وهو مصطلح يشير إلى نوع من المثالية الفلسفية يمثله كانت وأتباعه، وهي تحاول البرهنة على ان الأشكال القبلية للوعي هي الشرط لمثل هذه الحقائق ، وتدرس إمكانية تطبيق هذه الأشكال في كل من إطار التجربة وورائها . سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، المصدر نفسه ، ٤٥٦ . كما انها تعني في صورة اخرى انها نظرية العناية الإلهية التي صاغها الفكر الديني على يد القديس أوغسطين ، وهي تفسر حركة التاريخ تفسيرا لا يخرج حتى في تفصيلاته وجزئياته عن الإرادة الإلهية ، اذ هي تسير تلك الحركة وتدفع بها حيث تشاء وربما بمعزل كلي عن ارادة الإنسان ، وفيها الإنسان محكوم بقوة غيبية ، هو مضطر للرضوخ لها ، ولقبول إرادتها ، على اعتبار انها الموجه الأول للتاريخ انظر :

٤٤٣ Sullivan .John Edward . Prophets of the west .An Introduction to the Philosophy of History. Holt. Rinehart and Winston . Inc . New york .1984. p.4.

٤٤٤ لمزيد من التفاصيل عن هؤلاء انظر: الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . المصدر نفسه ، ص٢٦٣- ٢٥٣ ؛ بدوي ، موسوعة الفلسفة ، ص٣٥٦- ٢٥٤.

بلغة الرياضي ، ولم يعد بحثاً عن العلل والكائنات كما كان شأنه عند ديكارت ، واتضحت ضرورة الاعتماد على التجربة واستحالة استخلاص القوانين الطبيعية من التصورات المجرد .[٤٤٥]

أما (هيوم)، فهو، باعتراف (كانت) نفسه ، الذي " أيقظه من سباته القطعي " ، بما أثاره من شكوك حول النظرة الشائعة عن العلية[**]. فقد بيّن هيوم، ان الاعتقاد السائد بين الناس من إن المعلول يتبع العلة بالضرورة ، هو اعتقاد لا يستند إلى أساس سليم ، فاثبت (كانت) ان الرابطة الموجود بين العلة والمعلول هي مجرد ظاهرة نفسية داخل الإنسان بحكم وجود قوة الميل الى التوقع .[٤٤٦]

مونتسكيو ، لا يتفق مع (كانت) في هذه النظرة او الظاهرة الوجدانية ، ولم يذهب مونتسكيو ، أبدا الى ان التاريخ يفسر بالميول والتوقعات ، لان المنهج التاريخي عنده ، يقوم على رؤيته الفلسفية ، المتجسدة في ذلك المنهج ، ورؤيته ، إنما هي رؤية علمية واقعية . بيد ان المنهج التاريخي عند (كانت) كان نابعا ، من فلسفته المثالية للتاريخ ، التي تقوم على أساس الفكرة وتأملاتها .

أما روسو، فقد اخذ (كانت)عنه شعوره العميق بيقين الضمير الذي نستشعره في وجداننا استشعاراً مباشراً لا ريب فيه[٤٤٧] . كما تأثر في كتابة التاريخ بكتاب هردر، أفكار في فلسفة تاريخ[٤٤٨] الإنسانية[٤٤٩] .

والباحث الذي ينوي البحث والدراسة ، عن تطبيقات المنهج التاريخي عند (كانت) ، يجدها من خلال دراسة فلسفة التاريخ عنده ، فقد لخص (كانت) ، فلسفته في التاريخ ، التي أدت به الى تسع نقاط يستعملها الباحث في تطبيقاته للمنهج التاريخي ، ومن الجدير بالذكر ، إننا سوف نستند في دراستنا لفلسفة التاريخ ومنهج البحث التاريخي عنده الى ما ترجمه عبد الرحمن بدوي ، من نصوص مختارة في كتابه (نظرة[*] في التاريخ العام بالمعنى العالمي)[**]

---

٤٤٥ مبروك ، امل ، الفلسفة الحديثة ، المصدر نفسه ، ص١٧٣- ١٧٤

** العّلية : وهي المقولة التي تعكسه الترابط الداخلي وعلاقة الضرورة بين الحوادث التاريخية . انظر: سدني، هوك ، البطل في التاريخ ، ترجمة مروان الجابري ، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٥٩، ص١٢.

٤٤٦ مبروك ، امل ، الفلسفة الحديثة ، دار التنوير للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠١١، ص١٧٤.

٤٤٧ مبروك ، أمل ، الفلسفة الحديثة . المصدر نفسه، ص١٧٤.

٤٤٨ ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة . المصدر نفسه ، ص٦٤.

٤٤٩ للتفاصيل عن الكتاب انظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ص١٥٩ -١٦٠ .

* " النظرة ، وأحيانا نستخدمها (الفكرة) ، يقصد بها كانت المبدأ الذي نهتدي به في التفسير ، ونستطيع على ضوئه النظر إلى الحقائق لعله يعيننا على فهمها أو إنارة الطريق إلى هذا الفهم . " . انظر : كولنجود ، فكرة التاريخ ، المصدر نفسه ، ص١٧٨ ،

** " إن الفيلسوف كانت قدم في كتابه هذا ، أراء قيمة بالنسبة إلى الصلة الوثيقة بين التفكير الفلسفي والكتابة التاريخية والى الحلول التي طرحها لبناء فلسفته للتاريخ ، وان اقتراحه بضرورة كتابة تاريخ عالمي من وجهة النظر الفلسفية يمثل مرحلة متطورة في الفهم التاريخي " . انظر : ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة . المصدر نفسه ، ص٦٤ .

وهي الترجمة الوحيدة المتوفرة (*) ، وهذه النقاط هي :

أولا : يقول كانت " كل الاستعدادات الطبيعية لكائن ما قد هيئت على نحو من شأنه ان تتحقق كاملة ذات يوم وفقا للغرض المنشود " .(٤٥٠)

" ان كل الاستعدادات الطبيعية للمخلوق تتحد بحيث تتطور يوما ما على نحو كامل طبقا لغاية . وهنا بين (كانت) ان التاريخ يتحرك وفقا للعلل الغائية وليس وفقا للعلل الفاعلة ، فالغائية حالة في الطبيعة ، وهو ما عرض له من قبل في " نقد ملكة الحكم" الغائية هي حلقة الوصل بين المعرفة وموضوع "نقد العقل الخالص" والأخلاق موضوع "نقد العقل العملي" فالحكم الجمالي والحكم الغائي من نفس نوع الحكم التاريخي . فالغائية في الطبيعة والفن والتاريخ هي نفس الغائية " .(٤٥١)

وهنا لا يتفق مونتسكيو ، مع (كانت) ، في طرحه هذا أبدا ، لان الأول يرفض تماما القول بان التاريخ يتحرك وفقا للعلل الغائية ، وان القوى الفاعلة في التاريخ ، هي التي تلعب دور المحرك الأساسي له ، وقد مر علينا هذا ، عندما درسنا اثر الطبيعة في صنع التاريخ ، فقد كانت البيئة عند مونتسكيو، هي التي تحرك التاريخ ، حتى انه رفض ان تكون قوة عمياء هي التي تحرك التاريخ ، وان للطبيعة قوانين ، هي الأولى ، ومما يثيت رأينا ، قوله " قوانين الطبيعة هي قبل جميع هذه القوانين " (٤٥٢) ، وهذه القوانين مثلت القوى الفاعلة . أما (كانت) ، فقد عبر عن رأيه هذا في التاريخ ، بأنتمائه للمدرسة المثالية التي قدمت الفكرة على المادة .

ثانيا : " لا بد ان تتحقق في الإنسان (بوصفه الكائن العاقل الوحيد على ظهر البسيطة) تلك الاستعدادات الطبيعية التي تهدف الى استخدام العقل ، تتحقق كاملة في النوع لا في الأفراد " .(٤٥٣)

" ان الاستعدادات الطبيعية عند الإنسان ، باعتباره المخلوق الوحيد العاقل على الأرض والتي تؤهله لاستعمال عقله ، لم تحصل على تطورها الكلي في الفرد بل في النوع وحده فالتقدم عند (كانت) ، ليس تقدما في الفرد بل

---

* يعتقد الباحث ان هذه الترجمة هي الوحيدة المتوفرة في المكتبة العربية ، ويذكر بدوي ، في كتابه النقد التاريخي وفي هامشه عن النص الأول لهذا الكتاب " هذا المقال كتبه كانت عام ١٧٨٤ ، وترجمناه عن المجلد الثامن من مجموع مؤلفات كانت الألمانية " ، ودلالة إنها ترجمة فريدة ، إننا وجدنا جميع من كتب بالعربية عن كانت وفلسفته في التاريخ ، يستند إلى ترجمة بدوي هذه ، وأبرزهم عبد الجبار ناجي في كتابه فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة .

٤٥٠ كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . تر ، عبد الرحمن بدوي في كتابه النقد التاريخي . المصدر نفسه ، ص٢٨٣ . وانظر ايضا : حميش ، سالم ، الموسوعة الفلسفية العربية . مج٢، معهد الإنماء العربي ، ط١، بيروت ، ١٩٨٨، ص١٢١٢.

٤٥١ لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٢ .

٤٥٢ مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١٤ .

٤٥٣ كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . تر ، عبد الرحمن بدوي في كتابه النقد التاريخي . المصدر نفسه ، ص٢٨٣ .

تقدم في الإنسانية من حيث هو كل شامل ، فالفرد ميدان حرية الارادة ، ولكن النوع ميدان قوانين الطبيعة الثابتة ، وتطورها طبقا للميول والاستعدادات الطبيعية " . [٤٥٤]

ويجد الباحث ان التقدم في الإنسانية عند مونتسكيو ، يختلف عنه عند (كانت) لان التقدم عند صاحبنا ، هو مدى التقدم الذي يحرزه الإنسان في توافقه مع القوانين ، التي تمثل ضرورات الأشياء التي ترتبط بعلاقات ضرورية فيما بينها ، ولا تتحرك القوانين وفقا لميول الإنسان الطبيعية بل وفقا لقوانين الطبيعة الضرورية . وان النوع البشري عند مونتسكيو ، كان يسير نحو إيجاد مساحات خاضعة للقانون . لكنه لم يهمل الميول الطبيعية وجعلها تأتي بعد طبيعة القانون ، اذ يقول " يوجد بين طبيعة الحكومة ومبدئها فرق ، قائل ان طبيعتها هي التي تجعلها كما هي وان مبدأها هو الذي يجعلها تسير ، واحد الأمرين هو كيانها الخاص ، والأمر الأخر هو الميول البشرية التي تحركها " . [٤٥٥]

وتهدف الدراسة الفلسفية للتاريخ عند (كانت) الى بلورة المفهوم التقدمي التفاؤلي لمستقبل البشرية مع مزيدا من الثقة في قدرة الانسان على توجيه التاريخ وجهة اخلاقية تمكننا من الانخراط في مواطنة عالمية ، وذلك من اجل التخفيف من وطأة الانتماء ومن ثقل الذاكرة التاريخية . [٤٥٦]

وتتفق أراء مونتسكيو ، مع أراء (كانت) ، في أن التقدم يجب أن لا يكون تقدما جزئيا بل على مستوى الكل ، وقد عبر عنه مونتسكيو، بمصطلح الروح العامة حيث يقول " تسيطر على الناس أشياء كثيرة ، الإقليم والدين والقوانين ومبادئ الحكومة وأمثال الأمور الماضية والعادات والأطوار ، فيتألف من ذلك روح عامة تنشأ عنه " . [٤٥٧]

وقد سجًل (التاريخ) أهمية بالغة بالنسبة لـ (كانت) لأنه كان يعد " التاريخ قصة تربية الجنس البشري الهادفة الى السير نحو الحرية الخاضعة للقانون " . [٤٥٨] وان الميول الطبيعية لدى الإنسان ، إنما تتمثل في محاولته إيجاد قانون ، يكون بمثابة مسلمة لبناء القانون ، الذي يعد دربا للحرية .

وكذلك كان يعتقد بالعلاقة القوية بين الفلسفة والتاريخ وهما يتميزان عن العلوم الطبيعية ، فواجب الفيلسوف بالنسبة للتاريخ ، حسب (كانت) ، تبيان ان المرئيات الأولى هي مسائل واقعية ومعقولة لأنها تتبع خطة معقولة ، وتسير نحو غاية يقرها المنطق الخلقي ، وينقل لنا لسنج قول كانت في كتابه (في السياسة والسلام الدائم): " لو نظرت الى تاريخ الجنس البشري كوحدة وجدته يحقق خطة خفية للطبيعة قد دبرتها ـ الطبيعة ـ وقادت إليها ،

---

[٤٥٤] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٢ . وللمزيد انظر : الهوني ، حنان عبد السلام ، التقدم الحضاري والاخلاقي ، دراسة تحليلية مقارنة في تفسير الحضارة . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة قاريونس ، ٢٠٠٤ ، ص١٢٨ .

[٤٥٥] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٦ .

[٤٥٦] سمير ، بلكفيف ، فلسفة التاريخ عند كانت من الفهم المتعالي الى الفهم المحايث ، ابن النديم للنشر والتوزيع ، ط١ ، الجزائر ، ٢٠١٣ ، ص١٣٦ .

[٤٥٧] للمزيد انظر : مونتسكيو ، روح ، المصدر الشرائع . ج١ نفسه ، ص٤٣٥ .

[٤٥٨] سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص٢٩٨ .

وأرادت بها ان يسود في العالم نظام سياسي يتيح لكل الملكات والمواهب ان تنمو بصورة متكاملة ... نعم لو لم يسر التاريخ نحو تلك الغاية التي قصدت إليها الطبيعة لكان الأمر عبثاً يدور في حلقة مفرغة " .[459]

ثالثا : يقول (كانت) ، " لقد أرادت الطبيعة ان ينتج المرء بنفسه من نفسه كل ما يتجاوز نطاق التنظيم الآلي لحياته الحيوانية ، والا يشارك في أي سعادة او كمال آخر غير ذلك الذي أوجب لنفسه بعقله وهو حر من الغريزة " .[460]

ويشرح لسنج ، ذلك بقوله " لقد أرادت الطبيعة ان يستمد الإنسان كليته من ذاته كل ما يتجاوز التدبير الآلي لوجوده الحيواني ، وإلا تشركه في اية سعادة او كمال إلا ما يحصل عليه بنفسه بعقله الخاص مستقلا عن الغريزة . فالانسان يتمتع بإرادة حرة وهبتها له الطبيعة حتى ينال بها كماله ، فالتاريخ لا ينفصل عن كمال الإنسان " .[461]

ويشترك مونتسكيو، مع (كانت) ، في أنهما من فلاسفة التنوير ، وطالما كان الأمر كذلك ، فقد تحتم عليهما ، الإيمان بالعقل ودور العقل في منح الحرية للإنسان ، وتغليبه لقضايا المنطق والواقعية ، والقضايا العقلية ، على حساب القضايا الأخرى ، ويرى مونتسكيو، في واقعيته ان حرية الإنسان تمنحها له القوانين الناجمة عن نوع البيئة التي يعيش فيها .

واللافت ان المدرسة الألمانية كانت من أكثر المدارس العقلانية اهتماماً في بالكتابة التاريخية بفلسفة التاريخ ، فقد تصدرت قائمة الانتاجات القيّمة عن الكتابة التاريخية الشاملة منذ حوالي القرن الثامن عشر للميلاد ، متمثلة بانجاز مجموعة من المؤلفات التاريخية تحمل عنواناً رئيساً : (تاريخ العالم) و (التاريخ العالمي) و (دراسات في التاريخ البشري) ، وهو تطور يناقض موقف المفكرين البريطانيين من الكتابة التاريخية العقلانية ومن فلسفة التاريخ ، التي عدوها مجرد محاولة في مجال التاريخ تشابه ما قام به فلاسفة الطبيعة في مجالهم ، وهم يرون في كلتا الحالتين مجرد سخافة .[462]

---

[459] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٢. وانظر : هيجل ، في الفرق بين نسق فيشته ونسق شلنج في الفلسفة ، ترجمة وتقديم وتعليق ناجي العولني ، المنظمة العربية للترجمة ،ط١، بيروت ، ٢٠٠٧ ،ص١٤ . و الديدي ، عبدالفتاح ، فلسفة هيجل .مكتبة الانجلو المصرية ، (ب،ط)، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٣٥.

[460] كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . تر ، عبد الرحمن بدوي في كتابه النقد التاريخي . المصدر نفسه ، ص٢٨٤ .

[461] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٣ .

[462] ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة . المصدر نفسه ، ص٦٢.

رابعا : أكد كانت على " ان الوسيلة التي تتذرع بها الطبيعة من اجل تحقيق النمو في كل استعداداتها هي التعارض فيما بينها داخل الجماعة طالما كان هذا التعارض مؤديا في النهاية الى نظام قانوني " . [٤٦٣]

" ان الوسيلة التي تستعملها الطبيعة من اجل تطور استعدادات الإنسان كلها على نحو كامل ، هو تعارضها داخل المجتمع ، بالرغم من ان هذا التعارض هو في نهاية الأمر السبب في التنظيم الطبيعي لهذا المجتمع . فتعارض الاستعدادات مثل الغرائز والميول والعواطف ، والانفعالات هي السبب في تنظيم المجتمع وإقامته على اسس عقلية شاملة " . [٤٦٤]

ويتفق مونتسكيو ، مع (كانت) في هذه النقطة اذ يقول " وكلما اتصل بعض الشعوب ببعض سهل عليها ان تغير أطوارها ، وذلك لان كل واحد منها يكون منظرا للأخر ، فترى غرائب الأطوار أحسن من قبل ، والإقليم الذي يجعل الأمة محبة للاتصال يجعلها محبة للتغيير أيضا ، والإقليم الذي يجعل الأمة محبة للتغيير يوجب ان تجعل لنفسها ذوقا " . [٤٦٥]

خامسا : لقد توصل (كانت) الى ان " المشكلة الكبرى للنوع الإنساني والتي ارغمته الطبيعة على ان يجد لها حلا ، هي الوصول الى تكوين مجتمع مدني (برجوازي) يحكمه قانون عام " . [٤٦٦]

ويرى لسنج " ان المشكلة الإنسانية للجنس البشري التي تفرضها الطبيعة على الإنسان كي يحلها ، هي تحقيق مجتمع مدني يقوم على قانون شامل . فالغاية من التقدم هو تأسيس مجتمع مدني ، وان يعيش الإنسان مع غيره تحت قانون وفي نظام يقوم على العدالة " . [٤٦٧]

ان التأسيس لمجتمع مدني تسوده العدالة كان من أساسيات فلسفة التاريخ عند مونتسكيو، ، ويصف حالة زوال العدالة ، وضرورة وضع القوانين المدنية ، بقوله " عندما يصبح الناس في مجتمع يفقدون حسن ضعفهم ، وتزول المساواة التي كانت بينهم ، تبدأ حال الحرب . والناس اذ هم عائشون في مجتمع يجب حفظه تكون لهم قوانين سائدة لصلة الحكام بالرعية ، وهذه هي الحقوق السياسية ، ويكون للناس أيضا ، من القوانين ما يسود صلة جميع الآهلين فيما بينهم ، وهذه هي الحقوق المدنية ". [٤٦٨]

---

[٤٦٣] كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . ص٢٨٥ .

[٤٦٤] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٣ .

[٤٦٥] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٤٣٨ .

[٤٦٦] كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . تر ، عبد الرحمن بدوي في كتابه النقد التاريخي . المصدر نفسه ، ص٢٨٧ .

[٤٦٧] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٣ .

[٤٦٨] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١٧ .

ولم يكن (كانت)بعيداً عن الفلسفة الألمانية في مناخها العام ، والمعروف بالمناخ المثالي ، فقد تميزت الفلسفة الألمانية بأنها فلسفة مثالية (*) ،

نقدية (*) ولم يخرج (كانت) عن نسق الفلاسفة الألمان المثاليين ، فقد اّثر في العديد من الفلاسفة الألمان بمثاليتهم واشهرهم هيغل (**) .

سادسا : " وتلك المشكلة هي في الوقت نفسه اعقد المشاكل ولن يحلها بنو الإنسان الا متأخرا . والصعوبة ، التي تضعها أمام الأنظار فكرة هذا الواجب نفسها ، هي هذه : الإنسان حيوان يحتاج الى سيد طالما كان يحيا بين بني نوعه . ذلك انه من غير شك يسيء استخدام حريته فيما يتصل بأقرانه " . (٤٦٩)

ولعل" هذه هي أصعب مشكلة ، وهي أيضا المشكلة التي سجلها الجنس البشري في نهاية الأمر . والتي انتقل فيها كانت من الفرد الى الجماعة ، ومن الأخلاق الى السياسة ، مطبقا التنوير العقلي على التنوير الاجتماعي " . (٤٧٠)

ويجد الباحث ، ان هذه النقطة بالتحديد ، هي التي أرغمت مونتسكيو ، على التمسك بالروح العامة ، والتي أنقذته من أحادية التفسير الجغرافي للتاريخ ، بعد ان تعرض الى انتقادات واسعة بشأن دور العوامل الأخرى ، مثل الدين والعادات والتقاليد ، في اشتراع القوانين ، وأثرها في زيادة مساحة المشترع للقانون ، من خلال زيادة الروافد الطبيعية للقانون ، كما وان مونتسكيو، يرفض أي نوع من أنواع التسلط والاستبداد ، ولا يرى ان الإنسان بحاجة الى ان يخضع الى أي شخص ، ما عدا القوانين . وكذلك فقد اسهمت هذه النقطة في التنوير العقلي الذي يشكل في نهايته التنوير الاجتماعي .

سابعا : " ان مشكلة إيجاد دستور للمواطنين كامل تتوقف على مشكلة (أحوال دولية خارجية) قانونية ، ولا يمكن ان تحل بدون هذه الأخيرة " . (٤٧١)

---

* لفلسفة المثالية : اتجاه فلسفي يتعارض بشكل قاطع مع المادية في حل المسألة الأساس في الفلسفة ، والمثالية تبدأ من المبدأ القائل بان الروحي أي اللامادي اولي وان المادي ثانوي، وهو ما يجعلها اقرب إلى الأفكار الدينية ، حول تناهي العالم في الزمان والمكان وحول خلق الله له . روزنتال ، المصدر السابق ، ص٤٥٣- ٤٥٤ ؛ وانظر : العروي ، مفهوم التاريخ ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ .

* وتذهب المثالية النقدية الى التمييز الدقيق بين الظواهر العقلية السابقة على كل تجربة والظواهر التي تكتسب بالتجربة ، وتعتبر الأولى ضرورية لإدراك الأشياء ومعرفتها ، ويقرر كانت (ان هناك فرق بين ما يرتد الى الذات وما يرجع الى العالم الخارجي ، ويرى ان التجربة لا توصف قط بأنها ذاتية خالصة او موضوعية محضة ، ويقرر ان الشيء الخارجي يمكن ان يكون موجودا على حدة بعيدا عن العقل الذي يدركه ، ولكن معرفته باعتباره موجودا على هذا النحو غير ممكنة للمزيد انظر : الطويل ، توفيق ، اسس الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص١٤٥. وانظر ايضا : فروخ ،عمر ، كلمة في تعليل التاريخ . دار العلم للملايين ، ط٣، بيروت ، ١٩٧٧، ص٦-٧.

** هيغل (١٧٧٠- ١٨٣١) : من أعظم الفلاسفة الألمان ، وأكثر الفلاسفة تأثيراً في تاريخ الفلسفة ، ولد في شتوتغارت من مدن ألمانيا الغربية ، وتتلخص فلسفته في (المثالية) التي اعتبر رائدها. وتقوم على ثلاثة محاور رئيسية هي: ١. الفكرة ٢. الطبيعة ٣. الروح . وتتجه نحو المطلق النهائي ، وهو الله . لمزيد من التفاصيل ، انظر: ستيس ، ولتر، فلسفة هيغل ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مجلدين ،ط٢ ، دار التنوير للطباعة ، بيروت ،١٩٨٢ .

٤٦٩ كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . المصدر نفسه ، ص٢٨٨ . .

٤٧٠ لسنج ، تربية الجنس البشري ، المصدر نفسه ، ص٧٣ .

ونقول " ان مشكلة إقامة دستور مدني كامل ترتبط بمشكلة إقامة علاقات طبيعية بين الدول ، وهنا ينتقل (كانت) ، من الاجتماع والسياسة الى القانون ، ومن المجتمع المدني الى العلاقات الدولية ، فالدستور الكامل هو الذي ينظم المجتمع الشامل ، وهذا معنى التاريخ الكوني السياسي الشامل من اجل حل قضية الحرب والسلام " . (٤٧٢)

وقد عالج مونتسكيو ، هذا الموضوع بقوله " يأخذ كل مجتمع خاص في الشعور بقوته ، ويوجب هذا حال احتراب الأمم ، ويأخذ الأفراد في كل مجتمع في الشعور بقوتهم ، فيحاولون تحويل فوائد هذا المجتمع الرئيسة نفعا لأنفسهم ، وهذا ما يحدث حال حرب بينهم . ونوعا حال الحرب هذان يوجبان وضع قوانين بين الناس ، والناس اذ هم سيارة عظيمة جدا ، حيث توجد شعوب مختلفة بحكم الضرورة ، تكون لهم قوانين سائدة لصلة هذه الشعوب فيما بينها ، وهذه هي حقوق الأمم . (٤٧٣)

ثامنا : يقول (كانت) ، " يمكن للمرء ان يرى تاريخ النوع الإنساني في مجموعه على أساس انه تحقيق لتصميم مستور للطبيعة من اجل إيجاد دستور للدولة كامل داخليا و (لأجل هذا الغرض) خارجيا أيضا ، بوصفه الوضع الوحيد الذي تستطيع الطبيعة فيه ان تنمي كل استعداداتها في الإنسانية تمام التنمية " . (٤٧٤)

وبذلك " يمكننا ان نتصور تاريخ الجنس البشري ، بوجه عام باعتباره تحقيقا لخطة مستترة للطبيعة ، من اجل إقامة دستور سياسي كامل في الداخل ، ومن اجل تحقيق هذه الغاية يكون أيضا كاملا في الخارج . وهذه هي الحالة الوحيدة التي تستطيع فيها الطبيعة ان تطور على نحو كامل كل الاستعدادات التي وضعتها في الإنسانية ، فالطبيعة تهدف الى إقامة نظام إنساني شامل " . (٤٧٥)

وهذا تماما ما لم يؤيده مونتسكيو ، لأنه من غير الممكن ان يوافق صاحبنا على ان البيئة والمناخ في كل العالم متشابهة ، فيكون عنده في هذه الحالة ، الشمال والجنوب والشرق والغرب ، جميعها مناطق متساوية ، وهذا يعني إسقاط النظرية البيئية ، والنظرية السياسية ، وكل تصوراته ، التي قامت على أساس تنوع الأقاليم وتأثير البيئة في صنع القوانين وطبيعتها ، فمن غير الممكن اذن إقامة نظام إنساني شامل يتناسب مع جميع طوائف البشر .

---

[٤٧١] كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي .. المصدر نفسه ، ص٢٨٩ .

[٤٧٢] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٣ .

[٤٧٣] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص١٦ -١٧ .

[٤٧٤] كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي .. المصدر نفسه ، ص٢٩٣ .

[٤٧٥] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ، ص٧٣ .

تاسعا : " يجب ان نعد القيام بمحاولة فلسفية لتصوير التاريخ العام للعالم على أساس تصميم للطبيعة يهدف الى الاتحاد المدني الكامل من النوع الإنساني – نقول انه يجب ان نعد هذه المحاولة ممكنة ، بل ومفيدة بالنسبة الى غرض الطبيعة هذا " . (٤٧٦)

فان " أي محاولة فلسفية من إقامة التاريخ الشامل وعلاقته بخطة الطبيعة ، التي ترمي الى التوحيد السياسي الشامل لكل الجنس البشري ، يجب اعتبارها ممكنة بل ومفيدة لقصد الطبيعة هذا . وقد حاول (كانت) ذلك بالفعل في " مشروع السلام الدائم" الذي يضع فيه نظاما اتحاديا لكل الدول التي قامت نظمها أولا على الدستور ، ويكون هو الجمهورية الشاملة " . (٤٧٧)

ان الجنس البشري عند مونتسكيو ، أساسا يقوم على وجود فوارق ، وهذه الفوارق في مختلف النواحي ، ومنها اللون والشكل الخارجي وقوة التحمل وطريقة التفكير ، وغيرها مما يتعلق بفوارق الإنسان ، وان هذه الفوارق خلقتها الطبيعة بحسبه ، والطبيعة خلقت مجموعة الضرورات الأساسية بين الأشياء ، التي أدت الى وجود قوانين ، لكن القانون الذي يلائم أهل المناطق الباردة ليس هو بعينه يلائم أهل المناطق الحارة ، فلا يمكن اندماجهما في قانون واحد ، لكن ، يمكن تنظيم قانون ينظم طبيعة العلاقة بينهما ، أي بين المجتمعات ، وهذا ما ذهب اليه مونتسكيو، في فلسفته للتاريخ .

كما تأثر (كانت) ، بفلاسفة عصره المثاليين أمثال: شيلنج وهردر وفشته (٤٧٨) ،إلا ان مثالية (كانت) أخذت طابعاً منفرداً تميّز بالمثالية المتعالية التي اختلف فيها عن رواد المثالية الألمان . كما وان لـ (كانت) السبق في إمكانية التلاقي ين نظريتي التقدم والعناية الإلهية ، اذ كان سائداً ان هاتين النظريتين متباعدتان في تفسير التاريخ ، تُرجع الأولى (التقدم) الى التقدم في مجرى التاريخ من حيث فعل الإنسان وقدرته العقلية ، وقد سادت هذه النظرية حيث ساد تمجيد الإنسان خلال العصر اليوناني - الروماني وعصر النهضة . وتُرجع النظرية الثانية (العناية الإلهية) (*) ، مسار التاريخ الى عناية الله على الرغم من فساد الإنسان وشروره ، وسادت هذه النظرية

---

٤٧٦ كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . المصدر نفسه ، ص٢٩٥ .

٤٧٧ لسنج ، تربية الجنس البشري ، المصدر نفسه . ص٧٣ .

٤٧٨ للتفاصيل عن هؤلاء انظر: مجموعة من المؤلفين ، تاريخ الديالكتيك (الفلسفة الكلاسيكية الألمانية) . تر ، نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة النشر ،(ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص١٠١- ١٤٤ ؛ مبروك ، امل ، المصدر نفسه ، ص٢٠٦- ٢٢٠.

* " وبصورة عامة كان (كانت) ، يسند هذا المخطط أو التصميم إلى الطبيعة ، إلا انه كان يعزوه أيضا إلى الطبيعة أو بالأحرى إلى (العناية) ، لذلك فان واجب فلسفة التاريخ أن تكشف عن حقيقة هذا التصميم " . انظر ، ويدجيري ، البان ، المذاهب الكبرى في تفسير التاريخ . المصدر نفسه ، ص٢١٨ .

وانظر ايضا : Ch. apelle , A , Hegel et La yeligion , Vol , 1 , La problematique , Paris , 1964 , p.449

حيث ساد التفكير الديني . وعلى الرغم من التباين الواضح ، كما اشرنا، إلا ان (كانت) جعل من إمكانية التلاقي بين هاتين النظريتين ممكنا ".[٤٧٩]

وقد أسس (كانت)بهذا فلسفته في التاريخ التي لا تبتعد كثيراً عن فلسفته العامة ، التي تقوم أساسا على المنهج النقدي ، الذي اعتبره وسيلة من وسائل تمحيص الآراء وتحرير الأفكار.وانه يتطلب ملاحظة وثيقة وانتباهاً تاماً وإطلاعا شاملاً يمكن من خلاله إدراك الغامض والتنبه إلى الخطر، والاهتداء الى التناقض ، وهو قريب من التحليل وتقليب الأمور على وجوهها ليقف الإنسان على دخائلها ومحتوياتها .[٤٨٠]

ومن الجدير بالإشارة هنا، ابتداءاً ، ان الفيلسوف (كانت) لم يترك لنا كتاب خاصاً في فلسفة التاريخ ، عدا محاولته الرائعة التي ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوي بعنوان (فكرة التاريخ العام من وجهة نظر عالمية) ، ونشرها ضمن كتابه (النقد التاريخي) . كما انه قدم في كتابه (فكرة عن تاريخ العالم) آراء قيّمة بالنسبة الى الصلة الوثيقة بين التفكير الفلسفي والكتابة التاريخية ، والى الحلول التي طرحها لبناء فلسفة للتاريخ . وان اقتراحه بضرورة كتابة تاريخ عالمي من وجهة النظر الفلسفية تمثل مرحلة متطورة في الفهم التاريخي . غير ان فهم جميع توجهاته وآرائه في الكتابة التاريخية الشاملة وفيما إذا كان ذلك يقع ضمن دائرة الرومانتيكية [*] وخضوع التاريخ للعناية الإلهية أو ضمن دائرة العقلانية ، بان التاريخ هو تقدم مستمر لتحقيق غاية خيّره بالنسبة للنوع الإنساني، لذلك يجب قراءة انجازاته القيمة في عالم الفلسفة كـ (نقد العقل الخالص) .[٤٨١]

وانطلق (كانت) ، في بناء فلسفته النقدية العامة [٤٨٢] ، ومنها فلسفته في التاريخ خاصة ، من إيمانه بالعلم ومحاولته البحث عن الأسس المتينة التي يمكن ان يتحقق معها اليقين العلمي ، كما ان فهمه للعلم جاء متأثراً ببعض التصورات الفلسفية والعلمية السائدة في عصره ، ويظهر ذلك واضحاً من تصوره للعقل على انه يملك بنفسه – ومنذ البداية – المبادئ الأولية الضرورية التي تجعل الأشياء في العالم الخارجي قابلة للمعرفة ، ولهذا وضع (كانت) على عاتقه البحث عن هذه المبادئ الأولية المطوية في العقل الإنساني وتعميق وظائفها في عملية

---

[٤٧٩] صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص ١٩٨ . وانظر ايضا : Ch. apelle ; Hegel et Layeligion . Vol 1 , La problematique . paris ,1964.

وانظر ايضا Thomasj , Prentice ;Truth Myth and Symbol , Hall, Englewood Cliffs ,1938,P37 .

[٤٨٠] ينظر : مدكور ، إبراهيم ، يوسف كرم ، دروس في تاريخ الفلسفة ، ٢٠٠٧ ، ص٣٨٢.

[*] ان الخصائص الاساسية للرومانتيكية الفلسفية هي وصف الشعور بالحنين من حيث هو موقف اصيل للوعي البشري ونظرية الطبيعة من حيث هي وسيط بين الانسان والله واكتشاف الفولكلور من حيث هو مصدر كل الهام لشعب من الشعوب واحياء الوعي الديني . انظر : جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة . المصدر نفسه ، ص٢٥١ .

[٤٨١] ينظر : ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة . المصدر نفسه، ص٦٤ – ٦٥.

[٤٨٢] للتفاصيل عن فلسفته النقدية ، انظر : دولوز ، جيل ، فلسفة كانت النقدية ، ترجمة أسامه الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٧.

المعرفة العلمية ، وهذه هي الفكرة الأساس التي تدور حولها كل فلسفة (كانت) النقدية ، ومنها فلسفته في التاريخ .[٤٨٣]

وتعد فلسفة (كانت) ، في التاريخ من تجليات فلسفته العامة ، وبالأحرى، كانت تمثل جانباً من نظريته في الابستملوجيا (المعرفة) ، لأنه حاول في استعماله المنهج النقدي لتفسير التاريخ إخضاع كل ما يبدو للعقل في موقف الشك والريبة للنقد . ومن هنا ، كان (كانت) يدعو دعوة مماثلة لاسلافة الذين بحثوا في تفسير التاريخ أمثال : مكيافيللي ومونتسكيو وفيكو . فقد دعا إلى الوقوف على أخبار الماضي من خلال دراسة تأملية تحليلية ، وبهذا فانه اخضع الواقعة التاريخية والحدث التاريخي إلى منهجه العام الذي يمثل فلسفته وهو المنهج النقدي العقلي الفلسفي . وتعني الفلسفة النقدية للتاريخ ، الذي يُعد (كانت) من روادها ، بشكل خاص ، بطبيعة التفكير التاريخي وماهية التاريخ والوقائع التاريخية بما يتصل بتحليل الروايات التاريخية ومدى الموضوعية في هذه الروايات والطريقة التي يفسِر فيها المؤرخ الوقائع التاريخية التي تخضع للدراسة.[٤٨٤]

وحول فلسفة التاريخ أيضا ، أكد (كانت) ، كباقي الفلاسفة المثاليين[*] على موضوع الحرية ، فقد كان على يقين تام بان كل الحوادث في الزمان تخضع لقانون السببية العام ، ولذلك لو كانت الظواهر هي الأشياء في ذاتها لا تعد من الحرية ولأنعدمت معها المسؤولية الأخلاقية ، ذلك لان قانون السببية (العِلية) ينطبق على علم الذات الظاهرية كما ينطبق على الظواهر الطبيعية سواء بسواء ، وعليه فبمقدار ما يتعلق الأمر بالذات الظاهرية لا حرية للإنسان مطلقاً ، وكل أفعاله مرتبطة بأفعال سابقة . لذلك فاذا كانت أفعالي الحاضرة مشروطة بالماضي فلا إرادة لي على الماضي الآن ، ولكن الإنسان ، في ما اعتقد (كانت) ، ليس مجرد ظاهرة أو مجموعة من الظواهر تخضع للسببية الطبيعية ، وهو لذلك مجبر لا حرية له.[٤٨٦]

وبذلك يمكن القول بان (كانت) ، قد شخص اتجاها محدداً للتاريخ باستعمال (الإنسان) ، ومن خلال توظيفه الانسان بوصفه اداةُ للتكامل في التاريخ ، كما انه صرح بوضوح بان علاقته بالتاريخ جاءت بمعنى (الوقائع التاريخية) .[٤٨٧]

---

[٤٨٣] ينظر : احمد، قيس هادي ، دراسات في الفلسفة العلمية والإنسانية ،المصدر نفسه ، ص٩٦.

[٤٨٤] ينظر : ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة . المصدر نفسه ، ص٦٣ ؛ للمزيد انظر : روزنتال ، موسوعة الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص٥٤٩- ٥٥٠.

[*] لا تسعى المثالية ان تكون مذهبا وجوديا ، يقنع بملاحظة ما هو كائن وحاصل ، ويقتصر على وصف الأشياء كما تبدو للناظر ، بل المثالية مذهب إنشائي يرسم الأشياء بحسب ما حقه ان يكون ، ويريد ان يصل الى جوهر الأشياء واصلها .انظر : أمين ، عثمان ، رواد الفلسفة المثالية في الفلسفة الغربية ، دار المعارف ، (ب،ط)، القاهرة ، ١٩٦٧، ص٩.

[٤٨٦] ينظر : متي ، كريم ، الفلسفة الحديثة (عرض نقدي) . المصدر نفسه ، ص٢٧٣.

[٤٨٧] ينظر : ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة ، المصدر نفسه ، ص٥١.

كما وان (كانت) يعتمد الأسطورة في التاريخ للدخول في تفصيلات التطبيق المتعلقة برعاة (اركاديا) ، المقاطعة في جزء (بلانوسوس) . ان قرية متآلفة ويعيش شعبها بوئام تام تتمكن بها المثل العليا والسعادة الفطرية لان أهلها تعودوا الحياة البدائية المعتمدة على نمط الرعي والزراعة البدائية ، فهل هناك من هدف أكثر املاً من حياة سكان اركاديا ؟ جواب كانت بالنفي ، إن سكان اركاديا ليسوا الهدف الأسمى للمسيرة التاريخية ، إنها حياة خالية من شحذ المواهب والهمم والاندفاع نحو التقدم والحضارة ، فالإنسان يمتلك ميولاً نحو الاجتماع والتعاون مع الآخرين ، وهي غريزة شهدها الإنسان الأول. [٤٨٨]

" لقد اعترف الناس بإسهام (كانت) الضخم في الفكر السياسي والأخلاقي .الذي ساهم في بلورة الموقف من التاريخ .ويبدو انه الذي وضع خاتمة لفلسفة عصر التنوير من حيث انه رفض كلاً من المذهب التجريبي ، والمذهب الشكي ، وأوجد صورة جديدة للمذهب العقلاني . فلم يعد بالإمكان الدفاع عن المذهب التجريبي بعد نقد(كانت)له .كما قدم بعض المعالم للرومانسية والليبراليين الذين اخضعوا لنفوذهم الأجيال التي جاءت في أعقاب (كانت) " . ([٤٨٩])

نخلص بالقول " ان (كانت) ، استطاع ان يسدي خدمة كبرى للتفكير التاريخي . لقد وضع في اخر مقالة الخطوط الرئيسية لمنهاج ينتظم نوعا من البحث التاريخي ، قال ان أحدا لم يفكر فيه على هذه الصورة ، ثم هو يردفه بعبارة متواضعة يقول فيها ، ان هذا البرنامج ما كان ليأتي من قبل فرد قليل المعرفة بالتاريخ كشخصه ، برنامجا ينتظم تاريخ العالم ، من شأنه ان يعرض لنا كيف تدرج الجنس البشري في مدارج العقلية ، واستطاع ان يتحرر مرحلة بعد أخرى ، فهو إذن تاريخ ينتظم التلقائي لروح الإنسان ، يقول ان مثل هذا الواجب يحتاج الى عاملين ، ثقافة تاريخية وعقلية فلسفية . وان فكرة تاريخ العالم عنده يمكن ان تتلخص في أربع نقاط هي : أولا . فكرة تاريخ للعالم ، مثل أعلى عملي ، ولكنه يتطلب الجمع بين التفكيرين التاريخي والفلسفي . ثانيا : وهذا التاريخ يفترض وجود خطة سابقة للحوادث ، ومعنى ذلك ان ثمة (تقدما) ، ملحوظا ، او شيئا يتبلور حثيثا وتباعا ، يريد ان يخرج الى حيز الوجود . ثالثا : وهذا الذي يريد ان يخرج الى حيز الوجود المادي هو نضوج العقلية الإنسانية ، أي العقل والحرية الأخلاقية . رابعا : والوسيلة التي تنتهي الى تحقيق سيطرة العقل على هذه الصورة ، هي الطيش الإنساني ، ومعناه الشهوة والجهل والأنانية " . [٤٩٠]

---

[٤٨٨] ينظر : ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة ، المصدر نفسه ، ص٦٦ .

[٤٨٩] سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ .

[٤٩٠] كولنجود ، ر،ج، فكرة التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٩٣ .

المطلب الثاني : تطبيقات المنهج التاريخي في فلسفة مونتسكيو النقدية للتاريخ .

ابتداءً ، فان مقابل الفلسفة الميتافيزيقية - التأملية للتاريخ (*) ، توجد الفلسفة النقدية للتاريخ ، والفلسفة النقدية تعني بشكل خاص بطبيعة التفكير التاريخي وماهية التاريخ والوقائع التاريخية بما يتصل بتحليل الروايات التاريخية ومدى الموضوعية في هذه الروايات والطريقة التي يفسر بها المؤرخ الوقائع التاريخية التي تخضع للدراسة . وهذه الفلسفة النقدية للتاريخ ، لا بد أنها ارتبطت مع منهج خاص بها ، وهذا المنهج يعبر بشكل صريح عن نوع الفلسفة واتجاهها ، حينها ، يأتي المنهج معبرا عن رؤية الفيلسوف ، كما لاحظنا ذلك في المنهج التاريخي عند مونتسكيو، الذي عبر عن فلسفته النقدية في التاريخ ، والأخيرة عبرت عن فلسفته الواقعية والعلمية العامة . (٤٩١)

يرى لوي التوسير، ان " كل ما قيل عن فلسفة التاريخ النقدية عند مونتسكيو ، حتى الآن لا يتعلق سوى بمنهجه وافتراضات هذا المنهج ومغزاه . ان هذا المنهج المطبق على موضوعه يتصف بالجدة دون نقاش . لكن منهجا ما ، وان كان جديدا ، يمكن ان يكون بلا طائل ان لم ينتج شيئا جديدا . ما هي إذن اكتشافات مونتسكيو، الايجابية " . (٤٩٢)

---

* " فلسفة التاريخ كانت معروفة من قبل الفلاسفة الألمان (كانت وهردر)، على أنها موضوع مستقل لحاله ومنفصل عن بقية المواضيع وكان ذلك قبل هيجل بحوالي خمسين سنة . وتميزت فلسفة التاريخ عند هذين الفيلسوفين بأنها تأملية ميتافيزيقية تهدف الى سير الوقائع التاريخية ككل شامل لإثبات إن للتاريخ وحده وانه يمثل خطة كلية على الرغم مما يبدو في أحداثه الفردية من تفكك وعبثية وفوضى وان التاريخ يتبع طرقا متفقا مع التفكير العقلي " . انظر : ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة . المصدر نفسه ، ص٦٣ .

٤٩١ ينظر: ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة . المصدر نفسه ، ص٦٣ .

٤٩٢ التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص٤١ .

وكما أسلفنا سابقا ، من غير الممكن الفصل بتاتا بين الرؤية والمنهج ، في تكوين فلسفة التاريخ ، فالرؤية ، هي تصورات وآفاق الفيلسوف عن الواقعة التاريخية ، وليس الأمر كذلك فحسب ، بل هي التنبؤات المستقبلية لما يمكن ان تنتجه الأحداث التاريخية ، وياتي ذلك من خلال استعمال القوانين التاريخية . والمنهج ، هو تصور المؤرخ عن كيفية التعامل مع الأحداث الماضية وربطها مع بعضها ، وكذلك تسجيلها على وفق خطوات ، سميت بخطوات منهج البحث التاريخي . ومما تجدر الإشارة إليه ، ان احدهما لا يستطيع الاستغناء عن الأخر ، وان تباينهما نتج عنه غياب القراءة الصحيحة للتاريخ ، ومن تواصلهما نتجت لدينا فلسفة التاريخ . وهذه الصورة الوصفية للحالة ، وجدناها تماما عند مونتسكيو ، فقد اجتمعت لديه الرؤية والمنهج [*] ، فهو فيلسوف على طراز رفيع ، وكذلك هو مؤرخ على طراز ممتاز . ونحن بصدد دراسة تطبيقات المنهج التاريخي عنده ، لا بد من الإشارة الى ، إننا وجدنا تطبيقاته من خلال فلسفته في التاريخ ، لأنه ترجم الحالته الوصفية للتاريخ من خلال ما قدمه من أعمال كبرى ، أبرزها ، روح الشرائع ، ورسائل فارسية ، وتأملات في تاريخ الرومان ، أسباب النهوض والانحطاط . وقد استعمل مونتسكيو ، المنهج التاريخي في جميع مؤلفاته أنفة الذكر ، وان الرؤية لديه لم تكن رؤية غير ممنهجة ، وسوف لن تكون منتجة إذا ما اقترنت بمنهج . ورؤيته الفلسفية للتاريخ قد اقترنت بمنهج ، وهذا المنهج هو منهج البحث التاريخي ، وسوف نطلع على شذرات من تطبيقاته ، خلال دراستنا لهذا المطلب .

وقد تطرق (جان توشار) ومن خلال كتابه (تاريخ الأفكار السياسية ،ج٢) ، الى تطبيقات المنهج التاريخي عند مونتسكيو ، من خلال فلسفته النقدية للتاريخ ، التي اسماها سمات المنهج التاريخي عنده ، وهي بحسبه :

" **أولا : العقلانية .** – ولو ان مونتسكيو ، يرفض كل قدرية وكل نزعة عنائية [**] ، فان منهجه لا يسقط في الاختيارية . فهو يكون فكرة سامية عن القانون ، فالقانون هو – او يجب ان يكون – تجسيد العقل " إنها لفكرة رائعة لأفلاطون القائلة بان القوانين صنعت لتبليغ أوامر العقل الى أولئك الذين لا يستطيعون تلقيها مباشرة منه " . **ثانيا : - الريبية –** غير ان القانون يسنه المشرعون ، وهؤلاء في اغلب الأحيان أدنى من مهمتهم فهناك عظمة القانون وهناك عجز المشترعين " لقد كان معظم المشرعين اناسا محدودين وضعتهم الصدفة على راس الآخرين ، ما كادوا يستشيرون إلا أفكارهم المسبقة وأهواءهم ويبدو انهم لم يعرفوا صنيعتهم ذاتها ولا جدارته " . **ثالثا : - الحتمية –** يعتقد مونتسكيو، بان الأشياء لها طبيعة " ان القوانين بالمعنى الاشمل ، هي العلاقات الضرورية التي تشتق من طبيعة الأشياء " . وهي علاقات ضرورية ولكنها ليست كافية : اذ ان القوانين مركبة ، ولا يكفي المناخ ولا العادات ولا الدستور ، لتفسير وضع قطر ما . ان التاريخ معقول ، بيد ان الناس يستطيعون صنعه . **رابعا : -**

---

* واكتملت هذه العلاقة عند مونتسكيو ، لانه صاحب رؤوية عميقة في التاريخ ، ولذلك فاننا دائما نسميه صاحب المنهج المقارن ، وذلك من خلال تاكيده على الطابع الشمولي للحضارات وتاكيده على دور المجتمعات فيها ن واستخدامه لعاداتهم وتقاليدهم بطريقة نقدية . انظر : Manicas , peter ; Montesqieu and the Eighteenth .

_Century vision of the state, Oxford University Press, London , 1971,P49 .

** يقصد بها الغائية ، ونلاحظ ان (مونتسكيو) رفض ان تكون القوى الغائية هي الفاعلة والمحركة لقوى التاريخ ، وأكد على ان التاريخ يعمل ويسير بفعل القوى المادية ، وهي الفاعلة والمؤثرة في جريان أحداثه ، حيث يقول " ومن قال ان قدرا أعمى أوجد جميع المعلولات التي نبصرها في العالم ، يكون قد قال محالا عظيما " . فالتاريخ لا تحركه الصدفة ،

النسبية - ان القانون في نظر مونتسكيو ، نظام من العلاقات " تكمن روح القوانين في مختلف العلاقات التي يمكن ان تكون للقوانين بمختلف الأشياء " . علاقات بدستور كل حكم ، بالعادات ، والمناخ والدين والتجارة .... خامسا : - ومن ابرز سمات المنهج لدى مونتسكيو ، انه حس بالتنوع – يكمن المسعى الأول للعقل في نظره في إدراك التمييزات ، مثله في ذلك جميع كبار منظري الليبرالية ، وهو متعلق بشغف في تنوع العالم ، ولا يخشى شيئا كما يخشى التماثل . وهو على خلاف بوسيه الذي يكثر من المتشابهات ، لذلك فهو يقول " يكمن الحس السليم أكثر ما يكمن في معرفة الفروق بين الأشياء " .[٤٩٣]

وُيعد مونتسكيو " مؤسس فلسفة التاريخ " ، وهو " واضع حجر أساس الطريقة العلمية في التاريخ " .[٤٩٤]

ونرى انه " من أشهر فلاسفة عصر التنوير ، وفي منهجه التاريخي ، ذهب الى تفَسير حركة التاريخ تفسيراً جغرافياً ، إذ جعل حياة الإنسان انعكاساً للظروف الجغرافية ، فالتغيرات التاريخية عنده مظاهر مختلفة لجوهر واحد " .[٤٩٥]

" لذلك فهو واحد من مؤسسي (نظرية الحتمية [*] الجغرافية) ، وكان يقول أن السمات الأخلاقية للشعوب وطابع قوانينها وأشكال حكومتها ُيحددها المناخ والتربة ومساحة الإقليم" . [٤٩٦]

وتَبِى مونتسكيو، منهجاً نقدياً في دراسة التاريخ ، ونلاحظ ذلك من خلال عدم قبوله الاعتقاد بان التاريخ غاية ، وان يتابع سيادة العقل والحرية ، وهو الأول من دون شك ، قبل ماركس ، الذي شرع يفكر بالتاريخ دون إيلائه أية غاية ، أي دون إسقاط وعي الناس وآمالهم ضمن زمن التاريخ ، لقد كان الأول في إختراع مبدأ وضعي للتفسير الشامل للتاريخ ، وهذا هو مبدأ الكلية وإدراك تنوع قوانين ومؤسسات حكومة معينة ، بل انه مبدأ (دينامي) فوق وحدة الطبيعة والمبدأ ، وهذا القانون يسَوغ التفكير أيضا بمستقبل المؤسسات وتحولها في التاريخ الواقعي [٤٩٧].

لقد أَسس مونتسكيو ، نظرية متفهمة ، حديثة تماماً في منهجه التاريخي ، لأنه فكَر في التاريخ تحت مقولة (الكلية) ، منقلباً بالضبط عن فكرة إمكانية تغلب احد العناصر على العناصر الأخرى ، أي إمكانية وجود (ُمحَرك للتاريخ) ، لذا لن يكون التاريخ عندها سوى كلية متحركة حيث يمكننا فهم وحدتها والإمساك بمعنى الحركات الداخلية ، من دون تفسيره أبدا ، أي من دون ربط حركات الداخل بأي خطر حاسم .[٤٩٨]

---

٤٩٣ توشار ، جان ، تاريخ الأفكار السياسية . ج٢ ،المصدر نفسه ، ص٥٣١ .

٤٩٤ ويدجيري ، ألبان ، المذاهب الكبرى في تفسير التاريخ . المصدر نفسه ، ص١٩٧ .

٤٩٥ عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .

* والحتمية نظرية عن الترابط السببي العام للظواهر الطبيعية والاجتماعية والنفسية والفكرية أي كل شيء ينشأ ويزول قانونيا نتيجة فعل اسباب معينة . للمزيد انظر : الاسدي ، جمال ، الوعي والادراك والتاريخ . مكتبة عدنان ، (ب،ط) ، بغداد ، ٢٠١١ ، ص٢٦ .

٤٩٦ روزنتال ، الموسوعة الفلسفية . المصدر نفسه ، ص٥١٨ .

٤٩٧ ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو : السياسة والتاريخ ، المصدر نفسه، ٢٠١٠ ، ص ٤٨ . ٤٩ .

٤٩٨ ينظر : التوسير ، لوي ، مونتسكيو ، السياسة والتاريخ ، المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

ودلالة اهتمام مونتسكيو ، بالعلية واعتمادها في منهجه التاريخي ، أن كتاب (روح القوانين) لم يكن يرجع إلى التاريخ ألا بصورة غير مباشرة ، فقد كان يبحث في العلة والمعلولات في التاريخ ، لا في مغزاه ، وكان يسعى قبل كل شيء إلى أن يسوق تفاصيل للتاريخ بأسباب طبيعية كالمناخ وأحوال جغرافية أخرى .[٤٩٩]

وعليه ، فان اهتمامه بطبيعة المناخ والأحوال الجغرافية ، أدت به الى ان يكون من اشهر دعاتها ، وكانت حجر الأساس في منهجه التاريخي ، وأدت به الى ان يكون صاحب مذهب ، سمي المذهب الجغرافي في تفسير التاريخ ويمكن تحديد مذهبه هذا على مقدمتين :

الأولى: ينسبها الى علم الأجناس ، الذي يقرر ان الإنسان انتشر منذ فجر التاريخ البشري انتشاراً واسعاً في الأرض ، فتعرضَ نتيجة ذلك الانتشار الى فروق مناخية خصبة ، وهذه الفروق المناخية ميزت الجماعات البشرية بخصائص فسيولوجية ونسبية متفاوتة . والثانية : ينسبها الى علم النفس الاجتماعي ، الذي يقضي بوجود صلة وثيقة بين قيمة الخصائص النفسية وبين طبيعة المزايا الفسيولوجية المتفاوتة .[٥٠٠]

من ذلك يرى مونتسكيو، ان القوانين روابط ضرورية مشتقة من طبيعة الأشياء ، وان كل ما يتحرك في هذا العالم يخضع لقوانين ثابتة ، أي علاقة النسبي بالمطلق .[٥٠١]

أما عن فكرة التقدم في فلسفة مونتسكيو، التاريخية ، ففي حقيقة الأمر لم يكن مونتسكيو ، من دعاتها ، ولكنه نشأ في بيئة راج فيها الفكر ، واهتم بمستقبل الإنسانية أكثر من اهتمامه بماضيها ، وحاول مد المنهج الديكارتي الى الوقائع الاجتماعية ، فالظاهرة الاجتماعية تخضع لقانون كما تخضع له الظاهرة الطبيعية . وبين ذلك بالفعل في كتابه (تأملات حول عظمة الرومان وانحطاطهم) ، عندما رفض ان يكون غير القانون سببا لحركة التاريخ ، فهناك أسباب محددة هي التي تحرك التاريخ ، وعندها رفض تصور بوسيه(*) للتاريخ على انه يتحرك بفعل العناية الإلهية وأغراض الله ، إذ يتحرك التاريخ اذن بعلل فاعلة وليس بعلل غائية . ثم ظهر (روح القوانين) ليركز على العلل الخلقية والطبيعية دون ان يحصيها احصاءً كاملاً ، لكنه يّركز على البيئة الطبيعية وخاصة الجغرافية

---

[٤٩٩] ينظر : ويدجيري ، ألبان ، المذاهب الكبرى في تفسير التاريخ . المصدر نفسه، ص١٩٨

[٥٠٠] عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ،ص ١٠٨

[٥٠١] ينظر : توشار ، جان ، تاريخ الفكر السياسي ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٩.

* جاك بوسيه (١٦٢٧ – ١٧٠٤) :ولد في ريجوف في فرنسا ، درس القانون في متز ، تفرغ للاهوت ، وأصبح قساً عام ١٦٥٢ ، وذاعت شهرته في باريس كواعظ ديني .قويت سلطته بالبلاط الملكي في فرنسا حيث أصبح معلماً لابن الملك لويس السابع عشر، لكن بعد أن اشتد الصراع بين الملك والكنيسة ، هاجم البروتستانتية معتبراً تحررها المنهجي من الكنيسة مظهر للانحلال ، فثالوث الحكم عنده : المسيح ـ الملك ـ الكنيسة . أهم كتبه: (مقالة في التاريخ العالمي) و (تاريخ فرق الكنائس البروتستانتية) وغيرها . صبحي. احمد محمود ، في فلسفة التاريخ ، المصدر نفسه ، ص ١٧٣ -١٧٥.

والطقس .[٥٠٢] إذ انه وضَع العوامل الفيزيائية في مقدمة العوامل المحددة لطابع الأمم ، وبالتالي لقوانينها ، وهذه العوامل الفيزيائية هي المناخ والطوبوغرافية والأرض .[٥٠٣]

وأكد مونتسكيو، بأن الظاهرة الاجتماعية تخضع لقانون كما تخضع له الظاهرة الطبيعية ، وقد بَين ذلك بالفعل في كتابه (تأملات ..) سنة ١٧٣٤ . عندما رفض ان يكون الحظ أو المصادفة سبب حركة التاريخ ، فهناك أسباب عامة خلقية وطبيعية هي التي تحرك التاريخ .[٥٠٤] ومعنى ذلك انه كان يرى انه : " ليست الصدفة هي التي تحكم العالم .. إن هناك أسباب عامة ، معنوية أو مادية ، تؤثر في كل حكومة تخلقها او تحافظ عليها او تدمرها . وكل الأحداث خاضعة لهذه الأسباب وإذا صادف ان دمرت معركة واحدة– أي سبب فرد – دولة ما ، فان سبباً عاماً هو الذي خلق الموقف الذي جعل هذه الدولة تنهار بسبب هزيمتها في معركة واحدة" .[٥٠٥]

اذن الصدفة ليس لها مكان في فلسفته للتاريخ ، اذ يقول " شؤون الدنيا لا تسير اتفاقا . لنسأل في هذا الشأن الرومان الذين انتصروا بدون استثناء ما دامت حكومتهم تسير على شكل ، ثم انهزموا من دون استثناء عندما استبدلوها بأخرى مغايرة . هناك أسباب عامة ، أدبية او مادية ، تعمل في قلب كل دولة ، تسبب في نهوضها ثم في استمرارها واخيرا في انهيارها . والحوادث العارضة خاضعة دائما لتلك الأسباب العامة . ان حصل ان معركة واحدة ، اي عارض واحد ، فلا شك ان هناك سببا أعمق استدعى ان تهلك تلك الدولة عقب هزيمة واحدة . بايجاز الاتجاه العام متحكم في الحوادث الجزئية " . [٥٠٦]

ويبدو واضحاً ، مما ورد ، ان مونتسكيو ، هو أول من تحدث عن الترابط الداخلي للأحداث (*) في التاريخ . [٥٠٧] ، بهذا القدر من العمق والاتساع ، ليكتشف من خلالها العوامل التي تشكل طبيعة المجتمع وحكومة وقوانين الدولة ، ليعطي العوامل الطبيعية

---

٥٠٢ ينظر : لسنج ، تربية الجنس البشري ، المصدر نفسه ص ٥٨ .

٥٠٣ فولغين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ص ٥٥.

٥٠٤ ينظر : لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه ،ص ٥٧ .

٥٠٥ عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص ٧٢

٥٠٦ مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان ، أسباب النهوض والانحطاط . المصدر نفسه ، ص١٦٩_١٧٠ .

* العَلية : وهي المقولة التي تعكس الترابط الداخلي وعلاقة الضرورة بين الحوادث التاريخية . انظر: سدني ، هوك، البطل في التاريخ ، المصدر نفسه ، ص ١٢ .

٥٠٧ بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر نفسه ، ص ٤٨٨ .

من المناخ والموقع الجغرافي وطبيعة الأرض الدور الكبير(*) في توجيه مسار التاريخ .[٥٠٨]

وفي الباب الرابع عشر من (روح القوانين) ، الذي وضعه بعنوان (صلة القوانين بطبيعة الإقليم) ، يقدم مونتسكيو ، فكرته العامة التي تقول : " اذا كان من الصحيح ان سجية النفس وأهواء القلب مختلفان إلى الغاية في مختلف الأقاليم ، فان على القوانين أن تكون تابعة لاختلاف هذه الأهواء واختلاف هذه السجايا " . [٥٠٩] فالمناخ ، الذي خصَه مونتسكيو، بالاهتمام وعَده " ابدي التأثير " ، له دوره في تحديد سياسة الدولة . [٥١٠]

وفي سياسة الدولة ، ومن خلال منهجه التاريخي ، لم يفصل مونتسكيو ، بين السياسة والتاريخ ، وكان احدهما يكمل الأخر ، فمن دون التصورات الصحيحة للتاريخ لا يمكن ان تتبنى سياسة ناجحة لأي دولة ، لان هذا يعني ان تقوم حكومة لا تتفق قوانينها مع طبيعة إقليمها ، ومن ثم فسوف تتصف بالاستبداد .

فالعادات والنُظم والقوانين تتأثر بالمناخ السائد في الإقليم ذلك " أن الناس في المناطق الباردة تقل حساسيتهم لأنواع السرور ، على حين تكبر هذه الحساسية في المناطق المعتدلة وتصل إلى درجتها العظمى في المناطق الحارة ... ويتبع الألم نفس القاعدة " .[٥١١]

وعلى ذلك يجب ان تكون القوانين السائدة في المجتمعات متناسبة مع الظروف المناخية المختلفة . ويحاول مونتسكيو ، في عدة فصول مختلفة من (روح الشرائع) ، بيان كيف ان للمناخ أثراً في كل جزء في الجسم الإنساني " فالمناخ من خلال آثاره على الجسم الإنساني يشكل مزاج الإنسان وأخلاقه وعاداته وطباعه ، ومن هنا يأتي الفارق بين طبائع الناس في المناطق الباردة وطبائع السكان في المناطق الحارة ، فترى شعوب البلاد الحارة هيابة كالشيب وترى شعوب البلاد الباردة باسلة كالشبان " .[٥١٢]

ويعزز رأيه فيقول : " وقد تكون حرارة الإقليم من الشدة ما يكون الجسم معه بلا قوة مطلقا ، وحينئذ ينتقل انحطاط القوة الى الروح ، فلا يكون حب إطلاع ولا كرم ولا شعور فياض ، وهنالك تكون الميول سلبية تماما ،

---

* من الجدير ذكره هنا ، إن مونتسكيو لم يكن أول قائل بأثر العوامل الجغرافية على تشكيل العادات والتقاليد السائدة في المجتمع ، بل سبقه إلى ذلك كثيرون نخص منهم بالذكر : ابقراط في رسالته " عن الأجواء والمياه والأمكنة " ، وأفلاطون في كتابه " القوانين " ، وأرسطو في كتابه " السياسة " ، وابن خلدون في " المقدمة " . سعفان ، حسن ، شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧١٠ .

[٥٠٨] ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص٧٢ .

[٥٠٩] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٩ .

[٥١٠] التوسير ، لوي ، مونتسكيو ، السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ٥٣ ـ ٥٤ .

[٥١١] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧١٠ .

[٥١٢] مونتسكيو ، روح الشرائع . ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٣٠ .

وهنالك يكون الكسل ، وهنالك يكون معظم أنواع العذاب أسهل احتمالاً من عمل المؤرخ ، والعبودية أسهل احتمالاً من قوة الروح التي هي ضرورية ليسير الإنسان نفسه بنفسه " .[٥١٣]

ويذهب مونتسكيو، أيضا إلى أن تعدد الزوجات وتطليق الرجال للنساء وطردهن وحبسهن ، يرجع كل ذلك إلى المناخ السائد ، ففي المناطق الحارة تبلغ النساء سن المراهقة بسرعة ، أي في سن الثامنة أو التاسعة فتتزوج البنت وهي طفلة ثم تبلغ سن الشيخوخة في سن العشرين . وعلى ذلك لا يتوفر للنساء في تلك المناطق العقل والجمال في آن واحد . [٥١٤]

وتضطلع العوامل الطبيعية بالدور الأهم في المراحل الأولى من تطور المجتمع . فالطبيعة والمناخ يهيمان لدى المتوحشين ، وتبرز أهمية العوامل الاجتماعية لاحقا ، وان كان دورها يبدو متفاوتاً من حيث أبعاده لدى شتى الأقوام . ولذا فان الأعراف العادات هي التي تسوس الصينيين في نظر مونتسكيو ، والقوانين هي التي تسير اليابانيين ، في حين كانت الأخلاق هي السائدة في إسبارطة ، ومبادئ الحكم والتقاليد القديمة في روما . لكن مهما كانت هوية العامل الغالب ، فلابد ان يقوم شيء من الاتساق بين مختلف العوامل . فالأخلاق والأعراف والدين والقوانين وأشكال الحكم مرتبطة جميعا بالمناخ ، كما إنها علاوة على ذلك مترابطة فيما بينها مباشرة . ففي حين يحتم النظام الاستبدادي عبودية المرأة ، فان النظام الملكي القائم على أساس قانون يقتضي أن تكون المرأة حرة . [٥١٥]

وفي منهجه التاريخي نجد ، الى جانب العوامل الجغرافية هناك عوامل معنوية وأخرى اجتماعية تؤثر في تشكيل قوانين الدولة ونظم الحكم ، حسب مونتسكيو ، لكن هذه العوامل نفسها من صنع الطبيعة الجغرافية أيضاً ، فالدين ، أهم العوامل المعنوية ، هو الآخر متأثر بعوامل الطبيعة في كثير من أحكامه . ومع هذا التركيز على دور العوامل الجغرافية ، فانه يرى ان الإنسان قادرُ على توجيهها ، أما إذا ساد تأثيرها على العوامل المعنوية والجغرافية والاجتماعية ، فان هذا يعني جمود المجتمع وضعف مقدرته على التطور . [٥١٦]

منهذا يتضح ان مونتسكيو ، انتهج منهجاً قوامه تفَحص القوانين الوضعية وعلائقها المتبادلة ، ليبين كيف ان قانوناً بعينه يستتبع بطبيعته قانوناً آخر ويستبعد آخر، وعليه تقوم بين القوانين الوضعية علاقات تخارج وتداخل

---

[٥١٣] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٣٣٣ .

[٥١٤] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧١٢ .

[٥١٥] ينظر : فولفين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص ٥٧–٥٨ .

[٥١٦] ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ،ص ٧٤.

طبيعية محكومة بضرورة الأشياء لا بأعتساف رجل او هيئة ، ومرد ذلك عند مونتسكيو، لا يعدو الى أسباب المناخ الطبيعية التي تتحكم في أنواع الجنس البشري . [٥١٧]

" لقد جعل مونتسكيو، البيئة الجغرافية العامل المؤثر في نشأة المجتمعات الإنسانية وتطورها ، فضلاً عن عوامل أخرى : مثل الدين والقوانين وأوامر الحكومة والُمثل التاريخية والأخلاق والعادات وكل ما ينتج من الذهن العام . فهناك إذن عاملان : البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية ، ومن اجتماعهما تنشأ الحضارة " .[٥١٨]

وخلاصة القول ، لقد درس مونتسكيو، التاريخ ، مستعملا " المنهج التاريخي والمنهج المقارن ، كيف يتأثر نظام الحكم بالعوامل الجغرافية او المادية والاجتماعية او الثقافية . وهو ، أولى العوامل الجغرافية اهتماما" خاصا" في بيان أثرها في شكل المجتمع ، إلا أنه أشار الى إن العوامل الجغرافية إن ساد تأثيرها في العوامل الثقافية او الاجتماعية فأن هذا يعني جمود المجتمع وضعف مقدرته على التطور نظرا لثبات العامل الجغرافي ان قيس بالعامل الثقافي. [٥١٩]

وعلى الرغم من كل ما يقال عن الأفكار التي طرحها مونتسكيو ، حول تأثير هذه العوامل ، فان فكرة الترابط بين الظواهر الاجتماعية والوسط الجغرافي . الفيزيائي كانت بحد ذاتها فكرة متقدمة في عصره ، وذلك ليس بالمقارنة مع الرؤيةاللاهوتية للعالم فحسب ، بل أيضاً بالمقارنة مع التصورات العقلانية التي استنبطت قبلاً الوجود الاجتماعي من (خصائص الإنسان الطبيعية). [٥٢٠] .

" وتعرضت طروحات مونتسكيو ، الفلسفية بهذا الخصوص الى الانتقاد ، اذ كانت استنتاجاته محاطه بالشكوك ، ولا سيما قوله بان شعوب الشمال أشجع من شعوب الجنوب ، وان الشرقيين كسالى فكرياً ، وان الشبق الجنسي في شعوب المناطق الحارة اشد منه في المناطق الأقل حرارة . وأكد بأنه استمع الى الأوبرا في ايطاليا وفي انكلترا ، ووجد ان الموسيقى الايطالية اشد حيوية من الموسيقى الانكليزية وان السبب في ذلك يعود الى المناخ " .[٥٢١]

أما فلسفته في الفكر السياسي فإنها لا تقل شأناً عن ما سبق ، ان لم تفقها ، لاسيما وانه يكاد يكون الوحيد بين سائر مفكري عصره الذي نظر الى المشكلات السياسية بحد ذاتها بدون إحالة الى تصور للفكر والطبيعة .[٥٢٢]

---

[٥١٧] ينظر : برهييه ، أميل ، تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر . المصدر نفسه ص ٧٩ .

[٥١٨] لسنج ، تربية الجنس البشري . المصدر نفسه، ص ٥٨ .

[٥١٩] ينظر : صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

[٥٢٠] ينظر : فولغين ، فلسفة الانوار . المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

[٥٢١] سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

[٥٢٢] ينظر : برهييه ، أميل ، تاريخ القرن الثامن عشر. المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

لذلك نجد مونتسكيو ، ذلك المفكر السياسي " الأكثر هيمنة ونفوذا " في دوائر المعارضة البرجوازية في القرن الثامن عشر في فرنسا . ويعتبر الفكر الدستوري الفرنسي البرجوازي مؤسسه . وبالفعل كان كتاب (روح القوانين) اثر بالغ الأهمية في نشر الأفكار الدستورية المعتدلة والترويج لها في أوساط الفرنسيين .[٥٢٣]

فقد بحث مونتسكيو، بالقوانين وعلاقاتها بالحكومة وفي طبيعتها ومبادئها ، في الأبواب من الثاني حتى الثامن لكتابه (روح القوانين) . [٥٢٤] " فصَف أنواع الحكم وفقاً لثلاثة أنماط ، كل واحد منها يتميز بطبيعة ومبدأ . ويقصد بـ(الطبيعة) الشخص والجماعة التي تملك السيادة في الدولة . ويقصد بـ(المبدأ) الوجدان الذي يسري في القائمين بالحكم اذا كان لهذا الحكم ان يعمل على أفضل وجه . وإذا حكمت الحكومةحكماً صحيحاً فان المشرع الذي ينتهك مبدأ الحكم يثير الثورة عليه . أما إذا ضعفت الحكومة من جراء ضعف مبدأها الرئيس فلا يمكنه إنقاذها إلا بمشروع قادر على تقوية المبدأ " .[٥٢٥]

وفي السياق ذاته – المبادئ وملاءمتها لنوع الحكم . يقول مونتسكيو: " خلاصة تاريخ الرومان هي ما يلي : كانت لهم مبادئ بواسطتها قهروا شعوب الأرض . ولما أدركوا القمة لم تصمد دولتهم . غيروا مضطرين نظام حكمهم على اسس توافق وضعهم الجديد ، لكنها تخالف مبادئهم القديمة . وهذه القواعد الجديدة هي التي هدت صرح عظمتهم " . [٥٢٦]

وفي السياسة المدنية صَف الحكومات الى ثلاثة أنماط هي: الجمهورية والملكية والمستبدة . وقسم الجمهورية الى ديمقراطية وارستقراطية ، لكل واحدة منها مبدأ مناسب لطبيعتها ، فالمبدأ في الجمهورية الديمقراطية هو الفضيلة ، حيث يشعر من يأمر بتنفيذ القوانين انه خاضع لها بنفسه وانه يحمل عبئها . وهذا المبدأ لا بد منه في الجمهورية الارستقراطية أيضا ، لكن لزومها والحاجة إليها هنا اقل مما هو عليه في الديمقراطية . أما الملكية فمبدأها الشرف (الكرامة) حيث تغيب الفضيلة ، وأما المستبدة فالخوف هو الضروري فيها حيث تغيب الفضيلة والشرف . [٥٢٧]

" أما الحكومة الدكتاتورية فليست لها ، في نظر مونتسكيو ، أية فضيلة لأنها تقوم على الخوف ولا تحتمل أية سلطات وسطى ، ولو حدث فيها تخفيف فلن يكون ذلك إلا بوساطة الدين . والدكتاتورية تلقي بالناس في هوة الذل والمهانة وهي لا تحافظ على كيانها إلا بسفك الكثير من الدماء ، والطاعة التي تتطلبها من رعاياها هي الطاعة العمياء ، والتربية والتعليم في النظام الدكتاتوري لا يوجدان إلا لتعويض أفراد يدينون بالطاعة العمياء ، والطاعة

---

[٥٢٣] ينظر : فولفين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٤٨ .

[٥٢٤] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص ٧٠٦ .

[٥٢٥] بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر نفسه ، ص٤٨٩ .

[٥٢٦] مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان وأسباب انحطاطهم . المصدر نفسه ، ص١٦٩ .

[٥٢٧] نقلاً عن : فولغين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٦٠ –٦١. وانظر ايضا : كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفةالحديثة . المصدر نفسه ، ص ١٩ – ١٩٩ . و : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر نفسه ، ص ٤٨٩ .

العمياء تفرض الجهل . وتقتصر التربية على بث الخوف في قلوب الرعية ، فالتربية في الدكتاتورية كأنها (عدم) ، وفي الحكومات الدكتاتورية تقل القوانين بل تنعدم ، ولا بد ان يكون المحكومون فيها جهالاً جبناء محطمي النفوس .والناس بدلاً من ان يربوا على ان يعيشوا على أساس الاحترام المتبادل ، يموتون بحيث لا يستجيبون إلا للترهيب والتخويف " . [(٥٢٨)]

لذلك يعد مونتسكيو، من معارضي النظام الاستبدادي ، وان كان في بعض الحالات ، وتماشياً مع خطه العام ، ينصح ببعض الإجراءات الجزائية لمعالجة الحكم الاستبدادي . وهذا لا يمنعه على الإطلاق من ان يعلن ان المبدأ الأسمى في ظل هذا الشكل من الحكم ، الذي لا يمكن للإنسان ذكره على لسانه بدون ان ترتعد فرائصه من الخوف . وان الخطر الأعظم الذي يتهدد الملكية او الجمهورية هو السقوط في الاستبداد . أما موقفه من الحكم الجمهوري والملكي فهو أكثر تعقيداً ، فلكي يميز بينهما وبين النظام الاستبدادي يسميهما "حكما معتدلاً " ، والاعتدال صفة ايجابية في نظره كما نعرف ، فهو يجد في الحُكمين بعض السمات التي تستحق التأييد والتقدير ، والانتقال من الأول الى الثاني أو من الثاني الى الأول لا يهدد الدولة بأي خطر. [(٥٢٩)]

ثم كان مونتسكيو، أول من قدم في أوروبا الحديثة (نظام الفصل بين السلطات الثلاث) : التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وأكد ان الفصل القاطع بينها هو شرط لوجود الحرية ، لان السلطة التشريعية إذا أتحدت مع السلطة التنفيذية في سلطة واحدة فإنها تسن قوانين استبدادية ثم تنفذها استبدادياً ، وكذا إذا ارتبطت السلطة القضائية بالسلطة التشريعية فستكون الحرية اعتباطية ، لان القاضي سيكون مشرعا ايضاً . وإذا اتحدت بالسلطة التنفيذية فيمكن أن يكون للقاضي سلطة البطش . فلا حرية حقيقة إلا بالفصل بين السلطات الثلاث ، على حد قول مونتسكيو .[(٥٣٠)]

وهكذا يؤكد مونتسكيو ، على ضرورة الفصل بين السلطات الثلاث ، على نحو تجاوز فيه ما دعا إليه جون لوك [(*)] من قبل . [(٥٣١)]

وفيما يتعلق بنظرية الفصل بين السلطات الثلاث أيضا ، يلاحظ ان هذه النظرية كانت أهم ما لفت نظر الأمريكيين في التفكير الدستوري لمونتسكيو .

---

[٥٢٨] بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

[٥٢٩] ينظر : فولغين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ،ص ٦١ .

[٥٣٠] ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . المصدر نفسه ، ص٧٥ .

[*] جون لوك : ولد في سنة ١٦٣٢ في مدينة رنجتون بولاية سومرست بانكلترا . وكان أبوه محاميا مغموراً لكنه ضمن له مكانا في كنيسة المسيح في باكسنور عام ١٦٥٢ . وهناك تلقى التعاليم الأرثوذكسية الفلسفية العنيفة الخالية من كل حياة والتي كانت في سائدة في عصره . فتأثر بها ، ولكنه كان يمقتها من كل قلبه . نال درجة الليسانس عام ١٦٥٦ . ودرجة الماجستير عام ١٦٥٨ . وعُين عام ١٦٥٩ بوظيفة باحث بالدراسات العليا في كليته ، ولكنه فصل منها سنة ١٦٨٤ لأسباب سياسية . توفي عام ١٧٠٤ . كامل ، فؤاد ، الموسوعة الفلسفية المختصرة . المصدر نفسه ، ص ٣٦٦-٣٧٣ .

[٥٣١] ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر نفسه ، ص ٤٩١ .

ومن بين النظريات والآراء الأخرى التي عرضها مونتسكيو، في كتابه(روح القوانين) ، واهتم بها الأمريكيون في القرن الثامن عشر ، هما أمران **احدهما** : رأيه في النظام الفدرالي(الاتحادي) ، **والاخر** ونظرية الفصل بين السلطات الثلاث . ذلك إن مونتسكيو، في مستهل كتابه (روح القوانين) ، أشاد بنظام الجمهورية الفدرالي (الاتحادي) . فقال في الفصل الأول بهذا الخصوص: ان هذه الدولة " تتمتع بصلاحية الحكومة الداخلية لكل واحدة منها ، وبالنسبة الى الخارج فان لها ، بفضل قوة التجمع ، كل مزايا الملكيات الكبيرة " . وقد اقتبس (هاملتون ١٧٥٥- ١٨٠٤) ، احد كبار مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية ، هذه العبارات لـ" أنها تحتوي بإيجاز على الحجج الأساسية المؤيدة للاتحاد " . [٥٣٢]

ومن النظريات الأخرى التي نادى بها مونتسكيو ،(نظرية المساومة) أو (نظرية الحل الوسط) . التي تمثل صورة واضحة لتطبيقه للمنهج التاريخي ، " فقد كان يرغب في توطيد الحريات البورجوازية لا عن طريق سحق الطبقة السائدة في المجتمع الإقطاعي ، وإنما عن طريق تفاهم يلحق اقل ضرر بمصالحها . ان نظريته هذه تحمل علائم نفور أي ارستقراطي من احتمال حرمانه من امتيازات طبقته ، لكن وعلى الرغم من روح المساومة هذه ، فان نظرية مونتسكيو، عَبت عن مرحلة محدود من تطور العقلية السلبية للبرجوازية الفرنسية "[٥٣٣] ، لان هدفه الأول كان الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وانه اتخذ التحليل العلمي وسيلة أمينة فعالة لتحقيق هذا الإصلاح . ولاشك انه كان عاملا قوياً في تهيئة الجو للثورة الفرنسية . [٥٣٤] لذلك فان كل ما تم من إصلاحات قضائية ، كان من بين الأفكار الجديدة التي نادى بها مونتسكيو .[٥٣٥] هذا يعني انه في منهجه التاريخي ، قد بحث في أسباب النهوض والانحطاط ، وأحاط بمعرفتها علما ، ثم قدم أسباب ذلك النهوض وأسباب ذلك الانحطاط ، وهذا يشير الى انه درس التاريخ من منظار جديد لم يكن مألوفا من قبل .

كذلك فان المنهج التاريخي الذي استعمله مونتسكيو ، كان قد تجاوز فيه كل المناهج الكلاسيكية في البحث التاريخي ، خلال القرن الثامن عشر ، وكان منهجه هو البحث في العلل وتحليلها والاستنتاج منها .[٥٣٦] فيقول " ان أسباب نهوض روما هي نفسها التي أدت الى الخلل والانحطاط ثم الانهيار ، أسباب عائدة الى التشريع ، التربية ، رعاية الأعراف ، تدبير المعاش ، رسم الضرائب ، تعبئة الجيش " . [٥٣٧]

---

[٥٣٢] مونتسكيو ، روح الشرائع ، ج١ ، المصدر نفسه ، ص٢١ .

٥٣٣ طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص٦٥٤.

[٥٣٤] كرم ، يوسف ، الفلسفة الحديثة. المصدر نفسه ، ص ٢١٦ .

[٥٣٥] بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر نفسه، ص ٤٩١ .

[٥٣٦] ينظر : مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان ، أسباب النهوض والانحطاط . مقدمة المؤلف ، تر ، عبد الله العروي ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، الدار البيضاء ، ٢٠١١ ، ص١٢ .

[٥٣٧] مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان ، أسباب النهوض والانحطاط . المصدر نفسه ، ص١٣

توفي مونتسكيو ، في عام ١٧٥٥ ، ولكن روحه بقيت معلماً رئيساً من معالم الطريق . ولقد ترك لنا منهجا تاريخيا لم يسبقه إليه أحدا من قبل ، وأدى به هذا الى ان يكون رائدا من رواد المنهج العلمي في تفسير التاريخ ، كان مونتسكيو، انكليزي الهوى ، إذ اعتبر الدستور الانكليزي قوة تُحتذى بالنسبة للعقل التاريخي والسياسي المُنار . (٥٣٨)

المبحث الثالث : النقد التاريخي من خلال نصوصه الثلاثة .

كان النقد الأداة المتميزة عند مونتسكيو ، ولا تكاد تنفصل عنه في جميع جوانب فلسفته ، ولا سيما ما يتصل بموضوع بحثنا (فلسفة التاريخ) ، لذلك ارتبط عنواننا بحالة النقد عند مونتسكيو ، فكان (فلسفة التاريخ النقدية) ، والمستمد من فلسفته العامة (*) ، تمسك مونتسكيو، بالنقد لأنه أدرك ان النقد هو : وسيلة من وسائل تمحيص الآراء وتحرير الأفكار، يتطلب ملاحظة دقيقة وانتباها تاما وإطلاعا شاملا ، يمكن من إدراك الغامض والتنبه الى الخفي

---

٥٣٨ ينظر : سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

* " وقوام منهج مونتسكيو ، أن يتفحص القوانين الوضعية في علاقاتها المتبادلة ، ليبين كيف ان قانونا بعينه يستتبع ، بطبيعته ، قانونا أخر ويستبعد كذلك أخر ، وعليه تقوم بين القوانين الوضعية علاقات تداخل وتخارج طبيعية ، محكومة بضرورة الأشياء ، لا باعتساف رجل او هيئة " . انظر : برهييه ، أميل ، تاريخ الفلسفة ، القرن الثامن عشر . المصدر نفسه ، ص٧٩ .

والاهتداء الى الناقص . هو ضرب من ضروب التحليل وتقليب الأمور على وجهها ليقف الإنسان على دخائلها ومحتوياتها ، فيحلل الناقد ، الفكرة او العبارة ليتبين ما فيها من صواب او خطأ . (٥٣٩)

على هذا انطلق مونتسكيو، في منهجه التاريخي ، من موضوع النقد الفلسفي ، ليشرع في بناء منهج نقد تاريخي (**) وظفه للعمل على إقامة جسور متينة بين منهج البحث التاريخي والفكر الفلسفي النقدي (***) في إطار نظرية حديثة ، تعد اسهاما مهما في إطار انطلاقة جديدة في الوصول الى فلسفة تاريخ معبرة بصدق عن حقائق التاريخ وقضاياه . (٥٤٠)

ان ما ينبغي الإشارة إليه ان مونتسكيو ، اشترك مع (فيكو) ، في فكرة التأسيس للمنهج التاريخي المقارن ، وان كليهما شرعا في استعمال المعطيات التاريخية أساسا لتحديد القوانين التي تحكم التطور التاريخي للشعوب . (٥٤١)

وكان للأسلوب النقدي الذي انتهجه مونتسكيو، الأثر البالغ في الحياة السياسية والاجتماعية في فرنسا ، وفي عام (١٧٢٥) ، خطب وهو رئيس لبرلمان بوردو خطبة افتتاحية كان لها اثر كبير في الأوساط القانونية والسياسية ، اذ حمل على الاتجار بالمناصب القضائية ، وعلى جهل القضاة وعدم نزاهتهم ، وطالب بسن قانون واضح عام لفرنسا يطبق على الناس جميعا بلا تفرقة ، حتى يطمئن المتقاضون . ذلك ان فرنسا في تلك الحقبة لم يكن يسودها قانون عام شامل ، بل كان القاضي يحكم في كل منطقة حسب عادات وتقاليد في شيء كبير من حرية التقدير مما أدى الى فساد العدالة ، ونقد في خطبته بطء القضاء وتأخير البت في القضايا ، وكان لهذه الآراء النقدية (*) ، الطريقة وأمثالها مما كانت تطفح به كلماته ، سواء في خطبه البرلمانية ام في أحكامه اثر كبير في توجيه أذهان العلماء

---

٥٣٩ ينظر : مدكور ، إبراهيم ، كرم ، يوسف ، دروس في تاريخ الفلسفة . المصدر نفسه ، ص٣٨٣ .

** وعلى أساسه ان التاريخ ، هو مجموع قراءات تاريخية تختلف باختلاف الوقائع والأحداث والمفاهيم والسياقات والذوات القارئة . انظر : الكيلاني ، مصطفى ، التاريخ والوجود في المتبقي والمندثر . الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، ط١ ، (ب،ط) ، مصر ، ١٩٥٤، ٧٤ .

*** وان النقد يعرف ايضا وبصورة خاصة ، على انه التهيئة لفلسفة جديدة . انظر : ارون ، ريمون ، فلسفة التاريخ النقدية بحث في النظرية الالمانية للتاريخ . تر ، حافظ الجمالي ، منشورات وزارة الثقافة ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٩٩ ، ص١٥ .وللمزيد عن فلسفة التاريخ النقدية انظر : W.H.Dray ,philosophy of History ,The Eacyclopedia of philosophy ,Macmillaa ,New York . V1., p . 247 .

٥٤٠ ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص٤٢٢ . وانظر ايضا : الشرقاوي ، عفت ، في فلسفة الحضارة الاسلامية . دار النهضة العربية ،ط٤ ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٨،١٤٩ .

٥٤١ ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، مج ٦ ، الفلسفة الحديثة ، من عصر التنوير في فرنسا حتى كانت ، . المصدر نفسه ، ص٢٣٤ . وفي المقارنة مع فيكو وتمكن الى حد بعيد من الإفادة الواعية من التقدم الذي طرأ على مناهج البحث والتحليل النقدي في العلوم ، والمعلومات المتراكمة من الاستشراف والدراسات الانثروبولوجية ، وتوظيف كل ذلك في كتاب (العلم الجديد والطبيعة المشتركة للأمم) الذي تصور فيه تاريخا لعالما واحدا يتحرك في ثلاث دورات كبرى تحت رعاية العناية الإلهية . للمزيد انظر: هيرمان ، آرثر ، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي ، تر ، طلعت الشايب ، تقديم رمضان بسطاويس ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، ط١ ،القاهرة ، ٢٠٠٠، ص٥٦ .

* يصف لنا مونتسكيو وضعه داخل البرلمان والبلاط الملكي ويقول " لقد ظهرت في بلاط الملك منذ شبابي الغض ، وما أستطيع ان أقوله هو ان قلبي لم يفسد في البلاط . والتزمت خطة عظيمة من شأنها ان أجرؤ على ان أكون فاضلا . وعندما تكشفت لي رذائل القصر ابتعدت عنها ثم اقتربت منها لأكشف عنها القناع . وحملت الحقيقة حتى وصلت بها الى قوائم العرش ، وهناك تكلمت لغة لم تكن مألوفة حتى ذلك الحين : لقد زلزلت أركان الملق وبثثت الرعب في العابدين والمعبود على السواء " . انظر : رسائل فارسية ، الرسالة الثامنة ، تر ، كمال يونس ، مراجعة ، عبد الحميد الدواخلي ، دار سعاد الصباح ، ط٢ ، الكويت ، ١٩٩٢ ، ص٢١ .

والمفكرين الى إصلاح القضاء الفرنسي ، حتى ان برلمان بوردو مكث عدة سنوات يفتتح جلساته بقراءة خطبة الافتتاح التي ألقاها في سنة ١٧٢٥ . [٥٤٢]

لقد كان النقد هو الأسلوب المميز لـ (مونتسكيو) ، وانتقل معه الى جميع مؤلفاته ، وقد تجلى الفكر التاريخي النقدي عنده من خلال دراسته للقوانين واختلاف هذه الاخيرة في الأزمنة والأمكنة . [٥٤٣] بيد إننا سوف نتعرف على منهجه النقدي في التاريخ من خلال مؤلفاته الأكثر ذيوعا وهي :

المطلب الاول : ـ رسائل فارسية . (*)

في كتاب (رسائل فارسية) ، ١٧٢١ ، وهو كتابه الأول ، ذهب مونتسكيو، الى ابعد مدى من النقد ، بحثا عن المعرفة والحكمة (**) حيث تقمص فيه مونتسكيو، شخصية السائح الفارسي . وهذه ثورة ذهنية قاطعة بكل معاني الكلمة . لم يقدم على مثلها فرنسي اخر إلا بعد مرور قرنين ، عندما كتب (أندره مالرو) رسائله الصينية ، تحت عنوان (إغراء الغرب) . ومنظور الرسائل الفارسية هو منظور مونتسكيو، الافاقي ، المتسامي عن جنسه وعقيدته وثقافته ، وهذا التسامي ما كان ليحدث لولا التجارب والمؤهلات التي امتاز بها المؤلف . [٥٤٤]

وإننا نجد ان لحظة الشروع في كتابة (رسائل فارسية) ، هي البداية الأولى للتفكير التاريخي عند مونتسكيو ، في بناء حضارة ، ذلك لأنه انطلق من مبدأ النقد لكل نواحي الحياة في فرنسا ، ساعيا من وراء نقده هذا الى بناء نظام سياسي واجتماعي واقتصادي لفرنسا ، فلم تكن نظرته الى الماضي في حدود المعرفة إلا لأجل تقويم الحاضر ، والاستفادة من خبرات تاريخ العالم ، في بناء منظومته الحضارية الجديدة القائمة على أساس التصورات العلمية والواقعية الجديدة التي فرضها عصر النهضة وأرسى قواعدها فلاسفة التنوير ، والذين كان مونتسكيو، من أهم روادهم .

---

[٥٤٢] ينظر : سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠٠ .

[٥٤٣] ينظر : كوثراني ، وجيه ، تاريخ التأريخ ، اتجاهات - مدارس – مناهج . المصدر نفسه ، ص١٥١ .

* يذكر أن من معطيات (مونتسكيو) في تأليفه هذا الكتاب ، هو قراءته لكتاب (رحلة شاردان) ، في بلاد الفرس في طبعتها التي صدرت سنة ١٧١١ ، ثم ألف ليلة وليلة ، وهو الكتاب الذي ترجمه (جالان) ، وكان لإطلاعه على هذين الكتابين الى جانب صداقته لسفير العجم في باريس محمد رضا بك اكبر الأثر في تأليفه (رسائل فارسية) الذي ألفه سنة ١٧٢١ . انظر : سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠٠ . ويرى فردريك كوبلستون " ان رسائل فارسية ، كانت بمثابة هجاء للأحوال السياسية والكنسية في فرنسا " . كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، مج ٦ ، الفلسفة الحديثة ، من عصر التنوير في فرنسا حتى كانت ، المصدر نفسه ، ص٣٠ .

** حيث يقول مونتسكيو في كتابه رسائل فارسيه " ربما كنت أنا وصديقي ريكا الوحيدين من أبناء الفرس اللذين لخرجهما من ديارهما حب المعرفة ، ورغبا في حلاوة العيش في حياة هادئة ليبحثا جاهدين عن الحكمة " . انظر : مونتسكيو ، رسائل فارسية . الرسالة الأولى ، المصدر نفسه ، ص٩ .

[٥٤٤] ينظر : مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان وأسباب انحطاطهم . مقدمة المترجم ، المصدر نفسه ، ص٩ .

ودليلنا ، على ان مونتسكيو ، سعى لبناء حضارة من خلال منهجه النقدي في التاريخ ، انه كان يؤمن تماما ان حضارة اية امة ، ما كان لها لتقوم لولا تلاقحها مع الحضارات الأخرى ، ووجدنا هذا في رسالته الأولى حيث يقول " لقد ولدنا في مملكة مزدهرة ، ولكننا لا نؤمن ان حدودها هي حدود المعرفة لنا ، كما إننا لا نؤمن ان حكمة الشرق وحدها هي التي تهدي سبيلنا " . [٥٤٥]

ان مونتسكيو ، كان يعتقد ان هناك بيئات متخلفة في فرنسا ، وهذا يمنع عملية بناء تاريخ جديد لفرنسا يسوده فهم لطبيعة القوانين ومبادئها . حيث يقول " انك تركتنا – يا اوزبك – لتطوف في هذه البيئات غير المتحضرة " . [٥٤٦]

ويحق لنا ان نضع مونتسكيو ، في ميزان النقد ، ونقول انه في بعض رسائله من هذا الكتاب (رسائل فارسية) ، لم يكن مؤرخا موضوعيا او حياديا ، فقد تمثل في صورة ذلك الرجل الفرنسي الذي يكره الدولة العثمانية ، والذي ينظر إليها نظرة التحامل ، حيث يقول في هذا " يجب ان اعترف لك يا نصير إني شعرت بألم دفين عندما اختفت بلاد الفرس عن ناظري ووجدت نفسي بين العثمانيين الغادرين " . [٥٤٧]

ان البناء التاريخي عند مونتسكيو ، لا يقوم على جانب دون اخر ، لذلك لم يقتصر نقده لأوضاع فرنسا على الجانب السياسي فقط ، بل ذهب الى الجانب الاجتماعي ، ودخل في تفاصيله الدقيقة ، لأنه كان يعتقد انه ، بعملية إصلاح الأوضاع العامة في فرنسا ، يمكن ان يقدم لمشروع بناء حضارة الأمة ، فانتقد الممارسات الاجتماعية التي تعبر عن سعادة المرأة او الرجل ، وإنكار الذات بينهما ، لأنهما نواة تشكيل الأسرة ، والأسرة هي نواة المجتمع ، والمجتمع السعيد والواعي بذاته هو الوحيد القادر على بناء التاريخ . ويقول في هذا الشأن في الرسالة السابعة " ما أتعس امرأة تترك وحدها ، وتحرم ذلك الشخص الذي يستطيع وحده ان يشبع هذه الوحدة ، دون ان تجد من يسليها ، فعليها ان تعيش فيما الفت من تنهدات ، وفي ثورة الشوق العنيفة بعيدة عن السعادة " .[٥٤٨]

وفي رسائل فارسية " اختلط النقد الجارح والجريء لعادات العصر والكنيسة والحكم بلوحات مستقاة من الحياة في سراي أصفهان ، وبروايات عجيبة تتسم بنزعتها التثقيفية حينا وبطابعها الهازل حينا أخر " . [٥٤٩]

ووصلت جرأة مونتسكيو ، بالنقد الى انتقاد ملك فرنسا بشكل واضح ، فيقول " ان ملك فرنسا أعظم ملوك أوروبا . ومن جهة أخرى فأن هذا الملك ساحر عظيم ، اذ يؤثر بسلطانه أيضا على تفكير رعيته فيجعلهم يفكرون كما يريد " . [٥٥٠]

---

[٥٤٥] ينظر : مونتسكيو ، رسائل فارسية . الرسالة الأولى ، المصدر نفسه ، ص٩ .
[٥٤٦] ينظر : مونتسكيو ، رسائل فارسية . الرسالة الثالثة ، المصدر نفسه ، ص١٣.
[٥٤٧] ينظر : مونتسكيو ، رسائل فارسية . الرسالة السادسة ، المصدر نفسه ، ص١٦ .
[٥٤٨] ينظر : مونتسكيو ، رسائل فارسية ، الرسالة السابعة . المصدر نفسه ، ص١٩ .
[٥٤٩] فولغين ، فلسفة الأنوار ، المصدر نفسه ، ص٤٩ .

وان كتاب رسائل فارسية ، كان أساسا سخرية اجتماعية من حالة فرنسا ، قدم فيها المؤلف احتراماته الى الكنيسة ولويس الرابع عشر وأفول نجم البرلمانات واضمحلال طبقة النبلاء [٥٥١] ، وكان الفكر الكامن وراء النقد هو نفس مفهوم فكرة الحكم الاستبدادي التي أوضحها بالتفصيل في (روح الشرائع) ، - حكومة قضي فيها على كل القوى المتوسطة بين الملك والشعب ، والقانون جعل مطابقا للإرادة الملكية – ولقد كان هذا التفسير للاستبداد هو الذي اضفى أهمية على فصل السلطات ، الذي اعتقد مونتسكيو، انه عثر عليه في الدستور الانكليزي . ومع ذلك فانه كان يظن انه في (رسائل فارسية) ، ان أفضل حكومة هي تلك التي تقود الناس في أفضل طريق مناسب لتصرفاتهم ، وأظهرت مناقشة لأسباب تناقص السكان ، نزعة نحو التأمل السوسيولوجي . [٥٥٢]

وفي منهجه النقدي [*] ، في (رسائل فارسية) ، يستبعد الحكم الاستبدادي ، بقدر ما ينطوي الحكم الملكي عليه . ومن هنا ينتج ان الشرف ، الذي يخدم الدولة الملكية ، يضع حدا جديدا في وجه ما تقوم به السلطة صاحبة السيادة من تجاوزات لحقوقها . وعلى هذا النحو يعزز عمل السلطات الوسيطة ، المؤتمن على القوانين . وهذا منطقي ، لأنه مشتق مباشرة – من هذه المؤسسات نفسها – من طبيعة الحكم الملكي . [٥٥٣]

لكن ، يصعب على قارئ (رسائل فارسية) تحديد شكل الحكم الذي يحظى بإيثار المؤلف : فهل هو من أنصار الملكية التي تعتمد القوانين أساسا لها ، ام من أنصار الملكية التي يحد التمثيل الشعبي من صلاحياتها ، أم من أنصار الجمهورية ؟ لكن ثمة أمرا واضحا وأكيدا بالمقابل : فهذا الكتاب مشبع ، من أوله الى أخره ، بالكراهية للاستبداد ، ومفهوم الحرية هو المعيار الأساسي لمؤلفه في تقييمه للعلاقات السياسية ، فهو يدعو الى الحرية المطابقة للعقل ، وللإنسانية ، وللطبيعة . [٥٥٤]

ان(رسائل فارسية) هي أول رواية خطابات أوروبية ذات شأن ، انها تقدم خبرات الرحلات إثناء بدايات عصر التنوير . وتمثل بذلك الانفتاح الثقافي على الشرق ، كما انها تنتمي أيضا الى الاتجاه الأخلاقي الفرنسي ، الذي أسس له مونتسكيو، من خلال منهجه النقدي ، كما وصور طبائع اجتماعية مثل ذواقي الأدب والمغامرين المحظوظين ، كما انه عاد الى المنظور الشرقي الذي استعمل كثيرا في عصر التنوير ، وهو النظر الى الأوضاع والأحوال الغربية بعيون شرقية ، فهناك اثنان من الرحالة من أصفهان يأتيان الى فرنسا ويعلقان على المجتمع فيها

---

[٥٥٠] ينظر : مونتسكيو ، رسائل فارسية ، الرسالة الرابعة والعشرون ، المصدر نفسه ، ص٥٤ .

[٥٥١] انظر الرسائل : ٢٤ ، ٣٧ ، ٩٢ ، ٩٨ .

[٥٥٢] ينظر : سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي . المصدر نفسه ، ص٧٤٨ .

[*] النقد عند مونتسكيو عامل من عوامل التحري والدقة . وبقدر ما يفترق النقد عن الاعتقاد والتسليم يبعد أيضا عن الشك والإنكار ، نعم انه خطوة في سبيل الشك ن الا انه ليس الخطوة النهائية ، فالشاك ناقد مستمر في نقده لا يقف عند غاية ولا يطمئن الى نهاية ، والناقد شاك في بعض ما يعرض له ومسلم ببعضه الأخر . ينظر : مدكور ، إبراهيم ، كرم ، يوسف ، دروس في تاريخ الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص٣٨٣ .

[٥٥٣] ينظر : شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافيللي إلى أيامنا . المصدر نفسه ، ص٢٠٢ .

[٥٥٤] ينظر : فولغين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٥١ .

عن طريق الخطابات . بهذه الخدعة الفنية ينتقد مونتسكيو، الاستبداد الفرنسي بطريقة غير مباشرة . لقد ضبط بروايته هذه الأساس التنويري لفلسفته السياسية . [٥٥٥]

" اظهر مونتسكيو براعة في التهكم ونقد الأوضاع الاجتماعية ، والمغزى المستخرج من الكتاب هو نسبية كل الأنظمة . ونجد أيضا بذور الأفكار التي نماها فيما بعد . مثل ان الناس دائما يولدون في مجتمع " . [٥٥٦]

ولم يترك مونتسكيو ، فرصة التعبير عن أسباب انحطاط المجتمع ، فقد أوضح من خلال قصة هذا الشعب الخيالي ، ان البشر المحرومين كليا من الفضائل المدنية ، والذين يجهلون كل شيء عن مبادئ العدل والانصاف ، يعجزون عن العيش معا . وهذا الشعب الذي مزقته التناقضات ، واستعبدته الأهواء الفردية والدوافع الأنانية ، محكوم عليه بالهلاك المحتوم . [٥٥٧]

إذن الفضيلة تسهم في بناء سعادة الإنسان ، المصمم للتاريخ عند مونتسكيو ، اذ يقول " أيكون الناس اسعد بلذاتهم ، وإشباع حواسهم ، أم بممارسة الفضيلة ؟ وكثيرا ما سمعتك تقول : ان الناس ولدوا ليكونوا فضلاء ، وان العدالة صفة لازمة لهم لزوم وجودهم " . [٥٥٨]

كما وتهجم بوضوح على رجال الدين ، وقال عنهم " لقد تحدثت مع رجال الدين فأيأسوني بآياتهم القرآنية ، وانا لا اكلمهم كمؤمن صادق الإيمان ، ولكن كرجل وكمواطن ، وكأب لأسرة " . [٥٥٩]

ويقول فولغين " كان لـ (مونتسكيو) موقف غيرمبال وريبيا من الدين المسيحي وعقائده . ففي إحدى الرسائل التي منعتها الرقابة من صدور الطبعة الثانية للكتاب ، سمح لنفسه ان يتكلم بلهجة ساخرة ، على لسان رجل فارسي ساذج وجاهل ، عن بعض العقائد الجوهرية في الدين المسيحي ، عن عقيدة الثالوث المقدس مثلا وتحول القربان . هذه الرسالة تشكل استثناء . فمونتسكيو، لم يوجه هجائه ونقده الجارح الى جوهر المذهب المسيحي بقدر ما وجهه الى عيوب كنيسة الطقوس والشعائر " . [٥٦٠]

لكننا نجده في الرسالة الخامسة عشرة ، يؤكد إيمانه (بالله) ، البعيد عن اله المشعوذين ، حيث يقول " ارجو ان يكون الله رائدك في تلك الجهات ، وان ينجيك من جميع الأخطار " . [٥٦١]

---

[٥٥٥] ينظر : تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . مدخل لأعمالهم الفلسفية الرائدة . المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .

[٥٥٦] بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج٢ ، المصدر نفسه ، ص٤٨٨ .

[٥٥٧] ينظر : فولغين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٤٩ .

[٥٥٨] ينظر : مونتسكيو ، رسائل فارسية . الرسالة العاشرة ، المصدر نفسه ، ص٢٧ .

[٥٥٩] مونتسكيو ، رسائل فارسية . الرسالة العاشرة ، المصدر نفسه ، ص٢٧ .

[٥٦٠] فولغين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ن ص٥١ ، ٢٥ .

[٥٦١] مونتسكيو ، رسائل فارسية ، الرسالة الخامسة عشرة ، المصدر نفسه ، ص٣٩ .

المطلب الثاني : - تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط .

على الرغم من إننا نجد النقد التاريخي في مؤلفات مونتسكيو ، (رسائل فارسية ، روح الشرائع) ، ورغم من ما امتاز به كتابه الأول (رسائل فارسية) ، من أسلوب أدبي وروائي ، و(روح الشرائع) ، من نفحة سياسية وقانونية ، لكنهما جاءا تجسيدا مميزا للنقد التاريخي ، من خلال الواقعية النقدية التي تميز بها مونتسكيو . أما كتابه (تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط) ، فهو على عكس ما يتبادر إلى أذهان كثيرين ممن لم يتصفحوا الكتاب بدقة ، فهو ليس موجها فقط إلى المختصين في التاريخ الروماني القديم ، بل هو كتاب فكري بمحمولات تاريخية . فقد كان تحفة فنية ، رسمها فنان بأعلى المستويات ، انه عمل مؤرخ كبير ، وفيلسوف حاذق . فقد جاء كتابه هذا ليكون من أروع كتب التاريخ ، بل من أعظم ما يستطيع مؤرخ ان يكتبه ، لأنه ليس كباقي كتابات المؤرخين الكلاسيكية ، انه دراسة تحليلية ، نقدية ، وصفية ، تعليلية ، درس من خلاله القوانين التاريخية ، والأسباب والنتائج ، وعالج تاريخيا طويلا مغرقا في القدم ، فاستحق ان يكون من مشاهير الكتب العالمية في كتابة التاريخ .

ونجده في كتابه (تأملات في تاريخ الرومان ....) ، يضع منهجا خاصا لدراسة التاريخ ، يقوم على استنباط النتائج من مقدماتها ، وهو المنهج الذي سوف تقوم عليه دراسته في كتاب روح القوانين . [٥٦٢] ، ونجد ان كتابه (تأملات ....) ، يعد باكورة مشروعه الكبير (روح الشرائع) ، لذلك هو عمل تاريخي عظيم . [٥٦٣]

لقد استعمل مونتسكيو ، النقد التاريخي في كتابه (تأملات) ، من خلال تناوله التاريخ من زاوية علمية ، وطبق منهجا وصفيا في تفسير الظواهر . وانتقد فيه سلب الناس حرياتهم وحقوقهم ، التي يجب ان تدرس على مدى كبير من الواقعية . [٥٦٤]

وأكد مونتسكيو ، في تأملاته ، " ان العلاقات بين الأشخاص والجماعات اقل توثقا في المجتمع الحر منها في المجتمع الاستبدادي . ذلك انه في ظل الحرية لا بد من وجود الاختلافات بل المنازعات ، لان مثل هذا المجتمع الحر يقوم على التصالح والتوفيق بين جماعات معترف بها ، ولكل منها مصالحه الخاصة . ان الاجماع لا محل له في مجتمع حر " . [٥٦٥]

وتبدو ملامح النقد جلية في تأملاته من خلال نصوصه الواقعية ، وما يسترعي الانتباه إننا نلاحظ ، ان نقده لم يكن نقدا من اجل النقد ، بل كان نقدا علميا بناءا ، يقوم على تحري وتحليل الواقعة التاريخية ، ومن ثم تقديم

---

[٥٦٢] ينظر ، سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المصدر نفسه ، ص٧٠١ .

[٥٦٣] ينظر : فولغين ، فلسفة الأنوار ، المصدر نفسه ، ص٤٩ .

[٥٦٤] ينظر : الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . المصدر نفسه ، ص٤٧٧ .

[٥٦٥] مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . الفصل التاسع ، المصدر نفسه ، ص٨٩ .

الحلول لها ، وانه يقوم بتحليل كل شاردة وواردة ويبين أسباب حدوثها ، بل حتى اصول تسمياتها ، فمثلا عندما بحث عن أسماء المواقع القديمة في روما قال " لا يصح ان نتصور مدينة روما في بداية أمرها على نمط أمصار اليوم ، إلا إذا قسنا حالها على ما نرى حاليا من جزيرة القرم ، مجموعة ملاجئ لربط الحيوانات ، ومخازن لحفظ الغلال ، وهذا ما تدل عليه بالضبط الأسماء التي تطلق على أهم مواقعها " . [٥٦٦]

لقد أكد مونتسكيو ، من خلال نقده التاريخي ، ان الأهواء والملذات الحسية ، ليس من شانها ان تغير التاريخ ، أو تصنع الأمجاد ، لأنها جميعها دوافع واهية ، أما سبب تغير مجرى التاريخ الحقيقي ، فهو الدوافع العميقة المكنونة في ذات الإنسان ، فهي وراء أهم تحولات التاريخ ، وهاك ما يقول " ولنا في التاريخ الحديث حالة مماثلة [*] ، من المفيد ان نتأملها . أهواء بني ادم ثابتة لا تتغير . الظروف وحدها تختلف ، أما الدوافع العميقة وراء أهم تحولات التاريخ ، فهي دائمة " . [٥٦٧]

ويرى " ان حكم التاريخ كحكم المجتمع ، كلاهما خاضع لتقلبات الدهر . الخزي ، كل الخزي ، لحاكم اضطهد حزبا انتهى بالانتصار ، أو حاول استئصال خرافات وأوهام ، ظلت حية بعد وفاته " . [٥٦٨]

ويشير الباحث ، الى ان هذا الحكم القسري لـ (مونتسكيو) ، بالإبقاء على العادات والتقاليد القديمة ، أدى الى سخرية فولتير منه [٥٦٩] ، لأنها تحجيم وتحديد لإمكانية التطور العقلي والتاريخي ، وهذا يتناقض مع عصر التنوير .

ومما يلاحظ ان مونتسكيو ، في كتابه تاملات ، تارة يبين اسباب النهوض ، وتارة أخرى يبين اسباب الانحطاط ، الا ان ، كلتا الحالتين تدور في دائرة نقده التاريخي للشعب الروماني والدول المجاورة له ، فنلاحظ مثلا ، انه يبين لماذا كانت بعض شعوب ايطاليا غير ميالة للحرب فيقول " لم تكن جميع شعوب ايطاليا ميالة للحرب . كان الغنى قد اوهن سكان طوسكانيا " . [٥٧٠]

ويرى ان اسباب سيطرة الرومان على دول كثيرة في العالم ، هو حبهم لفن الحرب وانضباطهم العسكري فيقول " جعل الرومان من الحرب همهم الأول وصناعتهم الوحيدة ، فاجتهدوا لإتقانها وتطوير أساليبها ، الى حد ان

---

٥٦٦ ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٢١ .

* للمزيد من التفاصيل عن هذه الحالة المماثلة ، انظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٢٣ .

٥٦٧ ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٢٤ .

٥٦٨ مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٢٥ .

٥٦٩ انظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص٣٠ .

٥٧٠ ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٢٨ .

فجيس بوس (**)، رجح ان تكون الكتيبة من وحي الهي " . [571] ويقول " كلما شعر الرومان بخطر يحدق بهم ، او ارتكبوا الخطأ وأرادوا استدراكه ، أو تعرضوا للفشل ، عادوا وشددوا على ضرورة الانضباط العسكري " . [572] .

ويعتقد الباحث ان هناك ضرورة للتوقف عند ما ذكره مونتسكيو، في الفصل الثالث ، وبين ما ذكره في الفصل الأول ، والذي أوردناه سلفا ، حول الأحوال القديمة ومن ضمنها العادات والتقاليد ، فهناك تناقض بحسب ما نعتقد . ففي الفصل الأول رفض صاحبنا أن تتبدل الأحوال القديمة ، ومن ضمنها العادات والتقاليد ، وعرجنا سابقا وقلنا إنها تتعارض مع الموقف التنويري ، ونراه ألان مصرا على إن فهم التاريخ ووضع خطة لتطوره لا يتم إلا من خلال إدراك تحولاته ؟ فنلاحظ قوله " هذه نقطة يجب أن نتمعن فيها ، وإلا عجزنا عن فهم أحداث الماضي . إذا لم ندرك تبدل الأحوال فإننا نميل إلى الظن ، ونحن نقرا أخبار الماضي " . [573]

ويرى مونتسكيو، إن فقدان العدالة وعدم توافرها في توزيع الثروات على الشعب بالتساوي سوف يكون سببا في انهيار بنائها التاريخي ، وينتقد بشكل مباشر أحوال فرنسا في هذا الاتجاه ويقول " إذا اهلمت هذه القاعدة الأساس ، او لم تطبق بحزم ، عندما تسير الأمور الى ما نراه في مجتمعاتنا . يكثر حرص البعض وإسراف البعض الأخر ، فتكدس الملكية في أيدي القلة . تزدهر في الحين الصنائع استجابة لرغبات الأغنياء والفقراء معا . فلم يعد في هذا الوضع الجديد لا المواطن الحق ولا الجندي الحق " [574]ويؤكد ان سبب بروز روما هو عدالة التوزيع للثروات فيقول " الخلاصة واضحة : المساواة في الملكية العقارية هي سبب بروز روما وخروجها من وضعها الحقير . ويقوي هذا الاستنتاج ما حصل عندما زالت تلك المساواة " . [575]

ويؤكد مونتسكيو، ان رعاية الصالح العام هو احد مرتكزات البناء الحضاري لأية دولة تروم تسلق المجد ، وان إهماله يؤدي الى انحطاطها ، فنراه يعقد مقارنة بين قرطاج وروما ، مبيننا اسباب النهوض والانحطاط بينهما ، وأرجع سبب انهيار قرطاج ، الى إهمالها للمصلحة العامة على الرغم من أنها سبقت روما في الرفاهية فيقول "

** مؤرخ روماني متخصص في شؤون الحرب عاش في القرن ٤ م . انظر : هامش المترجم في تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط . المصدر نفسه ن ص٣١ .

[571] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٣١ .

[572] مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٣٣ .

[573] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٣٧ .

[574] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٣٨ . .

[575] مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٣٨ .

سبقت قرطاج روما الى الرفاهية وبالتالي الى الميوعة والانحلال " . [٥٧٦] كما وأكد ان " إهمال الصالح العام يضر بالجمهورية ويقربها من الانحلال أكثر مما يضر دولة يحكمها طاغية " . [٥٧٧]

ان الحكمة والتعقل عند مونتسكيو ، هي من بواعث المكون الحضاري لأي امة من الأمم ، فنراه يبرر خسارة سوريا الحرب وفقدانها لكل شيء بالقول " هذه حالة سوريا عندما قرر ملكها ، الذي كان الى ذلك الحين قد أنجز أعمالا جليلة ن مواجهة الرومان . لكن بعد ان اتخذ القرار لم يتصرف بما تفرضه الحكمة حتى في تدبير الحياة اليومية " . [٥٧٨]

انتقد مونتسكيو، السياسة التي انتهجها الرومان لاستعباد سائر الشعوب ، لأنهم كانوا يضيقون عليهم كثيرا إلى درجة تجويعهم . ولنستشهد بهذا النص " عندما تساعد الأقدار بكل ما ساعدت به الرومان في كل مخططاتهم ، عادة ما يتراخى المرء . لكن شيوخها ظلوا في جميع الأحوال يتصرفون بنفس الحكمة ونفس التروي . فيما كانت الجيوش تصرع الأعداء ، كان الشيوخ يضيقون الخناق على من وجدوه جائعا على الأرض " . [٥٧٩] وانتقد سياسة الإقصاء للخصوم السياسيين ، لأنهم سوف يسهمون في عملية الانهيار لاحقا فيقول " بدأت تترسخ في روما عادة سيئة وهي إقصاء الخصوم السياسيين ، لهذا السبب غادر روما عدد كبير من المواطنين . رحب بهم ميثريدات [*] وألحقهم بالكتائب التي أنشأها ، فكانوا خير جنوده " . [٥٨٠] كما انه عد الانقسامات الداخلية ، واحدة من أسباب انهيار روما فقال " بينما كانت روما تستعبد سائر شعوب الأرض ، كانت في الداخل تشكو من حرب خفية ن كالنار ، تقبع في جوف البركان لتطفو بغتة اذا ما توافرت مادة تزيدها تأججا " . [٥٨١]

ويقدم فيلسوفنا رأيا غريبا في موضوع الحرية ، لكنه سرعان ما يضع له حلا كعادته ، حيث يقول " ان الدولة المنبنية على مبدأ الحرية معرضة للزوال أكثر من التي تأسست على الطاعة والانقياد . السبب ظاهر هو ان الحرية تتضرر على حد سواء بما يلحق الدولة من خير أو شر . أما الطاعة فإنها تترسخ في حالتي الانتصار

---

[٥٧٦] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٤٢ .

[٥٧٧] مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٤٢ .

[٥٧٨] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٦٢ .

[٥٧٩] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٦٦ .

[*] هو ملك بونتوس، ولد عام ١٣٢ ق. م، كان ميتريداتس في الثاية عشرة من عمره عندما ارتقى عرش مملكة بونتوس في آسيا الصغرى وما كاد يبلغ السن القانونية لتسلـّم السلطة حتى شرع في تحطيم الامبراطورية الرومانية النامية. ففي عام ٨٨ ق. م احتل أجزاء من آسيا الصغرى كانت بين أيدي الرومان، الأمر الذي جرُّ عليه غضب الجمهورية الرومانية بشخص سولا الذي سحقه في المعركة، وأجبره على مغادرة البلادغير ان الرومان الذين خلـّفهم سولا وراءه تصرّفوا تصرفاً سيئاً للغاية، فرجا الآسيويون الأصليون ميتريداتس ان يخفّ إلى مساعدتهم في طرد هؤلاء. وأسفر ذلك عن الحرب الميتريداتية الثانية التي حالفه فيها النجاح العظيم. انظر : طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . المصدر نفسه ، ص٦٧٧ .

[٥٨٠] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٧٧ . .

[٥٨١] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٨١ . .

والانكسار . لذلك تقضي الحكمة على كل جمهورية ان تتجنب المخاطرات وان تتوخى السلامة في كل الأحوال " . [٥٨٢]

وان القوانين التي تتسبب في صعود دولة ما هي نفسها التي تسبب انهيارها لعدم حسن التعامل معها " ان القوانين الجيدة التي ساعدت دولة صغيرة على ان تنمو ، لا تلبث ان تتحول الى أعباء وقيود عندما تكبر ، لان تلك القوانين كانت تستهدف عظمة الشعب لا حسن إدارته " . [٥٨٣]

ومما ينبغي الإشارة إليه ، ان كتاب مونتسكيو ، (تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط) ، إنما هو كتاب قام على اساس النقد التاريخي للأحداث والوقائع التاريخية ، وقد كتب في التاريخ الروماني ليجعل منه انطلاقة لنقد الأوضاع في فرنسا خاصة ، وفي عموم أوروبا عامة ، لان الأوضاع في فرنسا ، كثيرا ما كانت تتشابه مع تاريخ الدولة الرومانية ، ناهيك عن تشابه العوامل الأخرى ، البيئية والثقافية والجنس البشري وغيرها . كتابه هذا صرح تاريخي كبير ، قدم فيه النصح والإرشاد لملك فرنسا ، من خلال نقده غير المباشر وأحيانا المباشر الى الأوضاع السياسية والعامة الأخرى . وأراد ان يجعل من فرنسا صرحا حضاريا ، ومهدا لبناء التاريخ الأوروبي الجديد ، من خلال توفير مسوغات العمل التاريخي ، فما كان نقده للتاريخ الروماني ، إلا هدية متواضعة منه إلى وطنه وشعبه ، تعبيرا منه عن انتماءاته الواقعية والعقلية .

المطلب الثالث : - روح الشرائع .

ان القارئ ، عندما تستهويه فسحة الخيال ، ويجد نفسه ازاء قراءة لكتاب (روح الشرائع) ، فانه يجد نفسه أمام منجز كبير من منجزات العالم في مجال التاريخ والسياسة [*] ، والقانون ، وكذلك المنهج ، بل انه كتاب شامل وواسع لدراسة المجتمعات بكل عاداتها وتقاليدها ، بلا شك انه ثورة في المنهج ، أحدثت انقلابه كبيرة على مستوى الفكر ، والأوضاع الأخرى ، في فرنسا دول العالم الاخرى ، انطلق في ثورته المنهجية هذه من (النقد) ، كأساس لبناء منظومته الجديدة ، فكان يسعى لإقامة مجتمع يتمتع بكافة حقوقه الأساسية ، وينعم بحرياته . والنقد التاريخي كان حاضرا في كتابه هذا ، كسالف كتبه (رسائل فارسية ، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط) ، لكن هذه المرة مثل عصارة جهد المؤلف لعشرين عاما .

---

[٥٨٢] ينظر : مونتسكيو ، تاملات في تاريخ الرومان اسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٩٠ .

[٥٨٣] ينظر : مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهضة والانحطاط . المصدر نفسه ، ص٩٣ .

[*] لانه ناقش ثلاثة انواع من الحكومات ووصفه للايجابيات والسلبيات لكل نوع ، وذكره الى نجاح الديمقراطية انما يعتمد على حفظ التوازن الملائم من السلطة داخل الحكومة ن وياتي ذلك من خلال تقسيماته الثلاث للسلطة . انظر : Fekete , Bal ; the unknown . intellectual background- Montesqieu - an essay on montesqieeu, Oxford University Press, London ,1974,p137

" ان هذا العمل يتخذ الشرائع موضوعا له ، وكذلك العادات والتقاليد المختلفة لجميع شعوب الأرض . يمكن القول ان هذا الموضوع واسع جدا لأنه يشمل كل الدساتير التي تقبلها الناس " . [٥٨٤]

ان (روح الشرائع) ، يقدم فيه المؤلف الأصول الطبيعية لنشوء الحضارة الإنسانية التي تقوم على التصور الجديد للمعرفة ، والذي يتخذ من دراسة تاريخ المجتمعات أساسا من أساسياته المهمة . وبهذا مثل مونتسكيو، اتساع الرؤية من خلال محاولته كتابة تاريخ كامل للمجتمعات . [٥٨٥]

وفي (روح الشرائع) ، اخذ المؤلف على عاتقه دراسة المجتمع والقانون والحكومة دراسة مقارنة . فكان عمله بمثابة مسح اجتماعي مقارن . ولا بد من القول ، لقد كان لـ مونتسكيو، أسلاف فكروا بنفس طريقته ، فأرسطو، بصفة خاصة ، عندما بدأ دراساته عن عدد كبير للدساتير اليونانية . ولكن ينبغي النظر إلى مشروع مونتسكيو ، في ضوء الفلسفة المعاصرة ، فقد كان يستعمل في مجال السياسة والقانون والتاريخ ، المنظور التجريبي الاستقرائي . ولم يكن هدفه وصف الظواهر الاجتماعية والسياسية والقانونية وتسجيل ووصف الوقائع التاريخية . لقد أراد ان يفهم الوقائع التاريخية كما هي بطبيعتها ، وان يستعمل المسح المقارن للظواهر كأساس لدراسة منهجية عن مبادئ التطور التاريخي . وهكذا تناول ، موضوعه ليس فحسب بروح عالم الاجتماع الوضعي ، وإنما بالأحرى كفيلسوف تاريخ وظف النقد التاريخي بغية إصلاح المجتمع والانطلاقة نحو تاريخه . [٥٨٦]

ويبين مونتسكيو ، الهدف من نقده ، فيعلن في مقدمة الكتاب ، ان الهدف الذي وضعه لنفسه ليس توجيه النقد اللاذع للأنظمة القائمة لدى مختلف الأقوام ، بل شرحها وتفسيرها . فعلى الرغم من التنوع الكبير للمؤسسات الاجتماعية ، فان ظهورها ليس عرضيا او اعتباطيا . فكل ما يتحرك في هذا العالم يخضع لقوانين ثابتة ، لا تتغير . [٥٨٧]

وإننا نجد ان مونتسكيو ، لم يكتب ليخطئ ما هو قائم في أي موضوع ، بل ليعلمنا كيف نعرف القوانين وكيف ننتقدها ، مع عد جميع العناصر المعقدة التي بدونها يستحيل هنا كل تقدير سليم . ويسمح لنا ذلك ، طبعا ، بان نحكم خاصة على قوانين بلدنا ، لأننا سنعرف وجهات النظر التي يجب الوقوف من خلالها لتقدير القوانين بوجه عام . [٥٨٨]

ويستعمل مونتسكيو ، النقد التاريخي في كتابه (روح الشرائع) ، من خلال تقسيمه الكتاب الى قسمين : القسم النظري ، ويعالج في هذا القسم ، موضوعات مجردة ، فيتكلم عن القوانين على وجه العموم ، ويبدأ بعرضها ثم

---

٥٨٤ التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . المصدر نفسه ، ص ١٤ .

٥٨٥ Macfariane . alan .Montesquieu and the making of the modern .p56

٥٨٦ ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر نفسه ، س٣١ .

٥٨٧ ينظر : فولغين ، فلسفة الأنوار . المصدر نفسه ، ص٥٣ .

٥٨٨ ينظر ، كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث . المصدر نفسه ، ص.

تقديم نقده إليها ، وبعدها يقدم البدائل عن وضعها الخاطئ – القديم . وقسم القوانين الى نوعين : نوع طبيعي ، وهي التي كانت تسود المجتمعات السابقة او البدائية ، ونوع وضعي ، وهي التي يضعها الإنسان لنفسه بعد تكوين المجتمعات . وهذا القسم من الكتاب يتعلق بعلاقة القوانين بالحكومة في طبيعتها ومبادئها . أما القسم العملي . وهنا يعالج مونتسكيو ، مسائل هي اقرب الى الجانب العملي من الجانب النظري ، فيعالج مشكلة الحريات السياسية وأثرها في القوانين ، ومشكلة الرق السياسي والاسترقاق المنزلي ، وقوانين الدفاع والهجوم في الدولة ، واثر المناخ في تشكيل القوانين وكذلك الدين وما سماه بالروح العام للمجتمع .

وقد اعتبر مونتسكيو ، في نقده التاريخي ان معرفة الحقائق التاريخية ، لا يمكن ان يتم الا من خلال دراسة كافة ظروفها ، والسعي لمعرفة مصادرها ، ولا يمكن دراستها كحالة مستقلة قائمة بذاتها ، ومنفصلة عن سابقاتها ، فهو يقول " ولا يتضح كثير من الحقائق هنا إلا بعد ان ترى السلسلة التي تربطها بحقائق اخرى " . [٥٨٩]

ونرى مونتسكيو ، عندما يعرض أسباب الرق حسب اعتقاد الناس ، كالقول بأن الاسترقاق يكون بجعل أسرى الحرب عبيدا بدل قتلهم ، ثم استعباد أبنائهم من بعدهم ، او بسبب ازدراء امة لأخرى ، او لسبب ديني ، او لسبب كون الإنسان زنجيا ، يرفض مونتسكيو ، هذه الآراء وينتقدها ، اذ يرى ان للرق مصدرين . [٥٩٠] : الأول . يعبر عنه بقوله " حان وقت البحث عن المصدر الحقيقي لحق الاسترقاق وهو الحق الذي يجب ان يقوم على طبيعة الأمور ، ولننظر هل يوجد من الأحوال ما يشتق منه " .[٥٩١] أما المصدر الثاني فيقول عنه " إليك مصدر أخر لحق الرق ، حتى لهذا الرق الجائر الذي يرى بين الناس ، يوجد من البلدان ما توهن الحرارة فيه البدن وتضعف الشجاعة كثيرا ، فلا يقوم الناس بواجب شاق فيه الا عن خوف من العقاب ولذلك يطرق الرق العقل هناك أكثر مما هنالك " . [٥٩٢]

وينتقد في كتابه (روح الشرائع) ، عملية التصويت غير المنظمة والقائمة على أساس محسوبية الوجهاء تجاه عامة الناس ، وذهب الى ضرورة تحديد عدد المصوتين ، فيقول " ومن الضروري تعين عدد الآهلين ، الذين تؤلف المجالس منهم ، وإلا أمكن جهل كون الشعب او قسم منه فقط قد تكلم ، فكان لا بد من عشرة ألاف مواطن في إسبارطة وفي روما لم يحدد ذلك العدد قط فكان هذا من عوامل خرابها " . [٥٩٣]

ونراه عندما انتقد قوانين الجمهورية الاتحادية وعدم مناسبتها لطبيعتها ، قد وضع شرطا لنجاحها ، فيقول " وجوب تأليف النظام الاتحادي من دول ذات طبيعة واحدة ولا سيما الدول الجمهورية . ويقول " انقرض

---

[٥٨٩] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٤ .

[٥٩٠] ينظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون و مونتسكيو . المصدر نفسه ، ص١٦٤ .

[٥٩١] مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٣٥٥-٣٥٦ . وقد بينا أسباب الرق عند مونتسكيو في حديثنا عن الرق المنزلي والسياسي .

[٥٩٢] مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٣٥٦-٣٥٧ .

[٥٩٣] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٢١-٢٢ .

الكنعانيون لأنهم كانوا مؤلفين من ملكيات صغيرة لم تتحدد قط ، ولم تدافع عن نفسها دفاعا مشتركا ، وذلك عن كون الاتحاد ليس طبيعة للملكيات الصغيرة . وتتألف جمهورية ألمانيا الاتحادية من مدن حرة ومن دويلات خاضعة لأمرا ، وتدل التجربة على أنها أكثر نقصا من جمهورية هولندا وسويسرا . والحرب والتوسع هما روح الملكية ، والسلم والاعتدال هما روح الجمهورية ، فلا يمكن نوعي الحكومات هذين ان يبقيا في جمهورية اتحادية الا قسرا " . [٥٩٤]

كما وانتقد مونتسكيو ، كل القوانين التي لا توفر القناعة للشعب في الديمقراطية ، دلالة ذلك انه قال " لا يكفي ان تكون مقاسم الأرض متساوية في الديمقراطية الصالحة ، بل يجب ان تكون صغيرة كما عند الرومان ، وكما ان تساوي الثروات يقي القناعة ، تحفظ القناعة تساوي الثروات ، ولا يمكن بقاء احد هذين الأمرين من غير الأخر مع اختلافهما ، ويعد كل منهما العلة والمعلول معا ، فإذا ما فر احدهما من الديمقراطية تبعه الأخر دائما " . [٥٩٥]

ويبدو للباحث بناءا على ما تقدم ، ان الفكر التاريخي عند مونتسكيو ، والذي قام على نقده التاريخي ، إنما يرتكز على ثلاثة عوامل هي : حرية المواطن ، إعزاز الحرية بطبيعة الحكومات ، كيف يوفق حق التمتع بالحرية . وفي حرية المواطن ، لنا ان نستشهد بنص لـ (مونتسكيو) ، حيث يقول " تقوم الحرية الفلسفية على ممارسة الإنسان إرادته او على الرأي الذي يكون الإنسان عليه حين ممارسة إرادته ، (على الأقل إذا ما أريد القول في جميع النظم) ، وتقوم الحرية السياسية على السلامة او على الرأي الذي يكون لدى الإنسان حول سلامته على الأقل " . [٥٩٦]

وفي علاقة الحرية بطبيعة الحكومات يقول " ان من فوز الحرية استنباط كل عقوبة من طبيعة الجرائم الخاصة ، فبذلك تنقطع كل مرادية ، ولا تصدر العقوبة عن هوى المشترع مطلقا ، بل عن طبيعة الأمر ، ولا يكون الإنسان هو الذي يقهر الإنسان أبدا " . [٥٩٧]

أما عن كيف يوفق حق التمتع بالحرية ، فيقول " يوجد في أكثر الدول اكتراثا للحرية قوانين ناقصة للحرية ضد فرد حتى تحفظ الجميع ، ومع ذلك ما يسمى في انكلترة بأحكام الخيانة العظمى ، فهذه الأحكام ترد الى قوانين أثينا التي تحكم ضد الفرد ، ورغم قوة هذه الأحكام إلا ان شيشرون، أراد إلغاءها ، ذلك لان قوة القانون لا تقوم إلا بسريان حكمه على جميع الناس " . [٥٩٨]

---

[٥٩٤] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص١٩٥-١٩٦ .

[٥٩٥] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٧٥ .

[٥٩٦] ينظر : مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٢٧٢ .

[٥٩٧] مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٢٧٤ .

[٥٩٨] مونتسكيو ، روح الشرائع . المصدر نفسه ، ص٢٩٤ .

ويجد الباحث ان فلسفة التاريخ عند مونتسكيو، لا تغفل أبدا موضوع الحرية ، فقد كان لها ابرز الأثر في تشكيل فكره التاريخي ، لذلك قد وجدناه تعمق كثيرا في الحرية السياسية وحرية الفرد ، لذلك إننا نجد ان مونتسكيو ، كان حاضرا في فكر (هيجل) ، في موضوع الحرية ، على الرغم من اختلاف مدارسهما الفلسفية والتاريخية ، وتمسك هيجل بالحرية كأساس للتاريخ ، انه جعل من الوعي بالحرية ، هي مختصر او ملخص التاريخ لديه . ولا يفوتنا القول ، إننا عندما سقنا أمثلة في النقد التاريخي عند مونتسكيو ، في كتابه (روح الشرائع) ، هذا لا يعني ان هذه الأمثلة هي كل ما في الكتاب من علاقة بموضوعنا – النقد التاريخي ، لكن ضرورات البحث استوجبت منا الاقتضاب.

الخاتمة

من خلال هذه الاطروحة ، تم التوصل الى نتائج ، ومن اهم هذه النتائج ما يأتي : -

١ – ان مونتسكيو ، قد مثل الفكر الحداثي الغربي خير تمثيل ، فكان من الرواد البارزين لهذا الفكر . وانه لم يخرج عن فكر الحداثة ، من خلال الذاتية . لكن ينبغي هنا عدم الخلط بين ذاتية مونتسكيو ، في تمثيلها للحداثة ، التي اتسقت مع اراء ومناخات عصره ، امثال لوك وروسو وفولتير وديدرو ، التي اسست لمشروع المركزية الغربية وبين الذاتية التي انكرها مونتسكيو ، امام نظريته البيئية ، التي جعلها من مقتضياتها . وكذلك قوله بمركزية الذات الغربية مقابل هامشية الذوات الاخرى . وفي النقد المنطلق اساسا من نقد الذات ، اذ تبدأ الذات الغربية بنقد ذاتها لكي تؤسس لها بعد ذلك ما يسمح لها لتضع نفسها في المركز . ومونتسكيو، كان ابرز من مثل فكر الحداثة الغربي . وتجدر الاشارة الى ان تاريخ الفكر الفلسفي الحديث يمكن تلخيصه في مرحلتين : مرحلة بناء العقل كنظام للمعرفة او ما يسمى بمرحلة الحداثة ، ومرحلة هدم العقل وتفكيكه باعتباره قد تحول الى عائق ومعرقل لتطور الانسانية وهو ما يسمى بمرحلة ما بعد الحداثة .

٢ – ان تسليط الاضواء على حياة مونتسكيو ، يجعلنا ندرك انه فيلسوف ومؤرخ وسياسي واجتماعي ، ويدل ذلك على مدى تأثيره الكبير في تطور الدستور الفرنسي ، والدساتير الاخرى ، مثل الدستور الامريكي . كما ان اظهاره ولعا في التاريخ ، جعل من المتخصصين يعدونه من كبار المؤرخين ، وتظهر لنا مؤلفاته مدى براعته في ذلك . كما ان عمله رئيسا للقضاة في المحكمة العليا ، اسهم في تعمقه في دراسة القوانين . وعمله رئيسا لبرلمان بوردو ، ادى به الى الابحار في عالم السياسة ، فكان اصراره على ان الحرية السياسية ، تصلح ان تكون نظرية علمية لبناء التاريخ ، وتقسيمه المعروف للحكومات على اساس مبادئها خير دليل على ذلك .

٣ – ان اهتمام مونتسكيو ، بالتاريخ والقانون والسياسة ، لم يشغله عن حبه الشديد للعلم والمنهج العلمي الذي اقام نظريته على اساسه . فقد كان على اتصال وثيق بالعلماء والادباء المعاصرين له ، سواء في فرنسا ام الدول الاخرى ، من امثال : ريامير وديدرو وفولتير ، وكذلك اصبح صديقا لـ (هلفسيوس) ، وتدل المقالات التي كتبها على اهتمامه بالجانب العلمي ، مثل (مذكرة حول الصدى) ، وحول نفع الغدد الكلوية ، وغيرها من المقالات التي ذكرت خلال التطرق لحياته .

٤ – نجد مونتسكيو، في فلسفته يرفض (الصدفة) رفضا قطعيا ، لانه يؤمن بالمنهج العلمي ، ووجود القوانين التي تنظم العلاقات بين الاشياء ، ومنه انطلق الى ان الحكومة ينبغي ان تجد نظاما يناسب مبادئها . واذا ما صادف وان تشكلت حكومة لاتتناسب طبيعة قوانينها مع مبادئها ، فأن مصير هذه الحكومة الزوال ، بل واذا غيرت قوانينها فسوف تنهار ، مثلما حصل للحكومة الرومانية .

٥ – يصرح مونتسكيو ، بعدم امكانية لقاء الدين بالسياسة ، ومرد ذلك الى فعل نزعته التنويرية . فقد جعل التنوير هو اساس الحياة المدنية . لكن هذا لا يعني تفريطه بفكرة التقاء مصالحهما ، وهذا يعود الى اعتباره من التنويريين الربوبيين ، وهذا ادى به الى وضع نظرية سوسلوجية حقيقية عن العقائد الدينية والاخلاقية . ولكنه رفض ان تحاكما التاريخ .

٦ – وفي فلسفته ، لا بد من الاشارة الى تمسكه بالقوانين الوضعية ، لكن حبه هذا لم يجعله يتجاهل القوانين الفطرية ، وهذه القوانين هي الاخرى تحكم المجتمع ، بل ويؤكد انها سابقة للقوانين الوضعية ، وهو يؤكد ان العقل يجب ان يدرك ويتدبر هذه القوانين التي اثرت في شكل اديان ، وعليه فأن الدين عنده يجب ان يكون ذا فائدة لمجتمعاتة ، وذلك من خلال كلامه عن ما يسمى (الدين المفيد) ، وكانت اراؤه في الدين سببا لاتهامه بالالحاد ، لانه كان مشبعا بالروح العلمي والذي يهدف الى ايجاد تفسير علمي لاختلاف القوانين ، يقوم على منهج علمي يستند على المشاهدة والتجربة والاستقراء ، ونقد كل تفسير يعتمد على اسس دينية وميتافيزيقية .

٧ – ان مونتسكيو ، يشترك مع المنظرين السابقين في بناء مشروع العلم السياسي الذي يؤسس لفلسفة تاريخ جديدة ، لكنه يختلف عنهم في الموضوع ، لانه لايقتصر في انشاء علم عن المجتمع عموما ، بل لكل المجتمعات

المتجسدة في التاريخ . وبسبب هذه الواقعية فأنه لايتيح المنهج نفسه ، فلم يكن يريد القبض على الماهيات ، بل اكتشاف القوانين ، وبفعل هذه القوانين ، كان يسعى الى فهم التاريخ من خلال فلسفته ، فكان يحلم باحلام العقل ، وبهذا يكون عنده العقل المتأخي مع الوعي التاريخي يشكل مفهوم فلسفة التاريخ .

٨ – لقد ركز مونتسكيو ، جل اهتمامه في دراسة الوقائع التاريخية ، فقد كان يرى في الكائن البشري ، لا الانسان الاجتماعي كما يعرفه التاريخ ، بل الانسان المجرد ، الانسان خارج التاريخ ، فجعل رؤية التاريخ على وفق هذا الانسان وان اسهام الانسان في بناء تاريخه تبدأ من حالة الفهم الاول للقانون والذي مثل حالة التجريد ، وعلى ان الانسان لكي يستطيع ان يبني تاريخا مجيدا ، ان يفهم المؤثرات التي تؤثر على القوانين والتي بدورها تسهم في بناء التاريخ .

٩ – ان مونتسكيو ، حاول وضع فلسفة سياسية لاجل بناء تاريخي ، على ان تكون هذه الفلسفة السياسية قابلة للتطبيق بعقلانية ، وبأستعمال منهج نقدي ، وعندما نقول نقدي فأننا نعود الى ما بدأنا به ، وهو نقد الذات المتمركز على نفسه حضاريا دون الذوات الاخرى ، وهذا صميم الحداثة ، وبهذا فأنه يقدم افضل التصورات في فلسفة التاريخ ، من خلال ما ينسجم مع تصورات عصره العلمية ، ومنها انطلق الى بناء نظرية في المجتمع والحكومة ضمن دراسات فلسفة التاريخ . التي اصر من خلالها على ان الحرية السياسية ، التي هي أساس تكوين الحضارة ، أخذت عند مونتسكيو شرطا لازما ، وهو إن التاريخ يجب أن تحكمه الأسباب العامة ، وان ممارسات البشر الفردية تؤدي به إلى روح التسلط .

١٠ – ان التقسيم الذي قدمه مونتسكيو ، لانواع الحكومات ليس بالتقسيم الجديد ، فتعود جذوره الى (ارسطو) ، في كتابه السياسة ، وحتى ، من ناحية فضائل هذه الانواع من الحكومات كان ارسطيا ، لكن ما جاء به مونتسكيو ، هو ضرورة ان تكون طبيعة الحكومات من حيث التقسيم ملائمة لمبادئها ، فحينها يمثل القانون افضل تمثيل ، ولم يكن هم مونتسكيو ، دراسة الاشكال والانواع ، بل اكتشاف طبيعتها وايجاد قوانينها .

١١ – وجدنا ان مونتسكيو، قد سبق (هيجل) ، في التأسيس لموضوع الوعي بالحرية ، اذ كان يرى ان نظام الفصل بين السلطات ، انما وجد لاجل ان يتمتع الانسان بحريته ، وان الغرض منه كذلك هو الحصول على الحرية السياسية ، وبهذا يتحقق الوعي المؤسس للبناء الحضاري من خلال الاسهام في تشكيل القواعد العامة لبناء التاريخ .

١٢ – بالمقارنة مع (كانت) ، نجد ان مونتسكيو، قد سبقه في ضرورة احترام القوانين ، فأجاب عن سؤال (ما تسمح به الحرية) فأجاب انها (الحق في عمل كل ما تسمح به القوانين) ، ويرى (كانت) ، ان الحرية هي التسليم

مسبقا بأحترام وتطبيق القوانين ، واتفق الاثنان على ان الانسان مالك لهذه الحرية ، التي كان الوعي اساسا لها عند مونتسكيو ، والواجب اساسا لها عند (كانت) .

١٣ – اختلف مونتسكيو ، عن منظري العقد الاجتماعي الاخرين ، وكان اصحاب العقد الاجتماعي ينظرون الى المسألة حول ما هو اصل المجتمع ، فهم فلاسفة الحق الطبيعي ، الا ان مونتسكيو ، اختلف عنهم في الموضوع من خلال تأكيده على الحالة الطبيعية ، وخاصة فيما يتعلق بالقوانين وطبيعتها .

١٤ – نجد ان الترابط بين البيئة الطبيعية وقابليات الإنسان وقدراته وسلوكه عند مونتسكيو ، هو شيء محتم ، فالحضارة والتاريخ ما هما إلا تفاعل بين بيئة الإنسان وقابليته . وعنده ان المناخ العام ، يؤثر في تكوين الإنسان وفي خلقه ونفسيته وفي حياته برمتها ، . وقد قابل تفاعل الإنسان مع بيئته ، مجموعة الضروريات الأساسية للأشياء عند مونتسكيو ، التي جعل منها الأساس لروح القوانين . ولم تخرج نظرية مونتسكيو، البيئية إلا من هذه التصورات للعلاقة بين الإنسان وبيئته . وبذلك فان هذه الضروريات هي العوامل المساهمة في بناء التاريخ والحضارة . وعليه فقد فسر مونتسكيو ، مسار التاريخ على أساس جغرافي ، فعد الإنسان جزءا من الطبيعة ، وحياته تأتي استجابة للظروف الجغرافية ، وأصبحت من خلاله التغيرات التاريخية مظاهر مختلفة لجوهر واحد ، هو الطبيعة الإنسانية ، وعلى هذا يكون مونتسكيو ، قد ربط علم الاجتماع بالبيئة ربطا مباشرا من خلال التأثير الذي تلحقه الأخيرة بالإنسان وبنائه الحياتي .

١٥ - وجدنا ان النظرية البيئية عند مونتسكيو، لا يمكن فصلها عن فلسفته العامة ، وفي فلسفة التاريخ خاصة ، فالتاريخ عنده مرتبط في هذه النظرية ، على الرغم من قوله بالامور المعنوية الأخرى ، فالنظرية البيئية ، هي التي يدور في فلكها كل ما يتعلق بالتاريخ ، الذي يشكل الحضارة ، وبحث من خلال نظريته هذه هل تتوافق القوانين مع مجتمع معين ، وهل سيحصل على حريته ، وأيضا قدم لنا من خلال فلسفته النقدية للتاريخ ، كشفا عن عادات وتقاليد الشعوب في الشرق والغرب من خلال منهجه المقارن ، كما في (رسائل فارسية) ، وفي هذه العادات والتقاليد والممارسات التي يتمتع بها شعب ما دون غيره ، كان مونتسكيو، واقعيا في دراسة هذه الطبائع ، التي لم ينفك في جعلها من مقتضيات الطبيعة ، التي فرضت نوع البيئة ، التي شكلت نوع القوانين .

١٦ – وجدنا ان هناك صورا قدمها مونتسكيو ، عن شعوب الشرق وعاداتهم ، وعن اديانهم ، لم تكن بالدقة المتناهية ، لانه صورها كما يريدها هو ، ومحاولته اقصاء شعوب الشرق واديانهم عن ساحة الفكر والابداع ، ليس الا لغرض ابعاد الاخر عن التمركز الحضاري ، والابقاء على المركزية الغربية الاوروبية ، وكونه لم يعش في اراضي الشرق او المسلمين ، فكيف تسنى له معرفة مدى تأثير الحرارة على النساء والرجال وحديثه عن العلاقة الجنسية فيما بينهما ، وتقديمه دليلا لتحليل الزوجات . وغير هذا من الادلة التي ساقها .

١٧- كان النقد ، المنهج المميز عند مونتسكيو، فلم ينفصل عن جميع جوانب فلسفته ، وأدرك ان النقد هو : وسيلة من وسائل تمحيص الآراء وتحرير الأفكار، فيتطلب ملاحظة دقيقة وانتباها تاما وإطلاعا شاملا ، يمكن من إدراك الغامض والتنبه الى الخفي والاهتداء الى الناقص . هو ضرب من ضروب التحليل وتقليب الأمور على عدة اوجه ليقف الإنسان على دخائلها ومحتوياتها ، فيحلل الناقد ، الفكرة او العبارة ليتبين ما فيها من صواب او خطأ ، فكان ابرز من مثل النقد وتوصلنا الى هذه النتيجة من خلال تبيان النقد التاريخي من خلال نصوصه الثلاثة التي ظهر فيها بصورة الناقد الثاقب والساخر بأسلوب الادباء من الوضع في فرنسا ، ومن ثم محاولته المقارنة مع شعوب الشرق ، من خلال التعرف على عاداتهم وتقاليدهم . على هذا انطلق مونتسكيو، في منهجه التاريخي ، من موضوع النقد الفلسفي ، ليشرع في بناء منهج نقد تاريخي استخدمه للتواصل بين منهج البحث التاريخي والفكر الفلسفي النقدي ، ضمن نظرية حديثة .

١٨ - وقد وجدنا من خلال سير البحث ، ان مونتسكيو ، كان من أصحاب الطريقة العلمية في البحث التاريخي ، واسلوبه في البحث ، يتوافق تماما مع تعريف المنهج على انه الطريقة العلمية ، في جمع المادة التاريخية ، وقد دعا الى التطور التاريخي بحسب المستجدات والتطورات التي تطرأ على المجتمعات ، وجاء ذلك من خلال قوله ، بان القوانين يجب ان تتناسب مع طبيعة المجتمع ، ويجب ان تتغير بحسب حاجة المجتمع الى ذلك التغيير. فلم يكن ، من الذين يعدون التاريخ مجرد تسجيل لأحداث الماضي ، بل انه يؤمن بان التاريخ يجب ان يفهم ويكتب على اسس علمية سليمة ، فنحصل على تاريخ صادق بالقدر الممكن ، عن طريق سجلات الماضي ، وإجراء التحليل لتفاصيلها ، وإعادة كتابتها بطريقة علمية ، مثلما قام بدراسة تاريخ الرومان وكتب كتابه (تأملات في تاريخ الرومان وأسباب انحطاطهم) ، فدرس أحوال الماضي على اسس علمية .

١٩ - كان للقوانين التاريخية حيز كبير في فكر مونتسكيو ، وهو أول من تحدث عن الترابط الداخلي للأحداث في التاريخ بهذا القدر من العمق والاتساع ، ليكتشف من خلالها العوامل التي تشكل طبيعة المجتمع وحكومة وقوانين الدولة ، ليعطي العوامل الطبيعية من المناخ والموقع الجغرافي وطبيعة الأرض الدور الكبير في توجيه مسار التاريخ فحيث وجد القانون ، فلا وجود للصدفة ، لان القانون يعني ان هناك حالة من الترابط العلمي ، وهذا ما وصل اليه مونتسكيو، في بحثه في النظرية البيئية .

٢٠ – ان المعرفة عند مونتسكيو ، معرفة علمية ، وهي أرقى درجات المعرفة وأدقها ، وتعد هذه المعرفة الأساس في كل تقدم حضاري ، لان الانسان تمكن من خلال قدراته العلمية ان يحقق النضج العقلي ، واستطاع التحكم في عناصر بيئته ، ان المعرفة العلمية أرقى من المعارف السابقة ، اذ تقوم على أساس الملاحظة العلمية المنظمة المقصودة للظواهر الطبيعية ، وعلى أساس وضع الفروض المناسبة والتأكد منها بالتجربة وتجميع البيانات وتحليلها ، ولا تحاول المعرفة العلمية ان تقف عند المفردات الجزئية التي يتعرض الانسان لبحثها ، بل ان العالم يصل الى القوانين والنظريات العامة التي تربط هذه المفردات مع بعضها ، وتمكنه من التنبؤ بما يحدث للظواهر المختلفة تحت ظروف معينة

والله ولي التوفيق .

الباحث

	قائمة المصادر والمراجع
١	النبراوي ، فتحية عبد الفتاح ، علم التاريخ دراسة في مناهج البحث . دار الافاق العربية ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٢	إبراهيم ، عبد الله ، المركزية الغربية . الدار العربية للعلوم ناشرون ،(ب،ط) ، بيروت ، ٢٠١٠ .
٣	ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ ابن خلدون . مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، (ب ،ط) ، بيروت ، (ب،ت).
٤	ابو السعود ، عطيات محمد ، فلسفة التاريخ عند جامبا تيستا فيكو . التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ ، بيروت ، ٢١٠.
٥	احمد ، قيس هادي ، دراسات في الفلسفة العلمية والإنسانية . مكتبة المنصور العلمية ، ط١ ، بغداد ، ١٩٩٩ .
٦	الادهمي ، محمد مظفر ، تاريخ اوروبا الحديث . مطبعة التعليم العالي ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٨٩ .
٧	ارون ، ريمون ، فلسفة التاريخ النقدية بحث في النظرية الالمانية للتاريخ . تر ، حافظ الجمالي ، منشورات وزارة الثقافة ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٩٩.
٨	اسبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة . تر ، حسن حنفي ، مراجعة ، فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠٠٨
٩	الاسدي ، جمال ، الوعي والادراك والتاريخ . مكتبة عدنان ، (ب،ط) ، بغداد ، ٢٠١١.
١٠	اشفيتسر ، البرت ، فلسفة الحضارة . تر ، عبد الرحمن بدوي ، مراجعة زكي نجيب محمود ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة، (ب،ت) .
١١	اشقرا ، عثمان ، موجز فكر التنوير . دار بترا للنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ، ٢٠٠٨.
١٢	ألسعيدي ، أمبارك عبد الكريم ، مشكلة القوانين التاريخية ، رسالة ماجستير ، مخطوطة ، كلية الآداب والتربية ، جامعة قاريونس ، ١٩٩٦.
١٣	إمام ، عبد الفتاح إمام ، توماس هوبز فيلسوف العقلانية . دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت ، ١٩٨٥.
١٤	امين ، احمد . محمود ، زكي نجيب ، قصة الفلسفة الحديثة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
١٥	أمين ، احمد محمد ، زكي نجيب ، قصة الفلسفة الحديثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
١٦	أمين ، احمد، زكي نجيب محمود ، الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف، والترجمة والنشر، ط٥ ، القاهرة .

١٧	أمين ، عثمان ، رواد الفلسفة المثالية في الفلسفة الغربية ، دار المعارف ، (ب،ط)، القاهرة ، ١٩٦٧.
١٨	اوسينويوس ، لانجلو ، النقد التاريخي ، تر ، عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، ط٤ ، الكويت .
١٩	اويزرمان ، ثيودرو ، تطور الفكر الفلسفي . تر ، سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٩.
٢٠	أيكن ، هنري ، عصر الايدلوجيا . تر ، محي الدين صبحي ، مراجعة عبد الحميد حسن ، منشورات وزارة الثقافة ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٧١ .
٢١	بدر ، احمد ، اصول البحث العلمي ومناهجه . وكالة المطبوعات ، ط٤ ، ١٩٧٨.
٢٢	بدوي ، ثروت ، أصول الفكر السياسي والنظريات والمذاهب الكبرى . دار النهضة العربية ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٢٣	بدوي ، عبد الرحمن ، النقد التاريخي . وكالة المطبوعات ، ط٤ ، الكويت ، ١٩٨١.
٢٤	بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . وكالة المطبوعات ، ط٣ ، الكويت ، ١٩٧٧ .
٢٥	بدوي ، عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي . وكالة المطبوعات ، ط٣ ، الكويت ، ١٩٧٧ ٠
٢٦	بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . سليمانزاده ، ط١ ، قم ، ١٤٢٧ هـ .
٢٧	برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر، تر: جورج طرابيشي ، دار الطلبة للطباعة والنشر،(ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٣.
٢٨	بغورة ، الزواوي ، في النقد الفلسفي . محاولة في تحديد المفهوم . مجلة عالم الفكر ، المجلد ٤١ ، العدد ٤ ، الكويت ، ٢٠١٣ .
٢٩	بلوخ ، ارنست ، فلسفة عصر النهضة .تر ، الياس مرقص ، دار الحقيقة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٠.
٣٠	بنمليح ، عبد الاله ، استيتو ، محمد ، مناهج البحث في الانسانيات والعلوم المساعدة البحث التاريخي انموذجا . رؤية للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .
٣١	بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخي . دراسة في مناهج العلوم الانسانية . تر، عبد الحميد صبره ، دار المعارف ، (ب،ط) ، الاسكندرية ، ١٩٥٩.
٣٢	بوجنال ، محمد ، الفلسفة السياسية للحداثة ومابعد الحداثة . دار التنوير للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠١٠ .
٣٣	بوليتزر ، جورج ، فلسفة الانوار . تر ، جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٧ .
٣٤	البير ، سوبول ، تاريخ الثورة الفرنسية ، تر : جورج كوسي ، منشورات عويدات ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٧٠ .
٣٥	بيري ، ج ، ب ، فكرة التقدم ، بحث في نشأتها وتطورها . تر ، عارف حديفة ، منشورات وزارة الثقافة ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٨٨ .
٣٦	بيكون ، فرانسيس ، الاورجانون الجديد . تر ، عادل مصطفى ، رؤية للنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١٢ .
٣٧	تاتاركيفتش ، فواد سواف ، الفلسفة الحديثة من عصر النهضة وحتى التنوير . تر ، محمد عثمان مكي العجيل ، كنوز للنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١٢.

٣٨	تسيمر ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة . تر ، عبد الله محمد أبو هشه ، دار الحكمة ، ط١ ، لندن ، ٢٠١٢.
٣٩	التميمي ، حميد فاضل حسن ، الدولة اليهودية في الفكر الإسرائيلي .. أطروحة دكتوراه ، مخطوطة ، جامعة بغداد ، كلية العلوم السياسية ، ٢٠٠٤ .
٤٠	التوسير ، لوي ، مونتسكيو السياسة والتاريخ . تر ، نادر ذكرى ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠١٠ .
٤١	توشار ، جان ، تاريخ الأفكار السياسية ، تر ، ناجي الدراوشة ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، ط١ ، دمشق ، ٢٠١٠ .
٤٢	توينبي ، ارنولد ، مختصر دراسة التاريخ . ج١ ، تر ، فؤاد محمد شبل ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
٤٣	جابر ، فاضل ، محاضرات في منهج البحث التاريخي . (ب،ن) ، (ب،ط) ، واسط ، ٢٠٠٦ .
٤٤	الجابري ، علي حسين ، الحضارة المعاصرة من الضرورة الى الصيرورة . دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ، ٢٠١٠ .
٤٥	الجابري ، علي حسين ، العرب بين منطقي الحوار والصراع . دار الشؤون الثقافية العامة ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٩٦ .
٤٦	الجابري ، علي حسين ، فلسفة العلوم . دروس في الأسس النظرية وأفاق التطبيق . دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ، ٢٠١٠.
٤٧	الجابري ، علي حسين ، فلسفة العلوم . دروس في الأسس النظرية وأفاق التطبيق .دار الفرقد ، ط١ ، دمشق ، ٢٠١٠ .
٤٨	الجابري ، محمد عابد ، قضايا في الفكر المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧.
٤٩	الجالي، زكريا منشاوي، منهج البحث النقدي عند كارل بوبر،من كتاب فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي ،مركز دراسات الوحدة العربية،أعمال الندوة الفلسفية الخامسة عشر،ط١، ٢٠٠٥ .
٥٠	الجبوري ، حسين محمد جواد . الجنابي ، قيس حاتم هاني . منهجية البحث التاريخي . مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١، عمان ، ٢٠١٣ .
٥١	الجبوري ، حسين محمد جواد ، منهجية البحث العلمي ، مدخل لبناء المهارات البحثية . مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٣ .
٥٢	جعفر ، نوري ، التاريخ مجاله وفلسفته . دار الشؤون الثقافية ، (ب،ط) بغداد ، ١٩٥٥.
٥٣	جعفر ، نوري ، التاريخ مجاله وفلسفته . دار الشؤون الثقافية ، ط٣ ، بغداد ، ٢٠٠٧.
٥٤	الجمل ، شوقي ، علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الاخرى ومناهج البحث فيه . مكتبة الانجلو المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
٥٥	الجنابي ، حامد عبد الحمزه ، فلسفة التاريخ عند هيجل وإثرها في منهج البحث التاريخي . رسالة ماجستير (مخطوطة) مقدمة الى مجلس كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠١١ .
٥٦	جواد ، حسين محمد ، الجنابي ، قيس حاتم هاني ، منهجية البحث التاريخي ، الاسس والمفاهيم والاساليب العلمية . مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٣ .
٥٧	جوتشلك ، لويس ، كيف نفهم التاريخ . دار الكتاب العربي ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٦٦.

٥٨	جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة. نقله الى العربية ، فرنسوا ايوب واخرون ، مكتبة انطوان ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢ .
٥٩	الجوهري ، محمد ، دراسة في علم الاجتماع . دار المعارف ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٩.
٦٠	حاطوم ، نور الدين ، تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، دار الفكر العربي ،(ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٦٨
٦١	حسين ، محمد عواد ، صناعة التاريخ ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، نيسان ، ١٩٧٤ .
٦٢	حسين ، محمد عواد ، صناعة التاريخ ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، نيسان ، ١٩٧٤ .
٦٣	الحصري ، ساطع ، دراسات في مقدمة ابن خلدون . (ب،ن) ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٦٧ .
٦٤	الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، ١٩٩٢.
٦٥	الحفني ، عبد المنعم ،الموسوعة الفلسفية . دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، ١٩٩٢.
٦٦	حميش ، سالم ، الموسوعة الفلسفية العربية . مج٢، معهد الإنماء العربي ، ط١، بيروت ، ١٩٨٨.
٦٧	الحيدري ، إبراهيم ، منهج ومنهجية الكتابة التاريخية . مجلة المعهد ، معهد الدراسات العربية والإسلامية ، لندن ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ١٩٩٩ .
٦٨	خالد ، حميد حنون ، مبادئ القانون الدستوري وتطور النظام السياسي في العراق . مكتبة السنهوري ، ط١ ، منقحة ومزيدة ، بغداد ، ٢٠١٢ .
٦٩	خليل، خليل احمد، معجم المصطلحات الفلسفية ، ج٢، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٥.
٧٠	خليل، خليل احمد، معجم المصطلحات الفلسفية ، ج٢، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٥.
٧١	الدليمي ، حامد حمزه حمد ، فلسفة التاريخ والحضارة . دار الطيف للطباعة ، (ب،ط) ، واسط ، ٢٠٠٤
٧٢	دورتيه ، جان فرنسوا ، معجم العلوم الإنسانية . تر ، جورج كتورة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٩ .
٧٣	دوفيز ، ميشال ، اوروبا والعالم في نهاية القرن التاسع عشر . تر ، الياس مرقص ، دار الحقيقة ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٠.
٧٤	دولوز ، جيل ، فلسفة كانت النقدية ، ترجمة أسامه الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٧.
٧٥	الديدي ، عبدالفتاح ، فلسفة هيجل .مكتبة الانجلو المصرية ، (ب،ط)، القاهرة ، ١٩٧٠.
٧٦	ديوارنت ، ول ، قصة الحضارة . ج٢ ، الشرق الادنى ، تر ، محمد بدران ، القاهرة ، ١٩٥٠ ،
٧٧	راندال ، جون هرمان ، تكوين العقل الحديث . تر ، جورج طعمه ، مراجعة برهان الدين الدجاني ، تقديم محمد حسنين هيكل ، دار الثقافة ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٥٥.
٧٨	راوس ، أ . ل ، التاريخ أثره وفائدته . مؤسسة سجل العرب ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٧٩	رايت ، وليم كلي ، تاريخ الفلسفة الحديثة . تر ، محمود سيد احمد ، تقديم ومراجعة ، امام عبد الفتاح امام ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٠.
٨٠	رستم ، أسد ، مصطلح التاريخ . منشورات المكتبة العصرية ، ط٣ ، بيروت ، (ب،ت).
٨١	رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، تر ، فؤاد زكريا ، عالم المعرفة ،(ب،ط) ، الكويت ، ١٩٨٣ ،
٨٢	رسل، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث ، تر : محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،(ب،ط) ، القاهرة، ١٩٧٧.
٨٣	رشوان ، محمد مهران ، مدين ، محمد محمد . الفلسفة الحديثة والمعاصرة . دار المسيرة للنشر والتوزيع ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٢.
٨٤	روزنتال ، الموسوعة الفلسفية . دار الطليعة ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٠ .
٨٥	روزنتال ، وآخرون ، الموسوعة الفلسفية ، تر، سمير كرم ، دار الطلبة للطباعة ، ط٢، بيروت ، ١٩٨٠.
٨٦	روسو ، جان جاك ، في العقد الاجتماعي . تر ، ذوقان قرقوط ، مكتبة النهضة ، ط١ ، بغداد ، ١٩٨٣.
٨٧	ريشنباخ ، هانز ، نشأة الفلسفة العلمية . تر ، فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ى ط٢ ، ببيروت ، ١٩٧٩ .
٨٨	زكريا ، فؤاد ، الانسان والحضارة . مكتبة مصر ، (ب،ط) ، القاهرة ، (ب،ت) ، ص٥٢ .
٨٩	الزيني ، ابراهيم ، تاريخ الفلسفة من سقراط الى مابعد الحداثة . كنوز للنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١١ .
٩٠	سارتون ، جورج ، تاريخ العلم . ج١ ، تر ، مجموعة من المفكرين العرب ، القاهرة ، ١٩٦٣.
٩١	سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي . تر ، حسن جلال العروسي ، دار المعارف بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٧١ .
٩٢	سبنسر ، ليود ، كروز ، اندرزيجي ، عصر التنوير . تر ، امام عبد الفتاح امام ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
٩٣	سترومبرج ، رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث . ١٩٠١ . ١٩٧٧ ، تر، احمد الشيباني ، ط ٣ ، دار العربي ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
٩٤	ستيس ، ولتر، فلسفة هيغل ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مجلدين ،ط٢ ، دار التنوير للطباعة ، بيروت ،١٩٨٢ .
٩٥	سدني، هوك ، البطل في التاريخ ، ترجمة مروان الجابري ، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٥٩.
٩٦	سعفان ، حسن شحاته ، مجلة تراث الإنسانية . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع ، مطابع كوستا نوماس ، المجلد الاول ، القاهرة ، (ب،ت) .
٩٧	السماك ، محمد أزهر سعيد وآخرون ،أصول البحث العلمي . مطبعة جامعة صلاح الدين ، ط٣ ، (ب،م) ، ١٩٨٩ .
٩٨	شاتليه، فرانسو ، هيجل ،.منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط٢،

دمشق، ١٩٧٦.	
الشكرجي ، جعفر ، الفن والأخلاق في فلسفة الجمال ، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، دمشق ،٢٠٠٢.	٩٩
الشكرجي ، جعفر ، السببية التاريخية في الفكر الغربي من اوغسطين الى هيجل ، بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس ، المجلد الثاني ، ط١ ، ٢٠١١ .	١٠٠
شوفاليه ، جان جاك ، أمهات الكتب السياسية من مكيافللي الى ايامنا ، ج١ ، تر ، جورج صدقني ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٨٠ .	١٠١
شيا ، محمد ، مناهج التفكير وقواعد البحث في العلوم الانسانية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠٠٨ .	١٠٢
شيفاليه ، جان جاك ، المؤلفات السياسية الكبرى من مكيافللي إلى أيامنا ، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر ،(ب،ط) ، بيروت ، 1980 .	١٠٣
صابر ، فاطمة عوض ، خفاجة ، ميرفت علي ، اسس ومباديء البحث العلمي . مكتب ومطبعة الاشعاع الفنية ، ط١ ، الاسكندرية ، ٢٠٠٢ .	١٠٤
صبحي ، احمد محمود ، في فلسفة التاريخ .دار النهضة العربية ، (ب،ط) ،(ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٤ .	١٠٥
صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب اللبناني ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٢ ،	١٠٦
صلیبیا ، جميل ، المعجم الفلسفي . الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب اللبناني ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٢ .	١٠٧
طباجة ، عبد الامير ، منهجية البحث تقنيات ومناهج . دار الهادي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧.	١٠٨
طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة ، دار الطلبة للطباعة والنشر ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٧.	١٠٩
طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة ، دار الطلبة للطباعة والنشر ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٧.	١١٠
الطعان ، عبد الرضا ، تاريخ الفكر السياسي ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٩٢.	١١١
طه ، عبد الواحد ذنون ، اصول البحث التاريخي . المدار الإسلامي ، ط١ ، بيروت ٢٠٠٤.	١١٢
طه ، عبد الواحد ذنون ، دراسات أندلسية ، المجموعة الأولى ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، (ب،ط) ،الموصل ، ١٩٨٦ .	١١٣
الطويل ، توفيق ، اسس الفلسفة . مكتبة النهضة المصرية ، ط٢٠١٠ ، القاهرة ، ٢٠١٠ .	١١٤
عامل ، مهدي ، في عملية الفكر الخلدوني ، دار الفارابي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٤ ، بيروت ، ٢٠٠٦ .	١١٥
عبد الجبار ، عبد مصطفى ، الفكر السياسي الوسيط والحديث . دار الكتب للطباعة والنشر ، ط١ ، جامعة الموصل ، ١٩٨٢ .	١١٦
عبد الحميد ، صائب ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين ، الغدير للدراسات والنشر ، ط١، بيروت ، ٢٠٠١.	١١٧

١١٨	عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . دار الهادي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧.
١١٩	عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي .دار الهادي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧ .
١٢٠	عبد المعطي ، علي ، الفكر السياسي الغربي . دار الجامعات المصرية ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٥.
١٢١	عبيدان ، يوسف محمد ، مبادئ العلوم السياسية . مطبعة جامعة قطر ، ط٢ ، قطر ، ١٩٩٦ .
١٢٢	عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي . دار المعارف ، ط٩ ، القاهرة ، ٢٠٠٧ .
١٢٣	العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الجغرافية بين ابن خلدون و مونتسكيو . دار رسلان ، ط١، دمشق ، ٢٠٠٩.
١٢٤	العروي ، عبد الله ، مفهوم التاريخ ، ، المركز الثقافي العربي للطباعة ، ط٤ ، الدار البيضاء ،٢٠٠٠.
١٢٥	العروي ، عبد الله ، مفهوم التاريخ . المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط٤ ، المغرب ، ٢٠٠٥ .
١٢٦	العزاوي ، رحاب عبد الرحمن ، الدولة بين هيجل وماركس ، دراسة تحليلية مقارنة . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٦.
١٢٧	العلوي ، نهاوند علي ، فلسفة التاريخ من منظور فكر غربي معاصر دراسة لـ كارل بوبر وفوكوياما وهنتنغتون ، العولمة وتأثيرها في العالم العربي . رسالة ماجستير ، مخطوطة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥.
١٢٨	عناني ، محمد زكريا ، رمضان ، سعيده محمد ، في مناهج البحث وتحقيق النصوص . دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٩ .
١٢٩	غنيمة ، حارث يوسف ، البروتستانت والانجليون في العراق ، مطبعة الناشر المكتبي ، (ب،ط) ، بغداد ، ١٩٩٨.
١٣٠	فرحان ، محمد جلوب ، الفيلسوف والتاريخ . مطابع جامعة الموصل ، (ب،ط) ، ١٩٨٧ .
١٣١	فروخ ،عمر ، كلمة في تعليل التاريخ . دار العلم للملايين ، ط٣، بيروت ، ١٩٧٧.
١٣٢	فشر، هربرت ، تاريخ أوروبا الحديث ، ترجمة ، احمد نجيب هاشم ، وديع الضبع ، دار المعارف ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
١٣٣	فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار . تر ، هنربيت عبودي ، دار الطليعة ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ص٥٥ .
١٣٤	فولغين ، ف ، فلسفة الأنوار ، ترجمة : هنربيت عبودي ، دار الطلبة للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بيروت، ٢٠٠٦.
١٣٥	فياض ، عبد الله ، التاريخ فكرة ومنهجا ، دراسة في التاريخ واصول بحثه . مطبعة اسد ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٧٧ .
١٣٦	قربان ، ملحم . قضايا الفكر السياسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٢.
١٣٧	قسوم ، عبد الرزاق ، منهجية كتابة التاريخ . مجلة المعهد ، السنة الأولى ، العدد الأول ، معهد الدراسات العربية والإسلامية ، لندن ، ١٩٩٩
١٣٨	قنصوة ، صلاح ، فلسفة العلم . دار التنوير للطباعة والنشر ، (ب،ط)، بيروت

	، ٢٠٠٨، .
١٣٩	كار ، ادوارد ، ماهو التاريخ ،. تر ، ماهر الكيلاني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٣، بيروت ، ١٩٨٦ .
١٤٠	كامل ، فؤاد ، واخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة . دار العلم ، (ب،ط) ، بيروت ، (ب،ت).
١٤١	كانت ، امانول ، نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي . تر ، عبد الرحمن بدوي في كتابه النقد التاريخي . وكالة المطبوعات ، ط٤ ، الكويت ، ١٩٨١ .
١٤٢	كانت ، امانوئيل ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق . ترجمه وقدم له ، عبد الغفار مكاوي ، راجعه ، عبد الرحمن بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
١٤٣	الكحلاني ، حسن محمد ، فلسفة التقدم ، دراسات في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ . مكتبة مدبولي ، (ب،ط) ، (ب،م) ، ٢٠٠٣ .
١٤٤	كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة . دار المعارف للطباعة والنشر ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٦٦.
١٤٥	كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث . تر ، نهاد رضا ، منشورات عويدات ، ط٢، بيروت ، ١٩٨٢.
١٤٦	كريم ، زيد عباس ، اسبينوزا الفلسفة الأخلاقية . دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠٠٨.
١٤٧	الكعبي ، محمد سماري ، المكيافللية وأثرها في الفكر السياسي الغربي . دار الفراهيدي للنشر والتوزيع ، ط١ ، بغداد ، ٢٠١٠.
١٤٨	الكعبي ، محمد سماري ، مفهوم السيادة في فلسفة السياسة الغربية الحديثة . مؤتمر الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية ، بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس ، مج٢ ، (ب،ط) ، كلية الآداب ،الجامعة المستنصرية .
١٤٩	كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، الفلسفة الحديثة . تر ، حبيب الشاروني ، محمود سيد احمد ، مراجعة امام عبد الفتاح امام ، المركز القومي للترجمة ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠١٠ .
١٥٠	كوثراني ، وجيه ، تاريخ التأريخ . المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، ط١، بيروت ، ٢٠١٢.
١٥١	كولنجود ، ر .ج ، فكرة التاريخ . تر ، محمد بكير خليل ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، (ب،ط) ، القاهرة ، ٢٠١٢ .
١٥٢	الكيلاني ، مصطفى ، التاريخ والوجود في المتبقي والمندثر . الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٠.
١٥٣	لسنج ، تربية الجنس البشري، ترجمة وتقديم وتعليق ، حسن حنفي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط٢ ، بيروت، ٢٠٠٦.
١٥٤	لوبون ، غوستاف ، فلسفة التاريخ . تر ، عادل زعيتر ، دار المعارف ، (ب،ط) ، مصر ، ١٩٥٤.
١٥٥	لوبيز ، فردريك ، الدروس الاولى في الفلسفة . تر ، علي بو ملحم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٩.
١٥٦	لوفيفر ، هنري ، ما الحداثة . دار ابن رشد للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٣ .
١٥٧	مبروك ، امل ، الفلسفة الحديثة ، دار التنوير للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠١١ .
١٥٨	متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة ، عرض نقدي . منشورات جامعة بنغازي ،

	(ب،ط)، بنغازي ، ١٩٧٤ .
١٥٩	متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي . دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠٠٠.
١٦٠	مجموعة من المؤلفين ، تاريخ التفكير الاجتماعي . دار المسيرة ، ط١ ، عمان ،٢٠١١ .
١٦١	مجموعة من المؤلفين ، تاريخ الديالكتيك (الفلسفة الكلاسيكية الألمانية) . ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة النشر ، بيروت ، ١٩٨٦ .
١٦٢	المحبشي ، قاسم عبد عوض ، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر ، ارنولد توينبي موضوعا . اطروحة دكتوراه ، (مخطوطة) ، مقدمة الى مجلس كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٤.
١٦٣	مخزوم ، محمد ، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة) ، دار الكتاب اللبناني ،(ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٣
١٦٤	مخزوم ، محمد ، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ .
١٦٥	مدكور ، إبراهيم ، يوسف كرم ، دروس في تاريخ الفلسفة ، دار بيبلون للطباعة ، (ب،ط) ، بيروت ، باريس ، ٢٠٠٧ .
١٦٦	مدكور ، ابرهيم ، كرم ، يوسف ، دروس في تاريخ الفلسفة .دار بيبلون ، (ب،ط) ، باريس ، (ب،ت) .
١٦٧	المزوري ، زاهدة محمد الشيخ ، اركولوجيا فلسفة التاريخ ، المسار التطوري لفلسفة التاريخ . دار ومكتبة البصائر ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١٢ .
١٦٨	المزوري ، زاهدة محمد الشيخ طه ، اركولوجيا فلسفة التاريخ ،المسار التطوري لفلسفة التاريخ .دار ومكتبة البصائر ،(ب،ط) ، بيروت ، (ب،ت) .
١٦٩	معلوف ، لويس ، المنجد في الإعلام . مؤسسة انتشارات دار العلم ، ط٢٦، طهران ، (ب،ت).
١٧٠	الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ . دار الكتب العلمية ، ط١ ، لبنان ، ٢٠٠٧ .
١٧١	الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في فلسفة التاريخ . ابن الأثير للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، جامعة الموصل ، (ب،ت).
١٧٢	الملاح ، هاشم يحيى ، وآخرون ، دراسات في فلسفة التاريخ . دار الكتب للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، جامعة الموصل ، ١٩٨٨ .
١٧٣	مهدي ، غادة عبد الستار ، الاستقراء والاستدلال في الفلسفة الحديثة . رسالة ماجستير (مخطوطة) مقدمة الى مجلس كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١.
١٧٤	مونتسكيو ، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط . تر ، عبد الله العروي ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ٢٠١١.
١٧٥	مونتسكيو ، رسائل فارسية . الرسالة الأولى ، تر ، كمال يونس ، مراجعة ، عبد الحميد الدواخلي ، دار سعاد الصباح ، ط٢ ، الكويت ، ١٩٩٢.
١٧٦	مونتسكيو ، روح الشرائع . تر ، عادل زعيتر ، دار العارف ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
١٧٧	مؤنس ، حسين ، التاريخ والمؤرخون . دار النهضة للطباعة والنشر ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
١٧٨	مؤنس ، حسين ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس . معهد الدراسات الإسلامية ، ط١ ، مدريد ، ١٩٦٧ .

١٧٨	المياح ، علي محمد ، العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا . مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، م٥ ، بغداد ، ١٩٦٩ .
١٧٩	ناجي ، عبد الجبار ، فلسفة التاريخ و النهاية الحتمية للحضارة والدولة ، مؤسسة المعارف للمطبوعات ،ط١، بيروت ، ٢٠٠٨ .
١٨٠	النجار ، جميل موسى ، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية .دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٤.
١٨١	النجار ، جميل موسى ، فلسفة التاريخ ، مباحث نظرية . المكتبة العصرية ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٧ .
١٨٢	النشار ، حسن ، فلسفة التاريخ ، معناها ونشأتها واهم مذاهبها . دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٢ .
١٨٣	نصر ، محمد عبد المعز ، في النظريات والنظم السياسية ، دار النهضة العربية ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٧٣.
١٨٤	نصر الله ، سعدون ، المدخل الى علم التاريخ . دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، .
١٨٥	نصر الله ، سعدون ، المدخل الى علم التاريخ . دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧ .
١٨٦	نصري ، هاني يحيى،منهج البحث العلمي . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت ، ٢٠٠٤.
١٨٧	الهاشمي ، أياد علي ، تاريخ أوربا الحديث ، دار الفكر للطباعة والنشر ،(ب،ط) ، عمان ، ٢٠١٠ .
١٨٨	هربرت ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، تر ، نجيب هاشم ، دار المعارف ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
١٨٩	هرنشو ، ج ، علم التاريخ ، تعريب ، عبد الحميد العبادي ، دار الحداثة ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٨٢.
١٩٠	هوبز ، توماس ،اللفياثان . تر ، ديانا حرب وبشرى صعب ، كلمة المترجم في نهاية الكتاب ، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، ط١ ، ٢٠١١ .
١٩١	هوبزبوم ، أ . ج . دراسات في التاريخ . تر ، عبد الاله النعيمي ، دار المدى للثقافة والنشر ، (ب،ط) ، دمشق ، ٢٠٠٦ .
١٩٢	هوركهايمر ،ماكس ، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية . تر ، محمد علي اليوسفي ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب،ط) ، بيروت ، ٢٠٠٦.
١٩٣	هيبوليت ، جان ، مدخل الى فلسفة التاريخ عند هيجل . تر ، انطون حمصي ، منشورات وزارة الثقافة ، (ب،ط) ، دمشق ، ١٩٧١.
١٩٤	هيجل ، العقل في التاريخ ، مج ١ ، محاضرات في فلسفة التاريخ . تر ، امام عبد الفتاح امام ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت ، ٢٠٠٧ .
١٩٥	هيجل ، في الفرق بين نسق فيشته ونسق شلنج في الفلسفة ، ترجمة وتقديم وتعليق ناجي العولني ، المنظمة العربية للترجمة ،ط١، بيروت . ٢٠٠٧ ، ص١٤ .
١٩٦	هيجل ، مختارات ، ترجمة : الياس مرقص ، دار الطلبة للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، بيروت ، ١٩٧٨.
١٩٧	هيرمان ، آرثر ، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي ، تر ، طلعت الشايب ، تقديم رمضان بسطاويس ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، ط١ ،القاهرة ، ٢٠٠٠.

وهب ، علي ، الجغرافيا البشرية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٦.	١٩٨
وولش ، مدخل لفلسفة التاريخ . تر ، احمد محمود ، مؤسسة سجل العرب ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٢.	١٩٩
وولف ، أ ، عرض تاريخي للفلسفة والعلم . تر ، محمد عبد الواحد خلاف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٣٦ .	٢٠٠
وولف ، أ ، عرض تاريخي للفلسفة والعلم . تر ، محمد عبد الواحد خلاف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٣٦.	٢٠١
ويدجيري ، ألبان ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبي . تر ، عبد العزيز توفيق جاويد ،ج٢ ، الهيئة المصرية للكتاب ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٩٦.	٢٠٢
ويدجيري ، ألبان ، ج، المذاهب الكبرى في تفسير التاريخ . تر ، ذوقان قرقوط ، دار القلم ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٩ .	٢٠٣
يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي ، دار الفكر اللبناني ،(ب،ط) ، بيروت ، ١٩٩٠ .	٢٠٤
يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . دار الفكر اللبناني ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٠ .	٢٠٥

	المصادر الاجنبية
١	Collin, gwood R G ;The idea of History . university,of london , 1946 .
٢	Thomasj , Prentice ;Truth Myth and Symbol , Hall, Englewood Cliffs ,1938.
٣	Ch. apelle ; Hegel et Layeligion . Vol 1 , La problematique . paris ,1964.
٤	Sullivan , John Edward ;Prophets of the west , An Introduction to the Philosophy of History . Holt , Rinehart and Winston . Inc , New York . 1984 .
٥	A. C, Ewing ; Idealism . A.C ritical Survey . London , Methuem and Co . Ltd . Barns and Noble Books , New York , 1974 .
٦	Isaac , Karmic ; Essays in the history of political Thought . Oxford University , Press, London , 1964.

٧	Paul , Edwards ; the encyclopedia of the philosophy . the macmillan and company and yhe Free prees . New York , vol 6 , 1972 .
٨	Hobbes ; Levlathan . Oxford University Press, London , 1947.
٩	Shklar, Judith ; Montesquieu . Oxford University Press, London,1987 .
١٠	Ronald ,b ; The spirit and purpose of Geography,the free press , London , 1960
	albert,ronald; Hobbes , Locke . Montesquieu . and Rousseeau, Oxford UniversityPress , London ,2004 .
١٢	Howse , Robert ; Montesquiu on Commerce . Oxford University Press, London , 1962.
١٣	Macfarlane , Alan ; Montesquieu and the Making of the modern . Oxford University Press , London , 1986.
١٤	Fekete , Bal ; the unknown . intellectual background-Montesqieu - an essay on montesqieeu, Oxford University Press, London ,1974..
١٥	Manicas , peter ; Montesqieu and the Eighteenth . _Century vision of the state, Oxford University Press, London , 1971 .
١٦	Robertson .g.neil ; Constitutional,Rights, foundation Bill of Rights in Action, Oxford University Press, London ,1969 .
١٧	W.H.Dray ; philosophy of History ,The Eacyclopedia of philosophy , V1, Macmillaa ,New York,1964 .

	الدوريات
١	بغورة ، الزواوي ، في النقد الفلسفي . محاولة في تحديد المفهوم ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ٤١ ، العدد ٤ ، الكويت ، ٢٠١٣ .
٢	حسين ، محمد عواد ، صناعة التاريخ . مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، نيسان ، ١٩٧٤ .

٣	الحيدري ، إبراهيم ، منهج ومنهجية الكتابة التاريخية . مجلة المعهد ، معهد الدراسات العربية والإسلامية ، لندن ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ١٩٩٩ .
٤	دورتيه ، جان فرنسوا ، معجم العلوم الإنسانية . تر ، جورج كتورة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٩ .
٥	ديمتري ، اديب ، صناعة التاريخ . مجلة الطليعة ، العدد ٩، بغداد، ١٩٧٠ .
٦	رسول ، محمد رسول ، النقدية الكانتية . افاق عربية ، بغداد ، العدد ٤ ، ١٩٩٧ .
٧	سعفان ، حسن شحاته ، روح الشرائع لمونتسكيو . مجلة تراث الإنسانية . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع ، مطابع كوستا نوماس ، المجلد الاول ، القاهرة ، (ب،ت) .
٨	الشكرجي ، جعفر ، المذهب التاريخي عند مانهايم . مجلة كلية الاداب والتربية ، جامعة قاريونس ، العدد الثاني عشر ، ١٩٨٣ .
٩	قسوم ، عبد الرزاق ، منهجية كتابة التاريخ . مجلة المعهد ، السنة الأولى ، العدد الأول ، معهد الدراسات العربية والإسلامية ، لندن ، ١٩٩٩
١٠	الكعبي ، محمد سماري ، مفهوم السيادة في فلسفة السياسة الغربية الحديثة . مؤتمر الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية ، بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس ، مج٢ ، (ب،ط) ، كلية الآداب ،الجامعة المستنصرية .
١١	المياح ، علي محمد ، العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا . مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، م٥ ، العدد ٢ ، بغداد ، ١٩٦٩ .

	الرسائل والاطاريح .
١	ابو النواعير ، محمد احمد علي ، الفكر الفلسفي السياسي عند ليو شتراوس واثره على المحافظين الجدد في الفكر السياسي الامريكي المعاصر . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠١٢ .
٢	ألسعيدي ، أمبارك عبد الكريم ، مشكلة القوانين التاريخية ، رسالة ماجستير ، مخطوطة ، كلية الآداب والتربية ، جامعة قاريونس ، ١٩٩٦.
٣	التميمي ، حميد فاضل حسن ، الدولة اليهودية في الفكر الإسرائيلي .. أطروحة دكتوراه ، مخطوطة ، جامعة بغداد ، كلية العلوم السياسية ، ٢٠٠٤ .
٤	الجنابي ، حامد عبد الحمزه ، فلسفة التاريخ عند هيجل وإثرها في منهج البحث التاريخي . رسالة ماجستير (مخطوطة) مقدمة الى مجلس كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠١١ .
٥	سبتي ، محمد عودة ، آليات التفكير العقلي للفلسفة الغربيةدراسة نقدية للفلسفة الحديثة والمعاصرة . اطروحة دكتوراه (مخطوطة) ، مقدمة الى مجلس كلية

	الاداب / جامعة الكوفة ، ٢٠٠٤.
٦	الشمري ، سليم عكيش هادي ، فلسفة التاريخ عند اوزوالد اشينجلر . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٤ .
٧	العزاوي ، رحاب عبد الرحمن ، الدولة بين هيجل وماركس ، دراسة تحليلية مقارنة . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٦.
٨	العزاوي ، مهند علي نعمة ، الفلسفة السياسية عند جون لوك . رسالة ماجستير (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠٠٥.
٩	العلوي ، نهاوند علي ، فلسفة التاريخ من منظور فكر غربي معاصر دراسة لـ كارل بوبر وفوكوياما وهنتنغتون ، العولمة وتأثيرها في العالم العربي . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥.
١٠	المحبشي ، قاسم عبد عوض ، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر ، ارنولد توينبي موضوعا . اطروحة دكتوراه ،(مخطوطة) ، مقدمة الى مجلس كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٤.
١١	مهدي ، غادة عبد الستار ، الاستقراء والاستدلال في الفلسفة الحديثة . رسالة ماجستير (مخطوطة) مقدمة الى مجلس كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١.
١٢	النقشبندي ، منى محمد عمر العزي ، القومية والدين عند هيجل وموقف الفكر العربي منها . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١ .
١٣	الهوني ، حنان عبد السلام ، التقدم الحضاري والاخلاقي ، دراسة تحليلية مقارنة في تفسير الحضارة . رسالة ماجستير ، (مخطوطة) ، كلية الاداب ، جامعة قاريونس ، ٢٠٠٤.

ملخص الاطروحة

فلسفة التاريخ النقدية عند مونتسكيو وأثرها في منهج البحث التاريخي

يسعى الباحث ، من خلال العمل بمشروعه ، ان يبين ان المشكلة البحثية لديه ، هي كيف تشكلت النظرية البيئية وحتميتها في التفسير التاريخي عند مونتسكيو ، اي كيف تجلت بعقلانية على الواقع الفعلي . فنحاول ان نبين تلك التجليات في فلسفة مونتسكيو ، الواقعية من خلال انعكاساتها على عادات وتقاليد الشعوب. فعملنا يتكرس في ان الرؤية الجديدة التي حملها مونتسكيو ، كيف تجسدت في منهج جديد في البحث التاريخي . وتبقى مشكلة البحث قائمة لدينا ، فبعد ان توفرت الرؤية والمنهج ، كيف كان التطبيق عنده ، فكانت فلسفة التاريخ عند مونتسكيو ، تعني ان يدرس التاريخ على اسس تحليلية نقدية ، يلتزم فيها المؤرخ بنوع من التفكير التاريخي يمكنه من تمييز وقائع التاريخ ، بناءا على تلك القواعد المنطقية في التحليل والنقد .

وللبحث أهمية بالغة ، في انه يضع امام القارئ ، الفلسفة العلمية والواقعية عند مونتسكيو ، في التاريخ ، ويبين فلسفة التاريخ النقدية عنده ، بعد علمنا انه كان من ممثلي التنوير ، التي تعد مرحلة تحول في تاريخ البشرية لأنها وفرت القراءة الجديدة للتاريخ ، وهذه القراءة ساهمت في التأسيس لفلسفة التاريخ . فنحاول دراسة هذه الفترة الزمنية ذات الأهمية في تشكيل الحضارة الأوروبية من خلال تعرفنا على دور مونتسكيو ، في بنائها ، بل التأسيس لها . وهذا استوجب ضرورة تبيان نمط الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية آنذاك ، والى معرفة تصنيف الحكومات ، والعوائق التي تعترض طريق بناء حرية الانسان ، وأبرزها الاستبداد ، وتتضح أهمية البحث أيضا في ان مونتسكيو ، يقدم لنا انموذجا رائعا عن قراءة واقعية نقدية لأمم تطورت ثم انهارت ، داخل أوروبا وخارجها ، من بحثه عن تلك الأسباب التي أدت إلى النهوض ثم الانهيار .

وان حدود بحثنا هي الثورة العلمية التي انتشرت في عصر النهضة ، وتلك المنجزات العلمية ، التي اضطرت الفلسفة على مواكبتها ، لكي تتحول مادة الفلسفة من القراءات القديمة الى التصورات الجديدة . ومونتسكيو ، عاش عصر النهضة ، ومن عصر النهضة ولد التنوير ، فحدود بحثنا كانت من عصر النهضة العلمية ، ذلك لان سعينا هو ان مونتسكيو ، لم يكن بعيدا عن تأثيرات العصر العلمي وتطوراته ، وتنتهي حدود البحث مع نهاية عصر مونتسكيو ، ودراستنا للفيلسوف (كانت) لأجل التعرف على ابرز النظريات الفلسفية ، التي اهتمت بفلسفة التاريخ والفلسفة العلمية .

واننا نستطيع معرفة الواقعة التاريخية وتجديدها علميا ، ونستطيع صياغة قوانين تساعد على التنبؤ التاريخي في ضوء التجربة العلمية ، وموضوعنا في ذلك هو تبني مونتسكيو ، لهذا المنهج العلمي الذي أنتج لديه الواقعية العلمية والنقدية ، التي ساهمت في تقليص المسافة بين الفيلسوف والمؤرخ ، الفيلسوف برؤيته العلمية الجديدة ، والمؤرخ في تبنيه المنهج التاريخي القديم ، لذلك فأن للفلسفة ، اثر كبير في التأثير في المنهج التاريخي ، وان العلاقة بين المؤرخ والفيلسوف ، هي علاقة ترابطية وتواصلية ، مما يكون إضافة تجعل الرؤية تتطور علميا وتجعل المنهج التاريخي اكثر واقعية ، مما ينتج

الخطاب التاريخي الواقعي ، وجعله اكثر منطقية . ومع النهضة العلمية ، انهارت التصورات القديمة عن التاريخ ، ولم يعد مكان للتصورات القديمة التي تفسر التاريخ على وفق المنهج القديم ، الذي لم يعد يلتقي بالمنهج العلمي الجديد . ان مونتسكيو ، هو رائدا لفلسفة التاريخ النقدية ، فنسعى لإثبات انه ذلك الفيلسوف الذي قرأ التاريخ ، قراءة جديدة ، فأستوجب علينا ان نسميه من كبار المؤرخين ، ذلك لما تركه من نصوص تتعلق بدراسة التاريخ ، وهو من مؤسسي منهج البحث التاريخي ، لانه من الذين أدركوا أهمية العلاقة بين الرؤية والمنهج ، لينطلق الى مرحلة التطبيق ، ليظهر بصورة القارئ والناقد العلمي ، وكذلك قدم الحلول لما ينتقده من وقائع تاريخية وعادات وتقاليد ، وهذا ما اصطلح عليه أصحاب المنهج التاريخي البناء العلمي في التاريخ ، وانه سعى لتطبيق القواعد المتبعة في كتابة البحث التاريخي . ونحن نقدم لهذا الفيلسوف والمؤرخ الكبير ، علينا ان لا نغفل دوره في القانون والسياسة ، فاستنادا لمنهجه العلمي تأسست الكثير من القوانين والدساتير ، واليه ترجع فكرة الفصل بين السلطات ، من خلال روح القوانين ، وقد توسعنا في هذا لنسميه الروح النقدية . اما الحرية فكان لها الكثير من الأهمية في دراساته تاريخ المجتمعات وعاداته وتقاليده ، التي كانت من ضرورات النظرية البيئية بحسبه ، فالحرية ومن يمنحها ، كانت هي الأخرى خاضعة للبيئة وحتميتها في التاريخ ، وعلى خطى مونتسكيو ، في هذا الاتجاه مشى هيجل ، ليصل الى نتيجته النهائية في حكمه على التاريخ ، بانه الوعي بالحرية .

On the footsteps of Montesquieu's methods Hegel followed this trend to reach his final outcome in judging the history as the awareness of freedom.

its effect on Montesquieu and ends with the end Montesquieu era to recognize the most prominent philosophical theories which pays much interest to the philosophy and science history.

In the light of the scientific experiment, we can realize the history reality, scientifically renew it and draft laws assisting on the historical forecasting. Our subject is the adoption of Montesquieu to this scientific method which produces the scientific and reviews reality to him. This kind of reality contributed in reducing the pace between the philosopher and historian. The philosopher with his new scientific vision and the historian by his adoption to the old historical method, therefore philosophy has a great influence over the historical method. The relation by both the philosopher and the historian is an associative and a communicated relationship, which scientifically develop this vision and makes the historical method more real and produces a real historical speech making it more logical.

During the scientific renaissance the old perceptions on the history collapsed and vanished and history no more interpreted by the old method which does not meet with the new scientific method. Montesquieu is considered as a pioneer to the philosophy history reviews ,we are trying to establish that he is a philosopher who has in a good manner has read the history and hence we should call him consider him as one of the senior historian ,who left a great deal of texts related to history and the founder of the history research method for he has recognized the importance of the relationship between both the vision and method to shift to the application stage and appears as a reader and a scientific reviewer and also he presented solutions to the historical realities , customs and traditions he had reviewed .This is how the followers of the historical method call as the scientific construction in the history, and Montesquieu has sought to apply the observed rules in writing the historical research. While introducing this great philosopher and historian ,we should not disregard his important role in the law and politics , for according to his scientific method a great deal of laws and constitutions were drafted and he is the first one who called for the separation between powers through the spirit of law and we expanded further to call him as the spirit reviews .

Montesquieu paid much attention to freedom in his studies to the history of community and its customs and traditions, which was one of the environment theories, according to him. Freedom and who grant it is subject to the environment and its necessity in the history.

Abstract

In this study the researcher is aiming at defining the creation of the environmental theory and its determinism in the historical interpretation by Montesquieu (1689 - 1755. French Philosopher). How this theory was rationally manifested over the actual reality, i.e. showing these manifestations in Montesquieu factual philosophy through their reflections on people customs and traditions. This study focuses on Montesquieu new vision and how this vision was incorporated in a new method in the historical research. Vision and method are both available, however the study problem still exists, for we don't know how he had apply his new method, the philosophy of history by Montesquieu, means that we study history on critical analysis basis, in which the historian is abided to a sort of a historical thought enabling him to distinguish or recognize the historical facts according to these logical rules in analysis and criticism.

This study is of a great importance for it introduces Montesquieu scientific and factual philosophy in studying history, and shows his history philosophy criticism.

Montesquieu was one of the Enlightenment Representatives, which was a turning point in the history of mankind, because it provided a new reading of history and contributed in founding the philosophy of history. We are trying to study this important period of time ,which contributed in establishing the European civilization and revealed Montesquieu role in this regard , therefore there was a necessity to illustrate the political , social and Intellectual life pattern during that period , classification of

governments , obstacles hindering the construction of human freedom ,such as dictatorship .

The importance of this study lies in showing that Montesquieu, presented a perfect model, which presented a real critical reading on nations flourished then vanished inside and outside Europe and the reason behind to the flourish and vanish of those nations.

The limitation of our study is the scientific revolution spread during the European renaissance, and scientific achievements that philosophy had to keep abreast with in order to turn old philosophy from old readings to new scenarios. Montesquieu had witnessed the renaissance era which creates the enlightenment , our study starts from the renaissance era and



University Of Kufa - College of Arts

Department of Philosophy

The Critical Philosophy of History

Of Montesqieu

And its Influence on Histrical methodology

By

Hamid Abdel Hamza Mohammad Ali Al janabi

A dissertadeem submitted to the counsil of College of Arts .University of al – Kufa

As a As a prerequisite for the Degree of Philosophy .

Supervised by :-

Prof. Dr. Hassan Abed Ali Al –Ta,ee **Asst . Prof . Dr. Zeid Abbas Kareem**

2014 1435